مناضلون يساريون

(الجزء الأول)

د. رفعت السعيد

مناضلون يساريون

(الجزء الأول)

تأليف:

د. رفعت السعيد

رقم الإيداع: ٢٤٩٦٤/ ٢٠١٠

الترقيم الدولى: 9-99-5130-977

السعيد، رفعت
مناضلون يساريون
تأليف: د. رفعت السعيد
القاهرة: شركة الأمل للطباعة والنشر ٢٠١٠.
مج ٤٧٢ص؛ ٢٤سم.
تدمك ٩ ٩٩ ٥١٣٠ ٩٧٧ ٩٧٨
رقم الإيداع بدار الكتب ٢٤٩٦٤/ ٢٠١٠
977-5130-99-9
ديوى ٣٥٥,٤

شركة الأمل للطباعة والنشر
١٩ محمد رياض
أرض شريف - عابدين
الإدارة:
(+202) 23904096
فاكس:
(+202) 23952496
e-mail
al_amal@alamalprintshop.com

الطبعة الأولى: 2011

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للمؤلف.

• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابى من المؤلف.

مناضلون يساريون

سوف يتجاهلونك، ثم يسخرون منك، ثم يضطهدونك، ثم يطاردونك ثم يسجنونك، وقد يقتلونك.. ثم تنتصر.

إهـــداء

إلى هؤلاء الذين لم يأتوا بعد
إلى ذاكرة الكتابة من مناضلي اليسار
وكل منهم يستحق ما هو أكثر من مجرد الكتابة فهم راسخون بما قدموا وشما لا يمحى على جسد الوطن.

اعتذار
وهو اعتذار حقيقى

ليس تلاعبا أو ملاعبة للقارئ، ولا هو حيلة لاستدراج القارئ نحو كتابة لا تستحق، بل هو اعتذار حقيقى. اعتذار للقارئ لأننى سأسوق إليه كتابة مدببة كسن إبرة تدمى قارئها كما أدمت كاتبها، كتابة تتضمن إطارات شديدة القسوة لرجال ضحوا بكل شىء فى سبيل المعتقد والمبدأ، وقضوا أجمل سنوات العمر فى تضحيات متصلة وزنازين بشعة، لكنهم عاشوا ورحلوا ثابتين على المبدأ، راغبين فى المزيد من الاحتمال، متمنين أن يبذلوا آخر أنفاس الحياة وهم راسخون فى أحضان فكرة آمنوا بها ووطن أحبوا ترابه ووهبوا حياتهم فداءً لذرة واحدة منه.

ولعلى قاسيت كثيرا وأنا أخفف من وطأة الكتابة على القارئ.. فقد قضيت ليالى مؤرقا إذ يطوف بخيالى وقع سياط التعذيب أو قسوة الزنازين، رغم أننى أدركت بعضا من ذلك، لكن ذلك كله يهون أمام أهوال أخرى لا يحتملها بشر. فهل جرب أحدكم أن يغمض عينيه متخيلا واحدا من هؤلاء المناضلين مقيد الساقين بالحديد واليدين بحبل غليظ وهو مشدود إلى جندى تركى يركب حصانا يمضى خلفه محكوما عليه بالإبعاد من تركيا إلى خارج الحدود ويمضى «الرفيق» مشدوداً خلف حصان أياما وليالى تصل إلى «شهور لا تنتهى». وعندما يذبل الحذاء تحت وطأة الثلوج يستجمع قشا وأحطابا من بين الثلوج ليلف بها قدمين متورمتين، يسير أشهرا يوما بيوم وليلا بليل يتغير الحصان والجندى وهو لا يتغير. وكانت رحلة عودة استغرقت خمس سنوات. ويعود الرجل منتصب القامة حاملا مزيدا من القدرة على العطاء ومصمما على المزيد من النضال دون أى يحكى شيئا عما كان. ولولا إلحاح منى لما نطق محمد دويدار بحرف مما كان. فهل إذا أغمض أحدكم عينيه ووضع نفسه فى الخيال فى موضع محمد دويدار ولو لدقائق خمس بدلا من سنوات خمس هل سيحتمل؟ وهل يستحمل أن يكون بطلا لأسطورة ذارع البحار (عبد الرحمن فضل) الذى

ظل محبوسا على ظهر سفينة عديدا من الأشهر ترفض اليونان إنزاله إلى أرضها، وترفض مصر نزوله إلى بلده بحجة أن الجنسية المصرية قد أسقطت عنه.

أعتذر للقارئ لأننى أقدم له نماذج أسطورية ربما تؤلمه، وربما تذهله لكنها وبالقطع ستشعره بأن كل ما يقول به الآن عن إصرار ونضال وتضحيات هو ضئيل ضئيل إلى جانب هذه التضحيات الأسطورية.

وأعتذر مقدما لكل هؤلاء المناضلين، فما كتبته عنهم أقل بكثير مما يستحقون، ولكن ما حيلتى، فأنت عزيزى القارئ تمر بعينيك على عبارة مثل «قضى فى السجن خمسة عشر عاما» تمر بها سهلة وكأنك تقرأ عبارة «صباح الخير»، قد تدهش وقد ترثى لحال هذا الرجل، ولكن هل أنا وفيت المناضل حقه بهذه العبارة؟ وهل أنت تأملت مغزى سنوات ممتدة من سجن لا ينتهى ولا تنتهى ومعها عذابات وتعذيب بلا إنسانية ولا حتى خلق؟

وهل تأملت معنى أن يخرج الإنسان بعد هذه المحنة متجدد النشاط متحديا نفسه وأسرته، الأم والزوجة والأبناء، ليعود من جديد إلى ذات الساحة النضالية. وما حيلتى إذا كتبت «وعذب تعذيبا شديداً» واكتفيت، فهل لى أن أتطاول على كبرياء المناضل فأصف نظرة التحدى الصامتة والعصى الغيظة والأحذية الضخمة وهى تجترئ على جسده؟ هل أتجاسر فأصف آلام ما بعد التعذيب عندما يغلق باب الزنزانة ويبقى هو رهن الألم المضنى مغمضا عينيه حالماً بوطن أفضل؟

ولعلى لو حاولت أن أفيض فى الوصف لما استطعت، فكيف تصف ألما أو جوعا أو سجنا انفراديا، وبأى ألفاظ يمكنك أن تصف جسدا ممددا على الأسفلت وعشرات العصى تنهال عليه وأحذية تركله وقبضات تتخير الأماكن الأكثر إيذاء والأكثر إيلاما. فأنا وبرغم الإيجاز كنت أشعر بالقلم وكأنه سن إبرة تمضى مغروسة فى لحمى تدميه مع كل حرف، وباختصار أنا لم أستطع. فهل جربت أن تتذوق كلمات بطعم المرارة أو أحرفاً بصوت أنين مكتوم لأن صوت الأنين لا يليق بكرامة المناضل.

* * *

والحقيقة أننى قبل أن أبدأ هذه التجربة كنت أتخيل الأمر ممتعا. أن تستمع لمناضلين يروون لك حكايات قد تبدو مسلية أو باهرة، فإذا بى أجد نفسى وسط دوامات من تضحيات لا تتوقف ورجال ونساء صنعوا من صخر لا تدميه أعتى المطارق، ووجدت نفسى

أتضاءل أمام فرسان ذلك الزمان وأمام سيرتهم ومسيرتهم. ووجدت الكتابة، كل الكتابة بكل مفرداتها وبكل تأويلاتها لا تفى بلحظة عطاء من هؤلاء الرجال.

لكننى برغم ذلك انتزعت من مشاغلى وقتا يكفى لاستعادة مئات من محاضر النقاش وعشرات من المذكرات والذكريات وأوراق كتب وصحف بغير نهاية لأعد هذه الصفحات. ولقاءات امتدت بى إلى بلدان عديدة.

ولست أريد أن أخدع القارئ فأخفى سر تفرغى لهذه الكتابة فى زمن يصعب فيه انتزاع سويعات للتفرغ للكتابة فى التاريخ. سأصارحكم بالحقيقة، فأنا بهذه الصفحات أوجه لوما للجيل اليسارى الجديد الذى لا يدرك قيمة الميراث الذى ورثه. والذى لا يدرك قيمة التضحيات التى جعلت من اليسار والفكر اليسارى وشما على جسد الوطن وليس مجرد مكياج يمكن إزالته، والذى يتصور أن مجرد الصراخ نضال، وأن سويعات فى قسم شرطة تكفى لصفة المناضل، والذى يبعثر مهابة اليسار عبر انفعالات متبادلة ويتعجل فى الاختلاف والإسراع بإدانة الآخر. أو يسارع بامتهان كل ما كان وكل ما سيكون على صفحات الإنترنت والفيس بوك، فلو أن أحدا منهم تأمل هذا الصرح من التضحيات وتأمل نظرة وداع أودعها رفيق لرفاقه وهو يستشهد تحت وطأة التعذيب لخجل من نفسه ومما يفعل.

ولماذا أيضا؟

لأن هذا السجل من التضحيات يجب أن يصان فى حبات العيون، ليس فقط لأنه جزء من تاريخ الوطن وإنما لأنه تراث نضالى تراكم فى ضمير الوطن والشعب وحتى فى شخوص الحكام الذين أجبروا على الانحناء أمام إرادة صلبة تطالب بالديمقراطية وحرية التعبير وحقوق الإنسان وحقوق المرأة وحقوق الأقباط، فقدموا هامشا من ذلك كله ليفتح الباب أمام مزيد من النضال.

ولو أن أحدا من الرافضين لليسار أو المناوئين له أو المتجاسرين على خصومته أدرك أن مجرد قدرته هو على البوح برأيه قد سددت فاتورته مقدما دما وعرقا وسجنا وعذابا واستشهادا من جانب أجيال اليساريين لترفق بنفسه وبنا.

* * *

ولعل من حق القارئ أن أحدد له عن أى يسار أتحدث، فاليسار فى هذا الكتاب ليس

مجرد أنين مضطهدين لأنهم وهبوا حياتهم وضمائرهم وعقولهم وإبداعاتهم وأجسادهم للوطن والشعب، لكنه حديقة ممتده الأرجاء. فاليسار عندى هو حصاد كل الأزهار التى تفتحت فى سماء الوطن وأشرقت على عقول مواطنيه من نداءات وكتابات وإبداعات ليبرالية وعقلانية وعلمانية، وهو انتماء جرى تعميده بالدم والعرق لجماهير الفقراء وهو صيحة تحد صرخ بها رفاعة الطهطاوى «الأرض للزارعين». وصاح بها النديم فى جماهير الفلاحين الثائرين ضد «أهل البنوك والأعيان»، وهو كتابات عقلانية فتحت آفاق الفكر أمام المصريين بتحدى السائد والمألوف والحديث الشجاع عن تجديد الفكر الدينى وعن احترام الآخر وعن المساواة الحقيقية بين المرأة والرجل، وبين المسلم والمسيحى، وهو تلك البذور التى جرى إنضاجها فى الأحضان المصرية متحدثة عن الداروينية والليبرالية والاشتراكية والماركسية وحقوق الإنسان وسلام العالم.

وباختصار اليسار عندى هو كل شيء جميل تألق فى سماء مصر، وكل فعل شجاع انتمى إلى شعبها ودفع ثمن هذا الانتماء بسخاء ورضا، وهو صيحة الحق دفاعاً عن الإنسان المصرى الفقير التى تتعالى ولا تتوقف حتى ينال هذا الإنسان المصرى حقوقه كاملة خبزا وحرية وحياة كريمة.

والكتابة المقبلة نسيج يكمل بعضه بعضا، خليط من أحاديث مناضلين وتواضعهم وهم يتحدثون بيسر وسلاسة عما فعلوا وما قدموا وترى نظرتهم خجلى وكأنها تعتذر لأن صاحبها لم يقدم المزيد.. وهل ثمة مزيد؟

ومحاضر نقاش كنت ألح على صاحبها أن يذكر بعضا من معاناته فيأبى لأنه لم يفعل إلا ما وجب. فعندما يفتح خزانة كنوزه يتفجر تواضعا ممزوجا بالزهو بما فعله رفاقه، لكنه يوشك أن ينكر دور نفسه، ألم يقل سبينوزا «إن التواضع وإنكار الذات هو أرقى أشكال الكبرياء»؟

وهناك مذكرات وذكريات، وهناك وثائق قضائية تقدم نماذج من النضال الجماهيرى ومواقع لهذا النضال وأسلوب مواجهة المناضلين للمحققين. وباختصار؛ هناك محاولة لتقديم حصيلة شبة متكاملة لسنوات من البحث أثمرت خمسة مجلدات عن تاريخ النضال الجماعى والحزبى لليسار، وهى دراسة تستحق أن تنتسب لليسار ويستحقها اليسار.

وكان من الضرورى أن نتوقف أمام مفردات هذا النضال ورجاله ونسائه لنقيم لكل

منهم صرحا يستحق أن يتوقف أمامه الدارسون والمناضلون والمريدون ليتذكروهم واحدا واحدا واسما اسما، وليمجدوا ذكراهم فردا فردا، وليزهو الأبناء والأحفاد بما فعل الآباء والأجداد، ولعلى أغفلت كثيرين كثيرين، فما هذه الأسماء إلا نماذج، مجرد نماذج، من مئات وآلاف ضحوا وسجنوا وعذبوا وفقدوا مصدر رزقهم وجاع أطفالهم وهم يواصلون، وبلا كلل، مسيرتهم كى تضىء شمس اليسار هذا الكون وهذا الوطن.

* * *

وأخيرا أقدم اعتذارى للجميع، فما كان هذا الجهد إلا جهد المقل. فهؤلاء المناضلون يستحقون أكثر، بل أكثر بكثير، ولعل آخرين يكملون الدرب، ولعل الجزء الثانى يسد بعضا من النقص، فالتاريخ ليس مجرد حكايات وحواديت، لكنه رسالة للحاضر والمستقبل. فلنكمل رسالتنا.

د. رفعت السعيد

القاهرة : ١١ أكتوبر ٢٠١٠

البدايات الأولى

رفاعة الطهطاوى

«إن المنبع الأساسى للثروة هو الكد والعمل»
رفاعة الطهطاوى
(مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية)

إذا كان اليسار هو قوة الدفع الديمقراطية التى تسعى إلى تغيير مجمل الأوضاع فى الوطن نحو ما هو أفضل، وما هو أكثر اتساقا مع العلم والعقل والحضارة، وما هو أكثر تحقيقا لمصالح الطبقات الكادحة.. فبهذا المعنى يكون رفاعة هو أبونا جميعا.

فى حارة ضيقة فى مدينة طهطا اسمها "درب الشيخ" كان أطفال المدينة يلهون بلعبة طريفة، يقف أحدهم فى مدخل الدرب المسدود فى نهايته ويصيح "يا سيدنا الشيخ" وتفتح الشبابيك جميعا، وتطل منها عشرات العمائم واللحى، فنحن هنا فى درب تسكنه أسرة "الأنصار" وهى أسرة تنتسب إلى الأشراف تتيه على المدينة وكل من جاورها بنسبها الممتد إلى الرسول الكريم، والأسرة متمسكة بالتباهى بهذا الشرف، ومن ثم تدفع كل أبنائها إلى تلقى العلم الشريف، وإلى لبس العمامة الخضراء.. العلامة المميزة لآل البيت.

والأنصار هم أخوال الفتى رفاعة الذى أتى إلى دربهم مع أمه بعد أن فقد أبوه التاجر كل ثروته، وتنقل مع زوجته وابنه إلى قنا ثم فرشوط، ثم لا مناص من أن يبقى الطفل مع أخواله كى يأكل ويتعلم.

وعندما كبر الفتى باعت أمه كل ما تبقى من مصوغات لتكفل أجر الرحلة فى المركب الصاعد فى النيل نحو المحروسة ليجاور فى الأزهر.. جنيهان كاملان.

والفتى كان حسن الحظ إذ تلقفه أخواله فعلموه ودفعوه إلى مسار العلم، بدلا من فلاحة الأرض. وكان حسن الحظ إذ تتلمذ على يدى أستاذ مستنير زار روسيا وتركيا وفلسطين ودمشق. ويجلس رفاعة طوال النهار أمام حسن العطار فى منزله القريب من الجامع

الأزهر، بينما الشيخ حسن ينتقد انكباب علماء الأزهر على العلوم الفقهية وحدها، داعيا تلاميذه إلى تعلم العلوم الحديثة، والشيخ العطار خالط علماء الحملة الفرنسية، وأعجب بما قدموه من معرفة علمية راقية، وأدرك أن هذا هو سر تقدم دولة الفرنساوية، وظل يردد دوما عبارة حفظها عنه كل تلاميذه: "إن بلادنا لا بد وأن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها".

وبعد عدة سنوات يكون رفاعة قادرا على التعبير عن هذه النزعة بصورة صريحة وواضحة وحاسمة: "إن المعارف الآن سائرة بسيرة مستجدة فى نظريات العلوم والفنون الصناعية التى هى جديرة بأن تسمى بالحكمة العملية، والطرق المعاشية، ومع ذلك فلم يزل التشبث بالعلوم الشرعية والأدبية ومعرفة اللغات والوقوف على معارف كل مملكة ومدينة ضروريا، مما يكسب الديار المصرية المنافع العمومية".

وتأتى الفرصة..

حسن العطار يرشحه للباشا واعظاً للبعثة المسافرة إلى باريس. ويجلس إلى شيخه يتلقى منه آخر وصاياه بأن يتعلم ويتعلم ويتعلم.

وباريس التى شهدها رفاعة الطهطاوى وعاش فى غمارها، هى باريس الحبلى بالثورة، والتى تموج بالحركات الثورية من كل صنف ومن كل بلد أوروبى. وهكذا امتزج التعليم الدينى البحت الذى تلقاه على يد أخواله فى «درب الشيخ»، مع أفكار الشيخ المستنير حسن العطار، ومع إرهاصات الثورة الأوربية المتفجرة التى اتخذت من باريس نقطة ارتكاز لها.

ومن خلال النقاش الهادئ مع مشايخ الأنصار، والجدل العاصف فى أروقة الأزهر، والصراع الطبقى فى شوارع باريس.. ولد رفاعة الطهطاوى.

ولعل أهم ما ميز رفاعة أنه رأى وسمع وقرأ وتعلم بروح انتقادية، فلم يبهر بما قاله الفرنجة لمجرد أنهم أكثر تقدما، بل أعمل العقل وتأمل ما هو مفيد لمصر من أفكاره وتمسك بها متخلصا من كل ما عداها.

فهو يقول فى تأكيد صارم: "لو أننى اتبعت كل ما قاله الإفرنج، ووافقت آراءهم للحياء أو غيره، لكان ذلك محض موالسة".

وهكذا فإن رفاعة عاش فى أروقة الأزهر متطلعا إلى المعارف الحديثة، وعاش فى

باريس متمسكا بالتقاليد المصرية أو ما يراه مناسبا منها، «فالتمدن ليس فى زينة الملابس بعرف مجهول متخيل استحسانه، لا سيما إذا كان لا يمكن لمن تزيا به إحسانه، فحاجة الوطن إلى المتعة الحقيقية أشد من حاجته إلى تقليد العرف الذى هو منفعة ظاهرية".

وباختصار لقد ذهب رفاعة إلى باريس مصريا وعاد أكثر تمسكا بمصريته، "فالبركة فى هذه الدنيا قسمت إلى عشرة أقسام، اختصت مصر بتسعة منها".

بل إن أساتذته فى فرنسا حاولوا إقناعه بأن "منافع مصر تقع موضع التحقيق لو دامت هذه المملكة فى قبضة الفرنساوية" لكن رفاعة يرفض ذلك بحسم، مؤكدا أن هذا القول "مبنى على شبهة واهية. وهى أن مصر يسوغ أن تصلحها فرنسا أو أى مملكة تكون لها مضاهية».

ويعود رفاعة من باريس، كما يقول أحد تلاميذه صالح بك مجدى فى كتابه "حليه الزمن فى مناقب خادم الوطن رفاعة بك رافع، ومصباح الغرب بإحدى يديه، ومفتاح الشرق باليد الأخرى".

التعليم، الترجمة، الاستنارة، الروح الوطنية ومحبة الوطن، تعلم اللغات الأجنبية، نشر الصناعة والفنون، كانت هذه جميعا هى معركة رفاعة الأولى بعد عودته.

وتتحول "مدرسة الألسن" تحت نظارته إلى مصنع لجيل كامل من المثقفين المصريين، الذين ترجموا عشرات من الكتب فى مختلف الفنون والعلوم، وترقوا فى سلك الوظائف فقادوا عملية بناء المجتمع المدنى الحديث فى مصر.

والتعليم عند رفاعة "يجب أن يكون عاما لجميع الناس يتمتع به الأغنياء والفقراء على حد سواء، فهو ضرورى لسائر الناس، يحتاج إليه كل إنسان كاحتياجه إلى الخبز والماء".

وهو ينعى شيوخ الأزهر أنهم لا يسعون "إلى المعرفة فى سائر المعارف البشرية المدنية، التى لها مدخل فى تقدم الوطن".

وهو يعلم المصريين محبة وطنهم مؤكدا أن "حب الوطن من الإيمان"، ويدافع عن تراث مصر وآثارها، ويدعو لتحرير المرأة مؤكدا ضرورة تعليم المرأة، ويصدر كتابا كاملا عنوانه "المرشد الأمين فى تعليم البنات والبنين". وهو يتحدث عن محاولة فرض الحجاب على المرأة قائلا: "إن وقوع اللخبطة بالنسبة لعفة النساء لا يأتى من كشفهن أو سترهن، بل ينشأ ذلك من التربية الجيدة أو الخسيسة، والتعود على محبة واحد دون غيره، وعدم التشريك فى المحبة".

ويدافع عن حق المرأة فى العمل، "فكل ما تطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن، وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة، فإن فراغ أيديهن من العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل وقلوبهن بالأهواء، إن العمل يصون المرأة ويقربها من الفضيلة".

ويمجد رفاعة الطهطاوى الحرية، "الحرية هى الوسيلة العظمى فى إسعاد أهالى الممالك، فإذا كانت مبنية على قوانين حسنة عدلية كانت واسطة عظمى فى راحة الأهالى، وإسعادهم فى بلادهم، وكانت سببا فى حبهم لأوطانهم"، و"الحرية قرينة المساواة فكلتاهما ملازمة للعدل والإحسان"، وأيضا "فالتسوية فى الحقوق ليست إلا عبارة عن تمكن الإنسان شرعا من فعل أو نيل أو منع جميع ما يمكن لسواه من إخوانه أن يفعله أو يناله أو يمنع منه شرعا".

والرأى العام.. إيقاظه، حشده، فعاليته.. هو السبيل لضمان الحرية والمساواة "فإنه مما يحمل الملوك على العدل ويحاسبهم محاسبة معنوية، الرأى العمومى، أى رأى عموم أهل ممالكهم أو ممالك غيرهم ممن جاورهم من الممالك.. فإن الملوك يستحون من اللوم العمومى، فالرأى العمومى سلطان قاهر على قلوب الملوك والأكابر، لا يتساهل فى حكمه، ولا يهزل فى قضائه، فويل لمن نفرت منه القلوب، واشتهر بين العموم بما يفضحه من العيوب".

وهو يترجم الدستور الفرنسى ويلقن مواده لتلاميذه.

مادة ١: "سائر الفرنساوية متساوون قدام الشريعة".

م٣: "كل واحد منهم متأهل لأخذ أى منصب كان أو أية رتبة كانت".

م٤: "ذات كل واحد منهم مستقل بها ويضمن لها حريتها".

وهو أيضا يدافع عن الجمهورية فيقول: "إن الصراع فى فرنسا يدور بين الملكيين والجمهوريين، والملكية أكثرهم من القسوس وأتباعهم، وأكثر الحريين (أى دعاة الحرية) من الفلاسفة والعلماء والحكماء وأغلب الرعية، والفرقة الأولى تحاول إعانة الملك، والأخرى تحاول إضعافه وإعانة الرعية، ومن الفرقة الثانية طائفة عظيمة تريد أن يكون الحكم بالكلية للرعية ولا حاجة إلى ملك أصلا.. ولكن لما كانت الرعية لا تصلح أن تكون حاكمة ومحكومة وجب أن توكل عنها من تختاره منها للحكم، وهذا هو حكم الجمهورية".

هكذا يواصل رفاعة معركة العلم والعقل، الاستنارة والجمهورية.

لكنه لا يكتفى..

لكن الأمر لم يكن بمثل هذه البساطة، فهو ليس مواجها فقط بمحمد على بكل تسلطه وجبروته، لكنه مواجه أيضا بحالة من التخلف توشك أن تطمس أشياء كثيرة، منها الإحساس الوطنى ذاته.

ويصيح رفاعة فى المصريين:

يـــــا صـــــاح حب الـــــوطن
حـــلـــيـــة كل فـــطـن
فـــمـــحـــبـــة الأوطـــان
مـن شــــعــب الإيمـــــان

ويصيح أيضا:

مـــال المـــصـــرى كـــذا دمه
مـــبـــذول فى شـــرف الـــوطن
تـــفـــديه الـــعـــين بـــنـــاظـــرهـــا
والـــنـــفس بـــخـــيـــر نخـــائـــرهـــا

بل هو يترجم نشيد المارسيليز، مضيفا إليه مسحة مصرية تعبر عن الآلام التى تعانى منها مصر والمصريون:

وكـــيف يـــســـوغ أن نـــرضى رعـــاعـــا
من الأغـــراب يـــبـــغـــون ارتـــفـــاعـــا
إلـــهى كـــيف يـــحـــكـــمـــنـــا مـــلـــوك
بـــســـبل الـــعـــدل لـــيس لـــهم ســـلـــوك

ولكن أى مستقبل يريد رفاعة لهذا الوطن؟

"فما يسمونه الحرية ويرغبون فيه هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل والإنصاف، ذلك أن معنى الحكم بالحرية هو إقامة التساوى فى الأحكام والقوانين بحيث لا يجور الحاكم على إنسان".

والفضائل لها أساس واحد "هو العدل العمومى والإنصاف المشترك بين أعضاء الجمعية (المجتمع)"، وإذا كان هناك تقدم ما فى عملية الإنتاج، وخاصة فى الزراعة، فإن رفاعة يؤكد: "أن المقتطف لثمار هذه التحسينات الزراعية، المجتنى لفوائد هذه الإصلاحات

الفلاحية الناتجة فى الغالب عن العمل واستعمال القوى الآلية، والمحتكر لمحصولاتها الإيرادية إنما هو طائفة الملاك.. فهم من دون أهل الحرف الزراعية يتمتعون بأعظم مزية، فأرباب الأراضى والمزارع هم المغتنمون لنتائجها العمومية والمتحصلون على فوائدها، حتى لا يكاد يكون لغيرهم شيء من محصولاتها له وقع".

بل هو يقتحم موضوعاً حساساً هو كيفية تولد القيمة ويقول: «لقد اختلف هل منبع الغنى والثروة، وأساس الخير والرزق هو الأرض، وإنما الشغل مجرد آلة وواسطة لا قيمة له إلا بتطبيقه على الفلاحة، أو أن الشغل هو أساس الغنى والسعادة ومنبع الأموال المستفادة، وأنه هو الأصل الأولى للملة والأمة.. فالفضل للعمل أما فضل الأرض فثانوى تبعى، وهذا هو ما يعتمده أهل الفلاحة ويستدلون على ذلك بأنه لا يمكن إيجاد الخصب فى الأرض إلا بدوام الشغل واستمرار العمل، وإلا لبقيت مجدبة.. فإن الشغل يعطى قيمة لجميع الأشياء التى ليست متقومة بدونه». ويقول: "لو زرعنا أرضا خصبة وميزنا ما يمكن أن ينسب من إيرادها للعمل، وما ينسب للخصوبة منه، وفرزنا كلاً على حدة وجدنا محصول العمل أقوى من محصول الخصوبة".

ثم هو يلخص فكرته فى مقولتين أكاد أجد نفسى مضطرا إلى مقارنتهما بعبارات مماثلة لكارل ماركس، تقول المقولتان:

«إن المنبع الأولى للسعادة (الثروة) هو العمل والكد».

«إن قيمة العمل مجسمة للمصنوعات والمشغولات».

ويواصل رفاعة دفاعه عن العمال وانتقاده لمسلك الأغنياء قائلا: "إن الملاك فى العادة تتمتع بالمتحصل من العمل ولا تدفع نظير العمل الجسيم إلا المقدار اليسير الذى لا يكافئ العمل، فما يصل إلى العمال فى نظير عملهم فى المزارع، وإلى صناع الآلات فى اصطناعهم لها هو شيء قليل بالنسبة للمقدار الجسيم العائد إلى الملاك، فإن المالك يستوفى لنفسه أكثر محصول الأرض ولا يعطى لأرباب الأعمال والأشغال منها إلا قدراً يسيراً، ولا ينظر إلى كون بعض العمال هو الذى حسن الزراعة بشغله، واختراع طرائق منتجة، والذى مكن الملاك من ذلك هو حق التملك ووضع اليد على المزارع بما يسوغ للملاك أن يتصرفوا فى عمليات أملاكهم التصرف التام، وان يعطوا للعمال بقدر ما يظنون أنه من لياقتهم، ويعتقد المالكون أنهم أرباب استحقاق عظيم بسبب التملك، وأنهم الأولى بالسعادة

والغنى، وأن من عداهم من أهل المملكة لا يستحق من محصول الأرض شيئا إلا فى مقابل خدمته المأمور بإجرائها، فيترتب على هذا أن كل من يريد العيش من الأهالى يصير مضطرا، لأن يخدم مقابل القدر الذى يتيسر له أخذه من الملاك بحسب رضائهم، ولو كان هذا القدر يسيرا جدا ولا يساوى العمل"، ولعل هذا يكفى لإيضاح الموقف الطبقى عند رفاعة (فقط لنتذكر عبارات مماثلة لكارل ماركس). بل هو يواصل وكأنه ينقل عنه نصا "فإذا وجد بالجهة الكثير من الشغالين فإنهم يتناقصون فى الأجرة، ويتنافسون فى ذلك لمصلحة صاحب الأرض، فلا يمكن أن يكون ذلك التحسن والزيادة والخصب إلا بالعمليات الفلاحية الصادرة من هؤلاء الأجرية الذين تناقصت أجرتهم".

ثم هو يبسط هذه الأفكار ويصوغها شعرا يحفظه تلاميذ المدراس، فى كتاب ألفه وقرره عليهم أسماه "تعريب الأمثال فى تأديب الأطفال" ويقول:

من رام نظمه بسلك السعدا
فليسعد الناس ليبقى مسعدا
يحب مثل ما له لغيره
يعطى أخاه جانبا من خيره

ولم يمهل الوشاة رفاعة طويلا فكتبوا للخديوى أن رفاعة "يردد أفكاراً تهيج الرعية وتحضها على التمرد وعدم إطاعة الحاكم طاعة مطلقة".

وينفى رفاعة إلى السودان بصفة «خوجة» أى مدرس.

وتسجن كتبه فى مخازن الحكومة، ويمنع تداولها.

لكن عبق الاستنارة يبقى.

ويبقى مع تلاميذ رفاعة الذين أجهد نفسه فى تعليمهم، تاركا لمصر جيلا كاملا من المثقفين العصريين الذين واصلوا معركة بناء مصر الحديثة ومجتمعها المدنى.

عبد الله النديم

«كنت كلما نبهت عاقلا أسكتنى، فإذا ألححت عليه أنبنى وبكتنى، فلم أجد طريقا لتنبيه الوجهاء
والأمراء إلا بعصبة أكونها من الفقراء»
عبد الله النديم

الأب "مصباح" فلاح من الشرقية، أتى إلى الإسكندرية ليعمل فى ترسانتها على عهد محمد على، لكن الغرب يتدخل، ويوجه ضربة إلى حكم محمد على، وتغلق الترسانة، ولا يعود مصباح إلى قريته، ويبقى فى الإسكندرية ليعمل خبازا.

والابن عبد الله يتعلم القراءة والكتابة فى كتاب المنشية ويبدى ذكاء فطريا، وقدرة على الحفظ، فيوصى سيدنا الشيخ أباه بأن يهب ابنه للعلم الشريف، وينتظم الفتى فى مدرسة "الجامع الأنور" فى حى المنشية، لكنه لا يلبث أن يتمرد على نسق التعليم الجاف والسلفى الذى يستغنى عن إعمال العقل، أبوه يصمم على أن يواصل، وهو لا يحتمل، وتمرد الفتى على الأب والمدرسة معا.

وكان من بين أساتذته فى مدرسة «الجامع الأنور» شيخ يحب الشعر والفكاهة، اكتشف مواهب عبد الله مبكرا وصار يصطحبه إلى مجالس الشعراء والزجالين بكل ما يغمرها من فكر وفن وفكاهة وسعة أفق، وانطلق "عبد الله" واكتسب لقب النديم من تفوقه على كل الندماء الآخرين فى مجالس الشعر والسمر والفكاهة. ثم أتى إلى القاهرة ليلتحق بوظيفة عامل تلغراف فى القصر الخديوى، وفى القاهرة يلتقى بجمال الدين الأفغانى، لتتحول الطاقة الفنية والموهبة الشعرية وروح الدعابة القاسية والماكرة إلى أدوات فى معركة الوطن والشعب.

جلس الفتى المشاغب المفعم بروح التهكم على الجميع، إلى أستاذه الصارم الملامح،

الجاف الكلمات، المحدد المعانى، وتعلم منه أسرار الصراع ضد الطغاة والدفاع عن الوطن والحرية.

وبدأت كلمات النديم تعيد صياغة نفسها لتصبح مثل: "الاستبداد فى عنفوانه، والظلم قابض على صولجانه، ويد الظلم حديد، والناس كلهم عبيد وأى عبيد".

ويمضى مع الأفغانى فى تأسيس جماعة "مصر الفتاة" لكن الأفغانى يتعامل مع ولى العهد "توفيق" ويستقطب إلى مجالسه كبار الأعيان الطامحين إلى المشاركة فى الحكم.. والنديم يستشعر حقدا على هؤلاء الأعيان، زملائه فى مجالس الأفغانى، ويستشعر ميلا نحو الغائبين عن هذه المجالس حضوراً والغائبين عنها فكراً وتوجهًا؛ أى الفقراء.

ويحاول النديم أن يقنعهم بالتحول نحو الشعب الفقير لينصروه ويقول: "كنت كلما نبهت عاقلا أسكتنى، فإذا ألححت عليه أنبنى وبكتنى".

وينفصل النديم عن الجمعية بأعيانها وخططها الهادئة معلنا: "فلم أجد طريقا لتنبيه الوجهاء والأمراء، إلا بعصبة أكونها من الفقراء".

وانغمس النديم فى الكتابة الصحفية، مغرقا الصحف بمقالات نارية، "وفى تأسيس جمعيات أهلية، تسعى فيما يعود على الوطن وأهله بالمنفعة الحقيقية"، وحتى يتجنب خوف الناس من المشاركة معه. أعلن أن «هذه الجمعيات ستكون مكرسة للنفع العام وبعيدة عن السياسة، وانغمست هذه الجمعيات فى تأسيس المدراس، لتعليم البنين والبنات من أبناء الفقراء بالمجان، وبمصروفات لأبناء القادرين».

وفى حفل افتتاح أولى مدارس جمعية المقاصد الخيرية بالإسكندرية وقف النديم خطيبا، متحدثا عن دور مدارسه فى تكريس الوحدة الوطنية قائلا: "إن المدرسة تعلم الأطفال الأخوة فى الوطن، وتبعدهم عن التعصب للدين أو العنصر وتنشئهم على الوطنية وحب الإنسانية".

وسريعا يسطع اسم النديم كالشهاب، كواحد من ألمع خطباء زمانه، وأشجعهم وأصبحت الصحف تسميه "خطيب الشرق" و"خادم الإنسانية" و"محيى الوطنية".

وقالت عنه جريدة «التجارة» إنه: "يبث فى الأفئدة الضعيفة أنوار الحمية الوطنية، ويضرم فى النفوس الهامدة نيران الغيرة الوطنية". وانتقل النديم بمشروعه إلى الأقاليم وكتبت الصحف: "لقد قويت هذه العصابة، وتعددت محافل الخطابة، وانتشرت الدعوة فى

البقاع، حتى ملأت القلوب والأسماع، وانفتح باب الجمعيات، ودخلها الناس أفواجا وزرافات".

وفى هذه الأثناء كانت مصر تتململ من غفوتها، وتوشك أن تستيقظ، ويكون العسكريون (أحمد عرابى ورفاقه) هم طليعتها، وينضم إليهم النديم سريعا، ويحدثنا عن موقفه هذا قائلا: "وأعلنت حب العسكر والتعويل عليهم، وناديت بانضمام الجموع إليهم، وأوغلت فى البلاد، ونددت بالاستبداد، وتوسعت فى الكلام، وبينت مثالب الحكام الظلام، لا أعرفهم إلا بالجهلة الأسافل، ولا أبالى بهم وهم ملء المحافل".

وسريعا يلمع اسم النديم، وأفاد حركة العسكريين كثيراً، فكان أداة الإعلام الأساسية التى يستندون إليها، وكان العنصر الحاسم فى حشد الجماهير حولهم.

وقويت حركة الجيش بالنديم، وأصبح واحدا من أقرب المقربين من عرابى، وكان النديم يمتلك موهبة فذة فى القدرة على التوجه للجماهير، وفى القدرة على التعامل معها وكسبها.

وكان السؤال الذى يطرحه أعوان الخديوى وعملاؤه وكبار الملاك المفزوعين من الثورة، من هو أحمد عرابى فى نهاية الأمر؟ هو مجرد واحد من ضباط العسكرية، فكيف يجوز أن يدعى التحدث باسم الأمة؟ وللإجابة عن هذا السؤال، عرض النديم فكرة جمع توقيعات من العمد والعيان وعموم المواطنين يعلنون فيها توكيلهم لعرابى للتحدث نيابة عنهم ورفع مطالبهم. إنها المرة الأولى التى تفعل فيها مصر ذلك.

وتمكن النديم من إقناع عرابى بفكرته، ثم جلس على التو وحرر بخطه صيغة العريضة التى أسميت فى تاريخ مصر "المحضر الوطنى" وفيه «إن الوزارة الرياضية قد ركبت متن الشطط، وعدلت عن الصراط المستقيم، ولم يكن مقصدها مؤديا إلا إلى اضمحلال البلاد وتلاشيها، وإن سكوتنا على ذلك يعد من العجز والتفريط فى وطننا ومقر نشأتنا، فاعلموا يا معاشر الوطنيين أن أولادكم المنتظمين فى سلك الجهادية قد اتكلوا على البارى سبحانه وتعالى، وعزموا على منع كل من شأنه الإجحاف بحقوقكم، فالمطلوب منكم الآن أن توقعوا على الكتابة المرسلة إليكم، المقصود بها أن أكون نائبا عنكم فى كل ما يتعلق بأحوال البلاد..

التوقيع أحمد عرابى»

ويكتب واحد من مؤرخى هذه الفترة: "أخذ النديم يجوب الأقاليم القبلية، والبحرية ويدعو الناس إلى نصرة زعماء العسكرية، وكان النديم قوى الحجة، فصيح اللسان، قوالا،

سهل العبارات، عذب المنطق، مقلقا، مهيجا بذلاقة وقوة حجته وبيانه".

وعاد النديم محملا بمئات الآلاف من التوقيعات استند إليها عرابى ليعلن أنه وكيل للأمة.

وتحاول إنجلترا أن تستخدم نفوذ السلطان العثمانى للضغط على العرابيين، ويرسل السلطان وزيره الشرس درويش باشا ليواجه العرابيين. ويشعر خصوم الثورة بالارتياح ويكتب أحدهم قائلا: "الآن أتاهم درويش باشا القوى، إن نظرة واحدة من هذا الرجل الحديدى كفيلة ببث الذعر فى عرابى وأتباعه، فإن تطاول أحدهم تدحرج رأسه على السجادة بإشارة من الباشا".

ولكن النديم كان يمتلك دائما السلاح الأقوى وهو الجماهير.

ومرة أخرى يجمع التوقيعات، هذه المرة جمع تسعين ألف توقيع، وحشد ألوفا مؤلفة على جانبى الطريق تهتف ضد التدخل العثمانى لصالح الخديوى، وارتعب درويش، وتراجع.

ومن هذا اليوم فصاعدا بدأ النديم يصوغ للجماهير هتافاتها المنغمة التى ظلت تتغنى بها أمداً طويلا، حتى بعد هزيمة الثورة.

يا توفيق يا وش القملة
مين قالك تعمل دى العملة

..

يا عزيز يا عزيز
كبه تاخد الإنجليز

..

يا محنى ديل العصفورة
وجيوشنا هى المنصورة

وبوعى طبقى وفطرة نادرة المثال، عرف النديم قواعد اللعبة، وأدرك أن الأغنياء لن يكونوا أبداً مع ثورة الشعب، وشن النديم هجومه الطبقى شعرا ونثرا، وحرض الجماهير ضد الأغنياء بما أقلقهم وأفزعهم، وبما زاد من التحام الفقراء بالثورة، والتفافهم حولها.

«أهل البنوكا والأطيان

صاروا على الأعيان أعيان
وابن البلد ماشى عريان
ممعاه ولا حق الدخان
شرم برم حالى غلبان».

وكان يسمى الأغنياء فى كتاباته "حمير المال" ويتحدث عن مملكة الثراء فيصفها بأنها "مملكة البهدلة، تحد بالخمور من جهة الغرب، والعاهرات من جهة الشرق، وبالمضلين من جهة الجنوب، والمنحرفين من جهة الشمال".

وعندما يقدم اقتراح باستبعاد غير المتعلمين من عملية الانتخاب، ينهض النديم مدافعا عن حق الفلاحين فى الانتخاب قائلا: "الفلاح هو صاحب المصلحة الحقيقية فى البلاد، والفلاحون هم الأغلبية العظمى وهم أدرى بمشكلاتهم".

وهو يتحدث عن الأغنياء قائلا: "إن ابن الغنى مولع بالاستبداد والاستعباد، فهو يميل إلى استخدام الفقراء بلا مقابل، وضرب الضعفاء من غير أن يعارض أو يحاكم وهذا بعينه هو الاستعباد المضر بالشعب"، "وإن كان أبوه من حكام البلاد، فإنه قد أدرك الثروة بنهب الفلاح وظلمه، فإن أغلب الحكام متسلطون على المحكومين تسليط الهواء على النار، يضربون ويحبسون وينهبون. ومن كانت هذه أفعال أبيه، كان بعيدا عن الحق، أجنبيا عن الإنصاف، ولا يميل للمساواة، ولا يعترف للفقير بحق معه فى الوجود".

ويكتب النديم موجها حديثه للمالك: "تعال فانظر إلى سلم رفعتك، ومعدن حياتك، ونبع ثروتك، أخيك – أستغفر الله – خادمك، انظر إلى ثوبه المهلهل، ولبدته التى لا تستر يافوخه، ورغيفه الذى لا تكسره قوتك، ومشه الذى تعاف النظر إليه، وارقبه وهو يسقى الزرع والطين إلى فخذيه، والشمس تشوى وجهه وجسمه، يقطع يومه فى عذاب وعمل.. وهو صاحب الفضل عليك، وأنت لا تنظره إلا بعين المقت، ولا تعامله إلا بيد الإهانة ولسان السب مستقبحا صورة عنونت بفلاح".

وتلهب هذه الكلمات مشاعر المصريين، وتحرك الفلاحون فى أكثر من قرية يصادرون أراضى كبار الملاك الأتراك، وكمبيالات الديون من المرابين الأجانب، ويقيمون مهرجانات لإحراقها.

لقد نجح النديم فى إكساب الثورة مضمونها الشعبى، وما إن التفت جماهير الفقراء

حول الثورة حتى أكسبتها مضمونها الطبقى.

وكان النديم حريصا على أن يؤكد لكل مصرى أن الثورة تقوم لصالحه، وأن انضمامه إليها هو لتحقيق مصلحته وكان يؤكد دائما: "إذا كنت حقا تحب وطنك، فيجب أن تؤيد الحركة الوطنية التى قامت لتحصل لك على حقوقك كإنسان، ومن ثم تحس أن وطنك ملك لك أنت".

ولكن النديم كان يدرك تعقيدات العمل الوطنى، ولهذا فقد حرص على أن يوجه حركة الفلاحين ضد الملاك الأتراك والمرابين الأجانب، محاولا أن يوحد صفوف المصريين.

ويرسل مستر كارترايت نائِب القنصل الإنجليزى برقية عاجلة فى ٢٦ يونيو ١٨٨٢ يقول فيها: "إن الفلاحين يهاجمون الأجانب وينتزعون منهم الكمبيالات التى تثبت ما عليهم من ديون»، ويقول: "إن خبرا رسميا ورد من الحكومة يقول إن هناك فى ناحية بنها قتيل يونانى، وإن الباعث على قتله هو تمنعه من إعطاء الفلاحين سنداتهم التى له بمقتضاها دين عليهم واجب الأداء".

ويروى سليم خليل نقاش فى كتابه "مصر للمصريين": "طلب عرابى معونات من الشعب للجيش على أن تخصم من الضرائب المستحقة عليهم"، وكان المشايخ يظلمون أصحاب الأبعاديات من الأتراك والشراكسة ومن ينتمى إليهم، وكان بعض المشايخ يقول للمعتذر أو طالب المهلة: هل أتيت من تركيا بلادك بأطيان؟ إنما هذه أطيان القطر، ونحن أبناء القطر لا يحق لغيرنا أن ينتفع بها، لقد أتيتمونا فقراء لا تملكون أرضا ولا فلسا، فأصبحتم الآن أصحاب أراض وأملاك تحرموننا من خيرها. وكان بعضهم لا يكتفى بمثل هذا الكلام، بل كانوا يعمدون إلى أرض المالك ويقتسمونها بالفعل قائلين: " هذه القطعة لك وهذه لى"، بل يقولون لصاحبها «اخرج من البلاد كما جئتها، فكان أصحاب الأرض يزدادون خوفا، وحسبانا لبلاء أعظم».

إنها الثورة الشعبية المصرية، صاغ لها النديم قانونها الخاص، ومنحها لهيبها ومذاقها الخاص.

ويخون كبار الملاك الثورة..

ويخونها بعض الضباط..

وينسج المصريون عبارة موحية "الولس هزم عرابى".

ويهرب النديم إلى أحضان شعب أحبه وعشقه، وتفتح له مصر صدرها، وتكون قصة هروبه ملحمة مليئة بالقصص والحكايات التى تؤكد شجاعة الشعب، وقدرته على أن يحمى أحباءه.

وفيما كان النديم يتنقل من قرية لأخرى حط رحاله متنكرا مختبئا فى بيت أحد العمد هو الشيخ محمد الهمشرى عمدة "العتوة القبلية"، بينما قوات الاحتلال تقلب مصر حجراً حجراً بحثا عنه، وتوالت القصص والأساطير عن هربه خارج البلاد، وبلغ الأمر أن كان النديم جالسا فى بيت العمدة وأتى رجل من البندر يهمس فى أذن العمدة أن النديم وصل سالما إلى الأآتانة وصعد إلى المئذنة المقابلة لقصر السلطان وارتفع صوته بالأذان ودعاه السلطان وكرمه.

كانت قوات الاحتلال تجعل جائزة لمن يأتى بالنديم حيا أو ميتا "خمسة آلاف جنيه"، وهى ثروة كبيرة للغاية بمعايير ذلك العصر.

لكن مصر أطبقت جفنها على ابنها الحبيب، ومنحته حماية يستحقها.

وذات يوم دخل مأمور المركز إلى بيت العمدة، وشاهد الغريب الجالس فى وقار، ولمعت عيناه. أحس النديم أن الرجل قد عرفه، وغادر المأمور المكان مسرعاً حتى لا يقلق النديم، وبدأ النديم، يستعد للهرب، وإذا برسالة عاجلة من المأمور يحملها عسكرى على حصانه تحمل بيتين من الشعر:

ولـــقـــد نـــذرت إذا وجـــدتك ســـالمـــا
لأقـــبــــلـــن مـــــواطـئ الأقـــــدام
ولأثـــنـــين عـــلـى ســـجـــايـــاك الـــتى
حـــثت عـــلـى الـــتـــحـــريـــر والإقـــدام

إنها مصر التى تعرف كيف تحب من يحبها من أبنائها.

ولقد أحبها النديم أكثر من الجميع، فأحبته هى أيضا أكثر من الجميع.

شبلى شميل

«الاشتراكية نتيجة لأزمة، لمقدمات ثابتة، لا بد من الوصول إليها ولو بعد تذبذب طويل»
شبلى شميل
(مجموعة الأعمال - الجزء الأول)

من ريف لبنان، من كفر شمعا يأتينا طبيب شاب.

الأسرة من الأعيان.

الأخ الأكبر وليم، مدرس مولع بالفلسفة.

الأخ الآخر أمين محام.

الابن الأصغر "شبلى" تخرج فى مدرسة الطب فى كلية البروتستانت فى سوريا عام ١٨٧١، وفى عام ١٨٧٥ توجه إلى أوروبا حيث بهر بنظرية داروين عن تطور نشأة الإنسان، وفى عام ١٨٧٦ أتى إلى مصر ليمارس مهنة الطب ويصدر أول مجلة طبية مصرية اسمها "الشفاء". وشبلى شميل واحد ممن يتفجرون بمعرفتهم مهما كان الثمن، ومهما كانت المحاذير، فعنده أن "الحقيقة أن تقال لا أن تعلم"، فما قيمة أن تحتكر المعرفة لنفسك، ولا تتفجر بها أمام المجتمع وفى أعماقه؟ هكذا ومنذ وصوله لمصر بدأ فى الكتابة وبغزارة غير مسبوقة وفى كافة الميادين: الفلسفة، الطبيعة، الأدب، السياسة، القانون، حقوق المرأة، ويصوغ ذلك كله نثرا أو شعرا. لكن كل هذه المقالات مرت دون أن تحرك البحيرة الراكدة فى عقل مصر.

ومضى يخاطب العقل المصرى، يتصادم معه، يدعوه، بل يتوسل إليه أن يعمل ويفكر ويبدع دون خوف ودون قيد، فهو يناشد قارئه "إليك أكتب أيها العاقل، العاقل المتأمل، ولا أطلب منك علما واسعا وفلسفة بديعة وحكمة بليغة، بل أطلب منك عقلا حلت قيوده وتفتحت منافذه، وأقام التفكير مقام الاعتقاد، والبحث مقام المقرر، يقدر مستنتجات العلم قدرها ولا

يبخس مستنبطات العقل حقها". (مقال: القضاء على القضاء - البصير - عام ١٨٩٨).

ولكن ردود الفعل تبدو متباطئة فلا بد من زلزال.

وببساطة يفجر الطبيب اللبنانى المولد زلزالا فكريا صارخا فى العمق إذ يصدر كتابه "فلسفة النشوء والارتقاء" وهو ترجمة لكتاب بخنر المعنون "ست مقالات حول نظرية داروين" وعلى الغلاف يحرض القارئ قائلا: "طالع هذا الكتاب بكل تمعن، ولا تطالعه إلا بعد أن تطلق نفسك من أسر الأغراض لئلا تغم عليك نفسك وأنت واقف تطل على العالم من شرفة عقلك تتلمسه من وراء ستارها".

ويحدث الزلزال؛ انهال الهجوم على شميل من الجميع، «لقد أحدث نشر هذا الكتاب لغطا عظيما مع أنه لم يطبع منه إلا خمسمائة نسخة، لغطا قليلا من الخاصة المعدودة، وكثيرة من العامة الذين أكثروا من الجلبة عن سماع لا عن مطالعة». (المقتطف - عام ١٨٨٥).

ولكن كيف يواجه الإنسان الزلزال؟ البعض يتراجع والبعض يصمد، لكن شميل يختار أن يواصل الهجوم، فبعد عام واحد يصدر كتابا جديدا هو بذاته زلزال أشد عنفا أسماه "الحقيقة" ليرد على مهاجميه، ردا عنيفا صاعقا، فشميل رجل يتمسك بموقفه ما دام يعتقد بصحته «لست أخشى تخطئة الناس لى إذا كنت أعرفنى مصيبا ولا يسرنى تصويبهم لى إذا كنت أعرفنى مخطئا». وهكذا واجه شميل الإعصار وحيدا وسعيداً أيضا.

ثم يقول: "فهذه الرجة التى حصلت اليوم هى المقصودة منى فى ذلك الحين لإيقاظ الأفكار من نومها العميق، والحركة مهما كانت خير من السكوت".

وشميل يعرف تماما ماذا يريد فيقول: "إن غرضى من هذا البحث إنما كان لإقرار الفلسفة المادية على أساس علمى متين".

وبطبيعة الحال تنشب معركة ضارية بين شميل رجال الدين، ومرة أخرى لا يتراجع، بل هو يواصل الهجوم، وهو كعادته يشن هجوما ضاريا وعلى كل الجبهات، بل ومتجاوزاً فى بعض الأحيان للعلامات الحمراء غير المسموح بتجاوزها.

ولنقرأ ما كتب شبلى شميل عن بعض رجال الدين: "فنرى مما تقدم أن الدين نفسه ليس العقبة الحقيقية فى سبيل العمران، بل رجال الدين أنفسهم" (مجموعة أعمال شبلى شميل - ج٢ - ص٦٢).

ويقول : "ولكن الأديان تتحول من النفع العام حتى تصير وسائل للكسب فى أيدى أولئك الذين اتخذوها تجارة لجذب الدنيا ولو بالقضاء على الإنسان، فرؤساء الأديان من كل دين وملة علموا الناس حتى اليوم غير ما تأمرهم به الأديان، وكم قاموا يبيعون دينهم بدانق، وفرطوا بمال الأيتام، وكم خدموا به أغراض عتاة حكامهم ليقتسموا معهم. ولو داسوا الدين بالإقدام".

وفى عام ١٩٠٩ وعندما قام الوردانى باغتيال بطرس باشا غالى الأسباب سياسية؛ تهيأت عناصر الفتنة بين المسلمين والمسيحيين وانفجرت المساجلات والمناظرات بين بعض رجال الدين من الجانبين بما فتح باب الفتنة واسعا، وإلى هؤلاء جميعا يوجه شميل سهامه: "يا مقلنسى الجهل ومعممى الضلال أين رأيتم فى أديانكم ما يسمح لكم بأن تزرعوا فى رؤوس أتباعكم الجاهلين التفريق بين الناس إلى حد التباغض والتقاتل".

ويقول: "لو قامت الإنسانية فى كل الدنيا ونسرت لحم رؤساء الأديان – الذين هم وحدهم المسئولون عن كل الفظائع التى ارتكبت، ولا تزال ترتكب باسم الدين – نسرة نسرة لما وفت حق الانتقام منهم لما جنوه اليوم على الإنسان". «من مقال ضحايا الجهل – جريدة الأخبار – عام ١٩٠٩).

وهو أول من يطالب علنا بالجمهورية على أرض مصر، ولكن أى نوع من الجمهورية؟ أراد شميل "الجمهورية الحقيقية التى يتم فيها توزيع الأعمال على قدر المنافع العمومية بحيث تتوفر معها المنفعة لكل فرد فى المجتمع بدون أدنى تمييز مطلقا. جمهورية تصبح فيها الأمة هى الكل والحكومة لا شىء".

والإصلاح لا يأتى عفوا "إن من ينتظر الإصلاح عفوا من أية حكومات كانت إنما يجهل لا شك تاريخ نشوء الأمم"، "ولا تلام الحكومة إذا داست على رقاب الرعية، فهل تداس رقاب تأبى أن تداس" (مقال: كما تكونون يولى عليكم – الجزء٢ من مجموعة الأعمال، ص١٩٠).

ولذلك فلا سبيل إلا "الثورة"، "والأيام حبالى ولا بد من أن تلد ثورة لا تذكر معها ثورة القرن الماضى، ثورة تنصر الشعوب فيها بعضها بعضا، ينصرون بعضهم على حكوماتهم لقلبها وإبدالها".

ولكن ثورة من أجل ماذا؟ إنها "ثورة العمال ضد أصحاب المال"، هكذا ببساطة

وصراحة، ومتى قالها؟ قبل نهايات القرن التاسع عشر.

وشبلى شميل هو الأب الروحى لدعاة الاشتراكية المصرية، فهو ليس فقط أول من دافع عن الاشتراكية دفاعا شجاعا مبنيا على فهم علمى وطبقى، لكنه أيضا أول من قدم المفاتيح الطبقية لفهم الاشتراكية فهما علميا وطبقيا.

"فالاشتراكية نتيجة لأزمة، لمقدمات ثابتة لا بد من الوصول إليها ولو بعد تذبذب طويل".

والاشتراكية عنده مرحلة من مراحل التطور الاجتماعى، وليست مجرد مطالب تستهدف إصلاح أحوال الفقراء، وهو يفرق بين دعوته ودعوة هؤلاء الذين ينظرون إلى الاشتراكية كمجرد أداة لإقرار العدل فيقول: "يطرقون هذا البحث، ويكثرون فيه من المن على الإنسان فيطلبون الإصلاح له لضعفه وسقمه، يطلبونه له رأفة وشفقة عليه، أما نحن فنقول إن الإنسان فى المجتمع فى غنى عن رحمة الراحمين وشفقة المشفقين، فلا نطرق هذا البحث بتحريك العواطف، ولا ندع للإنسان على إنسان منا".

وفى عام ١٩٠٨ ينشر شبلى شميل مقالا على صفحات جريدة «الأخبار» يدعو فيه صراحة إلى الاشتراكية، وعنوان المقال "الاشتراكيون" وينبرى سليم سركيس محاولا طمس الموقف، بل إرهاب الكاتب فيحذره على صفحات "المؤيد" من المضى فى هذا الطريق حتى لا يتهم بأنه اشتراكى، ويلمح شميل الفخ الذى نصبه له سركيس فيكتب مقالا أكثر صراحة عنوانه "الاشتراكية" يخاطب فيه سليم سركيس قائلا: «فى كتابتك على صفحات المؤيد طلبت منى أن أثبت حقيقة وأن أدفع شبهة، طلبت منى أن أبين لماذا أدافع عن الاشتراكيين وأن أتوسع فى الموضوع لأن ما كتبته على صفحات الأخبار لم يكن مقنعا، وأن أخرج منها طاهر الذيل، فشكرتك على حسن ولائك، ولو أنى أعجبت أكثر بدهائك». ثم يقول: «لقد كنت أفهم قبل اليوم أن الاشتراكية فى نظر خصومها مطلب بعيد المنال، فإذا هى فوق ذلك وصمة تعرض صاحبها لأقبح المظان».

ويمضى شميل ليشرح، وبإتقان علمى متميز أفكار الاشتراكية ومبادئها، ولا يكتفى بذلك بل هو يشن هجوما ساخطا وشجاعا ضد الرأسمالية وضد المجتمع الرأسمالى ككل، "فلقد كان بالإمكان تدارك الشر لو أن الحكومات لا تنقاد انقيادا أعمى لأصحاب الأموال، أو لو أن هؤلاء يخفضون قليلا من كبريائهم ويعترفون بحقوق الذين لولاهم لبارت تجارتهم وقل استثمار أموالهم" (مقال لطمة على خد العالم – الجزء ٢ – ص ١٤٣).

ثم هو يهاجم الأغنياء، هجوما عنيفا وبلا تردد... «رأيت الفاعل يشتغل فى الحر، العرق يتصبب من بدنه كالمطر ليطعم سواه مما جناه ولا يناله من ذلك إلا نذر يسير لا يفى بحاجة زوجته العارية وأولاده الجياع، ورأيت الغنى الشبعان يبلع الجمل ولا يتستر، والفقير الجائع يتلصص ليسرق رغيفا من الخبز الأسمر، والقانون يكافئ ذاك برفع القبعات ويعاقب هذا بالسجن سنوات، رأيت معالم الظلم تشاد فوق الناس تحت لواء العدل، ودعوى الهداية والإيمان تسرى تحت قلانس المكر وعمائم الجهل».

ويمضى شميل بمبدئه الصارم "الحقيقة أن تقال لا أن تعلم" فيقول للناس كل ما يعرف مهما سبب له ذلك من مصاعب.

ولم تذهب كتابات شميل هباء، بل هى لم تكتف بتحقيق أمنيته فى تحريك البركة الراكدة فى العقل المصرى، بل لعلها تجاوزت ذلك بأن أسهمت فى إنبات زهور الاشتراكية المصرية.

يقول أحد الرواد الأوائل للنضال الاشتراكى المصرى، محمد دويدار: «كانت نقطة التحول فى حياتى هى اطلاعى على كتابات شبلى شميل، وقد اشتريت كتابيه بجنيهين، ولك أن تتصور كيف أمكن لعامل بسيط مثلى أن يدخر من مرتبه مبلغا كهذا ليشترى كتابا. وقد أثرت فى كتابات شميل تأثيرا كبيرا لدرجة أننى قرأتها عشرات المرات وحفظت منها مقاطع كاملة» (محضر نقاش أجريته معه فى ٢٢ يناير ١٩٧٧) وبالطبع لم يكن دويدار وحده.

ألم أقل لكم إن شميل هو الأب الروحى للاشتراكية المصرية؟

ولى الدين يكن

«الحرية عدوة الملوك، وحبيبة الشعوب».

«مساكين أنصار الحرية يريدون أن يخلصوا العباد من الظلم فيقعون هم تحت الظلم».

ولى الدين يكن

الاسم: ولى الدين حسين سرى يكن

الميلاد: ١٨٧٣

المهنة: أرستقراطى - شاعر - موظف كبير

الوفاة: ١٩٢١

مع وصول محمد على باشا إلى مصر، تراكمت معه وحوله أسر تركية عديدة، منهم "إبراهيم" ابن أخت محمد على (و"يكن" تعنى باللغة التركية «ابن أخت») ولهذا سمى إبراهيم يكن.

الجد باشا، الأب باشا، وليس الأمر مجرد رتبة بل هم جزء من كيان الأرستقراطية الحاكمة.

أما الأم فهى ابنة أحد أمراء الشراكسة. وهكذا امتلك الفتى "ولى الدين" حسبا ونسبا ومكانة ومركزا مرموقا.

ولد فى ضاحية من ضواحى إستنبول، ثم أتى إلى مصر طفلا، حيث رعاه عمه على باشا حيدر وزير المالية بعد وفاة والده، أتوا له بمدرس خاص شأن أبناء الأكابر، ثم إلى "مدرسة الأنجال " (مدرسة خاصة اسسها الخديوى توفيق لتعليم أولاده وأولاد الأمراء، وكان الهدف منها ألا يختلط أبناؤهم بأبناء الشعب) أتقن العربية والتركية والفرنسية والإنجليزية وأحب الكتابة، وكتب فى مجلتى "القاهرة" و"النيل"، ثم أصدر مع يوسف بك فتحى جريدة "المقياس".

لكن هذا الاتجاه للكتابة والاشتغال بالصحافة (وهى مهنة لم تكن محترمة) أفزع الأسرة فقررت تكبيله بقيود وظيفة حكومية فعين فى "النيابة" ثم فى القسم الإفرنجى بالمعية السنية عام ١٨٩٣، ثم ترك مصر إلى إستنبول على زمن السلطان عبد الحميد "خاقان البرين والبحرين وخادم الحرمين الشريفين"، كما كان يسمى نفسه. وتلقاه عمه محمد بك فائق عضو مجلس الشورى، الذى قربه من الأعتاب السلطانية فتقرر منحه الرتبة الثانية. لكنه أحس بظلم العثمانيين الظالم، وبافتقاد الحرية، وأحس أن هذا الإنعام عليه قيد وضعوه فى عنقه فعاد إلى مصر.

وأصدر جريدة "الاستقامة" ليعبر فيها عن سخطه على الظلم العثمانى، وتسلط السلطان، وقهر العرب، وكتب يقول: «أنا تركى، وأبغض عباد الله عندى هو تركى يعتدى على حقوق الغير، وأحب العرب حبا خالط الروح، وجرى مجرى الدم فى العروق، فأنا عربى الأدب والقلم، عربى النزعة، ومن أبغض العرب، أنا مبغضه».

وواصلت "الاستقامة" حربها دفاعا عن الحرية حتى قرر العثمانيون منعها من الدخول إلى جميع البلاد العثمانية فأغلقها، وكتب يودعها قائلا:

أرانى وحيدا والحوادث جمة
ألاقى طعانا جيشها وضرابا
أثبت أقدامى وأبرز صفحتى
لديها، ولا أرضى هناك حجابا

....

شهيا وأسقيها الدماء شرابا
أذم فلا أخشى عقابا يصيبنى
وأمدح لا أرجو بذاك ثوابا

وتفزع الأسرة من هذا الاندفاع وتحمله حملا مرة أخرى إلى إستنبول حيث يقلد وظيفة كبيرة بهدف تقييد لسانه وقلمه، لكنه لا يسكت فينفيه السلطان إلى "سيواس".

وبعد سجن ونفى وعذاب يعود إلى مصر لينطلق وبأعلى صوت مدافعا عن الحرية، رافضا للظلم، مؤكدا انتماءه إلى ساحة الفقراء.

ويرتفع صوته.. نثرا وشعرا ومهاجما السلطان العثمانى وحاشيته قائلا:

بـغــال تــســوس الأســد شــر ســيــاســة
مــا ســـاس أســـدا قـــبل ذاك بـــغـــال

ويقول:

فـجـاءوا يـسـوسـون الأنـام سـيـاسـة
سـدى لم تـسـسـهـا قـبل ذاك الـبـهـائم
فـكـم عـالـم صـاحـوا بـه أنـت جـاهـل
وكـم جـاهـل قـالـوا لـه أنـت عـالـم
صـحـا كل شـعب فـاسـتـرد حـقـوقـه
فـيـا لـيـت يـصـحـو شـعـبك الـمـتـنـاوم

وعندما يكتب شوقى قصيدة يدافع فيها عن السلطان عبد الحميد.. يرد عليه ولى الدين:

وذكـــرت ســـكـــان الـحـــمـى
ونـســيـت ســكـــان الـــقـــبـــور
وبـــكـــيـت بـــالـــدمـع الـــغـــزيـــر
لـــبـــاعـث الـــدمـع الـــغـــزيـــر
ولـــواهـب الـمـــال الـــكـــثـــيـــر
ونـــاهـب الـمـــال الـــكـــثـــيـــر

وعندما يطاح بعبد الحميد ويمارس من أطاحوا به ذات الإرهاب والقهر يهاجمهم:

أفـلا يـــزال الـــســوط حـــاكـــمـــكـم
وأبـــو الـــســيـــاط بـــيـــلـــدز ذهـــبـــا
أفـلا يـــزال الـــدهـــر يـــعـــجـــبـــكـم
ضـــرب ومـــضـــروب ومـن ضـــربـــا
ونـــقـــول أحـــرارا فـــنـــمـــدحـــكـم
لا حـــر فـــيـــكـم.. كـــلـــنـــا كـــذبـــا

ويشن ولى الدين يكن حملة عنيفة على رجال الدين الذين خضعوا للخليفة العثمانى المستبد ودافعوا عنه، فيقول: "إن العامة تحب الشىء إذا حببه إليها زعماؤها.. وزعماء العامة عندنا رجال الدين وهؤلاء يحبون أن يظلوا متحكمين فى الرقاب، وأن يبقوا عيالا

على الأمة، وأن يلثم الناس أيديهم، ويملأوا أكياسهم، ثم إن عبد الحميد اتخذ منهم شيعته وزادته، فما أقر هيبته فى القلوب، ولا ابتاع له المودات إلا هذا الرهط".

ثم يرتفع صوت هجومه على رجال الدين: "ولو جمعنا العمائم التى بالبلاد العثمانية وجعلنا بعضها فوق بعض لبنينا حصنا يعجز الأسطول الإنجليزى عن هدمه".

وعندما يقبض على الشيخ جميل الزهاوى بالعراق لمناداته بحرية المرأة ونزع الحجاب عنها يكتب ولى الدين: "يا أيها المسلمون.. أنا مسلم مثلكم يحزننى خسرانكم، ويشركنى معكم مصرعكم، إن هؤلاء الرجال الذين أثقلت هاماتهم العمائم أكثرهم لا يعقلون.. كان عبد الحميد يقتل الناس ويظلمهم وينفيهم وينهب الخزائن، وكل هذا حرام فى دينكم فما قام فى وجهه واحد منهم ناصحا أو رادعا، لكنهم اليوم وقد وسعتهم بلاد الحرية، يكرهون أن يروا حرا يتكلم، يهاجمون الساعل والماخط، والآكل والشارب، حتى لقد زهدونا فى الحياة، وهم أشد الناس بها تعلقا، فلا تجعلوا لهم سلطانا عليكم، فيكسبوا من خسرانهم ويسعدوا بشقائكم وأنتم لا تعلمون".

ويهيم الرجل بالحرية عشقا: "يا حرية، أنا عرفتك وهمت بك هياما.. فأنا صاحبك من قبل ومن بعد ولن أخاف بعد اليوم رقيبا".

ويتغزل فيها:

«نشتاق حرية فيؤسينا..

من دهرنا عن حبائها ضنن

أوهننا حبها وتيمنا.. حتى ترانا وشفنا الوهن».

ويقول: "الحرية طافت بلاد الله، فكلما دخلت أرضا أعتقت المعتقلين فيها، فلما طرقت تركيا اعتقلوها فى سجنها بيلدز". وعندما يطاح بعبد الحميد ويتولى حكام جدد ليستبدوا هم أيضا، يكتب فى أسى: «بالأمس كنا ننادى يا حرية.. يا حرية، يا حبيبة الشعوب، وعدوة المستبدين، ومرتع الآمال، ومسرح النفوس، وشفاء الصدور، وحياة الممالك. فلما استجابت دعاءنا، وأقبلت برضائها علينا، تجاذبنا ضفائرها، وتنازعنا حليها، ووصلنا القيود التى فكتها عن سواعدنا لنشد بها سواعدها».

ويمتد هجوم ولى الدين يكن من الدفاع عن الحرية، إلى الدفاع عن الفقراء والاشتراكيين وتحت عنوان "مقتل فرر" (اشتراكى أسبانى نفذ فيه حكم الإعدام) يكتب ولى الدين:

«هن ثلاث رصاصات رميت بأسبانيا، فجاوبت دويها بلاد الله، ثلاث رصاصات رمتها حكومة متمدينة، بمشهد من حكومات متمدينة، فقتلت رجلا متمدينا. حراً أشقته حريته، عارف أجهدته معرفته، ومنصف أرداه إنصافه.. و"فرر" أبى زعامة الفرد على الجمع، وكره أن يرى أناسا يرفلون فى ثيابهم المخملية يجرجرون أسيافهم، وتخفق على رؤوسهم خرق فوق قضبان يسمونها أعلاما، وأن تكثر حكومات الأرض من جمع هؤلاء فى أزيائهم المضحكة لتقتل أمثالهم.. رفض أن يرى إخوته أبناء آدم يتنازعون أكنافا من الأرض ليست لهم ولا لغيرهم ولكنها لكل الناس، ولهذا لا يجزع على "فرر" سكان القصور العالية ولا المدخرون للذهب والفضة، ولا سراة القوم، ولا الوزراء، ولا كبار الموظفين، وإنما يجزع عليه المنفيون فى أقاصى سيبيريا يعض الحديد على سواعدهم، والمقيمون فى ظلمات السجون فى سائر أقطار الأرض، ويبكى عليه كل من ذاقوا مرارة الظلم والاستبداد فى أسر المستبدين. يحزن عليه الأرمنى الذى قتل أقربوه فى مذابح الأناطولى، والتركى الذى ألقى ذووه فى لجج البوسفور، والعامل فى أعماق الموانى محروما من نور الشمس، ولطف الهواء، والفقير الذى يحس بالفاقة ولا يتجاسر على شكايتها، كل هؤلاء يندب "فرر" وكان "فرر" يندبهم».

وتصله رسالة من عامل عثمانى يدعوه إلى نصرة الطبقة العاملة.. صراحة وبلا مواربة، فيرد عليه ولى الدين فى كتابه العنيف والمرير معا "الصحائف السود" قائلا:

«أيها الأخ العامل... لبيك أهلاً. هذا يمين الإخاء أمده إليك، فإن كنت خاطبا ودا، الود لك، وإن كنت شاكى ظلم فيراعى لسانك، وبيانى ترجمانك، وأنا وحياتى دريئة لك من المخاوف».

ويمضى ولى الدين ليهاجم الحكام والأغنياء معا: "ادخل إلى حجرة الوزير تجد بها الأوانى المذهبة فى نقوشها وتصاويرها على الخوان البديع، وهو مضطجع على مقعد أقل مسمار فيه أغلى من مالكه ثمنا وأنفس قدرا. هو يحسب أن العامل يدور كاللولب لا يجهده تعب، ولا يضنيه كد، ولو رآه فى معمله متفصدا عرقا مشمرا عن ساعدين مفتولين عزما.. لأخذه الروع ولخارت تلقاء ذلك المشهد المهيب قواه".

ويصف أحوال العمال قائلا: «الآن بين الحيطان السود، تحت سحب الدخان، أمام النار التى يزكيها الكير النافر، وتحت أعماق الأرض رجال شعث النواصى، غبر الوجوه، نبا عن

أجسادهم النعيم، وأجفلت عنهم السعادة، يخدمون بنى الإنسان كأن لم يكونوا هم من بنى الإنسان».

ثم يصيح فى وجوه الأغنياء "من أراد أن يظلم العمال فليستغن عن العمال، ليقل هؤلاء الكبراء، إننا فى غنى عن العمال، وإذا نزعنا عنا هذه الحلل الباهرة ملنا إلى المعامل وشمرنا عن سواعدنا فصنعنا لأنفسنا، وليصنع العمال لأنفسهم، وهناك يعلم كل عمله".

ثم يقول لصاحب «الرسالة»: "إن كان هذا يكفيك أيها الأخ العامل، فالحمد لله على خدمتك وخدمة إخوانى العمال".

ويحلم ولى الدين كأى شاعر أرستقراطى بمجتمع المستقبل، المجتمع الاشتراكى، ويصفه قائلا: «إنه مجتمع لو أنفقت أمواله فى تعليم الأولاد لصاروا كالأنبياء، ولو بذرت فى الأرض لنبتت السنابل ذهبا، ولو أنفقت على الفقراء لأصبح السائلون يشترون ملابسهم من "ريبو" (أفخم محلات هذا الزمان) ويفطرون بالشوكولاته».

ويبقى بعد ذلك أن ولى الدين يكن لم يقل كل ما عنده، فهو يقول حزينا وصريحا: "إذا وهب الله أقوامنا من الترقى أكثر مما نالوه، وبقيت أنا حيا بينهم لكلمتهم بما خالج صدرى تصريحا لا تلميحا".

لكن حلمه هذا لا يتحقق، ولا يبقى لنا سوى تلميحاته، وإذا كان التلميح بكل هذه الحدة وبكل هذا الوضوح، ترى ماذا كان يمكن أن يكون التصريح؟

المؤسســون

فرح أنطون

«فليحذر العالم من يوم يصير فيه الضعفاء أقوياء. والأقوياء ضعفاء»
فرح أنطون

نحن إزاء مناضل يسارى من نوع خاص.

تقلب فى مهن عديدة. بدأ حياته العملية كتاجر أخشاب. ثم عمل مدرساً. ثم ترك بلدته (طرابلس – لبنان) وأتى إلى مصر ليمارس مهنة الكتابة رافعاً رايات اليسار والاستنارة لأن مصر عنده «هى المركز الأوسط لجميع العالم العربى ومنه تنتشر الخدمة الوطنية الأدبية انتشار الأشعة إلى جميع الجهات». واشتغل فرح بالكتابة فى الصحف. كتب فى العديد منها فى وقت واحد متخذاً أسماء مستعارة. وكان يكتب باستمرار فى جريدة «الأهرام» متخذا اسم «سلامة»، وفى عام ١٨٩٩ بدأ مشروعه الرائع فأصدر مجلة «الجامعة» التى حملت لجيل هذا الزمان فكره الموسوعى والعقلانى والليبرالى واليسارى.

وعندما انتقلت «الأهرام» من الإسكندرية إلى القاهرة استمرت طبعة الإسكندرية مستقلة باسم «صدى الأهرام» وتولى فرح رئاسة تحريرها، وكانت المعجزة؛ إذ تفوق الصدى على الصوت الأصلى. فغضب بشارة تقلا صاحب الاثنتين. وطرده.

ثم شارك أخته «روز» فى إصدار مجلة «السيدات» التى حملت رياح التغيير والاستنارة وتحرير المرأة. ثم سافر إلى أمريكا عام ١٩٠٧ ومارس نشاطاً صحفياً واسعاً وسط الجالية العربية هناك. وحيث انفتح عقله على الفكر الماركسى والدعوة إلى الاشتراكية، وتتلمذ على كتابات أوجين دبس وهنرى جورج. لكنه، ومن بعيد، شعر بمصر وهى تتململ استعداداً للنهوض فعاد سريعا ليسهم فى نهوضها ـ وعاد إلى الكتابة. وكانت مقالاته هذه المرة ساخنة إلى درجة الالتهاب، غاضبة إلى درجة السخط بحيث أصبح المشاغب الأول فى حقل الصحافة وما من جريدة تفسح صفحاتها لكتابته إلا وتغلق. عديد من الصحف

أغلقت بسبب مقالاته. ويروى نقولا حداد - صديقه وصهره - أن أحد المقربين من الاحتلال قال له «إن فرح أفندى متهور فى كتاباته وأخشى أن يؤدى تهوره إلى نفيه من البلاد. فحبذا لو نصحته أن يعتدل»، ثم ما لبث هذا المقرب من الاحتلال أن استدعى فرح وأنذره بأن يكف عن كتابة مثل هذه المقالات فرد عليه فرح: «أتأسف أن أقول لك إننى لست أحترف مهنة القلم لكى أسترزق منها، بل أحترفها لأكتب هذا الذى لا يعجبك، فإذا لم يؤذن لى أن أكتب ما يوحى إلى به ضميرى فخير لى أن أمتهن مهنة أخرى»، فيرد الرجل ببرود: «نعم خير لك أن تبحث عن مهنة أخرى».

لكن فرح يواصل كتاباته فأغلقت جريدة بسبب أول مقال كتبه بعد هذه المقابلة، ثم أغلقت جريدة ثانية ثم ثالثة.

وبعدها أصدر جريدة «الأهالى» فأغلقت لمدة ستة أشهر، فأصدر جريدة «المحروسة» فأغلقت هى الأخرى. وكانت فترة الستة أشهر توشك على الانتهاء.. لتعود صحيفة «الأهالى». فزاره نقولا حداد وجرى بينهما الحوار التالى:

- **نقولا**: من الأفضل أن تخفف الهجوم حتى تسلم «الأهالى» من عقاب الإقفال النهائى.

- **فرح**: معنى هذا أن نرمى سلاحنا ونرفع العلم الأبيض ونسلم أنفسنا للخصوم.

- **نقولا**: ولكن ماذا تفعلون إذا عادت الحكومة وأقفلت «الأهالى» نهائيا؟

- **فرح**: نحن محاربون، وإقفال «الأهالى» أفضل جدا من أن تحيد شعرة عن خطها. والهلاك فى الحرب خير من التسليم.

- **نقولا**: لكن ماذا تفعلون وهى مقفلة؟

- **فرح**: نكتب كتبا وكراريس. ونؤلف روايات تمثيلية عن سكان جزيرة واق الواق. والشعب ذكى يفهم.

ويمكن القول بأن فرح كان ماركسيا من نوع خاص، تتلمذ على كتابات روسو، وفولتير، ورينان، وكانط، وابن رشد، والغزالى وابن طفيل وعمر الخيام. وكانت كتاباته عن الماركسية مغلفة دوما بمعارف ومواقف لا توحى بذلك.

ففى ١٣ نوفمبر ١٨٩٩ حدث كسوف فى الشمس أثار هواجس الناس بقرب نهاية العالم، فكتب فى الجامعة (١٨٩٩/١١/١٥) مقالا بعنوان «متى ينتهى هذا العالم؟» ثم يجيب: «ينتهى حين يعدل الحكام وحين يعامل ولاة الأمور شعوبهم كما يعاملون أولادهم،

ينتهى حين تنفق الحكومات ما تدفعه الشعوب إليها من ضرائب ورسوم على الأمور الضرورية من تعليم الشعوب وإنقاذها من آفة الجهل، لا على البذخ. يومئذ ينتهى عالم الجهل والشقاء والفقر والرذائل والأوهام، ويقوم عالم آخر تنيره شمس الفضيلة الباهرة والأدب الغض والعلم الصحيح، وإلا فسواء موتنا وحياتنا فى العالم الحاضر، وسواء خرابه أو عماره إذا بقى على ما هو عليه».

وكان فرح يدرك صعوبة المرتقى نحو الاشتراكية ولهذا اضطر إلى القول: «ليست كل نظرية جميلة يتقبلها الناس. ولهذا فقبل أن نحبب الجمهور فى المبادئ الديمقراطية والاشتراكية يجب دفعه للاستعداد للجهاد فى مقاومة الاستبداد والاستعباد بالقوة».

* * *

«لا تقل هاتوا زعيما صادقا، بل قل هاتوا شعبا راقيا. وأنا كفيل بزعيم حر من بين الحقول وأكواخ الفقراء»

فرح أنطون

ومضى فرح أنطون ليتحسس طريقه فى كيفية طرح الفكر الماركسى على المصريين فى هذا الزمان المبكر، إذ يقول عنه مارون عبود: «لقد كان فرح أنطون أول من لقن العرب أفكار كارل ماركس» (جدد وقدماء ـ ص٧).

أما عباس العقاد فقد انبهر بكتابته وقال له: «إنك يا فرح أفندى طليعة مبكرة من طلائع هذه النهضة العامة، وسيعرف لك المستقبل من عملك ما لم يعرفه الحاضر، وستكون حين يفترق الطريقان خيراً مما كنت فى هذا الملتقى المضطرب».

أما سلامة موسى فقد قال: «إن تأثير كتاباته فى نفسى كان شبيه الأثر بذلك الذى يتركه دين جديد فى قلب حديث الإيمان»، ويقول لطفى جمعة: «إن هذه الكلمات جديرة بأن تكتب بماء الذهب».

ويواصل فرح معركة نشر الفكر الماركسى عبر قنوات عديدة منها المسرحيات، ألم يقل لنقولا حداد: «نكتب روايات عن واق الواق والشعب ذكى يفهم». وعندما يصدر مسرحية «أورشليم الجديدة» هاجمته صحف عديدة بأنه يبشر بالشيوعية، فرد عليها قائلاً: «لا بد من محاربة ذلك الفساد الاجتماعى والسياسى المبنى على سلطان المال الذى يسمم دم الأمة لأنه يقتل فيها العدالة، ويجعل القانون ألعوبة فى يد المال يميل معه حيث مال،

ويحصر السلطة والمنافع والأرزاق فى أفراد قلائل، ويكون باقى الأمة أجراء مسخرين يتعبون ويكدون ويكدحون وغيرهم يتمتع بثمرة تعبهم دون أن يهتم أو يغتم لحال الأمة والعملة (العمال) الذى يجمع ثروته منهم».

ثم يقول: «إن هدم الفساد الاجتماعى مقدم على هدم الفساد السياسى، فمع انتهاء الفساد الاجتماعى يستحيل وجود فساد سياسى، وستذهب دولة الملكية الفردية ودولة الاحتكار المالى، وتقوم دولة التعاون الاجتماعى والتضامن البشرى بين طبقات الأمة» (الجامعة ـ يناير ١٩٠٣)، وفى ذات العام يصدر فرح روايته الصاعقة «الدين والعلم والمال» وهو يقدمها قائلاً: «سميناها رواية على سبيل التساهل لأنها عبارة عن بحث فسفى اجتماعى فى علاقة العلم والمال والدين، هو ما يسمونه فى أوروبا بالمسألة الاجتماعية».

والحقيقة أن هذه الرواية تقدم وبصورة مبسطة وصريحة النظرية الماركسية التى احتار الكثيرون فى شرح مضمونها للبسطاء. فنقرأ فيها حوارات مثل: «نهض زعيم العمال معلنا شكوى العمال من طمع أرباب الأعمال، فالعمال يتعبون ويئنون وأرباب الأموال يتمتعون ويتلذذون، فمن العدل أن يشارك هؤلاء أولئك فى كل شىء». يرد عليه ممثل رجال المال قائلا: «إن شكوى أرباب الأعمال لم تكن من العمال، فنحن نحب عمالنا كما نحب أولادنا، وإنما شكوانا من بعض الطامعين الذين يثيرون خواطرهم علينا، ويحرضون طبقتهم على طبقتنا. فلتفصل الحكومة العمال عن هؤلاء المحرضين فيستتب السلام بين الجميع»، وهنا ينهض واحد من فريق رجال العلم ويقول: «إذا صح أنه متى رفعت يد الذين يسمونهم محرضين بين العمال فقد يزول نصف شكوى أهل المال، وربما يبقى عليهم أن يبحثوا هل يترافق هذا السلام الذى سيحدث مع هناء العمال وراحتهم، أم يبقى سلامهم موتا أبديا وماديا كسلام أهل القبور؟».

وفى جلسة أخرى يدور حوار ساخن فيقف ممثل العمال مطالبا بمشاركة العمال فى الأرباح متوعدا أصحاب المصانع وقائلا: «إذا كان فى حزبكم فلاسفة كبار وعلماء أعلام، فإن فى حزبنا من هو فوق العلماء والفلاسفة إنه كارل ماركس»، وإذ يطالب ممثل رجال العلم بحل وسط يتمثل فى زيادة الأجور وفرض ضريبة على الإيراد يهتف ممثل العمال: «أيها العمال إنهم يخدعونكم فلا تصدقوهم ولا ترضوا بمجرد زيادة الأجور، بل طالبوا بمشاركة أصحاب المصانع فى ملكيتهم، فإذا رفضوا ذلك فاستولوا على المعامل والمصانع

والمزارع والمتاجر لأنها ملك لكم بحكم الطبع، وهو خير من حكم الشرع، فاستولوا عليها ولا تخافوا فإن الاعتدال لا يحصل لنا حقا ضائعا، واعتمادنا على أنفسنا هو طريقنا. وهنا يتعالى هتاف العمال: تحيا الاشتراكية. الاشتراكية أو الموت».

وفرح يقول الحق ولا يخشى أحدا، فعندما أعلن الزعيم المهيب سعد زغلول استعداده للتفاوض مع الإنجليز على أساس مشروع ملنر يصرخ فرح شعراً:

إلى أين تمضى بالأمانة يا سعد
وتجنى على شعب عليك له العهد
رويدك لا تعبث بآمال أمة
شغوف بالاستقلال يهتاجها المجد
فيا سعد حاذر أن تزل طريقها
وإلا فلا سعد هناك ولا وفد

ويتمادى فرح كعادته فيدعو على صفحات «الأهالى» إلى سحب التوكيلات من سعد (١٠ ـ ١١ ـ ١٢ ـ ١٣ ـ ١٤ يناير ١٩٢٧)، ويتحالف فرح مع جمعية الطلبة المصريين بباريس، وكانت جمعية يسارية.. ويغضب سعد زغلول متهما إياهم بالبلشفية. لكن سعد لا يلبث أن يعلن «إننى لا أقبل أى مفاوضة على أساس مشروع ملنر إلا بعد تعديله بالتحفظات». فيعود فرح إلى تأييده سعد.

ويرحل فرح أنطون سريعاً وهو لم يزل فى التاسعة والأربعين ليرثيه عشرات المثقفين والشعراء والكتاب ورجال الدين.. ومنهم مصطفى صادق الرافعى:

على فرح فليحزن الشرق كله
فما هو فرد إنما هو جيل
لقد كان طودا للحقيقة راسخا
تميل رواسيها وليس يميل
فتى كان صدقا فى فم الدهر بيننا
وجل البرايا كذبة وفضول
فتى كان لا يرضى الحياة حقيرة
فعاش ليفنى والجليل جليل

نقولا حداد

«السرقة قانون عقوبة معروف ومدون، ولكن ليس لقيام الرأسمالى بسرقة عرق العامل قانون. فهذه السرقة لا تعد جريمة فى نظر القانون. ولهذا نقول: إن الاشتراكية تطالب بسن هذا القانون».

نقولا حداد

نحن إزاء مثقف لبنانى المولد مصرى الإقامة والعشق. ولد فى الشوف (لبنان) عام ١٨٧٢ لأب فقير، بل وشديد الفقر، لكن الفتى كان شغوفاً بالتعلم. ولما مات والده وهو فى السابعة عشرة من العمر، ظن الجميع أن الفتى سيترك المدرسة ليتفرغ لإعالة الأسرة، لكنه عاند الجميع. اشتغل فى عديد من المهن وواصل تعليمه فى آن واحد، ثم عاند مرة أخرى فكان يدرس مناهج عام دراسى كامل فى الإجازة الصيفية فيقفز عامين دراسيين كل عام. ثم عاند ثالثاً بأن اختار الدراسة فى أصعب الكليات وهى كلية الصيدلة وتخرج عام ١٩٠٢ فى كلية بيروت الإنجيلية. وما إن حصل على شهادة الصيدلة حتى هاجر إلى مصر. وفى مصر التقى بفرح أنطون وبشقيقته روز وتزوج نقولا روز التى كانت تتفجر حيوية وليبرالية وأصدرت فيما بعد مجلة نسائية باسم «السيدات والبنات».

وفى ١٩٠٧ يتلقى فرح أنطون رسالة من ابن عمه إلياس أنطون تدعوه إلى الهجرة لأمريكا لتولى العمل الصحفى فيها، خاصة أن المهاجرين الشوام هناك حقل واسع لبث المبادئ الحرة. (ملحق مجلة السيدات والبنات سنة ١٩٢٣). وسافر الثلاثة فرح ـ نقولا ـ روز، وهناك التقوا بأمين الريحانى وميخائيل نعيمة وكونوا معاً «الرابطة القلمية» وأسهموا فى إصدار «الجامعة» و«السائح».. وتتلمذوا على يدى المفكرين اليساريين الأمريكيين مثل يوجين دبس (أحد مؤسسى الحزب الاشتراكى الأمريكى) وهنرى جورج مؤلف كتاب «التقدم والفقر».

وإذ هزت العالم بأسره أحداث الانقلاب العثمانى الذى قادته حركة الاتحاد والترقى، وأطيح بالخليفة المستبد، وبدأت الدولة العثمانية عهداً جديداً. كتب نقولا إلى فرح الذى كان خارج نيويورك قائلاً : «سرورى بهذا الانقلاب عظيم حتى إنه مضى على يومان وأنا لا أنام من شدة التأثر. ولقد حان الوقت للعمل والنهوض بالأمم الشرقية التى استيقظت من سباتها» (المرجع السابق).

وقرر الفرسان الثلاثة العودة إلى مصر. ولكن لماذا مصر بالذات؟ يجيب نقولا: «عدنا إلى مصر، الوطن الذى قضينا فيه عهد الشبيبة، وهو المركز الأوسط لجميع العالم العربى ومنه تنتشر الخدمة الوطنية والأدبية انتشار الأشعة إلى جميع الجهات».. لكن الثالوث الليبرالى يعود وقد تمتع بفكر جديد هو الاشتراكية. ويجب أن نلاحظ هنا مسألة مهمة وهى أن نقولا حداد تميز عن عديد من الشوام الذين أتوا إلى مصر فوجدوا فيها وفى ظل الاحتلال، مساحة من حرية الكتابة والرأى فمدحوا الاحتلال نكاية فى العثمانيين، مثل شبلى شميل وولى الدين يكن، أما نقولا فقد قال لهؤلاء: «إن تحرير مصر من الاحتلال هو أمنية كل مصرى. وما من مصرى يقبل مناقشة فيه ولو قلت له إن الإنجليز خدام للنبى محمد لأصر على القول: لا أريدهم. ففى هذا الأمر لا يقبل المصرى مناقشة». ولعلها ليست مصادفة إذ أصدرت «روز» طبعة ثانية من رواية فرح أنطون «صلاح الدين ومملكة أورشليم» فأهدت الرواية فى صدر صفحتها الأولى «إلى روح الوطنية المصرية، إلى الرئيس العظيم سعد، وكفى بسعد دلالة على النبل والوطنية والتضحية».

وفى عام ١٩١٧ تتفجر الثورة الاشتراكية وتتفجر معها وفى الساحة المصرية عشرات من الأسئلة والإجابات والاتهامات والدفاعات، وكان نقولا جاهزاً للتوضيح والرد، ومضى زمن نصب فيه نقولا نفسه حارساً للاشتراكية وحامياً لها من الهجمات.

وفى عام ١٩١٨ ينشر نقولا فى مجلة «الهلال» مقالاً مطولاً بعنوان «الاشتراكية.. ما تطلبه وما لا تطلبه» يقول فيه: «قرأت فى عدد الهلال الماضى تحت عنوان "حل المشكلات الاجتماعية الكبرى بمشاركة العمال" رأيت أنه إذا لم يذيل بإيضاح قضية الاشتراكية كما تنقت وتصفت أخيراً لبقى الذين لا يعلمون شيئاً عن حقيقة الاشتراكية – وهم كثيرون على ما أظن ـ متورطين فى اعتقادهم السيئ عنها».

ويتحدث نقولا عن النظام الرأسمالى قائلاً: «إن وجه الإجحاف فيه أنه يفضى إلى

تجميع الثروة التى هى ثمرة تعب العمال وحدهم فى أيدى فئة من الناس، وحرمان العمال من هذه الثمرة. فقد استطاع أفراد قلائل أن يجمعوا فى حياتهم من الأموال ما لا يتصوره عقل، فى حين أن ألوفاً من العمال يتسولون عملا يتعيشون منه فلا يجدون.

أما النظام الذى يبتغيه الاشتراكيون فيمكن إجماله بكلمتين وهما: نقل الشركات وجميع المرافق التى تعمل فيها مجموعة من العمال وجميع العقارات من أيدى ذويها إلى أيدى الحكومة بحيث تصبح هذه المرافق المنتجة للثروة ملكا للأمة وبدلاً من أن تكون ملكاً لحفنة من الناس يستولون وحدهم على أرباحها تصبح ملكاً للأمة كلها وتعود أرباحها للأمة كلها».

وفى عام ١٩٢٠ يصدر نقولا حداد كتاباً بعنوان الاشتراكية يقول فيه: «إن النظام الرأسمالى يطلق العنان لسنة الصراع بين الأفراد بحيث يمكن للقوى أن يتمتع بقيمة تعب الضعيف. وبعبارة أخرى يسمح للقوى بأن يعيش عالة على الضعيف، وهو نقيض الاشتراكية التى تقضى بأن يتمتع العامل بثمرة عمله كلها على اعتبار أن الناس وهم مشتركون فى العمل يجب أن يتقاسموا ثمراته كل على قدر قيمة عمله».

وفى كتابة أخرى يلخص نقولا حداد الأمر كله تلخيصاً بديعا: «فالعامل ملزم أن يعمل لأجل معاشه ولأجل بذخ صاحب العمل أيضاً وإلا سيموت» (علم الاجتماع ـ الجزء الأول ـ ص٢٣٥).

* * *

«إن مذهب الاشتراكية منطقى معقول، ومبنى على سنة اجتماعية اقتصادية منصفة، ويقضى بقلب النظام الاقتصادى الحاضر ووضع نظام جديد».

نقولا حداد

ونواصل رحلتنا مع نقولا حداد فى حديثه عن الاشتراكية وهجومه على الرأسمالية.. ونقرأ تحليلاً رقمياً بديعاً يقول: «خمسة آلاف أمريكى أى ١ : ٢٠٠,٠٠٠ من السكان يملكون ثروة الولايات المتحدة كلها تقريباً ـ وإذا كان البعض يزعم أن هؤلاء الأغنياء يمتلكون مقدرات ذهنية وعملية كبيرة فيستحقون هذه الثروة نقول لهم إن رئيس الجمهورية الفرنسية يجب أن يترأس الجمهورية أكثر من ٤١ سنة، وأن يوفر ماهيته كلها حتى يجمع مليوناً واحداً. وكذلك رئيس الجمهورية الأمريكية يجب أن يترأس الولايات المتحدة خمسين عاماً كى يجمع المليون. وعلى المليونير روكفلر أن يترأس الولايات المتحدة عشرة آلاف سنة

حتى يتمكن من جمع ثروته الحالية،هذا إذا لم ينفق مليماً واحداً من ماهيته». ويمضى نقولا حداد فى فضح النظام الرأسمالى رافضاً «محاولات تسكين الأوجاع بمورفين الإصلاحات»، ويقول: «نحن نريد أن ينال العامل حقه، وأن يتمتع بثمرة عمله وأن يغاث وقت الضيق بحق له وليس بصدقة عليه». ويختتم نقولا حداد كتابه الرائع عن الاشتراكية بفصل ختامى عنوانه «مصير العالم إلى الاشتراكية».

وفى عام ١٩٢١ وإذ يعلن الاشتراكيون المصريون تأسيس «الحزب الاشتراكى المصرى» بقى نقولا بعيداً عن الحزب لكنه خاض معارك الدفاع الفكرى والسياسى عن الاشتراكية. وعندما أصدر الشيخ التفتازانى فتوى ضد الحزب وقال إن الاشتراكية مناهضة لكل الأديان رد نقولا فى مقال بالأهرام (١٩٢١/٩/١٢) يقول فيها: «إن الاشتراكية ليست كما يفهم من مقالة الشيخ التفتازانى بتاتاً، فالاشتراكية عقيدة اجتماعية ولا شأن لها بالمسائل الدينية؛ وإن كانت فى الحقيقة أكثر توافقاً مع الأديان من سائر الأنظمة الغابرة والحاضرة». ويمضى نقولا مؤكداً أنه لا يمكن تحقيق ديمقراطية حقيقية فى ظل الرأسمالية فيقول فى كتابه الموسوعى «علم الاجتماع»: «وما دامت الديمقراطية الحاضرة ناقصة وتسمح بالتفاوت الاقتصادى أى ما دامت لم تطبق على أساس المبادئ الاشتراكية وما دام مباح للأفراد أن يجمعوا الثروات الطائلة فإن السلطة سوف تغتصب اغتصاباً حتى من تحت ذقن الديمقراطية، لأن السلطة الأولى هى للمال مع أنه يتعين أن تكون للعلم وللأخلاق».

ثم يصدر نقولا مجلداً ثانياً بعنوان «تطور الهيئة الاجتماعية» يقول فيه: «لا يستطاع إقرار الحق الاقتصادى على قاعدة الديمقراطية ما لم تتقلقل الأنظمة القائمة وتتزعزع وتتداعى، ولا يستطاع بناء نظام اقتصادى جديد إلا بهدم كل نظام له علاقة بالنظام الرأسمالى وإلا إذا ألغيت الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج وأصبح كل ذى قيمة ملكاً للأمة، وتحت إدارة الحكومة» (ص٣١٣).

وهو يدافع عن الحرية دفاعاً مستميتاً فيقول: «كل قوة تخنق الحرية تعد مجرمة، ويحق للشعب الذى تخنق حريته أن يخرج على هذه القوة وأن يتمرد عليها ويقهرها إذ إن أساس شرعية كل سلطة هو إطلاقها الحرية للجمهور الخاضع لها، وحيث انتفت هذه الحرية تصبح السلطة غير شرعية».

ثم يصدر نقولا كتاباً عنوانه «علم أدب النفس» يقدم فيه أول محاولة عربية لتقديم تفسير علمى وتقدمى لمفردات مثل الانفعالات والسلوك والإرادة والجمال والضمير والفضائل والرذائل والحقوق والحرية. وهو يؤكد فى هذه الدراسة على قيمتين أساسيتين الحرية والعدالة فيقول: «إن الحرية شاهد على إنسانية الإنسان والعدالة هى معيار الضمير إن تحققت تحقق» (علم أدب النفس ـ ص١٧).

ونقولا حداد مثقف موسوعى وكتاباته تشعبت فى فروع عديدة، فمع دراساته عن الاشتراكية، هناك كتب أخرى عديدة منها: «هندسة الكون بحسب قانون النسبية ـ فلسفة الوجود ـ عالم الذرة ـ الديمقراطية مسيرها ومصيرها ـ مناهج الحياة ـ ذكرا وأنثى خلقهم ـ الحب والزواج»، كما ترجم كتباً عديدة وله فوق ذلك مجموعة أدبية من الروايات والمسرحيات الممتعة منها: «ثورة عواطف ـ زغلولات مصر ـ جمعية إخوان العهد ـ فرعون العرب عند الترك ـ حواء الجديدة ـ ثورة فى جهنم ـ حركات السيدات فى الانتخابات».

وعندما تفجرت قضية فلسطين عام ١٩٤٧ وصارت الشغل الشاغل للعرب جميعا يكتب نقولا حداد عديداً من المقالات فى «المقتطف» و«الرسالة» و«منبر الشرق» كرسها للهجوم على الصهيونية وعلى نظرية «شعب الله المختار». وكان نقولا حداد فوق ذلك كله فنانا يعشق الموسيقى الشرقية يكتب عنها عشرات المقالات ويهاجم أشهر المغنين أم كلثوم وعبد الوهاب وفريد الأطرش، إذا استخدموا ألحاناً غربية قائلا: «إنهم يفسدون الذوق الشرقى الأصيل».

ويتقدم العمر بنقولا فيقضى وقته فى الكتابة ويمضى أوقاته كل صباح فى محل «لوك» قرب ميدان سليمان باشا، أما أمسياته فكانت جميعا فى النادى الشرقى، حيث مقر حزب التجمع الآن. وفى هذه الجلسات كان يلتف حوله عدد من تلاميذه ومنهم وداد سكاكينى وزوجها د. زكى أبو المحاسن ومحمد عودة ووديع فلسطين وعلى أدهم وغيرهم.

وعانى نقولا فى حياته اضطهادا، ذلك أنه قد صنف كشيوعى كما ورد فى تقرير للأمن البريطانى الذى وصفه بأنه «صريح فى التعبير عن آرائه السياسية، ويمكن القول بأنه اشتراكى ثورى له ميول شيوعية» (F.O. ١٤١ ـ ٧٩٩) وتسبب ذلك فى حرمانه من منصب رئيس تحرير «المقتطف». ولكنه ظل صامداً. وظل يتردد على النادى الشرقى. ليلقى محاضراته ويجلس إلى تلاميذه. وذات مساء كان مريضا وارتفعت حرارته، وألحت عليه

«روز» أن يعتذر عن محاضرته لكنه صمم وألقى محاضرته بصوت واهن وكان عنوانها «جاذبية الأكوان وجاذبية الحسان» وخرج إلى بيته فى ليلة شديدة البرودة.. وأصيب بالتهاب رئوى ورحل. وكان ذلك فى ديسمبر ١٩٥٤. ويبقى أن نقول إن نقولا حداد هو عم الشهيد د. فريد حداد الذى استشهد فى سجن أبو زعبل، وأيضاً خال إدوارد سعيد المفكر الأشهر.

رفيق جبور

«كنا ممن اندمج فى حركة العمال منذ تجددت نهضتهم إلى الآن، وجاهدنا معهم وتمشينا وإياهم درجة درجة، فاختبرناهم واختبرونا».
رفيق جبور

نحن الآن مع مناضل أرستقراطى النشأة، ملتهب الموقف، منحاز تماما لطبقة العمال وللاشتراكية.

رفيق حبيب جبور ولد عام ١٨٨٢ فى زحلة (لبنان) لأب طبيب أرستقراطى، وبفضل موقع والده اختارته دولة إيران قنصلا فخريا لها فى إستنبول وهو لم يزل فى العشرين من عمره، وإذ تشتعل الحرب العالمية الأولى وبدأ الشريف حسين فى الإعداد لإعلان الثورة العربية ضد الخلافة العثمانية كانت ثمة نقطة ضعف تقلقه، وهى أن دولة الخلافة كانت كعادتها تحتجز أبناء الأمراء لديها لضمان ولاء الآباء، وهنا يتحرك القنصل المستند إلى حصانته الدبلوماسية والمتقد حماسا ضد دولة الخلافة وتسلطها على العرب فيقوم بتهريب الابن «الأمير فيصل» من إستنبول، وأعطى بذلك إشارة البدء للشريف حسين كى يتحرك بثورته ضد الخلافة التركية.

ويتلقى القنصل الشاب رسالة شكر من الشريف حسين ما زالت أسرته تحتفظ بها حتى الآن. ويتلقى فى ذات الوقت تأنيبا شديدا من إيران، أما الحكومة العثمانية فقد أرسلت لإيران احتجاجا شديد اللهجة واعتبرت «رفيق» شخصا غير مرغوب فيه، فقررت الحكومة الإيرانية نقله قنصلا فى الإسكندرية.

وإذ تلتهب الحركة الوطنية المصرية ينسى رفيق جبور فى خضم تعاطفه الجارف معها وضعه الدبلوماسى وانخرط بحماس فى إطار حركة تضم عددا من اليساريين اللبنانيين المقيمين فى مصر. وتوالت احتجاجات سلطات الاحتلال على نشاط القنصل، وحاولت

الحكومة الإيرانية إغراءه بمنصب أكثر أهمية وهو القنصل العام لإيران بالقاهرة، لكنه ركل ذلك كله وانخرط بحماس فى العمل الثورى تاركا المركز الاجتماعى المرموق والمرتب الضخم.. وعمل صحفيا.

وبعد فترة قصيرة من العمل فى جريدة «المحروسة» التحق بجريدة «النظام» التى كان يصدرها السيد أفندى على صاحب أول محاولة لتأسيس حزب عمالى فى مصر، وعلى صفحات «النظام» تألق رفيق جبور كصحفى ثورى وطنى واشتراكى، ويذكر التاريخ له أنه كان أول من رفع شعار «مقاطعة لجنة ملنر»، وما لبث جبور أن انضم هو وعدد من مؤسسى المنظمة اليسارية اللبنانية فى مصر «جماعة لبنان الفتى»، ومنهم أنطون مارون وشفيق باسيور وأديب قشعمى وفؤاد الشمالى، إلى الحزب الاشتراكى فور تأسيسه عام ١٩٢١ لكنه ما لبث أن قبض عليه بتهمة الاشتراك فى عملية اغتيال السير لى ستاك، ولأن «النظام» كانت تصدر رسميا كجريدة وفدية فقد نشرت «الأهرام» نقلا عن «المورننج بوست» الإنجليزية أن ثمة أدلة تؤكد «علاقة الوفد بدسائس البلاشفة التى يلجأ إليها الوفد بلا ضمير فى حربه ضد الإنجليز» (الأهرام ١٩٢٥/٦/٣) أما «الديلى تلغراف» فتقول: «إن أخطر ما كشفه البوليس هو العلاقة الوثيقة بين دسائس البلاشفة وحملة القتل وعلاقة ذلك بحزب الوفد لأنه يوجد بين المقبوض عليهم طاهر أفندى العربى المحرر بكوكب الشرق ورفيق جبور المحرر بجريدة النظام وهما صحيفتان وفديتان» (الأهرام ١٩٢٥/٨/١).

ويفزع سعد زغلول من هذه الحملة، ويذكر الجميع بأنه هو الذى أصدر قرار حل الحزب الشيوعى المصرى عام ١٩٢٤، وينفى سعد زغلول هذه العلاقة فى مذكراته قائلا: «إن وزارة الشعب كانت عنيفة على الشيوعيين، وإنها أرسلت الكثيرين منهم إلى القضاء» (مذكرات يوم ١٩٢٥/٦/٤). وفى ٦ أكتوبر ١٩٢٤ أصدرت محكمة جنايات الإسكندرية أحكاما بالسجن ثلاث سنوات على عدد من قادة الحزب، وإعلانا للتحدى تشكلت فى ذات اليوم لجنة مركزية جديدة للحزب الشيوعى كان رفيق جبور عضوا فيها وتولى مسئولية الإعلام، واتخذ رفيق اسما سريا هو محمد صديق عنتر، ومضى كالإعصار فى مواجهة حملة العداء ضد الاشتراكية والاشتراكيين، وأسرع بترجمة كتاب «خلاصة المبادئ الاشتراكية» لكارلوس رابورت.

وأضاف إلى الترجمة المتقنة مقدمة وخاتمة توضحان المبادئ الأساسية الواردة فى

الكتاب، وفى المقدمة يحذر محمد صديق عنتر القارئ قائلا: «ليس هذا الكتاب رواية فتطالعه على عجل، ولا صحيفة إخبارية فتلقى عليه نظرة سطحية ثم تلقيه من يدك فى زوايا النسيان»، ثم يمضى قائلا: «فأنا كنت حائرا مثلكم فى معرفة نهاية الطريق الذى تدفعنا إليه الهيئة الاجتماعية الحاضرة، وقد عرفت هذه النهاية الآن، وهى أننا واصلون حتما ولا محالة إلى سيادة المبادئ الاشتراكية التى عرضتها عليكم فى هذا الكتاب، ومن ثم ترتاح الإنسانية من تنازع الطبقات، ومن ظلم الإنسان لأخيه الإنسان فاقرأوا هذه المبادئ وادرسوها واحفظوها فهى التى ستسود بلا ريب» (ص٣).

وفى الخاتمة يكاد رفيق جبور أن يعلن للقارئ وللمجتمع أن اسم محمد صديق عنتر هو اسم سرى لأحد قادة الحزب، فيقول: «وسيتبع كتابى هذا كتب أخرى، فكلما رأيت اسم رفيقك محمد صديق عنتر على كتاب فاعرف أنه مقدم إليك منى، وقد سميت نفسى رفيقك وأنا متأكد أنك طالما تقتنع بهذه المبادئ سنصبح رفاقا، وأن كاتب هذه الأسطر رفيق لك وها هو يبذل جهوده فى سبيل سعادة الطبقة العاملة فى المستقبل فهلا شاركته فى هذا العمل؟».

ويواصل رفيق جبور نضاله الإعلامى والتنظيمى النشط.. ويؤسس جريدة علنية هى «الحساب».

* * *

«وحزب العمال المصرى يجب أن يتألف من مختلف طوائف العمال ومن عمال الأرياف الذين يشتغلون بالزراعة. وهاتان الطبقتان هما أساس وأركان وجدران الحزب. وبعد ذلك لا بأس من قبول بعض أبناء الطبقات الأخرى».

رفيق جبور

وفى ١٩٢٥ يبدأ رفيق جبور معركة جادة بمناسبة إجراء الانتخابات البرلمانية، فتوجه إلى وزارة الداخلية طالباً الترخيص له بإصدار جريدة، وقبل منه الرسم المقرر، لكن الوزارة رفضت. فاستأجر جريدة «الحساب» وصدر العدد الأول فى ٦ مارس ١٩٢٥، وعاد اسم محمد صديق عنتر المصرى، ليتألق على صفحات «الحساب» معلناً منذ يومها الأول «لأجل الطبقة العاملة من فلاحين وعمال أنشأنا هذه الصحيفة، لأجل إسماع السلطات الحاكمة وباقى الطبقات فى مصر صوت هذه الطبقة البائسة المظلومة أقدمنا على هذا

العمل الشاق، فالطبقة العاملة هى أكثر الطبقات عدداً وأكثرها بؤساً وشقاء وأقله نصيباً من اعتناء الحكومة بها وإزالة المظالم عنها».

وفى الانتخابات البرلمانية التى أجراها زيور باشا بعد حل البرلمان الوفدى، يسعى الحزب إلى إيجاد منبر علنى يعمل من خلاله فأسس «لجنة الدفاع عن العمال والفلاحين»، وتنشر «الحساب» برنامجاً لهذه اللجنة، ويدعو محمد صديق عنتر المصرى الناخبين قائلاً: «لا تعطوا أصواتكم لأى شخص لا يقبل هذا البرنامج، ويعدكم بتنفيذه». وعلى صفحات «الحساب» يبدأ رفيق جبور معركة تأسيس الحزب وإعلانه من جديد. وكالعادة تنشر رسالة لقارئ مجهول تقول: «إنى أقدر الجهود التى تبذلها الحساب فى سبيل الطبقة العاملة ولكن عملها سيبقى ناقصاً وغير مثمر ما دام لا يوجد حزب عمال يتدرج ويقوى مع الزمن، ويتسلم بيديه الحديديتين حقوق ومطالب العمال. فما رأيكم دام فضلكم؟»، ويكتب «رفيق جبور» رداً على الرسالة – التى ربما كانِ هو نفسه كاتبها ـ ضمنه عديداً من المقالات، حول نظرية تأسيس حزب للطبقة العاملة وضرورة وجوده وممن يتكون والمواقف التى يتعين عليه أن يتخذها، ودور حزب الطبقة العاملة إزاء القضية الوطنية، ويعالج ذلك كله بأسلوب ماركسى راق وبسلاسة ويسر بحيث تصل الكتابة إلى أذهان العمال بسيطة ومفهومة. ونقرأ بعضا مما كتب: «لقد تقهقرت الحركة الوطنية منذ أن خرجت من يد الطبقة العاملة من فلاحين وعمال وتسلمتها الطبقة الخاصة من الباشوات وأرباب الأعمال»، ثم يقول: «إن للطبقة العاملة مطالب معروفة محددة وهى تريد الانضواء تحت راية الحزب الذى ينيلها مطالبها ويدافع عنها. وقد عرف العمال أنه لا فائدة ترجى لها من الأحزاب الحاضرة فيجب إذن أن تنشئ لنفسها حزبا خاصاً بها». ولكن ممن يتكون هذا الحزب؟ يسأل محمد صديق عنتر ويجيب «إنه يتكون من العمال وعمال الزراعة أساساً لكن الحزب المنشود يضم فى صفوفه خمس طبقات أو فئات: عمال المدن ـ عمال الريف ـ فقراء الفلاحين ـ المثقفين الثوريين ـ الحرفيين وصغار المنتجين الصناعيين ـ الفلاحين المتوسطين.. إلا أن العمود الفقرى للحزب ودماغه المفكر وقلبه النابض يجب أن يكون من العمال. وعلى قانون الحزب الاحتياط الشديد لعدم تمكين بعض أفراد الطبقات الأخرى التى تندمج فى الحزب من السيطرة عليه والتلاعب بمصالحه، بل يجب أن يكون حزب عمال للعمال ومن العمال. وعلى كل حال يجب أن تكون وتبقى السيطرة فى الحزب للعمال وحدهم».

ثم يسأل رفيق جبور: «والآن ما هى مرامى الحزب وأغراضه؟ هذا ما سنتكلم عنه فى العدد الآتى».

لكن العدد الآتى لا يأتى. فـ«الحساب» يلغى ترخيصها. ورفيق ورفاقه يقبض عليهم فى ١٩٢٥/٦/١ ووجهت لهم تهمة «ارتكاب جنايات القتل العمد، ونشر الأفكار الثورية المغايرة لمبادئ الدستور الأساسية، وتحبيذ تغيير النظم الأساسية للهيئة الاجتماعية بالقوة والإرهاب وبوسائل أخرى غير مشروعة، وانتهاك حرمة ملك الغير، وتأليف عصابة من العمال وصغار الفلاحين لمواجهة طائفة من السكان»، وعندما أتى البوليس للقبض عليه استقبلهم شامخاً هادئاً وتهكم قائلاً: «لا تفتشوا عن شىء فأنا لا أمتلك سوى قلمى فهل تضبطونه؟».

وفى المحكمة قدم دفاعاً سياسياً وطبقياً حاداً وعنيفاً هاجم الحكم والنظام الرأسمالى ودافع عن الاشتراكية وأعلن تمسكه بها وهاجم القضاة واتهمهم بالعمالة. وأدان الاحتلال والحكومة الموالية له. واحتار القضاة، فهو لم يضبط معه شىء سوى قلمه. وما كتبه من مقالات لا تتضمن فعلاً مجرماً. لكن القضاة عرفوا كيف ينتقمون منه.. حكم مخفف (ستة أشهر حبس) مع إبعاده عن البلاد فور قضاء مدة العقوبة. فوقف غاضباً صاخباً صارخاً فى وجه القضاة: «إننى أحتج ليس على السجن وإنما على الإبعاد من بلد أحبه وأحب ترابه، وأفنيت أغلب عمرى مناضلاً من أجل شعبه»، واختتم خطابه الملتهب مهدداً القضاة المذهولين: «سأعود. سأعود لمصر. سأعود يوم تكون مشانقكم قد نصبت فى ميدان المحطة».. وتنتهى فترة السجن فيقتادونه هو وأسرته إلى المركب لترحيله إلى لبنان. ويروى ابنه روفائيل فى رسالة خاصة تلقيتها منه مؤخرا أن شرطة خفر السواحل قد رافقت المركب لمسافة عشرين ميلاً، وكان رفيق يضحك قائلاً: «هل يظنون أننى سأعود سباحة؟».

وعندما وصل إلى بيروت كان البوليس الفرنسى فى انتظاره حيث اقتادوه لمقابلة الكولونيل كاترو الذى حذره من الاشتغال بالسياسة، وحاصروه حصاراً خانقاً حتى كانوا يقبضون على كل من يلقى عليه التحية، فترك لهم لبنان وسافر إلى فلسطين حيث رأس تحرير صحيفة «فلسطين» التى ألهب صفحاتها هجوماً على الاحتلال وعلى الصهيونية ودفاعا عن عروبة فلسطين. وبعد بضعة أشهر دخل المستشفى لإجراء جراحة بسيطة لكنه توفى أثناء إجراء العملية. ويؤكد ابنه أن المخابرات البريطانية تآمرت على حياته وتخلصت

منه، ويؤكد هذا الشك بأن الإنجليز رفضوا نقل جثمانه إلى بيروت، رغم إلحاح أسرته، خوفاً من تشريحها ومعرفة سبب الوفاة.

ويرحل القنصل العام.. والمناضل الأرستقراطى الأصل، المدافع الصلب عن العمال والفلاحين. تاركاً تراثا فكريا ونضاليا أكثر من رائع.

سلامة موسى

«يجب أن يتساوى الناس فى فرصة الإثراء. وذلك باصطناع نظام اشتراكى أو شبه اشتراكى حتى لا يولد واحد غنى وآخر فقير»
سلامة موسى

وسلامة موسى هو فى اعتقادى أول مفكر موسوعى مصرى. ولعله واحد من المثقفين النادرين فى التاريخ المصرى الذين تفرغوا للبحث والثقافة والكتابة ولم يلجأ إلى الوظيفة فحرر نفسه من قيودها مستنداً إلى ميراث ورثه عن أبيه. عدد من الأفدنة سميت عزبة، كانت تدر عليه إيراداً شهرياً يصل إلى ثلاثين جنيهاً. اكتفى سلامة موسى بها وتفرغ للثقافة.

والحقيقة أن والده الذى تولى منصبا حكوميا رفيعا «رئيس تحريرات مديرية الشرقية» قد تعب كثيرا فى إكراه هذا الفتى المتمرد على الانتظام فى سلك الدراسة. تعثر الفتى طويلا ولم يحصل على شهادة الابتدائية إلا فى عام ١٩٠٣ أى فى سن السادسة عشرة. وبعدها انطلق إلى القاهرة ليلتحق بمدرسة التوفيقية ثم الخديوية، لكنه نحى الكتب الدراسية وغادر المدرسة وتفرغ للقراءة، وتنوعت قراءاته تنوعا مثيرا للدهشة والحيرة.. قرأ رفاعة الطهطاوى ومحمد عبده وشبلى شميل وفرح أنطون وتولستوى وبرنارد شو وجوستاف لوبون وداروين وترجمات عديدة كانت تتلاحق فى مجلات «الجامعة» و«المقتطف» و«الهلال» وغيرها. ثم تمرد على هذه القراءات التى اعتبرها محدودة وانطلق إلى باريس. ويروى سلامة موسى فى كتاباته كيف انطلقت أنفاسه انبهارا بجريدة «الأومانيتيه» التى كانت تصدر عن الحزب الاشتراكى، وكيف تلمس على صفحاتها أول أحرفه الهجائية فى أبجدية الاشتراكية.

ويدهش الفتى خلال إقامته الباريسية من الاهتمام الفرنسى بدراسة الحضارة

الفرعونية، وتزداد دهشته إذ يقارن هذه المعرفة الفرنسية بالتاريخ الفرعونى بالجهل المصرى والتجاهل لهذا التاريخ. وكعادته يتخذ سلامة موسى قراراً غريبا فيعود من باريس مباشرة إلى الصعيد ليقضى شهرين متأملاً فى آثار الفراعنة، وهكذا يمزج الفتى سلامة بين عشقه للاشتراكية والعشق الجديد للحضارة المصرية القديمة.

ولعل البعض من أقاربه قد مارس عليه ضغوطا بأن ينضبط فى دراسة مدرسية ليحصل على شهادة، وبالفعل انتسب إلى كلية الحقوق لكنه لم يطق صبراً، فنحى الكتب المدرسية وعاد إلى قراءاته الموسوعية وإلى إتقان اللغتين الإنجليزية والفرنسية ليسلك عبرهما سبيل المطالعة المتنوعة.

وانضم سلامة موسى إلى «جمعية العقليين» و«الجمعية الفابية» فى لندن. وفى الجمعية الأولى تعرف على أفكار داروين والداروينيين وفى الثانية تعرف على النزعة الاشتراكية فى طبعة إصلاحية فابية. وزاد انبهار سلامة بالفكر الفابى بسبب نزعته الإصلاحية الهادئة وبسبب نهوض برنارد شو أحد قادة الفكر الفابى بالهجوم على جريمة الاحتلال البريطانى فى دنشواى. وفى هذه الفترة الثانية من رحلته المعرفية طالع سلامة موسى كثيرا من كتابات برنارد شو، سبنسر، نيتشه، تولستوى، غاندى، أوين، إبسن، وحتى كروبتكين صاحب مذهب «العدميين» (النهيليست) قرأ له وترجم له كتاب «نداء إلى الشباب».

وقد بدأ سلامة أول معاركه الفكرية بإصدار كتاب «مقدمة السوبرمان» الذى ردد فيه بالأساس أفكار نيتشه ذات الصبغة العنصرية، ففى هذا الكتاب ينصح المصريين بالزواج من غير المصريات حتى يحسنوا النسل المصرى، ويردد فى الكتاب أفكاراً شديدة العنصرية «فالأبيض أرقى من الزنجى، ذلك أن الزنجى كان منذ مائة عام فقط يأكل الإنسان ومن المستحيل أن تكون مشاعره كمشاعرنا مهما طلى نفسه بآداب السلوك»، لكنه ـ ويا للدهشة ـ يردد فى صفحات هذا الكتاب العنصرى النزعة، أفكاراً اشتراكية فيقول: «ومما يساعد على رقى الأمة أن نجعل ناموس تنازع البقاء يجرى بلا إجحاف بين الناس. ولا يكون ذلك إلا إذا استوت أمامهم الفرص المعيشية بحيث لا يمتاز أحدهم عن الآخر إلا بكفايته الذهنية أو الجسمية، فيجب أن يتساوى الناس فى فرصة الإثراء، فقد يكون الغنى أحط ذهنا وجسما من الفقير ولكن امتيازه بالمال الموروث يعينه»، وبرغم أن هذه الكلمات تظل ملغومة بفكرة عنصرية تعطى للأقوى جسمانيا ميزة على الآخرين فإن ملامح

الاشتراكية توحى بصراع فى ذهن هذا الفتى الموسوعى القراءة. لكن هذا الكتاب لم يسلم من شجاعة المصادمة مع رجال الدين، «فالدين إذا خرج من دائرة علاقة الإنسان بالكون وأخذ يقرر أصول المعاملة بين الناس من تجارة وزواج وامتلاك وحكومة ونحو ذلك فإنه عندئذ يقرر الموت لكل من يؤمن به»، ثم هو يعلن تمسكه بالدين مؤكداً «إن الدين ضرورى لكل أمة ولكل فرد، ولا يمكن أن يعيش الإنسان بلا دين، لأنه ما دام قد شرع يفكر فى الكون زمانا ومكانا فقد شرع يفكر فى الدين» (مقدمة السوبرمان ـ ص٣١).

إنها بدايات قد تبدو مرتبكة وتختلط فيها الأفكار المتناقضة لكنها كانت ومنذ البداية توحى بأن صاحبها يوشك أن يرسو بقاربه الفكرى على شاطئ مزدهر.

ويحتاج سلامة موسى إلى عام أو عامين حتى ينضج فكره الاشتراكى الإصلاحى ويصدر فى عام ١٩١٣ كتابه «الاشتراكية».

* * *

«ومع أنى فى كتاب "هؤلاء علمونى" قد ذكرت عشرين من الأدباء والعلماء والمفكرين، فإنى لم أذكر معهم كارل ماركس داعية الاشتراكية. والآن أحب أن أعترف بأنه ليس فى العالم من تأثرت به وتربيت عليه مثل كارل ماركس. وإنما كنت أتفادى ذكر اسمه خشية الاتهام بالشيوعية».

سلامة موسى

وإذ نطالع كتاب سلامة موسى «الاشتراكية» وهو أول كتاب عربى يحمل هذا العنوان، نكتشف أنه يحمل نزعة إصلاحية وفابية واضحة. ربما بسبب علاقته بالفابيين الإنجليز وربما لأنه خشى أن تكون الاشتراكية الحقة كثيرة على الذهن المصرى فى ذلك الحين. فهو يقول فى مقدمة الكتاب: «تدعونى إلى كتابة هذه الرسالة الموجزة كثرة السخافات والغباوات التى تحكى عن الاشتراكية.. فغرضى الأول منها هو تنوير الرأى العام عن ماهيتها. ولست طامعاً أن تعد هذه الرسالة دعوة للجمهور إلى الاشتراكية ولا أن تكون سبباً فى تأليف حزب أو جمعية، ولكنى أطرحها أمام الجمهور القارئ عسى أن تكون خميرة تختمر بها الأفكار إلى حين تستعد البلاد للاشتراكية» (ص٥). هل هذا هو السبب؟ أم أن هناك سببًا آخر قاله صراحة فى زمن متأخر؟ «ولو كنت قد وجدت الحرية أيام

الحكومات الملوكية السابقة لألفت فى الاشتراكية بما كان يوجه ويرشد» (تربية سلامة موسى ـ ص٢٩٠).

ولقد تزداد الصورة وضوحاً فى رواية ذكرها أحد أصدقائه فقال: «إن سلامة كان أثناء عودته من إحدى رحلاته إلى أوروبا سنة ١٩٥٠ كان يقرأ كتاب "رأس المال" لكارل ماركس وهو على ظهر السفينة، وكان لقلقه وخوفاً من التجسس والمطاردة يلقى فى البحر كل ورقة بمجرد الانتهاء منها» (محمود الشرقاوى ـ سلامة موسى المفكر والإنسان – ص٤٤٠). لكن ذلك لم يمنعه مطلقا من الكتابة والتبشير والنضال من أجل الاشتراكية. فهو واحد من أربعة (سلامة موسى ـ محمود حسنى العرابى ـ محمد عبد الله عنان ـ على العنانى) وقعوا بيان تأسيس الحزب الاشتراكى المصرى (الأهرام– ٢٩ أغسطس ١٩٢١). ونقرأ فى هذا البيان: «فى تلك الآونة التى تعصف فيها النظم الرأسمالية الفردية بحياة بنى الإنسان وأرواحهم وعقولهم وجهودهم، تبث النظم والمبادئ الاشتراكية فى الأفئدة المعذبة لإنجاد الإنسانية وإغاثتها من بطش القوى الظالمة وتحقيق غايات العدالة الطبيعية»، وأيضاً: «لقد امتدت يد الاستعمار والافتيات إلى مصر فاستلبت حريتها عملا بسياسة تلك النظم الرأسمالية سعياً إلى استثمار أرزاقها واستغلال جهود بنيها.. لذلك كان من الضرورى أن يمتد إلى تلك البلاد صراع المبادئ الاشتراكية العادلة ضد هذه النظم الرأسمالية سعيا لتخفيف ظلمها وويلها الفادح. وتحقيقا لهذه الغاية نهض إخوان العمل فى مصر لتأليف الحزب الاشتراكى»، لكن سلامة موسى لا يلبث أن ينسحب من الحزب إذ تحول إلى حزب شيوعى مبرراً انسحابه بأنه يعتقد «أن البلشفية كثيرة الآن على حزب مصرى» (ونلاحظ هنا أنه لا ينتقد البلشفية بل ينتقد استعجال القول بها). كما أنه رفض الارتباط بالحركة الشيوعية العالمية قائلاً: «أراد مبتدئو الحركة فى مصر أن تكون صيغتها مصرية بحتة تتكيف بتكيف المزاج المصرى ولا تنقل عن أوروبا نقلاً، كما أرادوا أن ينهجوا نهج الاعتدال والثقة فى خطتهم بحيث لا يجد ولاة الأمور مجالا للتخوف أو الشدة فى سيرهم» (الأهرام ـ ١٩٢٣/٣/٤). لكن سلامة موسى ظل متمسكا بأخلاقيات الفرسان فلم يتنصل من زملائه الذين قبض عليهم بعد حل الحزب، ولم يندد بما فعلوا. بل إنه ظل يخترع أى ثقب إبرة ليتحدث عن الاشتراكية والبلشفية والشيوعية مدافعا عنها. والنماذج عديدة منها مثلا أنه كرس باب البريد فى «المجلة الجديدة» لأسئلة هى فى الغالب مصطنعة مثل

«القارئ ع.ج من الإسكندرية يسأل، أو القارئ ر. من البرازيل يسأل عن الفارق بين الاشتراكية والفابية والبلشفية والشيوعية» (١٩٣٠/٨/١) والإجابات تكون علمية ودقيقة وشارحة للألفاظ بشكل إيجابى. لكن هذا الحذر لم يمنع حملات الهجوم ضده فى مقالات عدة وكتب كثيرة وهو يعلق بشجاعة على كتاب ضده صدر دون اسم صاحبه فيقول: «سألت عن كاتبه فى إدارة المطبوعات فعرفت أنه ابن أخ رشيد رضا الصحفى الذى وفد إلى بلادنا كما تفد الطواعين، وخص نفسه بشتم الشبان المصريين واتهامهم بالإلحاد والشيوعية»، وبعد أن يورد نماذج من شتائم مقذعة وردت بالكتاب يقول: «وهكذا بحيث إنك تحتاج إلى أن تغسل يديك عقب قراءة هذا الكتاب. وقد تناولنا هذا السافل بتهمة الشيوعية والدعاية لها فوضع نفسه فى الوضع الذى يستحقه وهو وضع الجاسوس» (المجلة الجديدة - يوليو ١٩٣٠).

ورغم الهجمات يواصل سلامة موسى معاركه الفكرية ونضاله الوطنى والسياسى وأسس «المجمع المصرى للثقافة العلمية»، وجمعية «المصرى للمصرى» التى دعت إلى الاستقلال الاقتصادى، قائلا: «أيها الشباب المصرى كفوا عن معاملة الأجانب، لا يشترى أحد منكم شيئا إلا من صانع أو تاجر مصرى، فبهذا وحده يمكننا أن نحقق استقلالنا»، وكان سلامة يغضب كل يوم مرتين إذ يمر آتيا أو ذاهبا إلى جمعية الشبان المسيحية مارا بشارع فؤاد (٢٦ يوليو) فلا يجد أى محل مصرى فيه، وظل كذلك حتى استطاع أن يقنع بنك مصر بافتتاح شركة بيع المصنوعات المصرية فى هذا الشارع، ودفعت جمعية «المصرى للمصرى» تبرعا للإسهام فى افتتاح الفرع قدره ألف جنيه.

وفى عام ١٩٤٦ يقبض على سلامة موسى للمرة الأولى والأخيرة فى حملة إسماعيل صدقى على كل القوى الوطنية والتى سميت «قضية الشيوعية الكبرى»، وفى عام ١٩٥٨ يرحل سلامة موسى بعد أن أودع العقل المصرى أكثر من خمسين كتابا تنوعت فى مختلف فروع المعرفة ومئات الدراسات والمقالات لكنك تلمس فى كل منها، ومهما تنوعت أو حتى تبدت وكأنها متباعدة عن السياسة، نزعة أو لمحة اشتراكية.

مصطفى حسنين المنصورى

«كثيراً ما نسمع عن الاشتراكية.. لكن قليلا منا من يفهم حقيقتها»
مصطفى حسنين المنصورى

وبعد سنوات من استنشاق عطر الماركسية الآتى من الخارج، يكون من حق مصر أن تصنع عطرها الماركسى الخاص بها.

ويأتى هذا العطر على يدى ناظر مدرسة طوخ الإعدادية، مصطفى حسنين المنصورى، ونستمع إلى حكاية هذا اللقاء.

فى عام ١٩١١ زرت مكتبة «ديمرة» بمبنى فندق شبرد ولفت نظرى كتابان «رأس المال» لكارل ماركس، و«تاريخ الاشتراكية». وانبهر المنصورى بهذا الضوء الجديد وقضى حوالى أربعة أعوام وهو يدرس ويجمع الأدبيات الماركسية المتاحة، يقرأ ويدرس ويعيش الواقع المصرى ويتأمل عبر المقارنة بين الكتابات والواقع وأيضا برؤية انتقادية حازمة استطاع أن يستخلص أول قطرات من عطر الماركسية المصرى المذاق.

وفى ١٩١٥ أصدر المنصورى كتابه «تاريخ المذاهب الاشتراكية»، وعلى غلاف الكتاب نقرأ عبارة لألفريد راسل: «لقد كنا نعتصم عبر القرون الماضية بالباطل فجنينا وما زلنا نجنى الشقاء والدمار، وقد حان الوقت الذى يجمل بنا فيه أن نغير طرقنا الفاسدة وأساليبنا العقيمة». ويحاذر المنصورى من طرح أفكار الماركسية فى بلد محتل، متخوفا من أن ينتقده البعض لأن المرحلة هى للتحرر الوطنى وليس للصراع بين طبقات المجتمع فيقول فى مقدمة الكتاب: «وإذا كان مركزنا السياسى لا يسمح لنا باعتناق هذا المذهب الذى ينتشر انتشارا عظيما، فنحن واصلون حتما إلى ما وصلت إليه أوروبا، ولا بد من مجىء يوم يكون للاشتراكية فيه شأن يذكر بيننا». وهكذا نبدأ رحلتنا مع أول كتاب

مصرى النكهة والمنطلق للماركسية، صحيح سبقته كتابات عدة لشبلى شميل وفرح أنطون وسلامة موسى، لكن هذا الكتاب تجاوز حدود التبشير العام بالماركسية إلى ساحة جديدة تتذوق فيها مصر ماركسية محلية خاصة بها، ونقرأ فى صفحات الكتاب..

«إن الطريق الوحيد لإسعاد البشر هو منع التملك الفردى، وجعل رأس المال فى قبضة العمال أنفسهم، أما فى المسائل الزراعية فالنقابات الزراعية تقوم بما تقوم به جمعيات الصناع وبالطريقة ذاتها»، ثم.. «إن النظام الاشتراكى يقضى بإلغاء الملكية الفردية، بمعنى أنه لا يجوز للفرد أن يمتلك أرضا أو معملا أو منجما أو أى ثروة تحتاج فى إنتاجها إلى عامل أو عمال»، أما كارل ماركس فهو «الرجل الذى هذب مبادئ الاشتراكية وكرس حياته لنصرتها وبذل ما لم يبذله سواه فى سبيل تحقيق مبادئها حتى استحق عن جدارة اسم مؤسس الاشتراكية العلمية»، وإذ يؤكد المنصورى أن «الاشتراكية» هى الحل الأمثل للحياة الاجتماعية المتسمة بالعدل فهو يؤكد: «ويمكننا القول إنه سيأتى يوم تكون فيه الاشتراكية مذهب جميع الأمم المتمدنة».

ويتلمس المنصورى وبحس علمى باهر، الفارق بين الواقع الأوروبى والوضع الاجتماعى فى مصر فيقول: «وتختلف مناهج الاشتراكيين باختلاف البلاد التى هم فيها، فتراهم فى البلاد الديمقراطية كإنجلترا وفرنسا يقدمون مطالبهم إلى ولاة الأمور، ولا يتحرشون بالحكومات ولا يناوئون موظفيها، أما فى البلاد الاستبدادية كروسيا مثلا فإنك تراهم يجنحون إلى الشدة وسفك الدماء لأنهم رأوا أن السلطة الإدارية تطاردهم فى كل مكن ولا تلتفت إلى مطالبهم»، وهكذا يوضح المنصورى أن ثمة سبلا متعددة أمام النضال الاشتراكى تتراوح بين التطور السلمى والنضال البرلمانى وبين الثورة المسلحة، ثم يعود ليؤكد: «وعلى ذلك يكون من الخطأ أن نتصور أن الاشتراكية هى مبادئ ثابتة غير قابلة للتعديل والتحوير، وأن دعاتها يظهرون بمظهر واحد فى جميع الأمم، ذلك أنهم وإن كانوا جميعا متفقين على الهدف الذى يريدون الوصول إليه، إلا أنهم، يختلفون فى الطرق التى تؤدى إلى هذا الغرض باختلاف شكل الحكومات والنظام الاجتماعى فى بلادهم» (ص٩).

ونتوقف لنتأمل العبارات، فهى التى تميز المنصورى عمن سبقوه من دعاة الماركسية والذين كانوا فى أغلب الأحيان يكتفون بترجمة الأدبيات الماركسية أو بعض منها ويقدمونها على أنها وجبة فكرية موحدة تطبق فى كل مكان وفى كل مجتمع، بغض النظر

عن أى اختلاف بين هذه المجتمعات. لكن المنصورى يؤكد على مبدأين أساسيين أولهما: اختلاف سبل النضال من أجل إقامة مجتمع اشتراكى باختلاف الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية. أما الثانى فهو أن الاشتراكية يتعين عليها عند التطبيق أو حتى عند شرح أهدافها فى كل مجتمع أن تتخذ من الواقع المحلى سبيلا لتطوير نفسها عبر سبل وأفكار تنبع من الواقع، ولأن الواقع متغير ويتغير مكانا وزمانا فإن المقولات الماركسية يتعين عليها أن تتغير مع كل جديد.

إنه تطوير لفكرة إنجلز التى تقول: «تتغير الماركسية مع كل اكتشاف علمى جديد»، هذه الفكرة التى تدعو لتطوير الماركسية الأوروبية مع تغير الأوضاع الاقتصادية والاكتشافات العلمية التى تتطور بموجبها آليات الإنتاج والمعرفة، لكن عبقرية المنصورى تنسج من أوضاع مصر فكرة جديدة، فالواقع الطبقى والإنتاجى والاجتماعى المختلف يفرض اختلاف المنطلق الماركسى.

ولأن خصوم الماركسية قد سارعوا بالهجوم عليها باعتبارها ضد الدين، إذ إنهم لم يروا سبيلا لانتقادها إلا باختراع هذه الأكذوبة، فقد سد المنصورى الطريق أمامهم قائلا: «لا شك أن معظم الاشتراكيين قد تأثر قليلا أو كثيرا بالفكر المادى، لكن ذلك لا يضعهم فى موضع ضد الدين وإنما هم يرون أن الدين والاشتراكية ليسا متناقضين فكليهما يرمى إلى نصرة الضعيف، ثم إن الاشتراكيين لا يجدون سببا لمحاربة الدين وإنما هم يحاربون بعض رجاله ممن يريدون إبعادهم عن التدخل فى أمور السياسة والتعليم» (ص٨٣).

وعبر هذا الطريق الصعب الذى يشقه المنصورى محاولا أن يستخلص ماركسية مصرية المحتوى والمذاق والأهداف، واصل المنصورى رحلته..

* * *

«لا شك أنه سيكون انتشار الاشتراكية بين الناس هو إحدى ثمار ما نحن فيه»

مصطفى حسنين المنصورى

محاولا تقديم عطر ماركسى مصرى، ومؤكدا أن النص الماركسى ليس قيداً على أى مناضل فى سبيل الاشتراكية، وإنما يتعين عليه أن يتلاءم مع الواقع زمانا ومكانا، وهكذا نكتشف أنه سبق أجيالاً من الماركسيين فى أنحاء كثيرة من العالم، إذ رفض عبادة النص

وأكد إمكانية مخالفته. فهو على سبيل المثال يتحدث عن «البيان الشيوعى» قائلاً إنه «أول برنامج وضع للأحزاب الاشتراكية ولا يزال يرجع إليه فى بعض الأمور، إلا أن بعض مبادئه قد أصبحت عتيقة» (ص٤٧). ونتوقف أمام هذه العبارة الشديدة الجرأة والمفرطة الشجاعة «إلا أن بعض مبادئه قد أصبحت عتيقة» أى أنه من الضرورى تجاوزها وابتكار أحكام جديدة تتلاءم مع الواقع الجديد. وكان ذلك فى عام ١٩١٥، بينما العديد من الماركسيين فى كل أنحاء العالم كانوا ولم يزالوا، وربما حتى الآن، يقدسون النص ويرفضون تجاوزه ويتصورون أنه صالح لكل زمان وكل مكان. وبعد ذلك قدم المنصورى فى كتابه برنامجاً اشتراكيا يتلاءم مع الواقع المصرى والزمان الذى صدر فيه. لكنه مع ذلك يعرب عن حرص شديد، وتواضع أشد فهو يسبق البرنامج بعبارة تقول: «وليس قصدى أن يكون هذا البرنامج برنامجا لحزب اشتراكى مصرى، فإننى أرى أن الوقت لم يحن بعد للقيام بهذا العمل، الذى يتطلب كفاءة علمية وأدبية لم تتوفر لدينا بعد».

وقد دفع المنصورى ثمناً باهظاً لانتمائه الفكرى، ولإصداره هذا الكتاب. والحقيقة أن هذا الانتماء وذاك الكتاب كانا يمثلان مغامرة كبيرة لشخص صعد سريعاً فى السلم الوظيفى.. فقد صعد من مدرس إعدادى بالدقهلية إلى ناظر مدرسة إعدادية فى طوخ ثم مديراً للتعليم فى القليوبية. وإذ يحاذر المنصورى فى كتابته فإنه يواصل أداء مهمته الشاقة كبستانى يغرس أزهار الاشتراكية فى أرض الوطن. فترجم كتاب «مساوئ النظام الاجتماعى وعلاجها» لتولستوى، وكتاب «التقدم والفقر» للمفكر هنرى جورج. وبرغم النظرات المتجهمة واصل المنصورى معركته الفكرية. وإذ تبدأ مرحلة تأسيس الحزب الاشتراكى المصرى وجهت له الدعوة لحضور الاجتماع التأسيسى، وتجاوز الرجل حدود موقعه الوظيفى وحضر الاجتماع. من هنا كانت النقطة الفاصلة. استدعاه مدير القليوبية وأبلغه بضرورة التوجه لمقابلة محافظ القاهرة، ويمضى المنصورى فى روايته: «واستفسرت منه عن السبب فلم يجبنى. وتوجهت لمقابلة محافظ القاهرة فى الموعد المحدد وهناك وجدت عديداً ممن حضروا اجتماع تأسيس الحزب الاشتراكى، ونصحنا المحافظ متجهما بعدم العودة لذلك وإلا تعرضنا للعقاب» (أمين عز الدين ـ المنصورى، سيرة مثقف ثورى ـ ص٤٦).

واستمر المنصورى فى علاقة غير معلنة مع الحزب ذلك أن وضعه الوظيفى يمنعه

قانونياً من الاشتغال بالسياسة. ولكن الرياح العاتية لا تلبث أن تهب على الاشتراكية المصرية فيصدر قرار بحل الحزب، وتبدأ عملية المطاردة لأعضاء الحزب وأصدقائه. وكان المنصورى ممن نالهم عنت هذه المطاردة. فقد تذكروا كتابه «تاريخ المذاهب الاشتراكية» وتذكروا أن شيوخاً من الأزهر هاجموه آنذاك هجوماً شديداً واتهموه بالكفر لأنه طالب فى البرنامج الذى ضمنه فى هذا الكتاب بتحرير المرأة. ومنحها حقوقاً متساوية مع الرجل وبضرورة جعل الطلاق على يد القاضى، وبإصدار قانون لمنع تعدد الزوجات وقانون بمنع زواج القاصرات ورفع سن زواج الفتيات.

كانت المطاردة متعددة الاتجاهات وكلها تستهدف إسكات هذا الصوت الاشتراكى. فهو ما لبث أن قبض عليه بتهمة الاشتراك فى محاولة لاغتيال السلطان حسين كامل فى الإسكندرية وهو الذى لم يزر الإسكندرية فى حياته. وكانت هذه مجرد نماذج من مطاردة مطردة فور صدور كتابه عام ١٩١٥. ثم تضاعفت هذه المطاردة بعد حل الحزب فى عام ١٩٢٤. ثم تصل هذه المطاردة إلى ذروتها إذ يتعرض المنصورى لمحنة حقيقية فى عام ١٩٣٠، وكان أيامها مديرا للتعليم فى الفيوم فقد صدر ضده قرار اتهام إدارى يتضمن ١٧٤ تهمة من بينها الكفر والإلحاد وإنكار الأديان. واجتمع مجلس المديرية وأصدر قراراً بفصله نهائيا من خدمة الحكومة وصرف مكافأة نهاية الخدمة وقدرها ٣٠٠ جنيه. بما يعنى حرمانه من المعاش والاكتفاء بالمكافأة. لكن حمى الكراهية كانت قد أصابت الكثيرين فواصلوا مطاردته حتى نجحوا فى استصدار قرار من رئيس الوزراء بحرمانه من هذه المكافأة. وهكذا وجد المنصورى نفسه مطروداً من الوظيفة وبلا مكافأة. ويصف حاله قائلاً: «ولم يبق معى من حطام الدنيا إلا ١٥٠ قرشا وقطعة أرض بور كنت قد اشتريتها من مصلحة الأملاك الأميرية فى قرية الشواشنة».

واستقر الرجل فى هذه العزبة الصغيرة وشمر عن ساعديه وهو الذى تجاوز سن الأربعين ليبدأ من جديد، وبدأ فى استصلاح الأرض وزراعتها، أما الفلاحون البسطاء فقد أعلنوا عن تضامنهم معه.. إذ ساعدوه بسواعدهم فى استصلاح الأرض، وأطلقوا على العزبة بأكملها اسم «عزبة المدير» وكأنهم يتحدون قرار فصله من وظيفة مدير التعليم.

ولم تزل عزبة المدير وحتى الآن مستقرة بهذا الاسم بالشواشنة مركز الفيوم، مؤكدة، وحتى الآن، تحدى الفلاحين المصريين للظلم الذى حاق بهذا المفكر الماركسى.. وتعاطفهم معه.

جوزيف روزنتال

«ما كنت ولن أكون أبدا من أولئك الأعضاء الذين ينكرون اليوم بسماجة ما عبدوه بالأمس، فقد كنت ولا زلت وسأظل حتى آخر نسمة من حياتى شيوعيا كاملا ومخلصا إخلاصا تاما لقضية البروليتاريا».

جوزيف روزنتال

(من شهادته أمام النائب العمومى فى ٦/٣/١٩٢٤)

الاسم: جوزيف روزنتال

المهنة: جواهرجى - ١٦ شارع شريف - الإسكندرية

الجنسية: روسى، ثم تجنس بالجنسية المصرية

تاريخ الوصول إلى مصر: ١٨٩٩

ما أبأس أن تهب حياتك للدفاع عن قضية يتشكك أصحابها فى حسن نواياك، أو حتى يرفضون الاعتراف بما قدمت لهم ومن أجلهم من تضحيات.

لكن جوزيف روزنتال فعلها، نجح فى أن يغرس أقدامه ووجدانه فى التراب المصرى، أسس أول نقابة عمالية، نظم أول إضراب عمالى، أسس أول جامعة شعبية، دعا العمال للتعلم ومكنهم من ذلك. أسهم فى تأسيس أول مجموعة اشتراكية فى مصر، أسهم فى تأسيس الحزب الاشتراكى المصرى الأول.

لكن الحزب ما لبث أن أصدر قرارا بفصله، بناء على طلب قادم من الخارج، من قيادة الكومنترن، أما هو فقد ظل متمسكا بل ومتشبثا بموقفه الشيوعى، معلنا أمام الجميع، وفى تحد صارخ، تضامنه مع الحزب فى وقت محنته، فعندما صدر قرار حكومى بحل الحزب وسجن قادته وإغلاق مقاره، ومصادرة صحيفته، ومطاردة كل من يشتبه فى انتمائه إليه، وبينما الكثيرون يفرون أو يحاولون، يتنكرون للحزب وللمبدأ ولا يستنكفون، وقف روزنتال أمام النائب العام معلنا: "ما كنت ولن أكون أبدا من أولئك الأعضاء الذين ينكرون اليوم

بسماجة ما عبدوه بالأمس، فقد كنت ولا زلت حتى آخر نسمة من حياتى شيوعيا كاملا ومخلصا إخلاصا تاما لقضية البروليتاريا".

ولكن كيف يمكن إمساك خيوط الحديث عن رجل كروزنتال؟ هناك مجموعتان من الخيوط، ما قاله عن نفسه وما قالته عنه تقارير الأمن، والمعلومات فى كلتا المجموعتين تكاد تكون متطابقة.

ولنبدأ به هو.. لنستمع إليه وهو يتحدث أمام النائب العمومى، وقد أوردت «الأهرام» (١٩٢٤/٣/٧) نص إفادته أمام النائب العمومى قائلة: "إن هذا التحقيق عبارة عن بيان تاريخى خطير لنشأة حركة العمال وتطورها فى مصر منذ ٢٥ عاما، فلا يخفى أن هذا الرجل هو بمثابة تاريخ حى لنهضة العمال فى هذه البلاد، وهو الذى أيقظ التعاون بين العمال بقوة النقابات".

وتمضى «الأهرام»: "وعندما دخل المسيو روزنتال إلى قاعة التحقيق سأل معالى النائب العمومى عن سبب استدعائه وهل هناك تهمة خاصة موجهه إليه؟ فقال النائب العمومى إنه إنما استدعاه ليسأله أن يروى له ما يعرفه عن نشأة الحزب الاشتراكى بصفة عامة، فأظهر المسيو روزنتال تمام استعداده لإجابة هذا الطلب، وطفق يسرد تفاصيل المسألة، فقال: إنى منذ حداثتى أميل إلى المبادئ الاشتراكية، وأحن إليها، وقد كان أعظم الآمال عندى أن أرى حالة العمال تتحسن بقوة التربية والتنظيم. ولما وفدت إلى مصر منذ ٢٥ سنة جعلت أسعى لتأليف النقابات، وأول نقابة اشتركت فى تأليفها كانت نقابة عمال السجاير (وهى أول نقابة على النمط الحديث تأسست فى مصر) وبعد ذلك اشتركت فى تأسيس بضع نقابات أخرى للخياطين وعمال المعادن وعمال المطابع". ويمضى روزنتال: "كان من رأيى أن ننشئ للطبقة العاملة مراكز للدفاع الاقتصادى والتربية الفكرية ولهذه الغاية نشرت فى غضون ١٩٢٠ نداء إلى النقابات العاملة أدعوها إلى تأسيس اتحاد يضم شملها جميعا، فتلقت هذا النداء بالقبول بل بالإجماع، وأرسلت إلى الإسكندرية مندوبين من قبلها يمثلون ٣٥ ألفا من العمال للاشتراك فى البحث فى المشروع، غير أن رؤساء النقابات المتشبعين بالفكرة السياسية (من الوفديين والحزب الوطنى) شعروا إذ ذاك بأن إنشاء النقابات الحقيقية بطريقة تراعى فيها حالة العمال، يؤدى إلى نزع كل ما لهم من سلطة عليها، ويحول دون الوصول إلى أغراضهم السياسية، فسعوا سعيا جديا لحمل

نقاباتهم على عدم الاشتراك بالاتحاد، وظلوا يماطلون فى التدابير الأولية سنة كاملة، وفى بدء عام ١٩٢١ تمكنا من تأسيس اتحاد النقابات بعدد محدود لا يتجاوز ثلاثة آلاف من العمال".

والآن لنطالع ما قالته تقارير الأمن:

مذكرة رقم ٤٥٧ مؤرخ فى ١٠ مارس ١٩٢١

إلى مستشار وزير الداخلية

من ى. كلايتون عن المدير العام لإدارة الأمن العام.

فيما يلى مذكرة بالمعلومات التى فى حوزتنا عن جوزيف روزنتال وابنته شارلوت روزنتال.

* عام ١٩٠١: فى هذا العام بدأ اهتمام أجهزة الأمن بالمذكور كفوضوى (يلاحظ أن كلمة شيوعى لم تكن تستخدم حتى ذلك الحين فى تقارير الأمن، وكانت تستخدم مكانها كلمات مثل: (فوضوى، إباحى، نهيليست)، شديد التعصب يقوم بترويج دعايات مثيرة.
* عام ١٩١٣: ورد اسمه بشكل أساسى فى قضية أداموفتش النهيليست الروسى.
* يوليو ١٩١٦: ورد تقرير من إدارة شئون اللاجئين يتهمه بأنه مثير للاضطراب والمتاعب.
* نوفمبر عام ١٩١٨: خلال احتفالات السلام (انتهاء الحرب العالمية الأولى) قام برفع علم الاشتراكيين وهو رقعة حمراء ووسطها كفان يتصافحان.
* فى ٧ يوليو ١٩٢٠: قام بصفته رئيسا لاتحاد المستأجرين بتنظيم إضراب لمدة ٢٤ ساعة كإعلان عن احتجاج المستأجرين على ارتفاع إيجارات المحلات، وقامت ابنته شارلوت بالإشراف على مجموعات من الأفراد تولت مهمة إجبار أصحاب المحلات غير المشتركين فى الإضراب على إغلاق محلاتهم.
* فى ١٦ يوليو ١٩٢٠: ورد تقرير من بوليس الإسكندرية بأن المذكور هو المنظم الأساسى لإضراب عمال الترزية، كذلك اشترك فى إضراب عمال محلات الحلاقة متظاهرا بأنه اشتراكى. وهو يبذل جهدا كبيرا كى يصبح رئيسا للمجلس البلدى بالإسكندرية، وذلك بالرغم من أنه لم يحصل فى الانتخابات السابقة للمجلس البلدى إلا على أصوات قليلة.
* ٣١ أغسطس ١٩٢٠: أفادنا قومندان بوليس الإسكندرية بالتقرير التالى: «روزنتال معروف كفوضوى، سياسى وخطر، مدرج فى القائمة السوداء».

ثم تقول الوثيقة: «جوزيف روزنتال معروف للبوليس منذ عشرين عاما، وهو يتبنى عادة مواقف متطرفة للغاية فيما يتعلق بالقضايا الاجتماعية، وصفه البوليس من آن لآخر بأنه فوضوى، مهيج، سياسى خطر، ويقول أحد المرشدين، وهو يعرفه تمام المعرفة، إنه لا شك لديه فى أن روزنتال يعتنق أشد أنواع الشيوعية تطرفا، وأنه يعمل بنشاط على ترويجها، ويزعم أنه يؤمن بضرورة تغيير الأوضاع القائمة، إلا أنه لا يعتقد (أى المرشد) أن روزنتال يحبذ استخدام العنف، هدفه الراهن هو توحيد العمال فى مصر فى اتحاد ضخم. وما من شك فى أن أحد أهدافه من القيام بمثل هذا العمل هو نشر الشيوعية فى صفوف العمال تدريجيا، ولا شك أن اعتناقه لهذه المبادئ يدفعه بطبيعة الحال إلى تشجيع بل والإسهام فى تأسيس ناد مثل "نادى الدراسات الاجتماعية" وهو ناد ينهج نهج الدولية الثالثة (كان روزنتال رئيس هذا النادى)، وما من شك فى علاقة روزنتال كممثل أو كمراسل فى مصر للدولية الثالثة.

وهو على مراسلات متصلة بليتفينون الذى قال إنه ممثل البلاشفة فى أستونيا، ويوجد فى صفوف النقابات التى يؤسسها عديد من العمال ذوى الاتجاهات البلشفية، وثمة شكوك وجدت مؤخرا فى أنه يتراسل مع العناصر البلشفية فى فلسطين عن طريق أشخاص يسافرون لهذا الغرض، ولا بد أن نذكر فى هذا الصدد لقاء القبض على ابنته أثناء زيارتها لفلسطين فى نوفمبر الماضى، وقد جاء فى تقرير البوليس عنها أنها تعتنق أفكارا اشتراكية متطرفة، وقد ضبطت فى حيازتها أوراق صادرة عن الدولية الثالثة.

هذا، وقد أدلى روزنتال بحديث إلى السيدة ترافرسى سيمونس، نائبة رئيس تحرير الإجبسيان جازيت، فى مايو الماضى، أعرب فيه عن ارتياحه لما يحرزه من تقدم فى عملية تنظيم العمال فى نقابات، وقال أيضا إنه ما من فرصه ولو ضئيلة لنشر الشيوعية الآن وسط الفلاحين المصريين، وإن فشل سياسة لينين تجاه الفلاحين المتوسطين سوف تلقن الشيوعيين دروسا جيدة لدى أية محاولة لنشر دعاياتهم فى المستقبل فى صفوف الفلاحين المصريين».

وتمضى الوثيقة قائلة: "وقد طرحت مسألة اتخاذ إجراء حازم ضد روزنتال فى شهر مارس الماضى، وعرض الأمر على المستشار، لكن د. جرانفيل أعرب عن اعتقاده بأنه لا ضرورة لاتخاذ إجراء كهذا بسبب ما يتمتع به روزنتال من تأييد وسمعة حسنة فى الإسكندرية الأمر الذى يؤهله لأن يطمح إلى منصب رئيس بلدية الإسكندرية، كذلك أشار

المستشار إلى أن روزنتال يقوم بكل أنشطته فى وضح النهار".

ويبدو أن روزنتال بالفعل أصبح شخصية هامة ومؤثرة فى المجتمع، كما أن الكثيرين قد أصبحوا يتعاملون معه كقائد فعلى للحركة العمالية النقابية، فثمة وثيقة أمنية أخرى: (إدرة الأمن العام – وزارة الداخلية – ٢٨ سبتمبر ١٩٢١) تسجل فى دهشة ممزوجة بالخوف ما يلى: «فى ١٠ أغسطس ١٩٢١ قام مصطفى بك النحاس، أحد قادة حزب الوفد، بزيارة لروزنتال حيث عرض عليه بصفته رئيسا لاتحاد العمال بيانا يزمع سعد زغلول نشره قبيل الانتخابات".

والذين يدركون حجم جماهيرية سعد زغلول وحزبه فى ذلك الوقت يمكنهم أن يدركوا مغزى خطوة كهذه.

لكن العمل النقابى لا يكفى، فلا بد من عمل سياسى طبقى، هكذا أكد روزنتال فى إفادته أمام النائب العام، وقال: "ولما كنا نرى أن النقابات لا تستطيع أن تتدخل تدخلا فعليا فى الأمور السياسية لكونها مؤلفة من عمال مختلفى الاتجاهات، وذوى نزعات سياسية متضاربة، فكرنا فى تأسيس حزب سياسى يكون بمثابة لسان حال لنقابات العمال، ويكون فى استطاعته أن يدافع عن مصالحهم فى المجلس النيابى وغيره، ويسعى لحمل الحكومة على إصدار قانون لحماية العمال المتروكين تحت رحمة الرأسمالية وظلمها، وعملا بهذه الفكرة أنشأنا الحزب الاشتراكى".

ويقول: "رأيت من بعض الوطنيين عطفا على الاشتراكية، وكان من هؤلاء العاطفين حسنى أفندى العرابى ود. على العنانى وسلامة أفندى موسى وعبد الله أفندى عنان، فاتفقت معهم على العمل وقررنا تأسيس الحزب الاشتراكى المصرى، وقد كتبوا لهذا الغرض منشورا يحتوى على مبادئ الحزب موقعا عليه منهم ولم أشترك فى التوقيع عليه لأنى كنت أعتبر أن ظهور اسمى الأجنبى، بالرغم من كونى مصرى الجنسية، يمكن أن يعد بمثابة تدخل من أجنبى فى مسألة مصرية".

ويقترب سلامة موسى من هذه الرواية فيقول إنه وزملاءه عندما قرروا تأسيس جمعية اشتراكية «كتبنا إلى مسيو روزنتال باعتباره سكرتيرا للحزب الاشتراكى المؤلف من الجالية الأجنبية فى مصر نسأله عن برنامج الحزب فإذا وافقنا عليه انضممنا إليه». (الأهرام – ١٩٢١/٨/١٩).

ويقول د. على العنانى (أحد أربعة وقعوا على بيان تأسيس الحزب): «عرفت المسيو روزنتال الذى يسعى منذ أمد بعيد لتأليف حزب اشتراكى فى هذه البلاد، وعرفت عنه هذه المبادئ الشريفة العادلة» (المرجع السابق).

ومنذ البداية نشب خلاف بين المؤسسين، سلامة موسى (اشتراكى فابى) كان يعترض أصلا على تأسيس حزب ويرى الاكتفاء بتأسيس جمعية اشتراكية، وهو ومعه عبد الله عنان ود. على العنانى وروزنتال يعترضون على الاستجابة لضغوط الكومنترن التى ترى ضرورة تغيير اسم الحزب إلى الحزب الشيوعى، وانسحب سلامة وعنان والعنانى، وقرر روزنتال أن يبقى فى الحزب مستمرا فى الدفاع عن وجهة نظره التى ترى أن سياسة لينين تجاه الفلاحين المتوسطين خاطئة، وأن الحزب المصرى يصعب عليه التوجه إلى الريف بسياسة كهذه، والتى ترى أنه من الخطأ دفع الحزب المصرى إلى تبنى سياسات متطرفة فى ظروف غير مواتية، وترى أنه لا جدوى من التمسك بحرفية النص فى المبادئ الـ٢١ التى أعلنها الكومنترن، وكان روزنتال يؤمن بضرورة مراعاة الواقع المحلى وعدم النقل حرفيا من تجارب الآخرين.

استمعوا إليه فى شهادته أمام النائب العام يجيب عن سؤال:

«س: هل تعرف البنود الإحدى والعشرين التى تعلنها المبادئ الشيوعية، وما رأيك فيها؟

ج: أعرفها جميعا، ولو كنت أحد واضعيها ربما كنت لا أوافق على مجموعها، ولكنى أرى أن التفسير الحرفى لكل بند لا يؤدى إلى المعنى المقصود، ومعانى المبادئ والشرائع جميعا لا تظهر إلا عند التطبيق، ولا أظن أن اللجنة المركزية الدولية ترى أن مصر قابلة للتغيير حتى تدفع الفرع المصرى إلى تنفيذ الفكرة الثورية، ويلوح إلى أن البعض يستعمل كلمة ثورة كشبح مخيف، مع أن هذه الكلمة تستعمل فى جميع العلوم والتواريخ لأغراض علمية وتاريخية، وعلى كل حال فإن الطرق المتبعة للوصول للشيوعية، يجب أن تختلف باختلاف البلدان والمجالات الاقتصادية والنفسية فى كل بلد بالرغم من كون المبدأ واحداً للجميع».

لكن عبارات كهذه لم تكن مقبولة من قيادة الكومنترن المتشددة تشددا ستالينيا. والتى كانت تعتبر أن القول بتميز ظروف بلد ما، إنما يعنى إفلات الحركة الثورية فى هذا البلد من سيطرة الخط العام، أو التعليمات العامة أو حتى القبضة المحكمة.

وهكذا صدر قرار الكومنترن بإبعاد روزنتال عن الحزب كأحد شروط ثلاثة يمكن بعد

تحقيقها قبول الحزب المصرى عضوا فى الكومنترن، ويعزى روزنتال ذلك إلى أن البعض قد وشى به وفسر أفكاره بأنها تمرد أو دعوة للتمرد على الكومنترن.

ويطرد روزنتال، يطرد الرجل الذى - وباعتراف الجميع - كان من أوائل دعاة الاشتراكية فى مصر، وكان واحدا من أبرز مناضليها، وتنحى الرجل فى صمت حرصا على وحدة الحزب الذى وهب حياته من أجل قيامه.

ثم يأتى الزمن الصعب، سعد زغلول يستجيب لضغوط سلطات الاحتلال ولصراخ أصحاب المصانع من الأجانب الذين أفزعهم نمو الحزب، وتزايد نشاطه. وموجة الاضطرابات حسنة التنظيم، يستجيب سعد لهذه الضغوط ويصدر قرارا بحل الحزب والقبض على قادته.

الآن لا مجال للاختلاف، ولا الغضب، ولا الشماتة، ولا الادعاء بأنه كان على حق، الآن لا مجال سوى التضامن، ولا كلمة سوى تأكيد الانتماء لرفاق دربه، بل وحتى المطالبة بأن يتحمل نصيبه معهم فى الاتهامات التى يواجهونها.

ويصدر روزنتال بيانا إلى الصحف (الأهرام- ١٢/٣/١٩٢٤) يقول فيه: "إذا كان لا علاقة لى بالحزب الشيوعى فذلك ليس ناتجا عن تلاشى الحزب، ولكننى أرغمت على ذلك على أثر وشايات ومطاعن، فتنحيت حتى لا أوجد انقساما فى وحدة الحزب ولا أظهر كأنى أعمل ضد حركة اجتماعية أشاطرها مبادئها". ثم إننى «ما كنت ولن أكون أبدا من أولئك الأعضاء الذين ينكرون اليوم بسماجة ما عبدوه بالأمس، فقد كنت ولا زلت وسأظل حتى آخر نسمة من حياتى شيوعيا كاملا ومخلصا إخلاصا تاما لقضية البروليتاريا». وبالرغم مما أظهرته اللجنة المركزية للحزب الشيوعى المصرى من قلة الخبرة، وما ارتكبته من الأغلاط فأنا أتضامن معها تضامنا تاما، وأطالب بنصيبى من المسئولية.

وما أسوأ أن تعيش وضعا كهذا، رفاقك ينكرونك، والعدو يواصل مطاردتك، وأنت مصمم على التمسك بالمبدأ.

وقد ظل روزنتال مطرودا من الحزب، وحتى مبادرته التضامنية مع رفاقه القدامى لم تحظ باهتمام أحد، أما ابنته فقد ظلت عضوة فى اللجنة المركزية للحزب، وقبض عليها عام ١٩٢٥، وقدمت للمحاكمة وحكم ببراءتها، وواصلت معركتها، وواصل روزنتال معركته كفرد يحاول أن يواجه إنكار أصدقائه وعداء خصومه، وفى أكتوبر ١٩٢٧ وجه البوليس ضربة

جديدة إلى خصمه اللدود روزنتال، فقد لفق له ولابنته ولآخرين تهمة خطيرة هى محاولة اغتيال الملك فؤاد، وثبت فيما بعد تلفيق هذه القضية.

ولنقرأ بعضا من الأسطر عن هذا الموضوع: «فى ٣٠ أكتوبر طلعت الصحف على الناس بخبر مؤامرة لاغتيال جلالة الملك فؤاد الأول، وقلب نظام العرش فى مصر، وظهر بعد التحقيق أنها مؤامرة وهمية، وتحرير الخبر أن شخصا يدعى على أفندى شحاتة مستخدم بمصلحة التلغراف قدم فى ٢١ يونيو ١٩٢٧ بلاغا إلى إدارة الأمن العام يدعى فيه بوجود مؤامرة لاغتيال جلالة الملك أثناء رحلته فى أوروبا، وقلب نظام الحكومة إلى جمهورية واتهم فى هذه المؤامرة بعض أعضاء الحزب الشيوعى ومحمد بك حافظ رمضان رئيس الحزب الوطنى، وقال إن البلشفيك الروس يمدون المتآمرين بالمال، وإن ذلك يتم عن طريق جوزيف روزنتال وابنته شارلوت، وبعد التحريات الدقيقة ثبت أن المبلغ كان كاذبا فيما ادعاه» (أحمد شفيق باشا – حوليات مصر السياسة – ج٤ – ص٥٩١).

وتقول «الأهرام» "ثبت أن المبلغ كان لفترة طويلة عميلا للبوليس" (الأهرام –١٩٢٧/ ٣/١٠) لكن ذلك جاء بعد فترة طويلة من القبض، والتحقيق والحملات الصحفية الظالمة، ويبقى الرجل وابنته بين فكى كسارة لا ترحم.

الابنة تطرد من مصر، ويصدر مرسوم ملكى بإسقاط الجنسية المصرية عنها فى ٢٣/ ٨/ ١٩٣١ (راجع نص المرسوم فى: د. رفعت السعيد – تاريخ الحركة الشيوعية المصرية – المجلد الأول – ص٥٩٢).

ويعنى ذلك أنه لم يعد مسموحا لها بالعودة إلى مصر، وتضغط الكسارة بطرفها الآخر، فستالين يعتقلها ويعتقل زوجها فى عام ١٩٣٦ بتهمة الاشتراك فى مؤامرة تروتسكية ويموت الزوج بعد عامين فى معسكر الاعتقال، وتبقى هى معتقلة ١٨ عاما لا يفرج عنها إلا وهى حطام فى عام ١٩٥٦ (والترلاكور – الاتحاد السوفيتى والشرق الأوسط – ص١٥٥).

وبرغم قسوة الزمن، ورعونة الرفاق، وبطش العدو ودكتاتورية الزعيم، ظل روزنتال مصمما على موقفه، وكأنى به وهو يعانى بين فكى كسارة البندق يستمر صارخا: «ما كنت ولن أكون أبدا من أولئك الأعضاء الذين ينكرون اليوم، بسماجة ما عبدوه بالأمس. فقد كنت ولا زلت وسأظل حتى آخر نسمة من حياتى شيوعيا كاملا، ومخلصا، إخلاصا تاما لقضية البروليتاريا».

السعيد الصبرى

«وبعد فترة وجيزة أصبح الحزب الاشتراكى المصرى حديث مدينة المنصورة».
السعيد الصبرى

بحثت عنه طويلا. قرأت اسمه ضمن المقبوض عليهم فى الحملة البوليسية ضد أعضاء الحزب الشيوعى (الأهرام - ١/١٠/١٢٩٤) ولأن قائمة المقبوض عليهم فى مدينة المنصورة كانت طويلة بما أثار الدهشة. حاولت أن أتعقب الأسماء: عبد الحميد الطوبجى (توفى) الشيخ أحمد الموافى (توفى) محمد عبد الجليل (توفى) شفيق باسيور (أبعد عن مصر عام ١٩٢٤).. وبقى اسمان أحدهما السعيد الصبرى والثانى حافظ سند. وكان ذلك عام ١٩٧٠ عندما كنت منغمسا حتى أعماقى فى إعداد رسالة الدكتوراه عن تاريخ الحركة الاشتراكية المصرية.

ما إن سألت أبى هذا الاسم حتى أمر واحداً: «روح إنده عمك السعيد الصبرى من دكانه». وأتى الرجل العجوز مهرولا، وما إن سألته حتى تدفق بلا توقف لعلها لحظة انتظرها طويلا. أن يحكى عن تاريخ حياته وتاريخ حزبه. وبعدها امتدت جلساتنا فى محله الصغيرة. جزمجى شاطر ومشهور بدقة الصنعة. كان يحكى وأنا أكتب ويداه لا تكفان عن العمل، يغرس الإبرتين فى ثقب يصنعه المغراز فى نعل الحذاء ثم يفرد يديه.. ويتكلم. ويقول: «ولدت عام ١٨٩٠ تقريبا تركت الكتاب وأنا طفل، واشتغلت صبى جزمجى فى هذا المحل. وفى عام ١٩١٧ كان عندى حوالى ٢٧ سنة تعرفت إلى شخص ابن ذوات هو عبد الحميد الطوبجى كان عائدا لتوه من إنجلترا حيث حصل على شهادته الدراسية. جاء لأصنع له حذاء. تحدث وتحدثت. شكوت له عن سوء الأحوال وحدثنى عن أهمية العمل النقابى وتأسيس نقابة لعمال الأحذية وتحدث عن المساواة والاشتراكية.. سحرنى بحديثه والتقينا عديداً من المرات وبفضل توجيهه أسست النقابة وأصبحت عضوا فى مجلس

إدارتها. وفى ١٩٢١ تأسس الحزب الاشتراكى، وانطلقت بحماس شديد فى العمل الحزبى. وفى وقت وجيز أصبحنا ٧٠ عضوا. وقمت أنا باستئجار مقر للحزب فى ميدان الطميهى. وأعد زميلنا حافظ سند (نجار) لافتة ضخمة علقت على واجهة المقر (الحزب الاشتراكى المصرى ـ شعبة المنصورة) وأعلن الحزب أن مقره مفتوح لجميع العمال ليتخذوه ناديا لهم. ثم أقام مدرسة لمحو أمية العمال وكان يدرس فيها أحد أعضاء الحزب (الأستاذ القناوى الخولى). وفصلاً، دراسياً، آخر لتعليم اللغة الفرنسية مقابل ٢٥ قرشا فى الشهر. ثم قرر الحزب أن ناديه ملك لكل العمال يقيمون فيه أفراحهم ومآتمهم مجانا. ثم قمنا بتكوين فرقة موسيقية من أبناء العمال وكانت تعزف فى أفراح العمال مجانا. لكن أهم مشروع قمنا به هو أننا أسسنا جمعية للإسعاف، وكان مقرها هو مقرنا وتطوع عدد من الأعضاء للعمل كمسعفين. وعندما بدأت انتخابات مجلس البلدية رشحنا الرفيق سعد عثمان نور وتحالفنا مع حزب الوفد وكان مرشحه كامل يوسف صالح المحامى، وتحرك رفاقنا ليلاً ونهاراً فى حملة انتخابية هزت المنصورة بأكملها ونجحت قائمتنا، ورد لنا الناجحون الجميل فاتخذ المجلس البلدى فى أول اجتماع له قراراً باعتبار مقر الحزب الاشتراكى مقراً ذا نفع عام ومن ثم جرى إعفاؤنا من سداد قيمة استهلاك الكهرباء والمياه.

وكان المسئول المركزى عن شعبة المنصورة هو الشيخ صفوان أبو الفتح.. وناقشنا فى ضرورة تحويل الحزب الاشتراكى إلى حزب شيوعى، كان الكلام معقدا وغير مفهوم لعامل بسيط مثلى لكننى كنت أحترم الشيخ صفوان لحماسه وغزارة علمه. ووافقت ووافق معى الكثيرون.

وفجأة بدأت حملة ضدنا شنتها جريدة محلية اسمها "الدلتا" اتهمتنا بأشنع التهم. هذه الجريدة ظلت تصدر طويلا فى المنصورة دون أن تكون لها علاقة بالسياسة. وبعد فترة من البحث علمنا أن الحكومة هى التى حرضت الجريدة علينا.

ومع ذلك استمر نشاطنا الجماهيرى، قررنا ألا نرد على هذه الحملة بالكلام وإنما بالأعمال، وانغمسنا فى تأسيس نقابات عمالية واتحاد لنقابات عمال المنصورة. وزدنا فصول محو الأمية. لكننا لاحظنا أن الناس بدأت تخاف وتتردد. غير أننا واصلنا لكن هذه الجريدة ظلت تهاجمنا وتحرض البوليس للقبض علينا وإغلاق مقرنا، بل أخذت تنشر

أسماءنا وعناوين منازلنا محرضة البوليس والناس علينا. ثم جاءت الحملة البوليسية التى أعقبت إضراب عمال شركة ايجولين فى الإسكندرية. وتلى ذلك حل الحزب وقرار مصادرة مقاره. فهاجمنا البوليس واستولى على المقر وعلى ما به من أوراق وقوائم عضوية، وقبض على عدد كبير منا. وبدأ البوليس حملة تخويف لسكان المدينة فكل أقاربنا وكل من يزورهم أو يتعامل معهم فى أشغالهم أو حتى يجلس معهم فى المقاهى أو يحييهم فى الطريق العام، يستدعى إلى قسم البوليس ويهدد بالقبض عليه ويحذر من تكرار ذلك.

أما نحن فقد رحلنا بالقطار إلى الإسكندرية حيث جرى معنا تحقيق مطول، وبعد فترة أفرج عنى.

ومرة أخرى زارنى عبد الحميد الطوبجى، وكان قد تركنا عندما غيرنا لافتة الحزب الاشتراكى إلى الشيوعى واقترح أن نؤسس حزبا عماليا على غرار حزب العمال البريطانى. ونشطت معه بعض الوقت لكننى وجدت هذا العمل بلا طعم وبلا فائدة».

كان الحوار يجرى عام ١٩٧٠. غادرته على موعد بعد شهر. عدت وجدت المحل مغلقا. كنت حريصا على أن ألتقط صورة له. وأكمل حديثى معه. سألت أبى عنه فقال: «تعيش أنت».

حافظ سند

«وكأننى ولدت ماركسيا. فقد عشت ماركسيا وسأبقى ماركسيا حتى أموت، فقد استقرت الماركسية فى قلبى جنبا لجنب مع الإسلام»
حافظ سند

نجار بسيط. هادئ. عندما رتب أبى موعداً معه حضر فى الموعد بدقة مبالغ فيها، تحدث معى بوقار وهدوء مع ارتجافة بسيطة فى يديه وصوته ربما بسبب الثمانين عاما التى يحملها على كتفيه، وربما لأنه كان يدلى بأعز ما يمتلك من ذكريات. وأستمع إليه. «بدأت نشاطى العام عضوا فى جمعية إسلامية اسمها "جمعية الاستقامة". المصادفة وحدها قادتنى إلى الاشتراكية. ففى ديسمبر ١٩٢١ تحديداً بعد نفى سعد زغلول إلى سيشل سافرت إلى الإسكندرية فى مهمة حكومية فقد كنت نجاراً بمجلس مديرية الدقهلية وكلفت، لأمانتى، أن أشترى أخشابا لمجلس المديرية. وأثناء سيرى فى الطريق تقدم إلى شخص وعرض على نشرة ثمنها خمسة مليمات». قرأ على صدر النشرة «الحزب الاشتراكى المصرى» وقرأ عبارات مضيئة.. الاشتراكية تضمن حقوق العمال والفلاحين. الاشتراكية تعنى المساواة. «قرأت النشرة وكأن طاقة القدر فتحت نفسها أمامى. وظللت طوال حياتى أقول لنفسى إننى اشتريت بالمليمات الخمسة حياة بأكملها». وجد حافظ سند مقر الحزب بالإسكندرية فى شارع نوبار. ودخل إليهم دون أن يستدعيه أحد. وجد هناك رفيقا اسمه إسكندر صاده، كان أخطر ما يشغل باله هو خوفه من الشائعات التى تتحدث عن الجفاء بين الحزب والدين. جادل إسكندر صاده طويلا واقتنع. وأتم اقتناعه بحوار مع شيخ دخل إلى المقر هو صفوان أبو الفتح الذى لقنه بآيات من القرآن الكريم والأحاديث أن الإسلام لا يتضاد مع الاشتراكية بل يدعو إليها. ويمضى حافظ سند: «وهكذا عشت اشتراكيا مخلصا للاشتراكية وماركسيا مخلصا للماركسية وسأبقى ماركسيا حتى أموت،

فقد استقرت الماركسية فى قلبى جنبا لجنب مع الإسلام».

وعاد حافظ سند إلى المنصورة شخصاً آخر. انغمس فى النضال الاشتراكى دون تردد. ضم إلى الحزب الكثيرين. أسهم فى جمع التبرعات لمقر الحزب ولتأسيس جمعية الإسعاف. كانت أنفاسه تعلو بحماس وهو يحكى عن شخص اسمه حسين عوضين، لم يكن اشتراكيا لكنه كان يحلم بتأسيس جمعية للإسعاف. وتحالف معه فى إنجاز هذه المهمة. وبعد فترة أصبح عوضين شخصا مهما فى المدينة، ومهما فى الحزب أيضاً. وتسرى دعوة الاشتراكية فى المنصورة مسرى الحياة. (هذا التعبير قاله حافظ سند ببساطة وتلقائية). وأكد لى أن عدد أعضاء الشعبة فى المدينة وصل إلى مائتين. قلت له: السعيد الصبرى. قال إنه: الرقم سبعين. فأجاب بحماس أذكر جيداً أن دفتر قيد العضوية امتلأ وأرسلنا للإسكندرية نطلب دفتراً آخر والدفتر به مائتا خانة.

وتشكل مجلس إدارى للشعبة من عشرة أشخاص تبقى فى الذاكرة منهم ستة أسماء لعلها كافية لتوضح طبيعة القيادة المحلية للحزب: شفيق باسيور (مهندس معمارى من أصل لبنانى) أحمد طرابية (مقاول) السعيد الصبرى (جزمجى) محمد أحمد عبد الجليل (موظف حسابات بالمجلس البلدى) الشيخ أحمد الموافى (مدرس لغة عربية فى مدرسة الفرير) عبد الحميد الطوبجى (من الأعيان) حافظ سند (نجار)، وإذ سألته عن الشيخ أحمد الموافى، فأجاب أنه كان رجل دين مستنيراً جداً ومتديناً جداً، وقد ضم إلى الحزب سبعة من رجال الدين كانوا يتناوبون فى إلقاء دروس دينية فى مقر الحزب عصر كل يوم.

تحدث حافظ سند بانبهار وكأنه يستعيد مجد أيام قديمة عن النشاط فى مقر الحزب: «الحزب كان خلية نحل. كان نادياً للعمال من حق أى عامل أن يدخله ويسهر فيه، وكانت هناك مدرسة لمحو الأمية ومدرسة للغة الفرنسية وفرقة موسيقى لأطفال أعضاء الحزب، وأفراح العمال كانت تضىء الحزب فى أغلب الأيام لأن الحزب قدم مقره مجانا لهم. ومع اتساع عضوية الحزب ونشاطه الجماهيرى قررت القيادة فى الإسكندرية تنظيم دورة تثقيف للكوادر، وحضر من الإسكندرية الشيخ صفوان أبو الفتح. ومصطفى أبو هرجة (سكرتير اتحاد العمال) وإسكندر صاده، والثلاثة كانوا أعضاء فى اللجنة المركزية».

ونمضى مع حافظ سند: «وعن طريق المعارف والأقارب بدأنا نتجه إلى الريف وأقمنا شعبة فى سمنود وأنا زرتها أكثر من مرة لأتابع النشاط فيها، وكنا على وشك أن نفتتح

شعبتين، واحدة فى السنبلاوين والأخرى بالمنزلة، ولكن الضربة البوليسية أتت».

ويمضى الحديث: «لم نكن مستعدين للضربة ولا مدربين على مواجهتها ولا حتى كيف نعبر عن أنفسنا أمام المحققين. وحتى نحن - قيادة الشعبة بالمنصورة - لم نكن مدربين على مواجهة مثل هذه الضربة. وبعد حملة القبض الأولى (١٧ مارس ١٩٢٣) صدرت الأوامر من الإسكندرية بإحراق كشوف العضوية وأن نستمر فى العمل العلنى، لكن ضربة ساحقة أخرى أتت وقبض على مجلس إدارة الشعبة بأكمله وصودر المقر. وبعد فترة طويلة من التحقيقات أفرج عنا. لكن مدير المديرية استدعى الموظفين بالحكومة، وطلب منا أن نكتب استنكاراً للشيوعية وللحزب. وقال لنا بوضوح: من لا يكتب سيفصل فوراً من عمله. والحقيقة أننا لم نكن مدربين على مثل هذه المواجهة ولا نعرف كيف نتصرف، فمحمد عبد الجليل قال أنا اشتراكى لكننى لست بلشفياً فثار المدير وقرر فصله، وكان الفصل من الحكومة عقابا صارما». ثم بدأ صوت حافظ سند يتهدج وهو يتحدث عما فعل: «أنا كتبت بخطى عبارة تقول: بما أن العمال فى مصر بين قوات ثلاث: الاستعمار الظالم والحكومة التى تربت فى أحضانه والقابضون على زمام الأحوال، فإن على العمال أن يكتفوا بحزب عمالى وأن يبتعدوا عن الشيوعية». ثم سالت دموعه غزيرة: «أرجوك اكتب، أنا نادم على هذه العبارة. أرجوك قل إننى كنت وسأبقى ماركسيا حتى أموت». وفى محاولة لإخراجه من هذه الأزمة سألته: وماذا فعل المدير بالورقة فقال: «هاج الباشا المدير وقال لى أنت بتتفلسف يا ابن.... ومزق الورقة وألقاها فى وجههى وقرر فصلى من العمل».

محمود حسنى العرابى

«نعم أنا ماركسى وأناضل من أجل الاشتراكية، وعلاقتنا بالأمية هى مجرد علاقة أخوية، وكل أهدافنا هى إنهاض العامل وإحداث تطوير فى حالته يناسب الزمن ويحقق العدالة».

محمود حسنى العرابى

(فى دفاعه أمام محكمة جنايات الإسكندرية)

هو واحد من أربعة وقعوا بيان تأسيس الحزب الاشتراكى المصرى فى أغسطس عام ١٩٢١، هو ثالث ثلاثة أصدروا جريدة «روح العصر» فى عام ١٩٣٠. عصام الدين ناصف ـ د. عبد الفتاح القاضى وهو. لكن روح العصر لم تكن البداية بالنسبة له، بل ربما ما قبل النهاية. فماذا عن البداية؟

هو تاجر أقطان غنى، يقول عن نفسه: «كسبت عشرات الألوف من الجنيهات من المضاربة فى القطن، وعشت فى الإسكندرية معيشة شاب أرستقراطى.. يكسب الألوف ويبعثرها بلا حساب»، وذات يوم التقى العرابى بجندى إنجليزى ماركسى، الجندى تحدث والشاب الثرى انبهر واكتشف عالما آخر غير عالم الألوف واللهو. ويبدأ العرابى فى القراءة والبحث والترجمة. وفى حوارى مع د. محمود القاضى وصف العرابى بأنه «رجل مثقف دوره فى مصر كدور بليخانوف فى الثورة الروسية، ونجح فى تكوين نفسه تكوينا نظريا راقيا». ويترجم العرابى كتاب «الحركة الاشتراكية» لرامزى ماكدونالد. ويترك بعدها تجارته ويتفرغ للعمل الاشتراكى. وفى ٢٨ أغسطس ١٩٢١ يصدر البيان الأول للحزب الاشتراكى المصرى موقعا بأربعة أسماء: «سلامة موسى ود. على العنانى ومحمد عبد الله عنان ومحمود حسنى العرابى» (الأهرام ـ ٢٩ أغسطس ١٩٢١). وبعد نوبات عديدة من الصراعات حول هوية الحزب هل يكون اشتراكيا فقط أم شيوعيا. ينحاز العرابى إلى

الجانب الماركسى ويعقد المؤتمر الأول للحزب الذى ينتخبه سكرتيرا عاما. ويسافر بعدها إلى موسكو ليحضر المؤتمر الرابع للكومنترن. ومن موسكو يرسل العرابى عديداً من المقالات تلقفتها الصحف المصرية، وكانت بعنوان «روسيا الحمراء» وتنشر «الأهرام» فقرات من خطاب ألقاه العرابى فى المؤتمر قال فيه: «إننا نأمل بالرغم من مقاومة الاستعمار الإنجليزى والرأسمالية المصرية أن نرى الأعلام الحمراء وهى ترفرف يوما فوق ربى الأهرام» (الأهرام- ١٩٢٣/٤/٦).

ويعود العرابى إلى مصر ليعقد المؤتمر العام الثانى للحزب ويقرر المؤتمر انتخابه مرة أخرى سكرتيرا عاما. لكن الحزب لا يبقى طويلا فى ساحة العلنية وبعد موجة إضرابات عمالية عاتية أصدر سعد زغلول، رئيس الوزراء، قراراً بحل الحزب ومصادرة ممتلكاته، وألقى القبض على جميع أعضاء لجنته المركزية. وأمام المحكمة قدم دفاعاً قوياً وحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات. وأضرب هو ورفاقه ستة وعشرين يوما عن الطعام مطالبين بحقوق السجين السياسى وأنهى الإضراب بعد استشهاد أنطون مارون. ويصف العرابى فى مذكراته حالته أثناء الإضراب: «حلق ملك الموت فوق رأسى لكننى لم أخشه». ويقضى فترة العقوبة ويخرج وقد تغير. فسعياً وراء العلنية طالب بتغيير برنامج الحزب واسمه وتوجهاته والتحول إلى حزب اشتراكى إصلاحى. ورفض رفاقه فاستقال. وكانت المصيدة الطبقية معدة بإحكام فى ذات يوم استقالته نشرت له أربع صحف أربعة مقالات مختلفة يعبر فيها عن توجهه الإصلاحى وهى صحف: الهلال ـ المقتطف ـ الرقيب ـ الحياة الجديدة. ويخيل إليه أنه سيصبح كاتباً مرموقاً يحتضنه الجميع. وينشر أفكاره الاشتراكية الإصلاحية على الجميع. لكن المصيدة التى تلقفته ليبتعد عن حزبه وعن تراثه وأفكاره ما لبثت بعد أن تأكدت من عزلته عن حزبه أن لفظته وتوقفت عن نشر مقالاته، ثم ما لبث الأمن أن بدأ فى مطاردته وفى تضييق الخناق عليه. ويلتقى العرابى بعصام والقاضى ليصدروا معا جريدة «روح العصر» كجريدة اشتراكية مستقلة. لكنها تطارد وتفلس ويستشعر العرابى غربة قاتلة. ويشعر بمأساة مناضل تمرد على حزبه ووقع فى مصيدة الإعلام المعادى وتوهم أنه سيصبح كاتبا مرموقا ثم يطرد من جنة الإعلام ليقف وحيدا. ونقرأ فى مذكراته: «ضيقت على الإدارة الخناق فى عام ١٩٣١ فرصدت أمام دارى الجواسيس ليل نهار، وكنت آسكن فى حارة ضيقة فى حى السكاكينى فأثارت المراقبة شكوك جيرانى وأخذوا ينظرون إلىّ

شذرا ويتهامسون فيما بينهم كلما رأونى، فصبرت على هذا الشر طويلا وقلت فى نفسى متى تحقق المسئولون ظلم هذه الرقابة سيلغونها، لكنهم حسبوا صبرى تحديا فكثفوا الرقابة وأرسلوا من يتعقبنى حيثما ذهبت فضج أصحابى ومعارفى وتسحبوا من مقابلتى وتعذر على العمل فى أى جريدة أو مكتب، فأسقط فى يدى ولم أجد مخرجا من ورطتى» (محمود حسنى العرابى - ٨٩ شهرا فى المنفى - ص٥). أسقط فى يدى أنه ثمن التمرد على الحزب وثمن الوثوق فى الخصم، وقرر العرابى الهجرة.. وسافر إلى الإسكندرية ليودعها: «الإسكندرية أحب البلاد إلى قلبى ففيها قضيت زهرة شبابى، فيها درست فى العباسية الثانوية، وفيها ضاربت فى البورصة وجمعت عشرات الألوف، وفيها بدأت حياتى السياسية وخطبت فى ألوف العمال.. فيها ترجمت وكتبت وناضلت، وها أنا أسير فيها وحدى كسير القلب مهيض الجناح لا يأبه لى أحد.. أغريب أنا فى بلدى؟» (المرجع السابق - ص٨). ويسافر إلى ألمانيا ليقضى ثمانى سنوات فى فقر مدقع يعمل على الآلة الكاتبة ويترجم أحيانا، وأخيرا يعود الطائر المهاجر ليجد موج الماركسية قد عاود الارتفاع من جديد، لكنه يبقى محاصرا بأخطائه القديمة، ويرفض الجدد تقبله فى صفوفهم. ويقضى أيامه الباقية كسير القلب، محاولا أن يفعل شيئا دون جدوى، فالرفاق الجدد رفضوا أن يمدوا يدا للربان الذى هجر سفينته لدى أول انكسار.

وتبقى سيرة محمود حسنى العرابى.. درسا.

عبد الرحمن فضل

«رفضوا إدخالى إلى بلادى بحجة أنهم أسقطوا عنى الجنسية، لكننى عدت بعد أن قضيت خمسة أشهر على ظهر السفينة. وما من قوة تستطيع بعد ذلك اقتلاعى من أرض وطنى»

عبد الرحمن فضل

إنه الشيوعى المصرى الأكثر شهرة فى ثلاثينيات القرن الماضى. إنه الذى سمى «ذارع البحار».

ونبدأ حكايته من البداية. كان فضل نجاراً فى شركة استصلاح الأراضى بقرية حلق الجمل (بحيرة). أسس فى ١٩٢٠ نقابة لعمال شركته وأصبح رئيساً لها. وانضم بنقابته إلى اتحاد النقابات ١٩٢١ وفى الاتحاد تعرف على الاشتراكية وعلى الاشتراكيين. وانضم إلى الحزب. وفى عام ١٩٢٤ قررت قيادة الحزب إرساله إلى موسكو للدراسة فى «مدرسة كادحى الشرق». سافر إلى تركيا حيث كلف الحزب هناك مساعدته على الهرب إلى الاتحاد السوفيتى. لكنه ما إن وصل إلى تركيا حتى وجد الحزب فى محنة، حيث وجهت ضده حملة بوليسية واسعة. لكنه استطاع الاتصال بالحزب. وعمل شيالاً فى الميناء حتى سنحت له الفرصة وتسلل إلى سفينة سوفيتية ووصل إلى موسكو.

درس فى المدرسة ولقن مبادئ وأسس النظرية. وأقام لفترة فى جمهوريات الشرق الإسلامية. ثم تقرر عودته إلى مصر.

لكن الأمر لم يكن سهلاً. فالطاغية صدقى، وبعد أن ألغى دستور ١٩٢٣، استصدر مرسوماً ملكيا فى يونيو ١٩٣١ يجيز إسقاط الجنسية المصرية بمرسوم «عن كل شخص يقيم خارج القطر المصرى ويكون منضما إلى هيئة يكون غرضها نشر دعاية ثورية ضد النظام الاجتماعى أو الاقتصادى للدولة، أو يكون منضما إلى مركز أو فرع أو معهد دراسى أو غير دراسى تابع

لمثل هذه الهيئة»، وفى أغسطس ١٩٣١ صدر المرسوم الملكى بإسقاط الجنسية عن ثمانية رفاق من بينهم عبد الرحمن فضل، وألح عبد الرحمن فضل على العودة، ويقول فى حوار أجريته معه: «كان لازم أرجع لبلدى. مش مهم إنى درست واتعلمت المهم إنى أرجع لمصر علشان أناضل من أجل الاشتراكية»، وفى المدرسة ودعه أساتذته وزملاؤه وقال له أستاذه: «يا عبد الرحمن لقد تعلمت الكثير ولكن حذار أن تتفلسف على أبناء وطنك، إن وطنك لا يحتاج إلى فلاسفة وإنما يريد أناسا يوقظون الشعب».

ومن موسكو بدأت أشهر رحلة عودة للوطن. وصل إلى باريس ومنها إلى أثينا ثم إلى بيريه ليركب السفينة «أيونيا» وكان الحزب اليونانى قد اختارها لأن عليها مهندسا عضوا بالحزب. ووصلت السفينة إلى الإسكندرية (وكانت تعمل بشكل دائم على خط بيريه - الإسكندرية) لكن السلطات فى ميناء الإسكندرية منعته من النزول من المركب بحجة أنه غير مصرى وليس معه جواز سفر لبلد آخر. ونبه الأمن على القبطان بأنه مسئول عن عدم السماح له بالنزول من المركب حتى تغادر المياه الإقليمية. وعادت به السفينة إلى بيريه لكنه رفض النزول مصمما على حقه فى العودة إلى الإسكندرية. ويقول عبد الرحمن فضل فى حواره معى: «بقيت على ظهر المركب وتكرر ذهابى وعودتى من بيريه إلى الإسكندرية والعكس ٥٤ مرة. وفى كل مرة أصل فيها إلى الإسكندرية كان يتم حشد عديد من مراسلى الصحف المحلية والعالمية لينقلوا حكايتى». لقد صمم الحزب على إسقاط قانون الجنسية الظالم، ووقعت الحكومة فى الفخ، وبدأت الصحف تحكى قصة هذا العالق على ظهر مركب وبلا أرض تستقبله. ويواصل عبد الرحمن حكايته: «على خط سير السفينة كان العديد من المصريين يسافرون وكنت أشرح لهم قضيتى وأوجه معهم رسائل إلى الصحف وإلى الرأى العام». وشعرت الحكومة اليونانية بالحرج فعرضت عليه النزول إلى اليونان وإقامة مريحة وعملا مربحا لكنه رفض مصمما على العودة لوطنه. وتنشر «الأهرام» (١٩٣٦/٨/٢١) «وصل أمس بعد الظهر على السفينة أيونيا الشاب المصرى عبد الرحمن فضل الذى نزعت جنسيته منه ومنع من الدخول أربع مرات، وعند وصول السفينة ذهب ربانها إلى القنصلية اليونانية ليشكو من بقاء هذا الشاب على سفينته». وتستمر المعركة كل ستة أيام وطوال خمسة أشهر تصل السفينة ويحتشد الصحفيون ويمنع الأمن عبد الرحمن فضل من النزول، وتعود «الأهرام» لإثارة المشكلة (١٩٣٦/٨/٢٧) «عادت الباخرة آيونيا إلى الإسكندرية اليوم

وعاد معها عبد الرحمن فضل ومنعه الأمن من دخول البلاد»، وتمضى «الأهرام» :«ويتعين اتخاذ بعض التدابير لحل هذه المشكلة من الوجهة الإنسانية، لأنه ليس من الطبيعى أن يظل هذا الشاب ذاهبا وعائدا بين مصر واليونان»، ومع نضوج المعركة يوجه عبد الرحمن فضل بيانا إلى الرأى العام تنشره «الأهرام» تحت عنوان «من المصرى التائه» وتعلق «الأهرام» على هذا البيان قائلة: «ولقد طلبنا من ذوى الشأن الاهتمام بحل مشكلة هذا الشاب من الوجهة الإنسانية بحيث يتسنى له أن يصل إلى بر» (١٩٣٦/٨/٣٠). وتستمر المعركة، ويتحرك الرأى العام وتكتب الصحف عديدا من المرات ويسميه مراسل المقطم فى الإسكندرية «ذارع البحار» فيصبح هذا الاسم متداولا على نطاق واسع. وتحاول وزارة الداخلية إيجاد حل وسط لإسكات هذا الصخب الإعلامى فتبلغ الصحف استعدادها «أن تنظر بعين الرفق فى حالة هذا الشاب إذا قامت الأدلة على أنه كف عن اعتناق الشيوعية» (الأهرام-١٩٣٦/١٠/٢٣)، لكن عبد الرحمن فضل يرفض التخلى عن المبدأ ويواصل رحلته بين بيريه والإسكندرية والعكس، وفى كل ستة أيام تتجدد إثارة مسألته ويتجدد معها سخط الصحف على مرسوم نزع الجنسية المصرية من مواطنين مصريين بسبب مبدأهم.

* * *

«إسقاط الجنسية المصرية عنى أنا وبعض زملائى أمر مخالف للدستور. وأنا أعتمد فى حل مشكلتى على عطف الأمة المصرية وعدالة القضاء وشهامة الصحافة الحرة وصراحة الدستور».

عبد الرحمن فضل (فى رسالة إلى رئيس الوزراء وجهها بعد دخوله سراً إلى مصر)

ويستمر الشاب المناضل على ظهر السفينة حتى يعلن ربانها أنه لن يقدم له طعاماً. وتتصاعد المعركة بهذا القرار وتنشر «الأهرام»: «ونحن لا نظن أن ربان السفينة قصد بما فعل اقتصاد قيمة غذاء عبد الرحمن فضل. وإنما قصد لفت نظر السلطات المصرية إلى حالة هذا الشاب. وقد علمنا أن أحد أقاربه حاول أن يقدم له طعاماً قبل مغادرة السفينة للإسكندرية لكن فضل رفض تسلم الطعام» (١٩٣٦/٩/٢١).

ويكمل فضل روايته فى حواره معى: «أنا كنت أستفيد من ذلك فى إثارة القضية ككل

وفى إحداث أكبر ضجة ممكنة. حتى أصبحت معظم الصحف تتحدث عن قضيتى، وكنت أناقش المصريين الذين يسافرون على السفينة وأثير معهم قضيتى وقضية رفاقى. وفى إحدى المرات تحدثت مع الدكتور قناوى، رئيس المجلس البلدى بالإسكندرية، الذى اقتنع بعدالة قضيتى وعندما عاد إلى الإسكندرية اتصل بمراسل «المقطم» وشرح له القضية. فأطلقت «المقطم» أوسع حملة تضامن معى وبدأت تسمية «ذارع البحار» تتردد كثيراً على صفحات الكثير من الصحف». ومع إصرار عبد الرحمن فضل وتصاعد ضغط الرأى العام بدأت الحكومة فى التراجع. وتنشر جريدة «البلاغ»: «يعرض حضرة صاحب العزة أحمد حمدى محجوب مدير الأمن العام على دولة وزير الداخلية هذا المساء مسألة عبد الرحمن فضل للفصل فيها، ويقول مندوبنا إن النية تتجه إلى إباحة دخوله القطر بقيود ثقيلة» (١٩٣٦/١١/٢٣). وإذ تنضج المعركة يقرر عبد الرحمن فضل أن يلقى إليها بوقود جديد فيعلن للصحف أنه قرر الإضراب عن الطعام. وتنشر «الأهرام» «عادت الباخرة ايونيا من اليونان وعاد عليها عبد الرحمن فضل وهو مضرب عن الطعام منذ ستة أيام، وستعيده السفينة بعد الظهر إلى بيريه وهو بهذه الحالة. وقد علمنا أن السفينة قد تنقطع عن السفر لأن الشركة ستدخلها إلى الحوض الجاف لإصلاحها. فماذا يحل بفضل فى هذه الحالة إذا لم يؤذن له بالنزول إلى البر؟» (١٩٣٦/١١/٢٢).

والمثير للدهشة أن عبد الرحمن فضل كان بإمكانه أن يهرب إلى مصر لكن الحزب اتصل به ومنعه من ذلك حتى تستمر قضية إسقاط الجنسية مشتعلة. وإذ التهبت القضية وانتقلت إلى مجلس النواب عن طريق النائبين فكرى أباظة وعبدالحميد بك عبدالحق.. أبلغه الحزب بقرار الهروب.. ويمضى عبد الرحمن فضل فى حواره معى: «هنا تدخل الحزب الشيوعى اليونانى ونجح فى أن يأتى بقبطان شيوعى للسفينة وبدأ الرفاق فى الإسكندرية فى إعداد الترتيبات النهائية». عندما تتحرك السفينة تاركة ميناء الإسكندرية سيختار القبطان أفضل نقطة يقفز فيها فضل إلى البحر. يقف القبطان على ظهر المركب وفى النقطة المحددة يشعل سيجارة ويقفز عبد الرحمن ليجد مركبا صغيرا فى انتظاره ليعود به إلى أرض الوطن.

ويقول: «قبل أن تتحرك السفينة من الإسكندرية كان هناك عسكرى بوليس يلازمنى دوماً حتى نرحل. فقال لى: انت ناوى؟ وهززت رأسى فقال لا تذهب من الناحية الشرقية فهناك كمين أعده البوليس لبعض مهربى المخدرات».

قفز عبد الرحمن إلى الماء. وكان القارب بانتظاره وهبط عبد الرحمن إلى أرض وطنه «ولم تعد أى قوة تستطيع اقتلاعى منه» ومن مخبئه بدأ عبد الرحمن ورفاق الحزب بالإسكندرية فى شن حملة جديدة. وتنشر «الأهرام» نبأ دخوله مصر لكن الأمن ينفى ذلك غير أن «الأهرام» تعود لتؤكد «مسألة عبد الرحمن فضل ـ ثبوت نزوله إلى البر ـ مسألة دستورية مهمة» وتعلن الأهرام تضامنها مع فضل قائلة «ليس جرماً ما فعله فضل وزملاؤه فى الأصل. وليس عدلاً تجريدهم من جنسيتهم بسببه، فكيف يكون من العدل الآن حرمانهم من العودة إلى أهلهم وبلادهم؟». وحاول البوليس ليستر عجزه أن ينفى وجود عبد الرحمن بالإسكندرية وقال إنه هرب إلى قلب الصحراء. لكن بعض أعضاء مجلس النواب أكدوا أنهم تناولوا طعام الغداء مع عبد الرحمن فى الإسكندرية. ونشرت جريدة «البلاغ» حديثاً أجرته معه، ومن مخبئه وجه عبد الرحمن فضل خطاباً مفتوحاً إلى رئيس الوزراء نشرته أغلب الصحف. لكن «الأهرام» عاتبت عبد الرحمن فضل لأنه استخدم ألفاظاً بها بعض الحدة وتتضمن ملاحظات فلسفية فى رسالة موجهة لرئيس الوزراء (١٩٣٧/١/٤).

وتحت ضغط الرأى العام أعلن البوليس رسمياً أن حل مشكلة فضل ورفاقه تتطلب إلغاء المرسوم الملكى الصادر عام ١٩٣١. وحتى يتم إلغاء المرسوم فإن البوليس سيكتفى بمعرفة مقر عبد الرحمن حتى تحل المشكلة قانونيا. لكن فضل يبدأ الهجوم القانونى، فقد رفع المحاميان الشهيران سيد صبرى وزكى عريبى «دعوى قضائية ضد وزير الداخلية». وجعل د. سيد صبرى من موضوعه مادة لمحاضرة فى كلية الحقوق.

وأخيراً قرر عبد الرحمن فضل، أو بالدقة قرر الحزب أن يسلم نفسه ليس للبوليس وإنما لرئيس مجلس النواب. ويوجه رسالة إلى أعضاء مجلس النواب «إننى ألجأ إلى مجلس النواب كأعلى سلطة تشريعية فى البلاد»، ثم يوجه رسالة أخرى إلى الرأى العام قائلاً فيها: «لا يمكننى أن أقدر خدماتكم فى الدفاع عن الحق وخدمة الإنسانية».

ويعود عبد الرحمن فضل إلى أحضان شعبه وحزبه. وفى ١٩٣٧/١٢/٢٢ تنشر «المصرى» نبأ تعديل المرسوم الملكى وإلغاء بند إسقاط الجنسية، ويمضى عبد الرحمن فضل فى نضاله سنينا عديدة. وعندما أسسنا منبر اليسار أتى إلينا لكن الكثيرين لم يعرفوا حكاية هذا الكهل ولا حكاية «ذارع البحار».

محمد دويدار

«كانت نقطة التحول فى حياتى هى اطلاعى على كتابات شبلى شميل. لقد اشتريت الكتابين بجنيهين يمثلان ثروة هائلة لعامل مثلى. وحفظت الكتابين عن ظهر قلب».
محمد دويدار
(فى حواره معى)

ولد فى عام ١٩٠١ لأب عامل فى السكك الحديدية. وفى طفولته عانى مع الأسرة كلها فى معركة إضراب عمال السكك الحديدية ١٩٠٧. الأب مضرب. والمضربون بلا أجر، والبيت بلا خبز. وبعد دراسة قصيرة فى الكتاب وحفظ بعض من القرآن، اضطر أبوه إلى دفعه نحو سوق العمل رغم إلحاح شيخ الكتاب، فالولد ذكى وحافظته قوية. لكن الأب يبحث عن خبز ولا يهتم بمقدرة ابنه على الحفظ. وهكذا عمل محمد دويدار صبياً لأحد الخطاطين حيث أتقن الخط العربى بجميع أنواعه. ثم نجح الأب فى إيجاد عمل له بالسكك الحديدية ليعمل عطشجيا.

وفى حوارى معه قال لى: «كانت نقطة التحول فى حياتى هى اطلاعى على كتابات شبلى شميل، وقد حفظت كثيراً جداً منها عن ظهر قلب». ويمضى دويدار: «كان لى أخ اسمه محمود يعمل فى محل أحذية بالإسكندرية يمتلكه شقيق الشيخ صفوان أبو الفتح، (أحد قادة الحزب الاشتراكى). وكنت بطبيعة عملى فى السكك الحديدية أزور أخى كثيراً وهناك تعرفت إلى الشيخ صفوان الذى ناقشنى عديداً من المرات وشرح لى الأفكار الاشتراكية ونظم لى أفكارى لكنه لم يضمنى للحزب»، وينتظر محمد دويدار حتى عام ١٩٢٧ إذ ينضم إلى إحدى الخلايا السرية للحزب فى طنطا. «ثم رشحنى الحزب للسفر إلى موسكو للدراسة فى "مدرسة كادحى الشرق" فتركت كل شىء وظيفتى وأسرتى وسافرت».

وفى البداية سافر إلى فلسطين، وكان معه عنوان بريدى فأرسل له خطاباً وحضر أحد الرفاق لينقله إلى يافا حيث ركب باخرة سوفيتية بتذكرة سفر إلى إستنبول. وأخفاه قبطان المركب فى مكان سرى.. وأخيراً وصل إلى المدرسة حيث وجد ١٣ مصرياً وآخرين من أحزاب أخرى (مراكش والجزائر وسوريا وفلسطين)، لكنه لاحظ أن أغلبهم من أصول أجنبية غير عربية، وهكذا قام بتجميع المصريين ليرفعوا شعار «أرابيزاتسيا» أى التعريب، لكن بعض مدرسى المدرسة اعتبرهم عنصريين وغير أمميين، ومن ثم هم برجوازيون صغار ويحتاجون إلى تلقينهم أسس الأممية البروليتارية. والغريب أن الأدلة التى سيقت ضده فى هذا الصدد هى أنه يجيد الكتابة العربية الرصينة وأنه حسن الخط (كان خطاطا) ويتحدث عن الداروينية والدياليكتيك والصراع الطبقى (ألم يقرأ ويحفظ شبلى شميل؟). وأرسل دويدار ليعمل فى أحد المصانع حتى يصبح العطشجى المتنور بروليتاريا، واستمر هناك ثلاث سنوات ونصف السنة. وخلال هذه الفترة صدر المرسوم الملكى بإسقاط الجنسية المصرية عنه.

وبعد فترة وبإلحاح منه تقرر عودته إلى الوطن. لكن الرحلة كانت درامية. فقد أعطوه بطاقة سفر على سفينة متجهة إلى ميناء «جيليت» فى بلجيكا، على أن يستقبله شخص يسهل له الرحلة إلى باريس وهناك سيرتب له الحزب عودته لمصر. وصل «جيليت» ولم يجد أحداً فى انتظاره.

ها هو فى بلجيكا بلا جواز سفر ولا نقود ولا لغة يتفاهم بها.. مهنة العطشجى أسعفته اختبأ أسفل القطار. وإلى باريس وصل ثم إلى مقر الحزب الشيوعى، وعمل لفترة محرراً فى مجلة يصدرها الحزب باللغة العربية اسمها «الشرق العربى»، لكنه صمم على العودة لمصر. سلموه جواز سفر مزورا ليسافر إلى حيفا. وهناك اكتشفوا أن الجواز مزور وسلموه لضابط مصرى أبلغه أنه فقد جنسيته المصرية. وأعيد إلى السفينة ومنها إلى مرسيليا. حيث تسلم جواز سفر آخر وسافر بالقطار إلى تركيا ثم إلى سوريا وعلى الحدود السورية اشتبهوا فى اسم الصاحب الأصلى للجواز المزور باعتباره تاجر مخدرات. وبرغم أن الأمر مجرد تشابه فى الأسماء فإنه أعيد مرة أخرى إلى تركيا. حيث حكم عليه القاضى بأغرب حكم لإبعاد أجنبى. أن يسدد ثمن بطاقة سفره بالقطار ومعها ثمن تذكرتين ذهاباً وعودة لحارسين يصطحبانه إلى الحدود السورية. وقال للقاضى إنه

مفلس فأمر بترحيله سيراً على الأقدام. ونستمع إليه: «لقد تعذبت فى هذه الرحلة عذابا شديدا وعانيت أهوالا تفوق الوصف. كان الجندى التركى يركب حصانا ويسحبنى مربوطا بحبل ماشيا فوق الثلج. ولما تمزق حذائى كنت أمشى حافياً وقدمى ملفوفتين ببعض القش، وعندما أوشكت على الموت جوعاً بعت البالطو، فالبرد أهون من الجوع»، وأخيراً وصل الحدود السورية وبعد مغامرات شاقة نجح فى الهرب عبر الحدود. كان المتبقى معه من ثمن البالطو أربع ليرات لكن ثمن تذكرة الأتوبيس إلى حلب كان ست ليرات فسار على قدميه ست ساعات أخرى حتى وصل الإسكندرونة ومنها بالأتوبيس إلى حلب وهناك اشتغل عامل بناء حتى دبر بعض المال ليسافر إلى بيروت، وهناك اشتغل شيالاً فى الميناء حتى أمكنه الاتصال بالحزب. وكان من المفترض أن يرتب له الحزب اللبنانى عودته إلى مصر لكنهم طلبوا منه أن يعمل على جهاز الطباعة السرى، وبعد ثلاثة أشهر قبض عليه ومعه المطبعة والمنشورات. وأمام قاض فرنسى قدم دفاعا سياسيا معلنا أنه سحبت منه جنسيته بسبب معتقده السياسى ولا يحمل جواز سفر. وأبدى دهشته من أن القاضى فرنسى الجنسية فى بلد عربى. وحكم عليه بالسجن ستة أشهر مع إعادته إلى سوريا. وأمضى الأشهر الستة لكنه هرب قبل ترحيله إلى سوريا. وهرب إلى فلسطين، وهناك وجد ثورة ١٩٣٦ وهى تتفجر، وعمل مع الثوار وتخصص فى تهريب ونقل السلاح. وكانت خبرة العطشجى سلاحه فى ذلك. إذ يعرف كيف يتعلق بأسفل القطار دون أن يراه أحد.

وأخيراً قبض عليه وتقرر إبعاده لكنه هرب ووصل إلى العريش. الآن هو فى وطنه لكن الأمن يترصده. وعاد العطشجى أسفل ثم فوق سطح القطار حتى وصل إلى القنطرة شرق.

أخيراً عاد.. ولكن هل يتصور أحد أن رحلة عودة هذا المناضل استغرقت خمس سنوات قضى أغلبها فى عذاب لا يوصف؟ وبعدها أسرع إلى الإسكندرية، حيث كان تكليفه الأصلى أن يعود إليها. وبدأ رحلة نضال جديدة وممتدة مع خلايا الحزب هناك.

وبعد..

أرأيتم كيف يكون العشق الذى يفرض على المناضل أن يناضل كى يعود إلى ساحة النضال؟

الشيخ صفوان أبوالفتح

«كان أهم من تتلمذنا على يديه الشيخ صفوان أبوالفتح. كان شيخا أزهريا عظيما وكنا نسميه "مولانا" وكان يكتب كل منشورات الحزب، وهو الذى صاغ برنامجه وكان يشرح الاشتراكية وكأن النبى محمد قال بها. كان ناراً حمراء متوهجة دوماً».
(من أقوال عبد الرحمن فضل فى حوارى معه)

ومنذ تأسس الحزب الاشتراكى كان الشيخ صفوان أبوالفتح هو أكبر الأعضاء سناً (ولد عام ١٨٨٢ فى قرية السنيطة مركز أجا)، وعندما سجن قادة الحزب كان هو أيضاً الأكبر سناً (٤٢ سنة)، وقد حاولت كثيراً الإمساك بخيط معلومات عن «مولانا» حتى التقيت بأخته فاطمة.

وتحكى فاطمة: «أبونا كان غنيا. وكان فلاحا متسلطا، ومن ثروته استمد المزيد من التسلط على أبنائه. هو لم يتعلم ورفض أن يتعلم أى من أبنائه، فالأرض كافية والرزق وفير فلا حاجة لأن يتعلم الأولاد. سنة أو سنتان فى الكتاب ثم إلى الحقل. صفوان تعلق بالكتاب وبالعلم وتعلق أكثر بحفظ القرآن الكريم». لكن الأب يرفض لأى من أبنائه أى علم حتى حفظ القرآن. وعندما علم الأب برغبة الابن ثار فى وجه الجميع وقال: «إلى الغيط يا ولد» لكن الابن يذهب إلى الغيط صباحاً ويحفظ القرآن سراً فى المساء، حتى اقترب من سن الخامسة عشرة، فاستجمع كل شغفه وألقى نظرة وداع على الأم والإخوة والقرية. وهرب، وفى رحاب المعهد الأحمدى بطنطا استقر به المقام مجاوراً يعيش على الجراية، ويقضى كل أيامه ولياليه فى حفظ القرآن والحديث والفقه. والأب العنيد يتصادم مع إرادة الولد العنيد. وكانت قطيعة دائمة. وحرمه الأب من الميراث. ولم يأبه صفوان؛ فيكفيه ميراث العلم. ومن المعهد الأحمدى إلى الأزهر ليتخرج مدرساً للغة الغربية فى مدرسة سعيد باشا بالإسكندرية ثم مدرسة العروة الوثقى.

ولا نملك خيطا يكشف لنا كيف اقترب المدرس المهيب من الاشتراكية، لكنه كان من مؤسسى الحزب الاشتراكى واستطاع أن يصوغ للحزب فكراً ماركسياً مطعماً بالرؤية الدينية المستنيرة، وكانت محاضراته للرفاق مزودة على الدوام بآيات قرآنية وأحاديث نبوية. وكان «مولانا» عضوا فى أول لجنة مركزية للحزب.

لكن الغريب فى الأمر أن بعض إخوته الذين نالوا نصيبا وافرا من الأرض والثروة ومعها نصيب وافر من الجهل فقدوا ثروتهم ولجأوا إلى الأخ المنبوذ فمد لهم يداً حانية، وفى عام ١٩٢٤ يقبض على جميع القادة ويحل الحزب، وتتحدث حيثيات حكم محكمة الجنايات عن مولانا قائلة: «وحيث إن المتهمين أنطون مارون وحسنى العرابى وصفوان أبوالفتح هم قادة الحزب وأشدهم تحمسا وأكثرهم نشاطا فى بث الدعوة إليه، وهم بذلك أشدهم خطراً بما يستدعى معاملتهم بمنتهى الشدة. وحيث إن المتهم الثالث صفوان أبوالفتح كان يبث أفكاره فى صفوف تلاميذه وكان يملى عليهم أمالى عن الاشتراكية فإنه يتوجب معاملة المتهمين الثلاثة الأول بمقتضى المادة ١٧ من قانون العقوبات» (حيثيات الحكم فى قضية الجناية ٣٦ لسنة ١٩٢٤ جنايات الإسكندرية)، وحكم على المتهمين الثلاثة الأول، ومنهم مولانا، بالسجن ثلاث سنوات قضاها صفوان كاملة.

ويخرج «مولانا» مفصولا من عمله ولا يكون أمامه سوى العمل فى بعض المدارس الخاصة. ولكن الأمن لا يكف عن مطاردته ومطاردة زوجته وأسرتها. وكان الأمن يضغط طوال فترة السجن على الزوجة أن تطلب منه الطلاق لكنها رفضت واستمر الضغط حتى بعد أن خرج من السجن. لكنه صمد. وهى أيضاً صمدت.

ويبقى أن نتأمل قطعة من الأدب السياسى الرفيع الذى مزج بين الماركسية والنكهة المصرية الخالصة فى مقدمة برنامج الحزب الاشتراكى المصرى التى صاغها «مولانا» ونشرت كاملة فى «الأهرام» (٢٨ أغسطس ١٩٢١).

وتقرأ: «فى تلك الآونة التى تعصف فيها النظم الرأسمالية الفردية بحياة بنى الإنسان وأرواحهم وعقولهم وجهودهم، تبث المبادئ الاشتراكية فى الأفئدة المعذبة لإنجاد الإنسانية وإغاثتها من بطش القوى الظالمة، وتحقيق غايات العدالة الطبيعية من تأييد عواطف التآخى والسلام فى المجتمع الإنسانى والقضاء على ظلم المستعمرين المستغلين الذين سلبوا حرية الشعوب والأفراد. وسعوا إلى تحقيق رفاهيتهم بالاضطهاد المريع للأمم والمجتمعات

المستضعفة. وقد امتدت يد الاستعمار والظلم إلى مصر فاستلبت حريتها عملا بسياسة تلك النظم الرأسمالية سعيا إلى استعمار أرزاقها واستغلال جهود بنيها. كذلك تسيطر تلك النظم على المجتمع المصرى سيطرة سحقت معها دولة العمل، وبطش بها رأس المال بطشا شائنا ومرهقا أدى إلى خلق الغنى الفاحش والبأساء البالغة واتساع الهوة بين الرفاهية والفاقة. لذلك كان من الضرورى أن يمتد إلى بلادنا صراع المبادئ الاشتراكية العادلة ضد النظم الرأسمالية، سعياً إلى تخفيف ويلها وظلمها الفادح، وتحقيقاً لتلك الغاية نهض إخوان العمال فى مصر لتأليف الحزب الاشتراكى المصرى.. وهذه هى مبادئه التى سيعمل على تحقيقها».

الله يا «مولانا». ما أجمل هذه القطعة الأدبية.. وما أجملك.

شعبان حافظ

«كيف يمكن للناس أن يأمنوا على أنفسهم إذا كان الأمن نائماً، فبرغم المراقبات والأرصاد استطاع الشيوعى شعبان حافظ أن يهرب إلى خارج البلاد، ويسافر إلى موسكو.. ليعود منها وقد أصبح لينينا صغيرا»
(المقطم ١٩/٣/١٩٢٧)

ما المسافة التى يقطعها المناضل السجين كى يصبح أصغر سجين شيوعى ثم يصبح أكبر سجين شيوعى.

فالسجين الذى وقف فى قفص الاتهام فى قضية الجناية رقم ٣٩٣ محرم بك الإسكندرية لسنة ١٩٢٤. وكانت سنه ١٨ عاماً (ولد ١٩٠٥)، هو نفسه الذى وقف متهماً أمام المجلس العسكرى العالى برئاسة الفريق هلال عبد الله هلال عام ١٩٥٩ فى ذات القفص وفى ذات المحكمة بالإسكندرية ليكون أكبر المتهمين سنا. وشعبان حافظ مساعد صيدلى من الإسكندرية التقى مع الموج الثائر للحركة الاشتراكية الذى اجتاح الإسكندرية فى بداية عشرينيات القرن الماضى، وانضم إلى الحزب الاشتراكى منذ اليوم الأول. ومن الإسكندرية انتقل إلى الزقازيق ليعمل هناك وليسهم فى تأسيس نقاط ارتكاز للحزب فى هذه المدينة. وعندما وقع الحزب فى دوامة الاختيار بحثا عن إجابة للسؤال الصعب هل يصبح حزبا اشتراكيا إصلاحيا أم حزبا ثوريا على النسق الشيوعى؟ انسحب من الحزب كل من اعترض على اختيار النسق الثورى وتسمية الحزب بـ «الحزب الشيوعى»، ومن الذين بقوا وتحمسوا للتوجه الجديد مجموعة من الشباب صغار السن شعبان حافظ ومحمد الصغير (حلاق من شبين الكوم) وعبدالحفيظ عوض (مدرس بطنطا) ومحمود إبراهيم السمكرى (سمكرى بالبلقطية) وعبدالحميد تره (كاتب بمحلة أبو على).. ومع إعادة تشكيل اللجنة المركزية للحزب بعد انسحاب سلامة موسى ومحمد عبد الله عنان ود.

على العنانى وغيرهم.. تقرر ضم هذه المجموعة من الشباب مكان من انسحبوا.

وبعد موجة الإضرابات العمالية العاتية فى الإسكندرية صدر فى ٣ مارس ١٩٢٤ قرار بحل الحزب وقبض على أعضاء اللجنة المركزية ومنهم شعبان حافظ، قدم منهم للمحاكمة أحد عشر متهما واحتل اسم شعبان حافظ رقم (٩) فى قرار الاتهام. ووقف الفتى الصغير ليستمع إلى التهمة الموجهة فى مرافعة النيابة العامة: «اتفق جنائياً بأن اتحد مع آخرين على ارتكاب الجنايات والجنح المبينة فى قرار الاتهام وعلى الأعمال المجهزة والمسهلة لارتكابها ألا وهى جنايات القتل العمد ونشر الأفكار الثورية المغايرة لمبادئ الدستور المصرى الأساسية، وتحديدا تغيير النظم الأساسية للهيئة الاجتماعية بالقوة والإرهاب ووسائل أخرى غير مشروعة»، وأيضاً «تحريض طائفة العمال وصغار الفلاحين على بعض أصحاب العمل والملاك، والتحريض على عدم الانقياد للقوانين، وتحريض العمال على استعمال الوسائل غير المشروعة فى الاعتداء على حق أصحاب الأعمال». كان الفتى الأصغر سناً يصغى إلى خطاب وكيل النيابة وهو يبتسم.. إنها ذات الابتسامة التى واجه بها كل الصعاب بامتداد تاريخ نضال طويل استمر حتى رحلة التعذيب الوحشى فى سجن «أبو زعبل» فى الزمن الناصرى. وذات الابتسامة التى ارتسمت على وجهه وهو واقف فى ذات القفص بعد خمسة وثلاثين عاما ليستمع إلى قرار الاتهام.. وهذه المرة من المدعى العسكرى. وفى المرة الأولى يشفع له صغر سنه فيحكم عليه بالسجن ستة أشهر. ويفرج عنه ليختفى عن أعين البوليس ويواصل نضاله السرى فى القاهرة كمحترف ثورى ويقيم فى ٩ شارع الكرداس بعابدين، محاولا الإسهام فى إعادة تكوين الحزب، ويشارك بحماس فى النضال السرى وأيضاً فى النضال العلنى (إصدار مجلة الحساب ـ تأسيس لجنة الدفاع عن العمال والفلاحين).

ويعلو صوت الحزب فى احتفالات مهيبة بعيد العمال (أول مايو ١٩٢٥) ويستيقظ الأمن مرة أخرى وتنشر «الأهرام» (أول يونيو ١٩٢٥): «وصلت إلى الحكومة المصرية أخبار عن مجهودات الشيوعيين والمساعى التى يبذلونها لبث الدعوة الشيوعية فى مصر، وأمس حوالى الفجر، شن البوليس حملة فى القاهرة والإسكندرية ففتش فى المدينتين مساكن طائفة كبيرة من الأشخاص المشتبه فى انتمائهم إلى الشيوعية».

وكان شعبان حافظ رقم (٩) فى قرار الاتهام (راجع النص الكامل لقرار الاتهام فى:

د. رفعت السعيد ـ تاريخ الحركة الشيوعية المصرية – المجلد الأول ـ ص٥٨٩). ويحكم عليه بالسجن عاماً (الأمل – ١٩٢٦/١/٢٣) ويقضى مدة العقوبة. ويفرج عنه ليختفى مرة أخرى عن أعين البوليس.. ولا يلبث أن يصل نبأ وصوله إلى موسكو. وهناك فى «جامعة كادحى الشرق» حقق حلمه الكبير فى أن يدرس الماركسية دراسة أكاديمية. وبينما كان شعبان الذى اتخذ اسما حركيا هو «العجوز» فى موسكو صدر مرسوم ملكى فى ٢٠ أغسطس ١٩٣١ بإسقاط الجنسية عن ثمانية من المناضلين الموجودين فى موسكو، وكان اسم «العجوز» بينهم (راجع النص الكامل للمرسوم ـ فى د. رفعت السعيد – المرجع السابق ـ ص٥٩٢).

لكنه، وكما سافر سراً عاد سراً إلى أرض الوطن. وبعد سنوات قضاها مختفيا عن الأنظار قبض عليه فى الزقازيق (الأهرام– ١٩ يونيو ١٩٣٥). ومرة أخرى يخرج من السجن ليعاود النضال وكان قد أصبح السكرتير العام للحزب وفى نهاية الثلاثينيات يلتقى الموج الماركسى القديم بقيادة «العجوز» مع الموج الجديد. العجوز قبل ببساطة موقعا غير قيادى فى التنظيم الواحد وواصل النضال. ليقبض عليه عام ١٩٥٩ وعلى وجهه ذات الابتسامة، وفى سجن أبو زعبل يتحدى بابتسامته الجميلة التعذيب النازى البشع.. وإلى سجن الواحات يرحل، وهناك تتحقق آخر أمنيات «العجوز» أن يرتاح مبتسماً فى أحضان رفاقه. ويكون أول سجين يشيع فى جنازة مهيبة داخل جدران السجن. ملفوفاً بعلم أحمر. شيعه مئات من السجناء الشيوعيين وهم ينشدون:

«سلام يقدمه فى فخار
جنود الكفاح لأبطاله
إلى أكتوبر والثوار
إلى يوم مايو وعماله
لكل شجاع إلى الانتصار
مضى فى ثبات إلى حتفه»

عصام الدين حفنى ناصف

«إذا كانت المدنية الحديثة تعنى أن يتمتع بثمارها بضعة مئات من الأغنياء والوارثين فتعسا لها وسحقا».
عصام الدين حفنى ناصف
(كتاب التجديد الاجتماعى)

يبدو غريبا أن تبدأ دراسة ما بفقرات من ملف التحقيق فى إحدى الجنايات، لكن بعض الناس لا يمكن دراسة تاريخ حياتهم بغير تقليب صفحات القضايا، ومحاضر البوليس وتقارير المباحث.

س: هل أنت ناشر كتاب التجديد الاجتماعى؟

ج : نعم، وقد طبعت منه ١٥٠٠ نسخة وبيع معظمها.

س: تشير فى كتابك إلى «أناس لا ينظرون إلى الفلاح إلا باعتباره ثورا يضعون فى عنقه نيرهم» فمن هم هؤلاء؟

ج: هم طائفة كبيرة من أصحاب الأطيان والمصانع.

س: تشير فى كتابك إلى «الأموال التى تصرف فى إسراف سخيف وتكفى لتحسين حالة الفلاح لحد ما» فماذا تقصد من ذلك؟

ج: أريد مثلا الأموال التى تنفق على الزينة فى أعياد جلالة الملك والتى لا يستفيد منها غير أصحاب محلات الكهرباء الأجانب وغير ذلك حاجات كثيرة جدا، فالأغنياء مثلا يشترون الماسات ويقيمون الأفراح ونحو ذلك، ومثال ذلك البرنس يوسف كمال عنده ٤٠ كلبا للصيد يذبح لها خرفانًا مخصوصة بينما الفلاحون فى أرضه لا يأكلون غير المش، وهو وغيره يحجزون على أملاك الفلاحين إذا خسرت الزراعة.

س: من الذى يأبى على الفلاح قسطه من القوت؟

ج: كل اللى شايفين حالته وسايبينه «يرن».

س: ماذا تقصد بعبارة «سحقا لها وتعسا»؟

ج: أقصد مدنيتنا الحالية.

س: ماذا تعنى بعبارة «لكل من يعمل على قدر ما يعمل»؟

ج: «الفلاح يشتغل طول السنة مفيش معنى يأكل المش وصاحب الأرض يبعثر الفلوس، بل يجب أن توزع الإيرادات على صاحب الأرض والفلاح بنسبة عادلة».

س: قلت فى كتابك «إن الفلاح يزرع فيجب أن يحصد، الفلاح هو المنتج فيجب أن يكون هو المتمتع» فماذا تقصد بهذه العبارة؟

ج: أقصد المعنى الحرفى..

س: ما الذى تقصد بالضبط؟

ج: أقصد أن الفلاح فى حالة سيئة وأنهم مش عايزين يعطوا له حقوقه.

س: من هم؟

ج: الملاك والأغنياء والحكومة...[١]

وبعد.. لم تكن الكلمات السابقة محاولة للتعرف على كتاب يدور بشأنه التحقيق ويتهم صاحبه بالتطرف، فما أكثر هذه الكتب، لكنها محاولة للتعرف على الرجل.. الرجل الذى أصدر الكتاب وواجه المحقق بشجاعة نادرة ووضوح ثورى..

أما الرجل.. فهو عصام الدين حفنى ناصف

والكتاب.. «التجديد الاجتماعى»

والمحقق.. ممثل واحدة من أكثر الحكومات التى شهدها تاريخ مصر الحديث رجعية وتعسفا. حكومة إسماعيل صدقى عام ١٩٣٠.

والحقيقة أننى قد حاولت أكثر من مرة أن أبدأ هذه الدراسة بكلمات قليلة أبلور فيها شخصية عصام الدين ناصف ولم أجد غير كلماته وهو حبيس الطغيان يدينه ويدين النظام الذى أقامه والطبقة التى يخدمها بشجاعة تستحق التقدير، كلمات تعبر عن أصالة الإنسان وهو فى مواجهة الخطر.

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى سجن فيها عصام، فلقد كانت الفترة الأولى من كفاحه، سلسلة من التصادمات مع الطغيان، فالتحقيق فالمحاكمة، لكن صوته كان فى كل

مرة يعلو فوق صوت قضاته، يدينهم قبل أن يدينوه، وكثيرا ما كان ينتزع براءته لا بالتراجع وإنما بمزيد من الهجوم الذى يضع النظام كله فى قفص الاتهام.

والقصة طويلة جدا..

فلقد دخل عصام المعركة مبكرا، شابا فى العشرين من عمره تفجرت حوله ثورة ١٩١٩ فشارك فيها بكل ثقله..

ومن ١٩١٩ عندما دخل السجن لأول مرة وحتى ١٩٦٩ عندما كف قلبه الشجاع عن الخفقان تمتد مرحلة طويلة تحاول هذه الدراسة تغطيتها.

وقد يكون الأمر سهلا إذا حاولنا أن نؤرخ لشخص عادى، لكن عصام تمتزج حياته بحياة شعبة وقضايا أمته، ولا يمكن للحديث عنه أن يكون صادقا ولا أن يكون مجديا إذا لم نتحدث عن السلطة والنظام وثورة ١٩١٩ وحزب الوفد وسعد زغلول والحزب الوطنى ونقابات العمال والحزب الاشتراكى، وعشرات المحاولات المخلصة لإقامة حزب للعمال والفلاحين.. واتحاد أنصار السلام وعديد من المجلات.. روح العصر.. التطور.. شبرا.. الشعاع.. والمصرية.

من هنا تبدو صعوبة الأمر، فنحن سنؤرخ لرجل غير عادى، لكننا مع ذلك سنحاول مستخدمين حصيلة من المواد.. كتاباته وهى كثيرة جدا، صحف هذه الفترة، أرشيفه الشخصى الذى ظل يجمعه بدأب وصبر طوال نصف قرن ثم سلمه لى وكأنه يودع لدى كنزاً ثمينا. وهناك أيضا محاضر البوليس وتقارير المباحث وملفات القضايا.. وهكذا سنحاول.

من هو..؟

والإجابة ليست صعبة، فهو ابن حفنى ناصف، واحد من رواد الوطنية الصحيحة الذين شاركوا فى ثورة عرابى، وبعد الاحتلال رفضوا الانحناء للمحتلين.

ويحاول طه حسين أن يقدم حفنى ناصف فيقول إنه «عرف احتفار قناة السويس فى آخر الصبا. وعرف الثورة العرابية وشارك فيها حين استكمل شبابه، ثم شهد الاحتلال البريطانى وشقى به فيمن شقوا من مواطنين. ثم شهد نهوض الصفوة المصرية لمقاومة هذا الاحتلال فأخذ معها فيما أخذت فيه. ثم شهد اليقظة العقلية لمصر، فكان من دعاتها والجادين فى إذكاء نارها من أمثال محمد عبده، ومصطفى كامل، وقاسم أمين، وسعد زغلول»[٢]

ولم يكن حفنى ناصف مجرد شاعر ومناضل وطنى، ففى بعض أشعاره يمكن أن نلمح آفاقا للتمرد الاجتماعى ورفضا للظلم والاستغلال.

وفى قصيدة كتبها وهو طالب بالأزهر يحيى فيها برلمان الثورة العرابية قال:[٣]

لا أرجع الله أياما مررن بنا
أيام كنا نقاسى الظلم والهونا
كنا نساق بسوط الظلم تندبن
أحبابنا وتنادينا ذرارينا
أيام كان ولاة الجور فى سعة
وكان صاحبنا الفلاح مسكينا
وكم أتينا لهم نشكو ظلامتنا
وما وجدنا أميرا قط يشكينا

وعصام شقيق باحثة البادية ملك حفنى ناصف، وشقيق مجد الدين الذى لعب دورا مهما فى تاريخ الحركة الوطنية المصرية.

هو إذًا نبت مناخ وطنى أصيل، ولعل ثوريته المتأججة وحماسه الدافق هما ثمرة الامتزاج بين الوطنية المصرية الأصيلة والفكر الاشتراكى.

... لكن ثمة صورة أخرى، صورة ترسمها صحيفة السوابق، وتقارير المباحث وملفات القضايا..

* «عصام الدين حفنى ناصف حكم عليه حضوريا فى ١٩١٩/١٢/١٤ بحبسه ثمانية أشهر بسيطة وإعدام المنشورات لاشتراكه فى طبع منشورات تحرض الناس على كراهية الحكومة وبغضها والازدراء بها فى أواسط عام ١٩١٩»[٤]

* وتقرير كتبه حكمدار بوليس مصر يقول:

«.. فى أغسطس ١٩٢١ كان عصام الدين حفنى ناصف يعمل مع الوفديين وكان معروفا عنه إذ ذاك أنه من أكبر أنصارهم وألف جمعية الدفاع عن المسجونين السياسيين التى كان من أفرادها شفيق منصور الذى أعدم فى قضية المغفور له السير لى ستاك».

وكان فى ذلك الحين يشيع أن له أصدقاء كثيرين من الروس والألمان فى الحزب البلشفيكى، ويرى أن أحسن وسيلة لطرد الإنجليز من مصر هى قلب مصر إلى حكومة بلشفية.

وتبلغ للبوليس عنه على أثر عودته من برلين فى يوليو ١٩٢١ أنه جاء مزودا من جمعية

اتحاد أمم الشرق بخطة لنشر المبادئ البلشفية. وعقد اجتماعات فى منزل محمد توفيق مكرم بك لتأليف لجنة للنشر والطبع والترجمة لبث دعوة البلشفية تحت ستار الجامعة الإسلامية.

وفى ١٩٢٢ انشق عن المغفور له سعد باشا زغلول وأنصاره وانضم إلى الحزب الوطنى، وفى مارس ١٩٢٤ تبلغ عنه أنه نشر الدعاية الشيوعية فى خطبة ألقاها فى تكريم المسجونين السياسيين.

«وعصام الدين ناصف هذا شاب متطرف إلى درجة الجنون فى سياسته وآراءه وكل أعماله، ومعروف عنه أنه من الأشخاص الخطرين» (٥).

وحكم صادر من محكمة جنايات مصر فى القضية نمرة ٤٩ الموسكى ١٩٢٤ المتهم فيها عصام الدين حفنى ناصف بأنه:

أولا: فى أثناء شهر يناير ١٩٢٣ ببرلين نشر فى جريدة آزاد شرق (حرية الشرق) التى تصدر فى برلين مقالا ألفه تحت عنوان (عودة الوفد إلى الدسائس.. الماضى المؤلم) وذلك بالعدد الصادر فى ٢٠ يناير ١٩٢٣، وقد تضمن المقال عيبا فى حق صاحب الجلالة ملك مصر بأن قال إنه حصل خلاف بين جلالته وبين معالى سعد زغلول سول للسراى أن تستنجد بدار الحماية حتى قبضت على معاليه ونفته فى مالطة.

ثانيا: بأنه من ثلاثة شهور سابقة على يوم ٢٢ يوليو ١٩٢٤ بالطريق العام وهو شارع البوستة بدائرة قسم الموسكى حسن أمرا من الأمور التى تعد جناية حسب القانون، بأن حبذ جناية قتل المرحوم بطرس غالى باشا رئيس الوزارة المصرية الأسبق التى وقعت يوم ٢٠ فبراير ١٩١٠ وذلك علنا بأن أشهر وحمل فى عروة سترته فى ذلك الطريق العام صورة إبراهيم الوردانى الذى ارتكب الجناية المذكورة.(٦)

والقائمة طويلة جدا، لكننا سنكتفى بهذا القدر، فما زالت أمامنا رحلة طويلة، فعصام الدين ليس مجرد ملفات فى محاكم ولا تقارير بوليس، بل هو ذلك الكفاح الفكرى والسياسى الذى أدى به إلى مواجهة المحاكم والبوليس.. فلنحاول أن نبحث عن أبعاد جديدة للصورة.

وفدى ثم.. حزب وطنى

ومع التيار الجارف للوطنية المصرية التى تدفقت قواها ضمن حزب الوفد فى ثورة

١٩١٩، سار عصام الدين ليواكب الثورة منذ أيامها الأولى، وليعانى سجنا وتشريدا لأنه طبع ووزع منشورات تحض على الثورة والازدراء بالحكومة.

لكن الأمور تتغير سريعا، ويسافر عصام إلى برلين ليكمل تعليمه ويشارك هو وأخوه مجد الدين فى تنظيم الطلبة المصريين بالخارج، وفى تعبئتهم لخدمة القضية الوطنية.

وكان مجد الدين سكرتيرا لجمعية الطلبة المصريين فى باريس، وعصام الدين سكرتير الجمعية فى برلين، وهناك أمكن الاحتكاك بقوى اليسار الأوروبى، فى فرنسا بحزب حقوق الإنسان وبالحزب الاشتراكى وبزعيمه «كاشان»، وفى ألمانيا بالحزب الاشتراكى الألمانى.

ولم يكن هذا موقفا فرديا، فالاتجاه العام للجمعية المصرية فى باريس وفى برلين وفى روما كان قد اقتنع تماما بأن اليسار الأوروبى هو السند الوحيد لحركة التحرر لوطنى المصرية، وذلك بعد أن انكشف أمام أعينهم وبصورة سافرة أكذوبة مبادئ ويلسون ومؤتمر الصلح (٧).

وكان طبيعيا أن يبدأ التباعد بين الطلبة الذين يتجهون يسارا وبين الزعيم الذى يتمسك باعتداله.

وهكذا بدأ الصدام بين سعد زغلول وجمعيات الطلبة فى أوروبا.

ويروى محمود أبو الفتح القصة..

«كانت الجمعية تناقش فى الإشاعات التى حامت حول سعد زغلول باشا، خاصة وقد رأى البعض أنه لم يكذب الخبر (كذبه فيما بعد، وهو الخبر المتعلق بقبول سعد تقرير ملنر).. ثم رأى أنه لم يبادر إلى الاحتجاج على بعض المسائل فى الحال بل تأخر فى ذلك أياما.

فعمد البعض إلى إرسال خطابات إليه منهم شخصيا فيها عبارات شديدة، وأرسلوا إليه خطابات كان ترد إليهم من بعض المصريين فى سويسرا وفرنسا وإنجلترا ومصر.

وطرحت مسألة الإشاعات على بساط البحث فى الجمعية فتقرر فى النهاية بإجماع الآراء - ما عدا اثنين - إرسال خطاب لسعد باشا. وقيل فيه: إننا قرأنا فى الصحف إشاعات مخجلة فيها أن سعادة زغلول باشا سيقبل بعض منح.. ولما كان لم يظهر أى تكذيب فى الصحف رغم انتشار الخبر فنرجوا أن تكذبه أو تسمح لنا بتكذيبه وسيذهب عضو بعد ٤٨ ساعة لاستلام الرد»(٨)

وهكذا تفجر الصراع عنيفا بين الطلاب وبين زعيم الثورة.

والذى يهمنا فى هذا الصدد هو الدور الذى لعبه عصام وشقيقه مجد الدين فى تزعم هذه الحملة، فقد عمدا إلى الدعوة لمؤتمر عام لجمعيات الطلبة المصريين فى أوروبا ليواجهوا محاولات التهادن وعلامات التردد التى بدأت تسود تصرفات قادة الوفد فى باريس.

وعندما منع الوفد عنهم مساعداته المادية التى كانوا يستخدمونها فى إصدار نشرات إعلامية تشرح أبعاد القضية الوطنية دعوا المواطنين فى مصر إلى التبرع لهم، وكانت الاستجابة للنداء واسعة، الأمر الذى أزعج سعد زغلول فى باريس.. كذلك أزعجته الدعوة إلى تأسيس فرع لجمعية الطلبة داخل مصر.

وثمة وثيقة مهمة هى واحدة من الرسائل السرية التى أرسلها على ماهر من باريس - وكان فى ذلك الوقت سكرتيرا خاصا لسعد زغلول - إلى عبد الرحمن فهمى سكرتير اللجنة المركزية لحزب الوفد.. وقد جاء فيها:

«يظهر أن مسألة الجمعية المصرية قد اتسعت أخيرا، لعطف البلاد عليهم ومساعدتهم بالأموال وإيجاد لجنة لهم فى مصر. وظاهر أن مثل هذه التصرفات لا تتفق مع وحدة العمل ووحدة الوجهة فإنهم مهما كان شعورهم عظيما، فإنهم يقعون فى الأغلاط كثيرا ولا يؤمن عليهم من غير إشراف الوفد ولذلك يكون الأولى أن يترك الأمر للوفد فهو يقدم لهم النقود ويشرف على أعمالهم بوجه الإجمال ويرشدهم إلى الدائرة التى يجب أن يوجهوا فيها مجهوداتهم.. وإذا أمكن إلغاء لجنتهم بمصر يكون أكمل وأوفى.. وإنى منذ وصولى كان همى ضم الجمعية للوفد حتى يعامل أعضاءها كأبنائه ويساعدهم بكل ما يلزمهم، إلا أنهم كانوا فى غاية العناد، وأشدهم عنادا هو مجد الدين أفندى ناصف، فلذلك أرى أنه إذا عاد ليخدم القضية فى مصر يكون أصلح للوفاق هنا» [٩]

ويقول عصام الدين: «حضرت مؤتمر الطلبة المصريين الذين يدرسون فى أوروبا، وكان ذلك فى ١٩٢١، وفى الاجتماع هاجمنا سعد زغلول وقلت له أنا أسحب الثقة منك فثار سعد وقال أنا وكيل الأمة ولست وكيل جمعية الطلبة»[١٠]، وعندما يسأله أحد وكلاء النيابة الذين حققوا معه ألم تشتغل بالسياسة مدة وجودك فى ألمانيا؟ يجيب: «كنا عاملين لجنة حزب وطنى وعملنا منشورات باللغة العربية ضد سعد باشا باعتبارنا لجنة حزب وطنى».[١١]

وهكذا ينتقل عصام الدين من الوطنية إلى الوطنية المتطرفة التى ترفض الاعتدال والتهادن وتتمرد على زعامة سعد زغلول وتحاول أن تدفع بالثورة إلى مسار أكثر أصالة.. ولم يكن هذا هو الانتقال الوحيد.. فلقد واصل عصام المسير.

من الوطنية المتطرفة.. إلى الاشتراكية

وأود أن أؤكد ابتداءً أن اتصال الطلبة المصريين باليسار الأوروبى لم يكن يعنى أنهم قد انضموا إلى معسكر اليسار. ففارق كبير بين التأثر والانتماء. والحقيقة أن جناحا لا بأس به من الدارسين المصريين فى الخارج قد أطل على الفكر اليسارى، وتأثر به البعض تأثرا عابرا تحول نتيجة للتكوين الطبقى ولطبيعة المكونات الفكرية للمجتمع المصرى إلى اتجاهات ليبرالية. والبعض اكتفى بالحماس فى الخارج، ثم يفتر حماسه عندما يعود ويكتفى بمشاركة البرجوازية المصرية وكبار ملاكها فى اقتسام ثمار ثورة ١٩١٩.

لكن البعض يظل يطور نفسه مع الأحداث يسوقه إخلاصه الوطنى ورفضه للتهادن مع الاحتلال إلى الالتقاء مع القوى المعادية للاستعمار فى أوروبا.. وهى بالتحديد قوى اليسار. ثم يسوقه سخطه على أسلوب التهادن مع الاحتلال إلى التناقض مع المتهادنين و لهجوم عليهم.

ومن خلال هذا وذاك يجد نفسه وهو يقترب رويدا رويدا من معسكر اليسار لينتمى إليه فى النهاية.

وثمة أمثلة كثيرة لشبان وطنيين دفعهم إحساسهم الوطنى العارم برفض التهادن مع المحتل إلى التمرد على الوفد، والانضمام إلى الحزب الوطنى، رافعين شعاره «لا مفاوضة إلا بعد الجلاء» لكن الحزب الوطنى كان يعانى من الضعف والتفسخ، أى أنه كان يعانى من نفس أمراض الطبقة التى يمثلها.. الحماس مع نفاد الصبر، والتشدد مع عدم الثقة فى حركة الجماهير.

ورويدا رويدا يكتشف بعض هؤلاء الوطنيين المتحمسين الأمراض الحقيقية، التى يعانى منها مجتمعهم، ورويدا رويدا يتجهون يسارا.

ولنتأمل بعض الأمثلة...

دكتور عبد الفتاح القاضى زميل عصام الدين ورفيق كفاحه يقول:

«أنا كنت وطنياً متطرفاً وكل همى أن أطعن فى الإنجليز، كنت وطنياً أؤمن بمصطفى

كامل ومحمد فريد ولم أكن أحب الوفد لأنه يسعى للمفاوضة، والمفاوضة تؤدى إلى التسليم. ومع مضى الوقت ابتدأت الأفكار تختمر فى عقلى واقتربت من الاشتراكية أكثر فأكثر عن طريق الأدب. وعن طريق القصص الاشتراكية ابتدأت أقتنع بالاشتراكية، وبعد ذلك بدأت الاطلاع على النظرية الاشتراكية، لقد أصبحت اشتراكيا فكرا.. لكن لم يكن لى نشاط.. وعندما رجعت إلى برلين فى ١٩٢٣ لأكمل دراستى اتهمتنى القنصلية المصرية بأننى لى علاقات متطرفة مع ذوى المبادئ الهدامة، ولم يكن هذا صحيحا فقد كنت لا أزال عضوا بالحزب الوطنى، إلى أن عدت إلى مصر وعملت كطبيب أطفال وأحسست بحقيقة الفقر وبشاعته كنت أقول للأم: اشترى دواء لطفلك أو غذاء. وأشعر أنها لا تملك قرشا.

وهكذا اقتنعت أنه لا فائدة من الطب ولا فائدة من أى جهد أبذله إلا إذا تغير المجتمع، وأن الواجب الأساسى لأى إنسان هو العمل لبناء الاشتراكية».[١٢]

وفى نفس المسيرة تقريبا سار عصام الدين.

والشىء الغريب أننا نشاهد عصام – وهو وطنى متطرف – فى عام ١٩٢١ يعارض تأسيس حزب اشتراكى قائلا: «إن بلدا كمصر تقف دائما موقف المصارعة لعدوها السياسى يجب أن تستجمع كل قواها لدفعه عنها وبعد ذلك تتفرغ لبحث النظم الاجتماعية، أما أنها تشغل مجهودها بمسائل اجتماعية ثانوية لا يمكن أن ينفذ منها إلا ما لم يكن فيه معاكسة للاحتلال فتضييع لقوة الأمة».[١٣]

ثم إذا به وبعد أن نضجت وطنيته يتقدم الصفوف ليدافع عن الاشتراكية.

لقد سئل عصام فى التحقيق أمام النيابة.. لماذا تركت الحزب الوطنى؟ وأجاب بكلمة واحدة: «لأنهم لخبطوا»، إنها كلمة بسيطة لكنها تجمع فى أطرافها كل المعانى التى قد تجيش فى نفس شاب ثورى وهو يرى قيادته تتراجع ثم تتهاوى.

وإذا كان الدكتور عبد الفتاح القاضى قد بدأ عمله بالاشتراكية عن طريق الأدب حيث قدم لقراء العربية ولأول مرة دراسة علمية ممتازة عن تولستوى تتضمن تحليلا لمنهجه الاجتماعى ولموقفه الفكرى ودراسة لعديد من كتاباته[١٤]، فإن عصام الدين قد بدأ من طريق آخر. فأصدر كتاب «النشوء والارتقاء».

ويبدو أن فكرة النشوء والارتقاء والدفاع عنها وتقديمها للقارئ المصرى كانت مفتاحا للتحول نحو الاشتراكية عند الكثيرين، وهى تعبير عن إيمان هذا الاتجاه (شبلى شميل –

سلامة موسى - إسماعيل مظهر.. ثم عصام الدين ناصف) بأن الإيمان بالعلم و لعقل هو السبيل الوحيد الممكن لهزيمة الرجعية وانتصار الاشتراكية.

وعصام الدين لم يهمل الأدب، فقد ترجم فى ١٩٢٦ قصة «النور يضىء فى الظلام» لتولستوى ثم «الزوج الإبدى» لديستويفسكى، لكنه سرعان ما يتجه مباشرة إلى الكتابة عن الاشتراكية، وفجأة تنهال كتاباته فى سرعة غريبة وكأنها سيل يتدفق بغير توقف.

والحقيقة أن أية محاولة لاستعراض فكر عصام الدين هى محاولة صعبة فى حدود دراسة كهذه، فقد أصدر ٢٣ كتابا، وعددا من المجلات ومئات المقالات متناثرة فى عشرات الصحف وعبر سنوات طويلة.

لكننا مع ذلك سنحاول أن نقدم نماذج من فكره لعلها توضح لنا صورة عصام الدين المفكر.. لكننا سنحاول قبل ذلك أن نتحدث عن المكونات الفكرية لآراء عصام الدين عن الاشتراكية.

المكونات الفكرية لأرائه

لقد تأثر عصام الدين كثيرا بالفكر اليسارى الألمانى، فكل ما ترجمه من كتب ومقالات عن الاشتراكية مترجم أساسا عن الألمانية ولمفكرين ألمان «كمفماير»، و«كارل ديل» و«د. لودفيج كسل» وغيرهم.

وعصام لا يخفى هذا، فهو يقول ردا على سؤال عن علاقاته بالحزب الشيوعى الألمانى: «كنا نتعلم منهم ونتابع أعمالهم لكن لم تكن هناك علاقة مباشرة بالحزب. والحقيقية أننى لم أدرك أهمية النضال العملى من أجل الاشتراكية إلا بعد عودتى من ألمانيا. لكن الذى لا شك فيه أننا تأثرنا كثيرا بهذا الحزب وبأفكاره».[١٥]

وقد تأثر عصام الدين بالمدرسة الألمانية اليسارية بشكل عام وبالاشتراكية الديمقراطية وبالشيوعية وحتى بالاتجاهات اليسارية الأخرى.

فهو يدافع فى عديد من مقالاته عن الاتحاد السوفيتى وعن تطبيقه للاشتراكية، لكنه أيضا يترجم بعض كتابات تروتسكى.

ففى أحد محاضر تفتيش منزله ترد أسماء عشرات من الكتب الماركسية والكتابات عن تأييد الاتحاد السوفيتى ولكن يوجد أيضا «كتاب باللغة الألمانية سألنا عصام الدين أفندى عن موضوعه فقال بأن ترجمته الثورة الدائمة تأليف تروتسكى».

وهو لا يكتفى بالقراءة لتروتسكى لكنه يترجم له أيضا، ففى محضر التفتيش السابق

يلاحظ أيضا وجود مسودات مترجمة تحت عنوان «الحالة الحقيقية فى روسيا» بقلم تروتسكى، قال إنها ترجمت عن كتاب وجدناه بالدولاب كتب بالألمانية وعليه اسم ليون تروتسكى(١٦).

ثم هو ينشر فى ١٩٣١ مقالا يلخص فيه كتابا أصدره مؤلف ألمانى هو د. تيودور زايبرت اسمه «روسيا الحمراء» يقول فيه: إن تروتسكى والمعارضة التى معه عرضت على ستالين خضوعا معقولا ولكن ستالين أبى إلا خضوعا مطلقا..

ويقول: «لقد توطدت سلطة ستالين فى أواخر ١٩٣٠ ولم يبق غير الرجال الذين لا شخصية لهم مثل كالينين»(١٧).

لكنه لا يتخذ موقفا معاديا للتجربة السوفيتية فهو يمتدحها ويؤكد على جوانبها الإيجابية وفى مقال طويل بعنوان «روسيا» يتحدث عن تجربة توحيد القوميات على أساس من المساواة.. وعلى أساس «الاتحاد الاختيارى».

وهو يمتدح تجربة مجلس السوفيتيات ويقول: «إنه السلطة العليا للتشريع والإدارة معا، على خلاف برلمانات الدول البرجوازية..».

وهو يفرق بين البلاشفة والاشتراكية الديمقراطية قائلا: «إن البلاشفة صمموا على إلغاء طبقة الأغنياء كلية ومهاجمة الإمبرياليزم الخارجى، ومن ذلك نرى أن الأمر لم يقتصر على تغيير رجال الحكم مع بقاء الأمور الاقتصادية والسياسية على ما هى عليه، كما حدث عند تولى وزارة شيدمان فى ألمانيا وماكدونالد فى إنجلترا»(١٨)

وأخيرا حسم عصام الأمر بكتابه «موسكو - برلين - لندن» حيث خصص صفحات عديدة من كتابه لتمجيد الاتحاد السوفيتى ولتمجيد الدور السوفيتى فى هزيمة الفاشية.

ويتضح فى كثير من كتاباته أنه قد اطلع على قدر لا بأس به من كتابات ماركس ولينين وتأثر بها غاية التأثر. وهو لا يدع فرصة تمر إلا ويمتدحهما فيها مديحا لا حدود له.

وهو يدرك أيضا حقيقة معنى اللينينية كتطوير لأفكار ماركس. فيقول: «عاش ماركس فى عصر كانت الاستعمارية فيه فى طور الجنين ولم يكن يرى الثورة المسلحة ضرورة لا مناص منها. أما الآن فقد عظمت - تناقضات الرأسمالية - وليس مذهب لينين مجرد تطبيق للتعاليم الماركسية على روسيا، بل هو مذهب عالمى جديد يلائم بين الماركسية وظروف الإمبريالية الأخيرة»(١٩).

ولقد درس عصام الدين دراسة تفصيلية تاريخ الثورة السوفيتية وكثيرا من كتابات لينين حول الخلافات بين البلشفيك والمنشفيك. وكتب فى ذلك مقالات غاية فى الإمتاع والإسهاب بعنوان «تاريخ الحرب الأهلية فى روسيا».

وهو فى هذا المقال يمتدح لينين ويقدم عرضا لبعض كتبه ويمتدح الدولية الثالثة ويتحدث عن انضمام كثير من القوى إليها، ثم هو فى النهاية يردد كلمات لينين الحاسمة: «لقد ماتت الدولية الثانية، هزمتها سياستها الانتهازية».[٢٠]

لكن هل تخلص عصام الدين من رواسب فكرة الدولية الثانية؟ لست أعتقد ذلك.. لقد صحح كثيرا من أفكاره فى مسار نضاله الطويل لكن ثمة رواسب بقيت.. أهمها موقفه من فكرة «قيادة الطبقة العاملة للثورة»، فقد كان عصام الدين يرى أن المثقفين هم أقدر العناصر على إيقاظ الجماهير وتحريكها.

وفى أحد لقاءاتى معه سألته: لماذا اختلفت مع الدكتور القاضى؟ وأجاب: «لأسباب كثيرة منها أننى لم أكن أثق فى الطبقة العاملة المصرية، وكنت أطلب الاتجاه إلى المثقفين».[٢١]

لكن ذلك لا يعنى أنه لم يوجه نضاله إلى الطبقات الكادحة لكنه كان - بعقلية البرجوازى الصغير - لا يتصور أن ثمة عاملا يستطيع أن يكون قائدا له.

غير أنه كان يؤمن بالطبقة العاملة وبدورها الكفاحى وبضرورة تعبئتها وحشد طاقاتها من أجل الثورة..

وهو يهدى أحد كتبه «إلى كل عامل وفلاح يرفض هذا المركز الوضيع الذى تريده أنظمة الظلم والعسف.. إلى كل متنور يكرس وقته وجهوده للقضاء على طبقة الخليعين المتهتكين غير المنتجين الذين يتطفلون على جهود الطبقة العاملة».

«إلى كل من يحارب الظلم المحيق فى أية صورة من صوره»[٢٢]

ولسوف تشهد صفحات تالية كيف كرس عصام الدين كثيرا من سنوات عمره للعمل وسط جماهير العمال ومن أجل تنظيمهم والدفاع عن حقوقهم.

كذلك تأثر عصام الدين كثيرا بآراء شبلى شميل حول أهمية العلم وباهتمامه بنظرية النشوء والارتقاء وتصوره أن الدعوة إليها كفيلة بإحداث تطور فى فكر المجتمع يؤدى بذاته إلى الاقتراب من الثورة.

بل يورد على غلاف أحد كتبه عبارة شميل الشهيرة «كلمة حق وصيحة فى واد.. إن ذهبت اليوم مع الريح فستذهب غدا بالأوتاد..».

والآن وبعد هذه المحاولة هل نستطيع أن نقدم بعض أفكار عصام الدين..؟. فلنحاول.

التجديد الاجتماعى

وهى عبارة استخدمها عصام الدين كثيرا وجعلها عنوانا لاثنين من أشهر كتبه، وكان يعنى بها المزج بين المعركة الوطنية ضد المحتل والمعركة الطبقية ضد أعوان المحتل.

وتحت هذا العنوان كان عصام الدين يهاجم الاحتلال والإقطاع والبرجوازية والسراى معا مطالبا بتجديد المجتمع، أى بمجتمع جديد.

وقد خاض عصام الدين المعركة بشجاعة تستحق الإعجاب. ووزع هجماته على الجميع دون استثناء.

وقد رأينا كيف تحدث بجرأة أمام المحقق مهاجما الزينات التى ملأت الشوارع احتفالا بأعياد الملك. بل لقد كتب مقالا مليئا بالسخرية يتهكم فيه على الملك فؤاد وعلى حرف «الفاء» الذى كان بداية لاسمه ولأسماء جميع أولاده فأصبح بذلك محطا لاحترام الكثيرين الذى كتبوا عن هذا الحرف كرمز للأسرة المالكة. أما عصام فقد كتب متهكما: «حرف الفاء ما أدراك ما حرف الفاء.. هو ذلك الحرف الشريف الذى ما ورد فى مقدمة كلمة من الكلمات إلا وكانت الكلمة اسما لشىء مهاب محبوب.. ويمكننا أن نتبين أهمية حرف الفاء إذا وقع فى الابتداء من أن الفيل ملك الحيوانات وأن الفستق ملك الياميش وأن الفستان ملك الملابس والفل ملك الزهور.. والفت ملك الطعام»[٢٣]

وهو يشن حملة عنيفة ضد الاحتلال وسياسته فى فرض التبعية الاقتصادية على مصر، ويقول: «كان المستعمرون يقيمون العراقيل التى لا تحصى فى سبيل منع القطن المصرى من دخول روسيا - إلا عن طريق ليفربول - وذلك باسم البعبع الشيوعى».

ويهاجم الشركات الأجنبية وتحكمها فى المصالح القومية ويكتب مقالا يهاجم فيه شركات التأمين الأجنبية التى تستغل المؤمنين لديها مستفيدة من هبوط سعر العملة الورقية المستمر.[٢٤] وهو يوضح سياسة الاحتكارات ويكتب دراسة مستفيضة فى مجلة «الإخاء الوطنى» العراقية عن استنزاف هذه الاحتكارات لثروات العالم وتهديدها لصالح البشرية كلها بالتسبب فى الحروب المحلية والعالمية بحثا عن الأسواق والسيطرة المالية.

ونشر فى هذا الموضوع مقالين ممتازين ترجمهما عن الكاتب الأمريكى «لودويل دنى» أحدهما بعنوان «أمريكا تسحق إنجلترا»[٢٥] والآخر «الحرب القادمة بين انكلترا وأمريكا».[٢٦]

وهو لا يكتفى بهذا الهجوم لكنه يدين الملكية الفردية بشكل عام فهو ينتهز فرصة الحديث عن «عيد الثورة الفرنسية»[٢٧] ليورد كلمات قالها روسو: «إن أول من وضع سياجا حول قطعة من الأرض وقال هذا ملكى، ووجد أناسا سذجا يصدقونه، هو المؤسس الحقيقى للمجتمع البرجوازى، وكم من شقاء وهول كان يوفرها على جنسنا من يهدم هذه الأسوار ويهيب برفاقه: احذروا الإصاخة إلى هذا المخادع.. أما إنكم لتضيعون ضياعا إذا نسيتم ان الثمار للجميع أما الأرض فليست لأحد..».

ثم يواصل عصام فى تحليل علمى دقيق لطبيعة الثورة الفرنسية فيقول: «لقد كان لروسو الدور التوجيهى فى الثورة، أما من حيث مثله العليا السياسية أو آرائه الاجتماعية فلم يعمل بها، ذلك أن العالم لا يقفز، فقد كان من اللازم أن تتحرر الطبقة البرجوازية من قيود الإقطاع قبل أن يفكر الناس جديا فى تحرير الطبقة التالية لها»، بل هو يقدم شرحا لتطور موقف البرجوازية ذاتها، «ففى زمن الثورة الفرنسية والتمهيد لها كان التفكير البرجوازى الاجتماعى والتاريخى يتطور فيها نحو الكمال، وكانوا يفهمون قوانين التطور الاجتماعى كالاعتراف بالعلاقات بين النظرية والعمل (بيكون) والنظر إلى حوادث العالم من وجهه النظر المادية (باكون وهوبز وتولند فى إنجلترا، وماديو القرن الثامن عشر فى فرنسا) ونظرية الطبقات (الفيزوقراطيون وسان سيمون) ونضال الطبقات (برناف ومؤرخو عهد الإصلاح الفرنسيون) ونظرية القيمة (المدرسة الإنجليزية الكلاسيكية فى الاقتصاد السياسى) كل هذه الحقائق الأساسية سبق أن أعلنها واضعوا النظريات البرجوازية واعترف بها البرجوازيون أنفسهم، فلما شحذ ماركس سلاح هذه النظريات وسدد شطر البرجوازيين انقلب النظريون البرجوازيون يهاجمون هذه النظريات التى وضعها سلفهم».

إن أهمية هذه الفقرة أنها تعبر عن فهم ماركسى كامل لفكرة صراع الطبقات وطبيعة الدور الذى لعبته البرجوازية.

لكن عصام لم يقتصر فهمه على وضع البرجوازية الأوروبية ودورها، فقد قدم دراسة تحليلية ممتازة توضح طبيعة البرجوازية المصرية وحقيقة دورها وموضعها من التاريخ. وكان ذلك فى رده على مقال يزعم أن مصر كبلد شرقى مستعمر لم تنشأ فيه طبقة

برجوازية بعد، فيرد عصام فى مقال بعنوان «فى طريق النهضة المصرية»[٢٨] قائلا: «تستعمل كلمة البرجوازية للدلالة على الطبقة الرأسمالية التى تستغل أموالها بصفة عامة فى التجارة أو الصناعة وأعمال المصارف المالية. فهل فى مصر طبقة كبيرة من الصناع والتجار؟ وهى تستخدم ثلاثة أرباع المليون من العمال الصناعيين.. أما التجار فدكاكينهم تملأ الشوارع وتلتهم من الموظفين وحدهم معظم مرتباتهم البالغة ١٣مليون جنيه، والموظفون برجوازية صغيرة».

وهو يتحدث عن دور البرجوازية المصرية عبر التاريخ الحديث فيقول:

«لقد ثارت البرجوازية أكثر من مرة، فثورة عرابى تمثل منازعة الطبقة الوسطى للأرستقراطية الشركسية وحركة مصطفى كامل تمثل يقظة الطبقة الوسطى فى المدن. وثورة ١٩١٩ كانت ثورة برجوازية..». «ولقد أسهم العمال والفلاحون فى ثورة ١٩١٩ لكن الطبقة البرجوازية خرجت ظافرة بما أرادت من الاستعماريين وضد الثوريين من العمال..». وهو لا يكتفى بالهجوم على الطغاة والمحتلين والبرجوازية لكنه يختار معسكره الذى ينضم إليه ويدافع عنه.

ويصدر عصام كتابه الشهير «التجديد الاجتماعى. أبحاث فى شئون العمال والفلاحين» وهو دفاع حار عن العمال والفلاحين، دفاع عن حقوقهم، وحث لهم على التمرد والثورة، وقد عرضه هذا الكتاب للمحاكمة أمام محكمة الجنايات فى قضية تعد من أشهر قضايا الرأى فى مصر، وتحركت للدفاع عنه كل القوى التى كانت تعارض دكتاتورية إسماعيل صدقى. وأخيرا أصدرت المحكمة حكمها ببراءته.

فماذا قال عصام فى كتابه «التجديد الاجتماعى».

«لو كان آباؤنا وأجدادنا ومئات الأجيال الماضية قد ظلوا يعملون فى بناء المدنية آلاف السنين ليتمتع بها بضع مئات من الأغنياء والوارثين، لئن كان ذلك، فسحقا لهذه المدنية وتعسا.. إننا نريد حضارة تضىء بنورها للشعب كله.. نريد مدنية يتمتع كل من يعمل فيها على قدر ما يعمل»[٢٩] ويمضى قائلا: «إن الفلاح إنسان فيجب أن يتمتع بحقوق الإنسان»، «إن حقوق الفلاح السياسية ليس لها كبير وزن، فهو فى أكثر الأحيان عاجز عن التمتع بها، وهو فى المعارك الانتخابية مضطر إلى أن يعطى صوته لسيده أو لمن يقع عليه اختيار هذا السيد»، «الفلاح يقدم لمصر طعامها.. فلا تقدم له إلا الذل والهوان.. إننى عندما خبرت

حالة الفلاح الحقيقى أدركت أن تجارة الرقيق لم تمح وأننا لا نعيش فى القرن العشرين».(٣٠)

وهو لا يكتفى بذلك بل يدعو إلى «تغيير النظام الاجتماعى إلى نظام يكفل للفلاح حياة إنسانية» وإذا كان هناك قوم يتهيبون البحث فى إصلاح النظم السارية ثم ينتحلون لتبرير استغلالهم سببا هو أدل على الوجل وخمود الفكر فيقولون ذلك هو النظام الطبيعى الذى أوجده الله وسار عليه الناس منذ القدم، لا يجدون وسيلة يتنصل بها البشر من تبعة جرائمهم إلا بقذفها فى وجه الآلة والطبيعة، فإننا لا نرتضى إلا أن تشعر الهيئة الاجتماعية بطغيانها وفظاعتها وإلا أن نهيئ لها السبل لتحسين نظمها وقواعدها».(٣١)

وكخطوة للتغيير، أسماها هو «خطوة إصلاحية بسيطة.. قليل من كثير اترك إصلاحه للزمن» يقدم عصام الدين برنامجا لتحسين حال الفلاح:

– ٨ ساعات عمل مقابل حد أدنى للأجر ٦ قروش فى اليوم تزيد من تلقاء نفسها قرشا ونصف كل عام حتى يصل الأجر اليومى إلى عشرين قرشا.. مع تمتع المرأة العاملة بنفس الأجر مقابل نفس العمل.

– إلغاء الضرائب عن الملاك الذين يملكون فدانا فأقل، وفى مقابل ذلك تفرض ضريبة على كبار الملاك وعلى كل من يزيد دخله عن حد معين.. وتزداد هذه الضريبة ارتفاعا كلما ازداد الدخل.. إن فى مصر عدداً كبيراً من كبار الملاك لا تنتفع البلاد منهم بشىء يذكر، ومن العدل أن يدفع هؤلاء ٤٠٪ من دخلهم السنوى وأن يؤخذ منهم – أى من تركاتهم – مثل هذه النسبة عند وفاتهم.

– عدم السماح للأجانب بامتلاك الأرض الزراعية.

– العمل على نشر الصناعات الريفية.

– العمل على تحديد النسل.

– اتباع سياسة جمركية لحماية الإنتاج الزراعى.

ومرة أخرى يؤكد عصام الدين أنها مجرد مطالب إصلاحية.. ولكنها مجرد بداية كى «نشعر الفلاح بأن حقوقه مهضومة وبأنه مظلوم بائس مهان ينقصه الكثير حتى يصير إنسانا».

ثم يقول: «اهدوا الفلاح إلى بداية الطريق فلا يلبث أن ينطلق فيه إلى آخره».

وترتفع حرارة النداء أكثر فأكثر: «مجرم فى حق شعبه وحق الإنسانية من يعوق هذا الشعب عن بلوغ أمنيته».

«مجرم من يحاول إشباع أنانيته وشهواته وجشعه على حساب هذا الشعب».

«إن أقدس واجباتكم أن تنيروا له طريق التقدم، أن تهيبوا بالفلاح أن ابرز إلى الأمام وخذ مكانك».

لكن كل هذا إلى أين؟

إن عصام يلخص الهدف فى سطر واحد: «الفلاح يزرع فيجب أن يحصد. الفلاح هو المنتج فيجب أن يكون هو المتمتع».(٣٢)

وفى سنة ١٩٤٠ قدمت الحكومة إلى مجلس النواب قانونا ينص على عدم السماح بالحجز على الضروريات اللازمة للفلاح الصغير ولمعيشته.

فثارت ثائرة النواب ونشرت «الأهرام» بعضا من آرائهم التى قيلت فى الجلسة ومنها: (٣٣)

* لبيب أبو قورة بك: هذا القانون ليس له معنى، وهو معطل للفلاح الصغير.

* محمود سليمان غنام: إن هذا المشروع فيه تعقيد لشئون الفلاحين.

* خليل أبو رحاب: هذا القانون يعلم الناس الباطل والتضليل.

* إسماعيل فهمى الشلقانى بك: لا يصح عرض هذا القانون هنا.

* أحمد عبد الغفار بك: أنا أعارض هذه القوانين التى تقدمها لنا الحكومة لأنها قائمة على مبادئ بلشفية.

ويشن عصام الدين هجومه على النواب جميعا وعلى مجلسهم وعلى النظام الذى وصل بهم إلى مقاعد البرلمان قائلا: «إذا أردنا تحليل هذه المشكلة فإننا نجد:

١ - أن النواب ليسوا سوى جماعة من أصحاب الأملاك أو ممن يطمعون فى أن يصبحوا كذلك ذات يوم.

٢ - أن الأغلبية الساحقة من الشعب المصرى، أى الفلاحين، ليس لهم من يمثلهم فى هذا المجلس.

٣ - أن رجال الأحزاب السياسية المختلفة إذا اختلفوا فى المسائل الثانوية وتنازعوا على الحكم وما يتبعه من محسوبية فإنهم صف واحد عندما يتعلق الأمر بطبقتهم، الأحزاب تتنازع وتتعارض حين يكون الوطن فى خطر، ولكنها تتساند وتتقابل عندما تكون الطبقة

معرضة للقيام بتضحية ضئيلة».

ويهاجم عصام الدين النواب هجوما شديدا ويصفهم «بالمهرجين» ويقول: «لعل السادة الأغنياء والنواب المحترمين يفهمون قبل فوات الوقت أن الترويج للمبادئ البلشفية وتحبيبها لقلوب الشعب لا يكون بالمطالبة بهذه الإصلاحات الطفيفة التى إذا نحن رحبنا بها فليس ذلك دليلا على أنها إصلاحات حقيقية بل على أنها دلالة على التفكير نحو الإصلاح ليس إلا، وأن ما يتركه هذا الترويج بإفهام البائسين الذين يحسون مسيس الحاجة إلى الإصلاح، أن الإصلاح قرين البلشفية وأن فرض ضريبة الايلولة على تركات الأغنياء بلشفية.. أن نشر التعليم الإلزامى بلشفية، وأن تعليم البنات بلشفية، وأن محاربة البذخ والتبذير بلشفية، وأن المطالبة بترقية أحوال العمال والفلاحين والجنود بلشفية.. وعلى ذلك فإن حضرات النواب المحترمين لا يخدمون أنفسهم ولا طبقتهم حين يكثرون من ترديد الاتهام بالبلشفية».

ويواصل عصام الدين هجومه على مجلس النواب فى مقال آخر بعنوان «نحو أمة عديمة الطبقات» قال: «إن الرأسماليين يعتقدون أن الديمقراطية هى نظام سيادة أصحاب رؤوس الأموال، وليس البرلمان إلا نقابة يبحثون فيها شئون طبقتهم، ونحن نرى بعضهم ينادى بتحديد عدد طلبة الجامعة الوحيدة وذلك على اعتبار أن التعليم ليس حقا للشعب وليس المراد به التثقيف، بل كأنما يراد به تخريج فئة من الخدامين: أطباء لمعالجة البكوات والباشوات، ومهندسين لتشييد قصورهم ورى تفاتيشهم، وقضاة للحكم بحبس من يسرقون زراعاتهم».(٣٤)

ويواصل عصام الدين تصديه للهجمات الرجعية التى نشطت فى ذلك الحين لتخمد أية محاولة للإصلاح ولتقاوم قانون التعليم الإلزامى. ويشير عصام الدين إلى مقال كتبه الأستاذ محمد زكى عبد القادر يقول فيه: «إن القوت مفضل على التعليم وإن قانون التعليم الإلزامى بحاجة لتعديل كبير، بل لعله فى حاجة لإلغاء ولا بد من بحث المسألة كلها بشىء من الجرأة والفهم الصحيح».

ويرد عصام متهما محمد زكى عبد القادر بأنه «بوق من أبواق الرجعية»: «ولسنا ندرى ما هى الحاجة إلى «الجرأة» هنا، فإن الدفاع عن وجهة النظر الرجعية ليس الآن ولم يكن فى أى عهد من عهودنا محتاجا إلى الجرأة.

إن الخبز والتعليم كليهما ضرورى ولا يسوغ للأستاذ أن يضع سؤاله فى هذه الصيغة المضللة فإن فى وسع الدولة أن تعطى كل طفل لقمة ليأكل وقلما ليكتب، ومن واجب الدولة أن تقدم الخبز والتعليم معا لهذا الشعب الجائع البطن والرأس». ويختتم عصام الدين مقالته بقوله: «ونحن نطمئن حضرته فسيجد الفلاحون والعمال والصعاليك دائما ما يقرأونه ونحن سنزودهم بما يقرأون».(٣٥)

ولا يكتفى عصام الدين بالهجوم على الأغنياء وتعقبهم فى سلسلة مقالاته وكتبه بل هو يستخدم أيضا سلاح الرواية فيقدم للأدب العربى واحدة من أمتع الروايات عن الريف المصرى «عاصفة فوق مصر» يسجل فيها سخطه على كبار الملاك وينذرهم بالثورة المقبلة إذ يقف عبد الخالق أفندى وهو شاب مثقف من أسرة متوسطة ليتحدث إلى الباشا الإقطاعى صائحا: «إنها ليست زوبعة على البلدة بل هى عاصفة فوق مصر، فوق مصر من أقصاها إلى أقصاها تجتث جذور الظلم وتقتلع أصول الفساد، وما لم تعد أنت وأمثالك إلى رشدكم قبل فوات الأوان فستدك صروحكم المبنية من القش على رمال غير ثابتة».(٣٥)

وهكذا يتخذ مطلبه بالتجديد الاجتماعى مسارا اشتراكيا واضحا.. لكنه لا يكتفى بالتلميح فهو يصدر سلسلة من الكتيبات يحدد فيها موقعه من الاشتراكية..

ما هى الاشتراكية..؟

هذا هو السؤال الذى أحس عصام الدين بواجب ملح فى الإجابة عنه، وفى نشر هذه الإجابة على أوسع نطاق حتى يعرف شعبه المعنى الحقيقى للاشتراكية والأهداف الحقيقية التى تسعى من أجلها.

وفى عام واحد (١٩٣٣) يصدر عصام الدين ثلاثة كتيبات «حركة العمال والاشتراكية الديمقراطية»، و«المسألة الاشتراكية» و«مبادئ الاشتراكية».

ومن هذه الكتيبات الثلاثة وبعض مقالاته الأخرى سنحاول أن نلقى بعض الضوء على فكره الاشتراكى والأسس التى أقامه عليها.

وكتيب «المسألة الاشتراكية» عبارة عن أسئلة وأجوبة..

«س: ما هى الاشتراكية..؟

ج: الاشتراكية هى اشتراك جماعة من الناس (كأهالى القطر المصرى مثلا) فى إنتاج البضائع التى يرونها لازمة لهم وذلك بدلا من قيام فرد أو شركة تجارية مفردة بالإنتاج، إذ

إن المنتج الفرد لن يراعى فى إنتاجه إلا مصلحته الشخصية، ولو تعارضت مع مصلحة المجتمع. وهو لا يتورع عن إحراق نصف محصوله كى يرفع ثمن النصف الآخر.. ولن يتأخر عن طرد نصف عماله من غير ضرورة ماسة إذا وجد فى ذلك مغنما ولو ضئيلا..

س: وكيف يحل الاشتراك فى الإنتاج محل الإنتاج الفردى؟

ج: يكون ذلك بإلغاء الملكية الفردية فى وسائل الإنتاج كالمصانع والمزارع واستبدالها بالملكية المشتركة.

س: وكيف يكون الحال فى التجارة..؟

ج: تكون جميع المتاجر ملكا للدولة أو المجالس البلدية أو النقابات التعاونية يعمل فيها موظفون فنيون. ووظيفة المتاجر الاشتراكية مقصورة على الوساطة بين الإنتاج والاستهلاك من دون أن تتطفل على الحياة الاقتصادية برفع الأسعار وإحداث الغلاء المصطنع.

س: ومن الذى يقوم بإدارة الإنتاج وتوزيع الأرباح..؟

ج: تقوم بذلك لجنة ينتخبها أهل البلد من بينهم، ويستبدل أفرادها كل عام مثلا حتى لا يتولد فيها حب السيطرة والاستبداد والمحسوبية، وتكون هذه اللجنة خاضعة لمراقبة الآهلين مراقبة صارمة.

أما الأرباح فتوزع على مجموع الأهالى (العاملين) بصفة أجور فإذا امتنع شخص عن العمل بغير سبب معقول فإنه لا يتقاضى أجراً، وبما أنه لم يرث عن أهله ضيعة ينفق من ريعها من غير أن يعمل فسيضطره الجوع إلى العودة إلى ميدان العمل ثانية، وفى ميدان العمل الاشتراكى متسع للجميع.

وليس من الضرورى أن يكون نصيب كل فرد من الربح مساويا لنصيب آخر بل يصح أن تتفاوت الأجور تفاوتا معتدلا، فيمنح المهندس المخترع من أسباب الراحة قدرا أكبر مما يمنح للعامل العادى.. وتستمر الحال على ذلك المنوال فترة طويلة يمكن اعتبارها دوراً انتقاليًا إلى الدور النهائى للاشتراكية وهو الدور الذى يزداد فيه الإنتاج (رغم قلة ساعات العمل) وتكثر الخيرات إلى حد أن يجد كل امرئ ما يرغبه من المنتجات..»[٣٦]

ويواصل عصام الدين الأسئلة محاولا فى بساطة ووضوح أن يجيب عن كثير من التساؤلات.. موقف الاشتراكية من قضية الحرية.. موقفها من الاحتلال.. إلخ، لكننا سوف نتوقف عند سؤال مهم، لأنه يحدد موقف عصام الدين من الاتجاهات الإصلاحية فى الدولية الثانية.

«س: ألا يمكن إيجاد حالة وسط بين الاشتراكية والفردية؟

ج: لقد فشلت جميع المحاولات التى أراد بها البعض تحقيق ذلك.. إذ يجب على من اقتنع بصحة مذهب الاشتراكية أن يجاوز التورط فى سياسة النفعية والحلول المتوسطة. أما تحسين أجور العمال وتخفيض ساعات عملهم فهو مسكن وقتى لا يحل الإشكال. كما أن تحسين أحوال العبيد لا يعتبر حلا لمشكلتهم وإنما كان الحل فى إلغاء الرق جملة».

وتحت عنوان «الاشتراكية من الوجهة العلمية»، يقول عصام الدين: «وألفت النظر إلى أن الغرض من الاشتراكية ليس رفع أجور العمال وتحسين أحوالهم تحسينا محدودا بل هو أن تحل الدولة محل طبقة مالكى الأراضى والمصانع وأن تمنع أصحاب رؤوس الأموال عن التحكم فى الفقراء واستخدامهم عمالا أجيرين لا يتمتعون بكل ما ينتجه عملهم من الثمار».(٣٧)

إنه موقف صارم ضد الاتجاهات الإصلاحية ورفض لها. وفى مقال اخر بعنوان «الاستيلاء على القوة السياسية، قيمة المجالس النيابية والوسائل السلمية فى نظر الاشتراكية».(٣٨)

يقدم عصام الدين دراسة ممتعة وعلى أسس ماركسية لفكرة استخدام الوسائل القانونية كسبيل للدعوة للاشتراكية ويردد فيها انتقادات ماركس لأفكار لاسال ثم آراء تفصيلية لإنجلز حول هذا الموضوع.

وثمة موضوع آخر بالغ الأهمية يناقشه عصام الدين فى كتاباته هو «العلاقة بين الاشتراكية والإسلام»، ويصدر هذا الفصل بعبارة للكواكبى تقول: «كذلك تركت الإسلامية معظم الأراضى الزراعية ملكا لعامة الأمة يستنبتها ويتمتع بخيراتها العاملون فقط».

ثم يمضى عصام قائلا: «إذا قارنا بين ما أورده الإسلام فى شئون المعاملات وما قررته الاشتراكية إزاءها وجدنا فيها أشياء متماثلة تماثلا كليا كتحريم الربا..»(٣٩)

ثم يقول: «أما المسألة الوحيدة التى يرى البعض فيها اختلافا بين الإسلام وبعض المذاهب الاشتراكية فهى مسألة الميراث، ويرى البعض أن إلغاء الوراثة الخاصة هو نوع من التعاون ليس فيه خروج على الدين، إذ إن نظام التوريث ليس إلزاميا، ولا سيما عندما تدعو الظروف الاقتصادية إلى تحويره».

لكن عصام الدين لا يكتفى بذلك بل هو يلجأ إلى الغمز والهجوم من طرف خفى قائلا:

«ويرى الآخرون أن الحكومة التى توافق على إلغاء الإرث الخاص تخرج على الإسلام كما تخرج عليه حكومتنا المصرية التى توافق على إلغائها الحدود الإسلامية وفى حبسها السارق بدلا من قطع يده وفى تنظيمها البغاء وتحليلها الربا».

وأخيراً يقول عصام الدين: «وعلى ذلك فليس هناك أى تنافر بين الاشتراكية والإسلام، وإذن فقد كذب الذين يستندون إلى الآية (ورفعن بعضكم فوق بعض درجات) لتثبيط همم الطبقة العاملة بحقوقها ولتبرير حالة الذين يرثون المال فيأخذون فى إنفاقه على العاهرات وبائعى الخمور متخذين من تركز الثروة فى أيديهم قوة ووسيلة لإتلاف أخلاق الوسط الذى يعيشون فيه».[٤٠]

كذلك كانت مجلة «روح العصر» منبرا اشتراكيا أسسه عصام الدين بالاشتراك مع د. عبد الفتاح القاضى وحسنى العرابى بهدف الدعوة للاشتراكية ونشر أفكارها.

وقد صدر من هذه المجلة ٢٤ عددا زخرت بمقالات عديدة عن الاشتراكية وأهدافها.

ضد الفاشية

ولقد كان عصام الدين بفضل ثقافته الألمانية وتتبعه المستمر للمنجزات الفكرية الألمانية ولأحداث الصراع السياسى والاجتماعى فى ألمانيا أول من تنبه من المثقفين المصريين إلى خطر الفاشية وإلى ضرورة دحرها.

ولم يقع عصام الدين فى المأزق الذى انساق إليه بعض الساسة المصريين، وخاصة من ممثلى البرجوازية الصغيرة والوسطى، محاولين الاستعانة بهتلر ضد الإنجليز. فقد حمل لواء الدعوة ضد الفاشية داعيا إلى تركيز كل الجهود للقضاء على الخطر الفاشى المحدق.

ومنذ البوادر الأولى للخطر الفاشى كان عصام الدين سباقا إلى التعريض به والهجوم عليه والتحذير منه.

ففى عام ١٩٣١ يضمن كتابه «التجديد الاجتماعى» فصلا بعنوان «دكتاتورية الفاشزم»[٤١] يقول فيه: «إن الفاشية ليست إلا رجعية ضد نمو المدنية فى مدى ألف عام وهى تنكر حقوق الإنسان وتعمل على خنق الحرية الشخصية وحرية الفكر».

لكنه لا يلبث أن يصدر كتابا بعنوان «الحقائق عن الفاشية»[٤٢] يعالج فيه فكرة الفاشية فى علاقاتها بالقضية الوطنية وبالدعاوى التى ترددت كثيرا حول الفاشية وعلاقاتها بالاشتراكية، ويعالج الموقف من الإنجليز فى ضوء قضية الصراع المشترك ضد العدو

المشترك.. وهو كتاب مهم يعبر عن سعة اطلاعه وعن وضوح الرؤية لديه وضوحا تاما.

«نحن نكافح الفاشية فى مصر ونؤيد كل ما من شأنه القضاء عليها. ونحن إذ نرجو دحر ألمانيا الفاشية لا نبغى بذلك كراهية الألمان بل كراهية الفاشية، فإذا برئ الألمان من هذا الداء مددنا إليهم يد الصداقة كما هو شأننا مع غيرهم من الشعوب». ثم: «لقد قام سماسرة المحور فى الشرق ببث دعاياتهم فى أقطاره قبل نشوب الحرب وبعدها، ناهجين نهج سادتهم فى برلين، أولئك الذين كانوا يبشرون بين كل طبقة وفئة بمبادئ ويمنونها بأمانى تناقض ما يذيعونه بين سواها. فهم يقولون للأغنياء إن الفاشية تحفظ لهم أملاكهم من خطر الشيوعية، ويقولون للفقراء إن الفاشية تلغى الرأسمالية وتمحو امتيازات الأغنياء وتسوى بين أبناء البلاد جميعا والواقع أنها لم تلغ النظام الرأسمالى بل ألغت ما كان باقيا فيه من محاسن..».

«إن اشتراكية هتلر ليست سوى صرخة الرأسماليين الألمان بطلب مضاعفة أرباحهم وثروتهم وزيادة استغلال عمال بلادهم وإلقاء نير استغلالهم على عاتق البلاد الأخرى».(٤٤)

ثم هو يتحدث عن طبيعة الصراع بين ألمانيا وإنجلترا فيقول: «قال لى أحدهم ذات مرة إذا قال لك هتلر إن إنجلترا على قلة سكانها تملك المستعمرات الشاسعة وألمانيا على كثرة سكانها لا تملك شيئا فماذا أنت قائل؟ فأجبته أقول له إنى أعتبر الاستعمار ضرب من السرقة فإذا دار بشأنه نزاع وجب أن تفصل فيه محكمة من اللصوص». لكنه مع ذلك يحدد موقفا صريحا ينادى فيه بتوجيه كل الجهد ضد الخطر الفاشى المحدق فيقول: «لقد أخذ دعاة المحورية يستغلون ما بيننا وبين إنجلترا من المشاكل لكى ننحاز إليهم، أما نحن فنرى أن نبحث لكل مشكلة محلية عن حل وقتى نتهادن عليه حتى ننتهى من مشكلة المشاكل.. إننا نشكو ما نراه فى نظامنا من عيوب. ولكن ذلك لا يدعونا إلى أن نستجير من الرمضاء بالنار.. وإنما نكافح الفاشية لأنها تريدنا أن نتقهقر ونحن مصرون على التقدم، وبالقضاء على الفاشية تنتهى البداية وتبدأ النهاية».

لكن عصام الدين لم يعف الإنجليز من مسئوليتهم صراحة بأنهم هم الذين شجعوا النازية ومهدوا الأرض أمامها. «فعندما حمل هتلر لواء الاستعمارية الألمانية وأخذ النازى بيدهم الحكم، ملأ الطرب جوانح تشمبرلين ودلادييه ومن لف لفهما، فقد كانوا يرون فى الهتلرية حاجزا منيعا دون البلشفية، وقد طرقت مسامعهم صيحات النازيين لانتزاع أوكرانيا من الاتحاد السوفيتى وقصرت أبصارهم عن رؤية الحرب النازية المقبلة على

بلادهم فهللوا لهتلر ومجدوه. ومن ذلك ما كتبه «جورج لويد» فى جريدة «التيمس» الصادرة فى ٢٢ سبتمبر ١٩٣٣ إذ يقول: «إذا أفلحت الدول فى خنق النازية فى ألمانيا فما الذى سيكون بعد، إنه لن تكون ثمة حكومة محافظة أو اشتراكية أو حكومة من الاحرار، بل حكومة شيوعية متطرفة، ولا يمكن أو يكون هذا هو الغرض الذى ترمى إليه هذه الدول».(٤٥)

وهكذا فإن عصام الدين قد حرص دوما على أن يوضح وبجلاء أن الفاشية ليست سوى أحد أشكال النظام الرأسمالى، وأن القضاء عليها هو فى الأساس إضعاف للنظام الرأسمالى ككل.

وهو يحمل اشتراكى الدولية الثانية مسئولية نهوض الفاشية ونجاحها.. فيقول: «يرجع نجاح الفاشية فى ألمانيا إلى السياسة التى انتهجها الاشتراكيون الديمقراطيون إذ إنهم: انضموا إلى المعسكر المعادى للثورة التى قام بها العمال والجنود والبحارة عقب هزيمة ألمانيا فى الحرب وفتكوا بزعمائهم وفى مقدمتهم كارل لبنخت وروزا لكسبرج. ثم أخذوا يمالئون البرجوازيين، ولا سيما بعد أن أخفقوا فى الحصول على كثرة مطلقة فى الجمعية الوطنية فأصبح وجودهم فى سدة الحكم منوطا بائتلافهم مع الحزبين الديمقراطى والوسط».(٤٦)

ثم يواصل عصام الدين فى كتابه «موسكو – برلين – لندن» رواية قصة وصول هتلر إلى الحكم وكيف كانت خيانة اشتراكية الدولية الثانية هى السبيل الذى مكنه من ذلك.

وفى هذا الكتاب يحدد عصام الدين موقفا صريحا من المدارس الاشتراكية ويرفض صراحة انتهازية الدولية الثانية، ويمجد دور حزب (البروليتاريا) الألمانية الذى وقف يقاوم تيار الفاشية بشجاعة منقطعة النظير..

من أجل سلام العالم

ومن خلال النضال ضد خطر الفاشية وضد تهديدها لأمن العالم بدأت تتولد فى مطلع الثلاثينيات الدعوة للعمل من أجل صيانة السلم ولمقاومة خطر الحرب، وكان طبيعيا أن يبرز عصام الدين فى هذا الميدان أيضا. مؤكدا: «إن الخطر الأساسى للفاشية هو إشعال الحرب العالمية وانتهاك حريات الشعوب واستقلالها». ولهذا فقد أدرك عصام الدين أن

معركته ضد الفاشية هى فى الأساس معركة ضد الحرب. وكما كان عصام رائدا للنضال ضد الفاشية فى مصر فقد كان أيضا رائدا للنضال من أجل السلام. وقد بدأ عصام الدين دعوته للسلام بداية مبكرة واكبت على الفور الحركة العالمية التى اتسعت فى مطلع الثلاثينيات.

وفور انعقاد مؤتمر أمستردام (٢٧ - ٢٩ أغسطس ١٩٣٢) سارع عصام الدين إلى ترجمة النداء الصادر عن المؤتمر ونشره تحت عنوان «نداء ضد الحرب الاستعمارية»[٤٧] وهكذا بدأ المثقفون المصريون فى الاطلاع لأول مرة على نداءات تدعو للسلام من خلال إدانة النظام الرأسمالى ومن خلال دعوة العمال والفلاحين إلى التضامن ضد الرأسماليين مشعلى الحروب، فالنداء يقول: «يعلن المؤتمر استنكاره للسياسة الرأسمالية التى تفصل البلدان عن بعضها البعض وتبث البغضاء فيما بينها. فى سبيل جر الربح لمصلحة أقلية لا تشبع، ثم تسوق كل حكومة إلى استلاب أقاليم وثروات وأهالى البلاد الأقل قوة..».

«إن المؤتمر يحذر أعداء الحرب من الحلول الوسط السياسية التى تقدم بها بعض زعماء تشكيلات العمال إزاء النظام السائد. فلقد كان موقف الدولية الاشتراكية سنة ١٩١٤ عملا من أعمال التقهقر فى حركة تحرير الإنسانية.. إننا نقسم أن نعمل بكل قوتنا للقضاء على الرأسمالية التى تضحى بالإنسانية على مذبحها، نقسم أن نعمل بكل قوانا وأن نكرس أنفسنا للقيام بواجبنا الأول وهو مقاومة التسليح والتجهيز للحرب، ومقاومة التهييجات القومية وأن نرفض الفاشزم.. وأن نعارض استغلال المستعمرات، وأن نؤيد نضال الأقليات القومية وجهاد الشعوب التى تنشد التحرر الوطنى والاجتماعى.

إن طبقة العمال هى التى تنوء بأثقال الحرب وبأحمال السلم المسلح والتجهيز للحرب وإنا لنقسم على مكافحة هذه الكارثة القادمة علينا».

ولست بحاجة إلى القول بأن نشر كلمات كهذه كان يحتاج إلى شجاعة كبيرة فى ذلك الحين. كما استطاع عصام الدين منذ البداية أن يفرق بوضوح بين نوعين مختلفين من الحرب هما الحرب الاستعمارية وحرب التحرير.

وتحت عنوان «الوطنية الحمقاء» يتهكم عصام على جريدة «الثغر» لسان حال «مصر الفتاة» لأنها أوردت قصة شاب يابانى أراد التطوع فى الحرب فرفض طلبه لأنه وحيد أمه فقتلت أمه نفسها حتى لا تحرم ابنها من الالتحاق بالجيش.. ومات الابن فى ميدان القتال.

فيقول تعليقا على هذه القصة: «أنا لست أرى فى عمل هذه الأم هى وابنها وطنية... بل حمقا وغباء.. فالمفهوم من القصة أن هذه الحرب التى مات فيها هذا اليابانى الأحمق هى حرب استعمارية.. فلسنا نعرف فى تاريخ اليابان الحديث أنها اشتبكت فى حرب دفاعية فإذا افترضنا أن الحرب التى ورد ذكرها هى حملة اليابان على الصين. كان ذلك الجندى قد مات فى حالة اعتداء على شعب مسكين سيئ الأحوال.. أجل يجب أن يحب الإنسان وطنه ولكنه لا يجب أن يكره أوطان الآخرين، وليس من الوطنية الحقة أن يموت الإنسان فى حرب لا تستفيد منها إلا طبقة مخصوصة من تجار الأسلحة وكبار الرأسماليين، وإنما الوطنية الحقة أن يخدم المرء كتلة الشعب».(٤٨)

وعندما كانت الحرب العالمية الثانية على الأبواب شن عصام الدين حملة صحفية حول «هل يجب أن تشترك مصر فى الحرب المقبلة..؟»(٤٩)

وفى الحلقة الأولى من سلسلة مقالاته حول هذا الموضوع تحدث طويلا عن فكرة الحرب الاستعمارية وأهدافها الحقيقية، وعن طبيعة الصراع بين الاحتكارات وعن موقف الشعوب من هذا الصراع. وأخيرا تساءل: «والآن ما هو المسلك الذى يجدر بمصر أن تسلكه عند نشوب الحرب العالمية المقبلة..؟ هل يجب أن تلزم الحياد؟ وهل هى تستطيع ذلك؟ أم يجب أن تشترك فى الحرب إلى جانب إنجلترا؟ وإلى أى مدى؟ وهل تفعل ذلك بشرط أم بدون شرط ولا قيد؟».

وفى المقال الثانى يقول: «إذا نشبت الحرب بين إنجلترا وإيطاليا، تعذر على الطائرات الإيطالية أن تصل إلى إنجلترا ولن تجد مجالا للعمل إلا البحر الأبيض المتوسط والبلدان الواقعة عليه وفى مقدمتها مصر.. وفى وسع بضع مئات من الطائرات القاذفات للقنابل أن تنسف مدينة كالقاهرة وتقتل من بها فى بضع غارات، وفى وسعها أن تدمر معظم المنشآت الحيوية للبلاد كخزان أسوان والقناطر الخيرية. وما الذى تستفيده مصر فى مقابل هذه الخسائر الجسيمة..؟ لا شيء. فإذا انتصرت إنجلترا فلن يتبدل موقفها إزاءنا ولن نشاركها فى اجتناء ثمار النصر، وإذا حاقت الهزيمة بإنجلترا سندفع معها ثمنها وهو ثمن فادح..».

وبعد ذلك يحدد عصام الدين موقفه: «إن شعبنا لا يجب أن يقاتل مع إنجلترا أقواما لا شأن له بهم، فعلى الحكومة المصرية أن لا تزج به في أتون الحرب، وعلى أفراده أن

يمتنعوا عن المقاتلة ومواجهة الموت فى سبيل دول أجنبية ومطامع استعمارية».[٥٠]

ولم يكتف عصام الدين بهذه الصيحة التى أقلقت الإنجليز كثيرا والتى كانت موجهة ضد مشاريعهم فى تعبئة مصر كى تحارب فى صفها، فقد واصل جهوده واشترك فى تنظيم «اتحاد أنصار السلام بالقاهرة» وفى الاجتماعات الجماهيرية التى نظمها هذا الاتحاد فى أكثر من مناسبة تحدث عصام منددا بمحاولات جر مصر إلى أتون الحرب الاستعمارية..

وفى اجتماع حاشد عقد بدار الاتحاد النسائى فى ١١ نوفمبر ١٩٣٧ بمناسبة ذكرى الهدنة تحدث عصام قائلا: «إننا نضرب عن الحرب شجاعة لا جبنا، وإنما الجبان هو الذى يساق إلى حرب لا غاية له من ورائها، هو الذى يرغم على خوض غمار مجزرة يقيمها الجزارون، الجبان هو الذى يتقدم إلى الحرب وهو كاره ولست أعرف إنسانا عاقلا يتقدم بسرور إلى حرب ضروس تطيح فيها رؤوس عشرات الملايين من أجل البت فى نزاع استعمارى، لا ينتفع بالظفر فيه إلا عشرات الألوف من أصحاب رؤوس الأموال الذين لا سند لهم ولا نهاية لجشعهم..».

«يجب أن نبعد الحرب عن بلادنا، إن الآخرين يحاربون من أجل مصالحهم الاستعمارية، أما نحن فليس لنا ولا نريد أن تكون لنا مصالح استعمارية، فإذا ما استفزونا إلى القتال باسم المدنية الغربية، مدنية النخاسين مستعبدة الشرق فليس لدينا إلا جواب واحد أننا لا نبيح أن تهرق قطرة دم مصرية واحدة. إن الحرب جريمة، لا نحب أن نلوث يدنا بالاشتراك فيها. فليحارب من يحب الحرب، أما نحن فلن نحارب».[٥١]

ورغم ذلك فإن عصام الدين لا يفقد حذره، ولا ينساق فى هذا الموقف إلا فى الحدود التى تتطلبها ظروف مجابهة المستعمرين وفضح الحرب الاستعمارية وصيانة مصالح الأمة من أن تسخر خدمة للأغراض الاستعمارية. فما أن يصبح الخطر الفاشى ماثلا قرب الحدود المصرية، وما إن تهدد الفاشية إنجازات الإنسانية والتقدم حتى يعدل عصام موقفه مناديا بتأجيل المشاكل الداخلية حتى يمكن توحيد كل الصفوف «لمكافحة الخطر الفاشى المحدق..».

ومرة أخرى يثبت عصام الدين يقظته وإحساسه المرهف بمصالح وطنه..

وتنتهى الحرب ولا ينتهى خطر تجددها فيواصل عصام الدين نضاله من أجل السلام

ويعود من جديد إلى الربط بين النظام الرأسمالى والحرب فيترجم كتاب «لماذا كانت الرأسمالية تعنى الحرب..؟». لكن البوليس يصادر الكتاب ويطلب إلى النيابة إصدار قرار بالمصادرة وترفض النيابة «إذ إن القانون المصرى لا يحظر شرح الأسباب المولدة للحرب ولا يحرم الدعوة إلى السلام».[٥٢]

كذلك يهتم عصام بدراسة الحرب العالمية الثانية وأسبابها ونتائجها والدور الذى لعبته القوى الاستعمارية فى إشعال نارها فيكون كتابه «موسكو - برلين - لندن» وثيقة اتهام للاستعماريين وصفحة دفاع حار عن الشعوب.

ليس لمصر وحدها..

كان عصام من أوائل المثقفين المصريين الذين أدركوا أن قضية شعب مصر لا تنفصل عن قضية الأمة العربية كلها. وهكذا حرص بدأب غريب على أن يقيم علاقات وثيقة مع كثير من القوى الوطنية والتقدمية فى لبنان وسوريا والعراق.

فنشر عديداً من المقالات فى مجلة «الحديث» اللبنانية التى كان يصدرها سامى الكيالى وهو يصفها بأنها مجلة تجديدية.

كذلك نشر مقالات فى «الإخاء الوطنى» العراقية، «والقبس» البيروتية، كما كانت كتبه تسهم فى نشر الوعى العلمى والاشتراكى فى عديد من البلاد العربية.

وتعلق «الإخاء الوطنى» العراقية على كتابه «النشوء والارتقاء» فتقول: «إن هذا الكتاب يشبع بحث النشوء والارتقاء من وجوهه العلمية التى لا تقبل الرد وتلجم ألسنة المكابرين. والعراق الذى لم تشع فيه بعد المطالعة باللغات الأجنبية بحاجة إلى مطالعة هذه البحوث باللغة العربية لتتكون فى الأذهان ثقافة صحيحة مستندة إلى الحقائق العلمية فى العلوم الطبيعية.. ونحن نقدر جهد المترجم ونستزيده من هذه الخدمات النافعة للمجتمع العربى الشرقى».[٥٣]

وتقدم «الإخاء الوطنى» أيضا كتب عصام عن الاشتراكية وتقول: «إن عصام الدين ناصف شاب مصرى أشرب النزعة الحرة والتفكير الجرىء وسلك فى خدمة قومه مسلكا قويا بنشر الأفكار الحديثة بين ظهرانيهم وبث الثقافة القومية التى تستند إلى المبادئ العلمية والدراسات الاجتماعية العميقة»[٥٤]، وثمة تعليقات عديدة أخرى فى الصحف اللبنانية والسورية لكن أهم ما يدل على عمق العلاقة بين عصام الدين والقوى التقدمية فى

العالم العربى هو تلك المساهمة الإيجابية التى أسهمت بها صحف سورية ولبنانية وعراقية فى الحملة الواسعة التى شنت دفاعا عن عصام الدين عندما قدم للمحاكمة فى ١٩٣١.

وعندما أصدرت المحكمة قرارها ببراءة عصام الدين كتبت صحيفة «ألف.. باء» تقول: «اشتغلت المحاكم والصحافة مدة يومين متواصلين فى مسألة اجتماعية خطيرة يتوقف عليها مدار حرية الفكر فى الكتابة والتأليف والدراسات العلمية، وهى قضية عصام الدين حفنى ناصف» ثم تحدثت الجريدة عن أدوار القضية بالتفصيل وعن الحكم بالبراءة قالت: صفق الناس كثيرا لهذا الحكم العادل لأنه وضع حدا لتأويلات النيابة وتمحكات الذين يرمون إلى تحطيم الأقلام والحجر على الأفكار الحرة..».[٥٥]

* * *

ولا بد أن نتحدث أيضا وبإيجاز عن مجابهة عصام الدين للسلطة وما ترتب على ذلك من ملاحقات وقضايا ومحاكمات أعوام ١٩١٩، ١٩٢١، ١٩٢٤، ١٩٣١، ١٩٣٣، ١٩٤٦.. فتلك مسألة تحتاج إلى تفصيلات مستفيضة لكننا نريد أن نشير هنا إلى أنه فى كل مرة من هذه المرات خرج عصام الدين منتصرا.

حكم عليه أحيانا وبرئ أحيانا أخرى.. لكنه فى كل مرة لقن قضاته درسا ووقف شامخا معتدا بآرائه مصمما على التمسك بها وعلى استمرار المناداة بما يعتقد أنه فى صالح جماهير الشعب.

كذلك نريد أن نشير إلى أن هذه القضايا وشجاعة عصام الدين خلالها كانت فرصة أتاحت لكثير من القوى الديمقراطية والتقدمية فى مصر إمكانية التحرك والنشر دفاعا عن عصام الدين والمطالبة بالإفراج عنه..

والحقيقة أن قضايا عصام الدين كانت تحاط دوما بهالة كبيرة من الضجة والتحرك فى أوساط الصحافة والرأى العام. وربما رجع ذلك إلى براعة عصام الدين فى الإثارة وتحريك الصحف للدفاع عنه، وربما تقديرا لشجاعته، أو تقديرا لآرائه، وربما أيضا تأثرا بماضى أسرته المجيد.

المهم أنه فى كل مرة جابه فيها عصام الدين السلطة من قفص الاتهام كانت تتصاعد ضجة كبيرة هى فى حد ذاتها خير ترويج لآرائه وخير تحبيذ للاشتراكية.

وعندما قبض على عصام الدين عام ١٩٣١ تجمعت حول القضية جبهة واسعة من كل

القوى المعادية لدكتاتورية صدقى وأصبحت قضية عصام الدين ليست مجرد قضية ترويج للاشتراكية وإنما قضية حرية الرأى والفكر فى مصر. بل وفى العالم العربى كله.

ولنتأمل بعض مقالات الدفاع عنه والمطالبة بالإفراج عنه لعلها توضح مدى اتساع الجبهة التى تجمعت أطرافها حوله.

فجريدة «السياسة» تنشر النص الكامل لمرافعة محمد على علوبة باشا دفاعا عنه[٥٦]، كذلك تنشر «الجهاد» النص الكامل لمرافعة إبراهيم الهلباوى.[٥٧]

والمرافعتان وثيقتان تاريخيتان مهمتان فى الدفاع عن حرية الرأى والفكر وحرية التعبير والاعتقاد.

وعندما يصدر الحكم بالبراءة تهلل له جميع الصحف المعارضة لصدقى.. وتنشر جريدتا «الجهاد» و«السياسة» النص الكامل لحيثيات الحكم..[٥٨]

وتنتهز المعارضة الفرصة لتشن حملتها دفاعا عن حرية الرأى فتقول جريدة «السياسة»: «الرأى لا تكون محاربته بالحبس أو بالسجن، وإنما يحارب برأى آخر يناقضه ويدحضه ويهزمه ومن كلمات أناتول فرانس المأثورة أن القانون الذى يضطهد حرية الرأى يكون هو المجرم لا صاحب الرأى».[٥٩]

وينشر سلامة موسى فى «البلاغ» مقالا جاء فيه: «فى هذا الوقت الذى تأخذ فيه الإدارة مكان القضاء وتحكم على المجلات العلمية بالتعطيل لأنها لا تنزل على هوى الوزارة يجب أن يفرح الأدباء للحكم الذى أصدرته محكمة جنايات الإسكندرية فى قضية الأستاذ عصام الدين ناصف. فإن هذا الحكم احتفظ للكتاب بحرية الرأى إلى حد ما، وأعاد لهم شيئا من الطمأنينة التى يحتاجون إليها فى هذه الأيام العصيبة.. والحكم هو على كل حال ربح لجميع المفكرين فى مصر..».[٦٠]

وتنشر «البلاغ» مقالا آخر تهاجم فيه النيابة لتسرعها، وتقول: «ونحن نسأل ذلك لا لندفع شرا عن الأستاذ عصام الدين فقد وقع به الشر وانتهى ولا سبيل لتعويضه وإنما نسأل لأننا نحن وغيرنا ممن يكتبون ويبدون الآراء فى هذا البلد مستهدفون لهذا الأذى القائم على الظلم فى استخدام السلطة والظلم فى التقدير».[٦١]

وتسهم «الأهرام» فى المعركة أيضا بمقال للآنسة «مى» جاء فيه: «إن الحكم بالبراءة شهادة ناصعة على مبلغ اتساع مدارك القضاء المصرى، كما هو شهادة للمحامين

المصريين بالكفاية وهو ضمين بالحرية فى مصر. يسرنا أن نشهد براءة من هو ابن حفنى ناصف وشقيق باحثة البادية. ولكن المعنى العام فى هذه القضية يفوق المعنى الخاص.. ومن دواعى الابتهاج أن نعلم براءة الأستاذ عصام ناصف فى نفس الوقت الذى تجد فيه حرية الفكر فى مصر من المحاماة المصرية ومن القضاء المصرى نصيرا ورشيدا».(٦٢)

وهكذا أصبح نضال عصام الدين رمزا تلتف حوله كل القوى الوطنية والديمقراطية فى مصر.

لكن ذلك كله لم يكن من وجهة عصام الدين سوى إعداد المسرح كى يتاح لمصر أن تشهد فصول الرواية الحقيقية.

لم يكن ذلك كله إلا استعدادا لعمل أكبر، وحلم أعظم.. ذلك الحلم الذى قضى عصام الدين ردحا طويلا من حياته يفكر ويدبر ويسعى بدأب لكى يصل إليه.

حزب للعمال والفلاحين

تلك هى القضية الأساسية..

لقد أدرك عصام الدين منذ البداية ضرورة تأسيس هذا الحزب كسبيل للنضال والجهاد من أجل تحقيق الحلم الاشتراكى فى مصر.

ولقد بذل محاولات عديدة اتسم بعضها بالتسرع والبعض الآخر بالذكاء. ورغم أن هذه المحاولات لم تنجح فى تحقيق حلم عصام الدين بشكل مباشر فإنها تستحق التأمل والدراسة، خاصة وأنها قد أصبحت بوتقة تولدت فى غمارها بعض مسارات الحركة الاشتراكية المصرية الحديثة.

ولنبدأ مع محاولاته الأولى لتأسيس حركة اشتراكية.. فى ١٩٢٧ عندما كون مع بعض أصدقائه ما سمى «اللجنة التحضيرية للحزب الاشتراكى المصرى» ولا تحمل صحف هذه الفترة أى أخبار عن نشاط هذه اللجنة. سوى برقية تقول: «اللجنة التحضيرية للحزب الاشتراكى المصرى تحتج بشدة على منع النائب الشيوعى البريطانى سكلاتفالا من دخول مصر، وتعلن أن اضطهاد الحرية الفكرية لا يمكن أن تدل شجاعة الحكام الذين يخافون من ذيوع الحقائق.

السكرتير عصام الدين ناصف». (٦٣)

وتتهكم «كوكب الشرق» على هذا الحزب الذى «لم يسمع به أحد والذى نبت نباتا

شيطانيا»[٦٤]، ولا بد أن المحاولة لم تنجح، فقد كانت مصر لا تزال تعانى من آثار حملة إرهاب شديد تعرض له مؤسسوا الحزب الاشتراكى ١٩٢١، وكان معظم كوادر هذا الحزب إما فى السجن أو مطاردين.

لكن هذا الفشل لا يمنع عصام الدين من مواصلة المحاولة مستخدما أسلوبا جديدا..

كان تأسيس مجلة «روح العصر» هو فى حد ذاته محاولة لإيجاد منبر تقدمى تلتف حوله قوى عمالية واشتراكية يمكن من خلالها تأسيس الحزب. ولقد نجحت المجلة بالفعل فى أن تنشر مقالات اشتراكية وأن تجمع حولها عددا من النقابيين الذين كانوا يسهمون فى توزيعها وفى تحريرها، ولكن المجلة لم تستمر طويلا فقد تآمر عليها صدقى باشا حتى أغلقت.[٦٥]

ومرة أخرى يلجأ عصام الدين إلى أسلوب جديد..

لماذا لا يلجأ إلى الكوادر المتطرفة فى الحزب الوطنى، ألم يكن هو نفسه واحدا من هذه الكوادر ثم انحاز إلى الاشتراكية.

وهكذا يبدأ علاقة وثيقة مع لجنة الحزب الوطنى بالإسكندرية حيث كان يعمل مدرسا، ثم يدعم علاقته بالنقابة التابعة لها نقابة الصنائع اليدوية.

وعندما يجد عصام استجابة ما فإنه يسرع فيصدر كتابه «التجديد الاجتماعى» كمحاولة لوضع أساس فكرى للحزب الجديد.

ويبدو أن ثمة خلافا نشأ.. هل يسمى الحزب «الحزب الاشتراكى» أم «حزب العمال والفلاحين» كما كان يريد محمود محمد ناصر أحد قادة الحزب الوطنى بالإسكندرية ومراقب نقابة الصنائع اليدوية..

فيكتب عصام الدين مقالا توجد مسودته ضمن مضبوطات قضية ١٩٣١ بعنوان «حزب اشتراكى لا حزب عمال». وعلى أية حال فإننا نجد أن بيانا قد صدر فى ٤ يونيو ١٩٣٠ بعنوان «برنامج حزب العمال والفلاحين».

وقد كانت قضية كتاب «التجديد الاجتماعى» فى الأساس هى قضية تأسيس هذا الحزب، وكانت الوقائع التى دار حولها التحقيق تتعلق أساسا بمحاولات تأسيس الحزب..

فيدور التحقيق حول علاقة عصام ناصف بنقابة الصنائع اليدوية ولماذا قامت النقابة بتوزيع كتاب «التجديد الاجتماعى» وباعت منه نسخا كثيرة..

ويستدعى إلى التحقيق محمود ناصر الذى يعترف بمحاولة تأسيس «حزب العمال

والفلاحين» وبأنه قد طبع بيانا من ألف نسخة يدعو فيه إلى تأسيس هذا الحزب ووزع معظمها.

وإذا كان تقديم عصام الدين إلى المحاكمة والضجة التى صاحبت القضية والقبض على زملائه فى محاولة تأسيس الحزب قد أعاقت هذه المحاولة.. فإن عصام الدين لم يتراجع، بل صمم على المحاولة من جديد..

وفى ٣٠ أبريل ١٩٣٢ يصدر بيانا بمناسبة «عدد أول مايو».

موقعا باسم «الكتلة الاشتراكية» والبيان يحمل شعار «يا عمال العالم اتحدوا - كارل ماركس» ويبتدئ بداية ساخنة «لقد فشل النظام الرأسمالى، وها هى بشائر انهياره تبدو للأبصار..».

ويمضى البيان منددا بالأسلوب الرأسمالى فى الإنتاج مؤكدا أنه مصدر الأزمات والحروب لكنه لا يلبث أن يوجه نداءه إلى العمال: «يا عمال مصر.. لقد ظللتم أبد الدهر متفرقين لا يقيم لكم أحد وزنا، ولا يخطر ببال الحكومة أن تجيب مطلبا من مطالبكم، فلما أخذتم فى تكوين النقابات رغم كل معاكسة... فكر البعض فى استغلالكم لتعضيد سياسة يجدر أن يبتعد العمال عنها.. فدعوا هذا التواكل ولا تجعلوا أنفسكم مطية لغيركم».(٦٦)

إنه يدعو العمال إلى ضرورة التخلص من نفوذ الأحزاب والعناصر البرجوازية التى تسابقت فى محاولة فرض سيطرتها على الحركة النقابية.

ويبدو أن مساعيه قد نجحت بعض الشيء، وأنه قد استطاع أن يجمع عددا من العناصر ليبدأ من جديد.

لكن البوليس كان يتعقب كل حركاته، وفى ٢١ مايو ١٩٣٢ تصدر معظم الصحف بعناوين ضخمة «ضبط منشور اشتراكى..». ومن محاولة تتبع ما نشر فى صحف هذه الفترة يمكن أن نستخلص المعلومات الآتية:

- إن البوليس السياسى قد علم أن بعض الأفراد ألفوا لجنة تحضيرية مهمتها الدعوة إلى تأليف حزب جديد أطلقوا عليه اسم «الحزب الاشتراكى» وإنهم أعدوا منشورا لطبعه وتوزيعه على الجمهور يدعونه فيه إلى الانضمام إلى الحزب وتكوين جمعية عمومية تنتخب اللجنة التنفيذية التى تكون مهمتها انتخاب رئيس الحزب.

- إن البوليس علم أن اللجنة التحضيرية ستصدر منشورا يتضمن برنامج الحزب.

– قام البوليس بضبط المنشور فى مطبعة العامل المصرى وقد ضبط ٥٠٠٠ منشور معدة للتوزيع.

– وقد قبض على كل من عصام الدين ناصف ومحمود إبراهيم اللذين اعترفا بطلب طبع المنشور وأيدا كل ما به من مبادئ..

وتشير الصحف إلى أن المنشور موجه إلى «الأمة المصرية الكريمة» يحثها على العمل لتأسيس حزب اشتراكى. وإنه تضمن برنامج هذا الحزب، وأن البرنامج يتحدث عن الملكية العامة والملكية الفردية وساعات العمل وحقوق النساء وضرورة مساواتهن بالرجال. وضرورة تمثيل العمال فى البرلمانات.(٦٧)

لكن حرب المنشورات التى بدأها عصام الدين لم تتوقف، فما إن يحضر إلى مصر ملك إيطاليا لزيادة الملك فؤاد حتى يوزع منشورا يهاجم فيه الفاشية الإيطالية ويهاجم من سمحوا لملك إيطاليا بزيارة مصر.. ويطالب المنشور أيضا بإلغاء الامتيازات الأجنبية.. وقد وزع هذا المنشور على نطاق واسع فى القاهرة ودلت تحريات البوليس على أن سيارة قد استخدمت فى توزيعه..(٦٨)

والغريب فى الأمر أن عصام الدين قد قبض عليه فى هذه القضية لأن رجال البوليس رجحوا أنه هو كاتب المنشور نظرا للطريقة التى تعرض بها لنقد نظام الفاشست..(٦٩)

وعلى أى حال فإن «الأهرام» تشير إلى ضبط نسخ هذا المنشور فى منزله.(٧٠)

وفى أول مايو ١٩٣٣ يصدر نداء جديدا للعمال يهاجم فيه من جديد النظام الرأسمالى ويدعو إلى الوحدة والتضامن ضد الحرب والاستعمار والإرهاب.(٧١)

وعندما ينشب الخلاف بين حزب الوفد وعباس حليم حول زعامة الحركة النقابية ينشر عصام مقالا عنيفا يدعو فيه العمال إلى الانفضاض عن هذين المعسكرين المتصارعين وتكوين حزب خاص بهم، ويقول: «لقد أعلن أنصار الوفد عن انشقاق حزبهم على اتحاد العمال الذى يرأسه الشريف عباس حليم وأعربوا عن آراء مرتبكة تدل على منتهى الجهل المشرب بسوء النية. إذ يزعم الوفد أن الوطنية البرجوازية الفاشلة التى يرفع هو لواءها لا تسمح بإفساح المجال لحركة عمالية يقوم بها العمال لجمع وضم صفوفهم وتكوين جبهة موحدة للعمل على تحرير أنفسهم من تحكم أصحاب الأعمال. وترى جريدة العمال (جريدة عباس حليم) أن تقسم شئون الأمة إلى قسمين قسم يتولاه مصطفى النحاس وقسم يتولاه

عباس حليم، وينبغى على العمال فى رأيها أن يمتنعوا عن معالجة المسائل السياسية التى لا تختص بشئون العمال».

ويهاجم عصام كلا المعسكرين «فكل من هذين الزعيمين لا يقل عن الآخر بعدا عن محجة الصواب، والعمال يجب أن يعنوا ببحث جميع الشئون السياسية على أن ينظروا إليها من وجهة نظرهم الخاصة دون تبعية للأحزاب البرجوازية».(٧٢)

والحقيقة أن عصام لم يقصر اهتمامه على المطالبة العامة بمصالح الطبقة العاملة، ولا على تأسيس حزب لها، لكنه ركز فى كثير من الأحيان اهتمامه على الحركة النقابية محاولا أن يضىء أمامها سبل العمل المفيد، وقد دأب باستمرار على تحذيرها من سيطرة العناصر الضارة والبرجوازية.

وهو يحذر العمال من اللجوء إلى أساليب النضال الخاطئة. ويوجههم بأمثلة حية نحو الأسلوب الواجب الاتباع. «فعندما أحضرت مصانع التبغ فى مصر آلات لف السجائر واستغنت عن آلاف من عمالها الفنيين اجتمع العمال وطالبوا الحكومة بسن تشريع يجبر مصانع التبغ على لف اللفافات بالأيدى لا بالآلات. لقد سلك العمال فى تفكيرهم هذا أقصر طرق التفكير ولكن ليس أصوبها. وكان الصواب أن يتجهوا فى تفكيرهم نحو إصلاح النظام الاقتصادى لا نحو تحطيم الآلات والمطالبة بعدم استعمال الآلات. فالآلات الحديثة هى تراث الحضارة.. والواجب أن يؤدى تحسين الآلات.. إلى تقليل ساعات العمل اليومى أو إلى زيادة الاستهلاك لا إلى إلقاء العمال بين أنياب العطلة».(٧٣)

وعندما تعلن «المقطم» تخوفها من إدخال الآلات الحديثة إلى مصر مطالبا بمنع ذلك حتى لا يؤدى إلى البطالة يندد عصام بهذه الفكرة معلنا «إنه من مصلحة المستهلك المصرى والعامل المصرى أن تمتلئ البلاد بالمصانع الكبيرة. إن مكافحة البطالة عن طريق محاربة التقدم لا يؤدى إلا إلى نتائج معكوسة».(٧٤)

وهو يواصل تأكيده على أهمية تكوين النقابات وعلى أهمية تضامن العمال واتحادهم ليس هذا فحسب بل هو يفتح أمام العمال أبواب التضامن العمالى العالمى، «فكلما ازداد تجمع العمال تعمقت فيهم فكرة النقابية الحرة وعلموا أنهم لن يجنوا فوائد ثابتة وعظيمة على الأرض النقابية وفى الشئون الاقتصادية ما لم يتبعوا المنهج الذى يرسمه لهم اتحاد النقابات الدولى».(٧٥)

والحقيقة أن عصام لم يفرق كثيرا بين محاولاته لتأسيس حزب للعمال والفلاحين وبين عمله وسط النقابات. فقد سيطرت عليه تماما فكرة العمل العلنى والقانونى.. وفى حوارى معه أكد أنه رفض جميع المحاولات لتأسيس تنظيم سرى، على أساس أن النضال المستمر سوف يجبر الحكام يوما على الرضوخ لمنح العمال حقهم فى تكوين حزب خاص بهم، وأعتقد أن كثيرا من العوامل قد تدخلت لتدفع عصام إلى هذا الموقف، منها التجربة المريرة التى عانى منها كوادر الحزب الشيوعى المصرى عندما تحولوا إلى العمل السرى فى عام ١٩٢٤. ومنها ضعف خبرته التنظيمية فقد رأينا أنه تحول من العطف على الفكر الاشتراكى إلى محاولات العمل الاشتراكى نفسه دون أن يرتبط بأى من المجموعات الحزبية التى كانت موجودة إلى حد ما فى ذلك الحين. ومنها أيضا تمسكه الليبرالى بالحقوق القانونية والدستورية ومحاولة التقيد بالعمل فى حدودها.

وقد قاده هذا التمسك بالعلنية إلى كثير من المزالق. فبعد هذه المحاولات المتكررة والتى ضربت واحدة بعد الأخرى لم يجد مانعا من اللجوء إلى من يحمى محاولاته من بطش البوليس، فلجأ إلى عباس حليم.

وهنا يبدو واضحا تسلط «البرجوازى الصغير» على تصرفه هذا، لقد فقد الصبر والثقة فى جماهير العمال، فلماذا لا يلجأ إلى سند أرستقراطى يحمى محاولاته. خاصة وأن كثيرا من الجماهير العمالية قد التفت حول عباس حليم وقلدته لواء زعامتها.

ولقد لجأ عصام إلى عباس حليم على مضض، فهو لا يقبل زعامة أرستقراطى للحركة العمالية وهو لا يرضى عن الزعامات النقابية التى التفت حول عباس حليم.

عصام لا يخفى هذه «المرارة» بل هو يقتحم معسكر عباس حليم شاهرا سيفه معلنا الحرب على النقابيين النفعيين.

فيكتب فى صراحة: «كنت مضطرا للذهاب إلى النبيل عباس حليم، فقد كان جميع العمال تحت زعامته، وهو رجل مخلص حسن النية، ولكنه قليل الخبرة بهذه الشئون. وقد وجدته ترك الأمر فى أيدى عدد من العمال معظمهم غير مخلص للحركة، وإنما كان انضمامهم لاستغلالها والاستفادة منها أدبيا وماديا.. وكان البعض منهم يختلس ما تصل إليه يده من أموال العمال المساكين، ثم هناك ما هو أدهى وأمر، كان الكثيرون منهم يتصلون بإدارة الأمن العام وفى المجمل كانوا جهلة أدعياء».

وشعر هؤلاء النقابيون بخطر وجود عصام وسط صفوفهم فأخذوا يقاومونه بسلاح قديم «لا نريد أفندية بيننا، إن الأفندية لا يحسون آلام العمال..».

ورد عليهم عصام ردا قاسيا قائلا: إنهم «يعيشون فى ظلال الأغنياء ويتمتعون بكرم الأغنياء ولا يمكن مقارنتهم بالعمال».

ومع ذلك يواصل عصام محاولاته مع عباس حليم.. بل لقد حاول أن يستفيد من اهتمام النبيل بتأسيس اتحاد العمال لإقناعه بتأسيس «حزب العمال».

ورفع عصام شعار «حزب عمال لا اتحاد نقابات فقط». وتقول جريدة «شبرا»: «اقترح الأستاذ عصام الدين على النبيل عباس حليم أن يؤسس حزبا للعمال إلى جانب اتحاد العمال لأن للحزب وظيفة غير وظيفة النقابات واقتنع الشريف عباس حليم بصواب الفكرة ودعا الأستاذ عصام إلى وضع مبادئ الحزب»[٧٦]

هنا تثور ضجة شديدة، فالمحاولة ليست مجرد محاولة متواضعة كتلك المحاولات التى دأب عصام بصبر على القيام بها طوال السنوات الماضية لكنها محاولة يسندها عباس حليم بأمواله وبنفوذه الضخم فى الطبقة العاملة وباتحاد عماله الذى يضم غالبية النقابات.

ويشعر الوفد بالخطر على نفوذه وسط العمال فقد رضى على مضض باتحاد للعمال يرأسه عباس حليم مصمما باستمرار على أن هذا الاتحاد لا يجب له أن يشغل نفسه بالأعمال السياسية، أما تكوين حزب عمالى فهذا شىء آخر، خصوصا إذا أعد برنامجه ولعب دورا أساسيا فى تكوينه عصام الدين ناصف.

وتهاجم صحف الوفد هذا الاتحاد.. بل ويهاجمه النحاس شخصيا فى عدد من خطبه معلنا أنها محاولة للدس بين الوفد والعمال، ثم عاد النحاس لينشر حديثا فى الصحف ألح فيه إلى أن الدستور يحرم على الأمراء الاشتغال بالسياسة..

ويبدو أن هذه الهجمات قد دفعت عباس حليم إلى التردد فى تأسيس الحزب. ونشرت «الأهرام» خبرا لمراسلها فى لندن (حيث سافر عباس حليم) يقول: «إن النبيل سيكتفى على الأرجح بتكوين اتحاد نقابات».[٧٧]

لكن عصام لا يتراجع بل هو يشن هجوما مركزا على الوفد والنحاس، وهو لا يكتفى بهذا الهجوم فهو إذ يعلن عدم تصديقه للتصريح المنسوب لعباس حليم يوجه إليه التحذير صريحا. «فإذا فرضنا - وهذا ما نكتبه على سبيل الجدل ولا نعتقده قط - أن النبيل

عباس حليم رأى أن يتخلى عن الحركة وأن يكتفى بإعادة اتحاد النقابات، فهل معنى هذا أن العمال يمتنعون عن إنشاء حزب العمال؟ كلا.. ثم ألف كلا، فالعمال سينشئون حزب العمال لا لأن الزعيم عباس حليم يرى ذلك فقط بل لأنهم يرون ذلك أيضا».

ويواصل عصام تأكيده «نحن الآن نعلن أننا مصرون على وجوب إنشاء حزب العمال فى أقرب فرصة، وأننا ماضون فى الدعاية لتكوين الحزب، وأننا لن نتراجع عن عملنا هذا مهما غضب أعداء الحركة ومهما تراجع أصحاب القلوب الخائرة ولن تمضى بضعة أسابيع حتى نزف إلى العالم بشرى تكوين حزب العمال المصرى».(٧٨)

ويواصل عصام تصديه للهجمات التى شنت من كل مكان على فكرة تأسيس الحزب فيرد ردا عنيفا على بنت الشاطئ «التى نشرت مقالا فى الأهرام تتهم فيه الحركة بأنها مستوحاة من الخارج وتدعو متزعمى حركة العمال أن يأمنوا من التطبيق الحرفى لنظم بلاد ليس لنا مثل ظروفها».

كذلك تهاجم بنت الشاطئ المطالبة بزيادة الأجور «لأنها تعوق قدرة الصناعة المصرية على منافسة البضائع الأجنبية ولأنها ترفع الأسعار أمام المستهلك المصرى وهو الفلاح غالبا».(٧٩)

وتحت عنوان «عدو جديد للعمال والفلاحين الآنسة بنت الشاطئ» يقول عصام: «قرأت الكثير من مقالات هذه الآنسة ولا أذكر أنى وجدت بينها مقالة واحدة خالية من جملة موجهة ضد الفلاحين والعمال، وقد كنت فيما مضى أسند ذلك إلى جهلها بالمسائل العمالية وإلى رغبتها فى إرضاء الجريدة التى تدفع لها أجر مقالاتها..».(٨٠)

ومرة أخرى يؤكد عصام أن حزب العمال سيقوم رغم العقبات فيكتب مقالات بعنوان «حزب العمال قائم لا محالة».

وهو مقال مهم يحدد فيه عصام دور الحزب وأهدافه فيقول: «وليس الغرض من تأسيس الحزب هو مجرد مساعدة العمال والفلاحين فى الحصول على بعض المزايا، بل إن غرضه الأساسى يتعدى ذلك كثيرا فهو يرمى إلى اشتراك العمال فى إدارة دفة سياسة الدولة كلها، وسيعمل الحزب - بالطرق المشروعة - للاستيلاء على السلطة السياسية ويساعد مرشحيه من العمال والمثقفين مساعدة جدية للنجاح فى انتخابات البرلمان والمجالس البلدية وسيعمل على جعل أبناء الطبقة العاملة أكثر صلاحية لتولى زعامة العمال وتمثيلهم فى المجالس النيابية وفى مجلس الوزراء».(٨١)

وهو يكتب مقالا آخر بعنوان «حزب العمال يقوم على أنقاض الأحزاب الأخرى» يقول فيه: «لقد بلغ العمال المصريين رشدهم السياسى فأصبح من المحال أن يمنحوا ثقتهم لأى حزب من الأحزاب القائمة والتى لا عمل لها إلا التهريج».(٨٢)

لكن عصام لا يكتفى بكل هذه التأكيدات على ضرورة قيام الحزب، ولعله خشى من تردد عباس حليم فقرر أن يضعه أمام الأمر الواقع فسارع بنشر برنامج الحزب (قبل أن يعود عباس حليم من لندن) مشفوعا بمئات التوقيعات من القادة النقابيين والعماليين والبرنامج يستحق وقفة نتأمله فيها، فهو من الناحية السياسية يقدم مطالب حاسمة تستهدف تصفية النفوذ الاستعمارى.

«استقلال مصر والسودان استقلالا تاما وإزالة ما يمس الاستقلال بحيث لا يكون لأجنبى سلطة شرعية أو فعلية أو امتياز يمنح له حق التدخل فى شئون البلاد على أية صورة من الصور».

ويحرم البرنامج على الحكومة «أن تتنازل أو تسمح باحتلال جزء من أراضى مصر أو جوها أو بحارها».

ويطالب «بإلغاء الامتيازات الأجنبية إلغاء تاما بلا قيد ولا شرط».

كذلك يطالب البرنامج بدعم الحريات العامة و«المحافظة على الدستور مع زيادة النصوص التى تحمى حريات الأمة فيه وحقوقها إزاء الحكومة».

وينص كذلك على «نشر الدعوة للسلام والتحذير من الحرب الاستعمارية وبث روح الديمقراطية وفكرة المساواة بين الشعب وإظهار فساد المبادئ الدكتاتورية».

وثمة فقرة أخرى لافتة للنظر هى «توثيق صلات مصر بالبلاد العربية والإسلامية».

أما المبادئ الاجتماعية فهى تتناول موضوعات كفالة حرية الاجتماع والخطابة وإلغاء القوانين التعسفية وتعميم التعليم وجعله مجانيا فى المرحلة الابتدائية وعدم السماح للإرساليات الأجنبية بمزاولة التبشير، رفع مستوى المرأة، إلغاء البدل العسكرى وترقية الطبقة العاملة ورفع مستوى معيشتها مع تقليل الفوارق بين الطبقات الاجتماعية وجعل ما يتبقى من هذه الفوارق قائما على أساس الاجتهاد ونفع الجماعة».

كذلك ينص البرنامج على مطالب اقتصادية من بينها: «تحريم ملكية الأجانب للأراضى الزراعية، إزالة العراقيل المقامة فى وجه التجارة المصرية مع روسيا واليابان ومعاملة

الدول المختلفة على قدم المساواة، إصلاح شروط الإيجار الزراعى بقوانين مفصلة تحمى الفلاحين من الغبن، فرض ضرائب متدرجة على الميراث مع إعفاء الطبقات الفقيرة من الضرائب المباشرة».

ويتضح أن عصام الدين قد حرص على ألا يورد فى البرنامج أى مطالب اشتراكية فليس من المعقول أن يقبل عباس حليم مثل هذه المطالب.

وهكذا فقد اقتصر البرنامج على مطالبات وطنية وديمقراطية وإصلاحات اجتماعية.. لكن الأمر لم يقتصر عند هذا الحد. فقد عاد عباس حليم ويبدو أن التشدد الذى ساد المطالب الوطنية فى البرنامج لم يعجبه، بل إن الملك قد مارس ضغطا شخصيا على عباس حليم كى يخفف من حدة هذه المطالبات. وأخيرا اتفق على شطبها جميعا..

وتنشر جريدة «شبرا» بيانا يقول:

«إن عدداً كبيرا من العمال البارزين فى صفوف الحركة العمالية قد اجتمعوا مع بعض المثقفين، المعروفين بثقافتهم العمالية ودرسوا مشروع إعلان الحزب وقرروا..

١- إنشاء حزب العمال المصرى.

٢ - اعتماد المبادئ الاقتصادية والاجتماعية التى وضعها الأستاذ عصام الدين.

٣ - الاستغناء عن برنامج سياسى للحزب وذلك نزولا على نصيحة حضرة صاحب الجلالة الملك للعمال بعدم الاشتغال بالسياسة».

وبما أن الحزب هو مؤسسة غير سياسية فإنه لن يحارب حزبا أو يناصر حزبا من الأحزاب السياسية، بل يسره أن يتعاون مع كل فرد يعطف على مبادئه ويناصره ولو كان هذا الفرد منتميا إلى حزب من الأحزاب.

وهكذا فإن تدخل الملك كان يستهدف أكثر من مجرد استبعاد المطالب الوطنية، بل إنه استهدف أن ينفى عن الحزب حق العمل السياسى.. وكانت هزيمة قاسية لأفكار عصام. لعلها لقنته درسا بعدم جدوى الاستعانة بالبرجوازية لتأسيس حزب للعمال.

فعلا صوته فى مقال غاضب بعنوان «عمال قبل كل شىء.. حذار من تضليل البرجوازية»، يقول فيه: «ليس هناك أشد ضلالا ممن يزعم أن هناك نزاعا بين الوطنية المصرية والعاملية المصرية. أما أمهر أحزاب البرجوازية فى التهويش والتضليل، فإنها تعطى للعامل خنجرا مسموما ليطعن به طبقته وتدعوه باسم الدين أو الوطن أن ينتحر

فيفعل. ويقولون ابق مكانك لا تتقدم إلى الأمام حتى ننتهى نحن من إجلاء المحتلين، فيجيب سمعا وطاعة سأظل قابعا فى الأوحال القذرة إلى أن يصدر أمركم بالتحرك فأتحرك فى الطريق التى سارت فيها أحزاب العمال والاشتراكية فى سائر بلاد العالم».

ويواصل عصام الدين صيحته:. «يجب على العمال أن يرفضوا تلبية دعوة الأحزاب البرجوازية وعليهم أن يردوها قائلين: إننا نسعى لتحسين حالة أغلبية الأمة من عمال المدن والأرياف وهذا أمر لا يعوق الحركة الاستقلالية. بل هو حرى أن يقدمها ويقويها فإذا زعمت هذه الهيئات أن حركة العمال تعرقل جهادكم فالأمر سهل فليتخلوا للعمال عن الجهاد لتحرير الوطن. أن العمال يستطيعون النهوض بالحركتين معا: الاستقلالية والعمالية ولقد أثبتت الحوادث فى الصين وغيرها أن أحزاب العمال هى التى تستمر إلى النهاية فى الجهاد ضد الاحتلال الأجنبى على نقيض الأحزاب البرجوازية فهى مرتشية تساوم العدو على حقوق بلادها وتضحى بالمصلحة العامة لحساب المصلحة الحزبية والشخصية».[٨٣]

وهكذا يدرك عصام الدين من خلال التجربة والخطأ. ومن خلال الممارسة العملية أن السبيل لتأسيس حزب للعمال هو فضح البرجوازية ومجابهتها.

ويدرك أيضا أن الأسلوب القانونى ليس هو السبيل الوحيد أمام العمل الاشتراكى.

ومن ثم تبدأ محاولته لتأسيس تنظيم سرى.

والحقيقة أن هذه الخطوة لم تكن نتيجة نضج شخصى، بل هى ثمرة تطور شامل وصلت إليه حركة اليسار المصرى على مشارف الأربعينيات.

فلقد استطاع اليسار المصرى أن يلعق جراحه وأن يبدأ من جديد، وكانت حركة شاملة وواسعة.

لكن عصام الدين لم يواكبها. فمن جديد يبرز البرجوازى الصغير من ثياب المكافح الصلب، يبرز ليردد كل أمجاده (وهى حقيقية) ويردد كل ما قدم من نضال وتراث وفكر وتضحيات (وهى حقيقية أيضا) لكنه يرفض الآخرين.. فالشباب الجدد يندفعون بحركتهم دون استئذان من القدامى ودون خضوع لقيادتهم ويكتب عصام فى مجلة «التطور» قائلا: «لقد أخذت على عاتقى منذ بضعة عشر عاما أن أنشر التعاليم الاشتراكية وأدعو لها. وكانت كلمة الاشتراكية فى ذلك الحين تثير الدهشة والاستخفاف، وقد بلغت مصر فى النهاية بعض ما رجونا لها فكثرت فيها الدعوات إلى الإصلاح الاجتماعى، وظهر الاتجاه

الاشتراكى فى أبحاث الباحثين ودعوات المصلحين ومع أن هذه الدعوات ليست فى الصميم، ومع أن معظمها ليس جديا، ومع أن الكثير منها لا يعدو الندب والعويل.. فهى على الأقل قد نجحت إلى حد أن الكثيرين قد أصبحوا يتطفلون على المبادئ التى رفعنا علمها فى مصر وينتحلون مظاهر يقلدون بها المظهر الذى عرفنا به».[٨٤]

وهكذا فإن الفارس الشجاع الذى وهب حياته كلها للمعركة، يفتح عينيه ذات يوم ليجد موكبا كبيرا من شبان صغار، هم بالتأكيد ثمرة المناخ الذى أسهم فى تكوينه، لكن الموكب يمتد ولا يكون للفارس فيه مكان الصدارة.. فيؤدى به ذلك إلى الابتعاد.

لكنه لا يبتعد كثيرا عن الموكب فيظل يتابعه ويظل يلعب دوره كمثقف اشتراكى وثورى وتتوالى كتبه ومقالاته دفاعا عن الاشتراكية.

وفى آخر أيام حياته كان فخورا جدا بكتابه «سيرة لينين» وكان يستعد لإصدار كتب أخرى.. ولكن.. كان لا بد للرحلة أن تنتهى..

الهوامش

(١) ملف القضية رقم ٣٤٤ كلى سنة ١٩٣١بم محكمة جنايات الإسكندرية - دور يوليو. ص١١ وما بعدها.
(٢) ديوان حفنى ناصف - جمعه وأرخ له ولده مجد الدين حفنى ناصف. وقدم له تلميذه د. طه حسين، دار المعارف ١٩٥٧.
(٣) المرجع السابق ص ٣٨.
(٤) محرر رسمى صادر عن قلم السوابق بنيابة الاستئناف بالقاهرة ١٩٣١/٦/١١ ومودع ضمن دوسيه القضية رقم ٥٧٣ لسنة ١٩٣١ص٢.
(٥) المرجع السابق ص ٨٨ وسوف نرى أن بعض هذه التهم غير صحيح.
(٦) اللواء ١٩٢٤/١٢/٢١.
(٧) محمود أبو الفتح - المسألة المصرية والوفد. حيث يؤكد عمق علاقات الطلبة المصريين فى باريس بأحزاب اليسار واتصالاتهم المستمرة مع هذه الأحزاب.
(٨) أبو الفتح - المرجع السابق - ص٢٧.
(٩) د. محمد أنيس - دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩. الجزء الأول، مكتبة الأنجلو - ص٢٥٢.
(١٠) راجع محضر النقاش معه فى الملاحق.
(١١) ملف القضية ٣٣٤ كلى ١٩٣١ - المرجع السابق - ص٥١.
(١٢) محضر النقاش معه.
(١٣) الأهرام ١٩٢١/٩/١٦.
(١٤) نشرت هذه الدراسة فى خمس حلقات فى كوكب الشرق ابتداء من عدد ١٩٢٦/٣/٢٥.
(١٥) محضر النقاش معه.
(١٦) ملف القضية ٣٤٤ كلى ١٩٣١- المرجع السابق - ص ٣، ٤،٥.
(١٧) الوادى ١٩٣٤/١٢/١٢.
(١٨) الوادى ١٩٣٤/١١/١٢.
(١٩) المرجع السابق.
(٢٠) مجلة المصور - يونيو ١٩٣٠.
(٢١) راجع محضر النقاش معه بالملاحق
(٢٢) كتاب لم ينشر بعنوان «متابعة التجديد الاجتماعى» - مخطوط.
(٢٣) الفجر -١٩٢٦/٥/٢٠.
(٢٤) الدستور ١٩٣٣/١٢/١٣.
(٢٥) الإخاء الوطنى (عراقية) - ١٩٣٣/١١/٦.
(٢٦) وادى النيل - ١٩٣٠/١١/١٤.
(٢٧) الأهرام - ١٩٣٨/٧/١٤.

(٢٨) الأهرام -١٩٢٨/٩/١٦.
(٢٩) ص ١٢.
(٣٠) ص١٣.
(٣١) ص ١٠.
(٣٢) ص ٢٤.
(٣٣) مجلة التطور- عدد مايو١٩٤٠.
(٣٤) التطور - عدد يونيو ١٩٤٠.
(٣٥) التطور - عدد مارس ١٩٤٠.
(٣٦) عاصفة فوق مصر- الطبعة الأولى ١٩٣٩- مطبعة فتى النيل، ص١٣.
(٣٧) المسألة الاشتراكية، سبتمبر ١٩٣٣ - مطبعة أبى الهول.
(٣٨) التجديد الاجتماعى، أبحاث فى شئون العمال والفلاحين - ١٩٣١- مطبعة السفير، الاسكندرية ص٥١.
(٣٩) قصاصة من صحيفة عثرت عليها ضمن أرشيف عصام وغير موضح عليها اسم الصحيفة ولا التاريخ.
(٤٠) مبادئ الاشتراكية، الطبعة الأولى ١٩٣٣- مطبعة أبى الهول بالقاهرة- ص١٨.
(٤١) ص٣٤.
(٤٢) مترجم عن كتاب «حكومة الشعب أم الدكتاتورية» للدكتور مارتن لانيارت.
(٤٣) إخفاق الفاشية، أغسطس ١٩٤٣، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
(٤٤) المرجع السابق ص ٣.
(٤٥) ص٤.
(٤٦) «موسكو - برلين - لندن»- الطبعة الأولى ١٩٤٦- ص١٠.
(٤٧) ص ٣٩.
(٤٨) الوادى - ١٩٣٢/١٠/١٢.
(٤٩) قصاصة من جريدة «شبرا» لم يرد عليها تاريخ صدورها.
(٥٠) مجلة المصرية - ١٩٣٧/٧/١.
(٥١) المصرية ١٩٣٧/٧/١٥.
(٥٢) مجلة الأدب الحى - ١٩٣٧/١٢/١.
(٥٣) صوت الأمة - ١٩٤٨/٣/٨.
(٥٤) ١٩٣٤/٣/٩.
(٥٥) ١٩٣٤/٣/٤.
(٥٦) ألف باء -٣٤ - تشرين ثانى (نوفمبر) ١٩٣١.
(٥٧) السياسة- ١٩٣١/١٢/٤.
(٥٨) الجهاد - ١٩٣٣/١١/٢٥.
(٥٩) السياسة - ١٩٣١/١١/٣٠.
(٦٠) البلاغ - ١٩٣١/١١/٣٠.
(٦١) البلاغ - ١٩٣١/١١/٢٣.
(٦٢) الأهرام - ١٩٣١/١١/٢٧.
(٦٣) كوكب الشرق- ١٩٢٧/١/٨.

(٦٤) كوكب الشرق - ١٩٢٧/٦/٩.
(٦٥) محضر النقاش معه.
(٦٦) ملف القضية ٣٤٤ كلى ١٩٣١- قائمة المضبوطات ص٤.
(٦٧) الوداى - ١٩٣٢/٤/٣٠.
(٦٨) الأهرام - البلاغ - كوكب الشرق -١٩٣٢/٥/٢١.
(٦٩)، (٧٠)، (٧١)، الأهرام، المقطم، الجهاد، كوكب الشرق أيام ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٤/ ٢/ ١٩٣٣.
(٧٢) المقطم - ١/ ٥/ ١٩٢٣، ٢٤/ ٢/ ١٩٣٣.
(٧٣) مجلة صندوق الدنيا - ٢٩/ ٨/ ١٩٣٣، ويلاحظ أن صاحب المجلة هو محمود إبراهيم الذى قبض عليه مع عصام فى قضية منشورات عام ١٩٣٢، وربما كانت صندوق الدنيا ثم الشعاع التى صدرت ١٩٣٨، هى جزء من محاولات عصام الدين لتأسيس مجلة يمكن اعتبارها منبرا للاشتراكية.
(٧٤) مجلة المصرية - ١/ ٩/ ١٩٣٧.
(٧٥) المقطم.
(٧٦) الوادى - ٢١/ ٨/ ١٩٣٢.
(٧٧) جريدة شبرا - ١/ ٤/ ١٩٣٧.
(٧٨) شبرا - ٩/ ٩/ ١٩٣٧.
(٧٩) الأهرام - ١١/ ٩/ ١٩٣٧.
(٨٠) شبرا - ٩/ ٩/ ١٩٣٧.
(٨١) شبرا - ٩/ ٩/ ١٩٣٧.
(٨٢) شبرا - ١٦/ ٩/ ١٩٣٧.
(٨٣) الشعاع - ٢٣/ ٥/ ١٩٣٨
(٨٤) التطور- أبريل ١٩٤٠.

ملاحــق

محضر نقاش رقم (١)
مع عصام الدين حفنى ناصف
يوم ٣٠/ ٦/ ١٩٦٨

س: ما هى معلوماتك عن نشأة الحزب القديم؟

ج: سنة ١٩١٩ خلال الثورة بدأت فكرة تكوين أحزاب عديدة.. ونشأ الحزب الديمقراطى (عزيز ميرهم) وفى الإسكندرية تأسس حزب اشتراكى كان فيه عبد الله عنان وكان حسنى العرابى يتزعم مجموعة. اتجهت مجموعة حسنى العرابى لتكوين حزب شيوعى.. وحدث انقسام فى الحزب..

وكانت مجموعة حسنى العرابى تميل إلى الفورات المتسرعة.. فمثلا سنة ١٩٢٤ احتل العمال أحد فابريقات الزيت بإيعاز من الشيوعيين، وكان هذا عملا متسرعا.. وسعد زغلول أرسل أورطتين واستخدم العنف ضدهم. وصدر قانون ضد الشيوعيين وحوكم قادة الحزب وفقا لهذا القانون وحكم عليهم بثلاث سنوات وزعيمهم أنطون مارون مات فى السجن مضربا عن الطعام..

وبعد ذلك أصبحت الحركة غير شرعية وكان باستمرار هناك مسجونون شيوعيون وحصل عدة مرات محاولات لإحياء الحزب، وإحدى هذه المرات قام بها شخص اسمه العربى وهو شخص حكم عليه بالسجن ١٥ سنة وأفرج عنه عند وصول سعد زغلول للحكم.. وبعد الإفراج عنه انضم إلى مجموعة من الشيوعيين كان معظمهم صحفيين وقبض عليهم، وكان العربى هذا مولعا بكتابة مذكرات تفصيلية وعندما قبض عليهم ضبطت هذه المذكرات التفصيلية.. ولست أدرى إن كان العربى هذا جاسوسا أم لا.. ولكن مذكراته كانت إدانة ضدهم جميعا.. ولكن العربى أفرج عنه.

حسنى العرابى كان متخرج من سنة ثانية ثانوى وكان عنده عقده نقص. فهو معقد من المثقفين، وكان معظم أصدقائه من أنصاف المثقفين فمثلا عندما طلب إليه إرسال أشخاص

إلى موسكو أرسل محمد عبد العزيز (تاجر بطاطين)، وفى الاتحاد السوفيتى كان محمد عبد العزيز نموذجا سيئا، وعندما عاد اتصل مباشرة بالمباحث وعمل معهم وكان يرسل معلومات للكومنترن مبالغ فيها قال لهم مثلا إن الحزب فيه ٢٠٠٠٠ عضو.

الكومنترن أرسل شخصاً ساوياً اسمه فايس فى عام ١٩٢٧على ما أظن، وعندما وصل محمد عبد العزيز استولى على نقوده وسلمه للمباحث.

وأذكر أنه حدثت محاولة لاغتيال محمد عبد العزيز.. بأن طعنه شخص أمام دار الكتب برقبه زجاجة. وقيل ساعتها أن الذى حاول قتله شيوعى.

وبعد ذلك فى سنة ١٩٣٠ كان لى صديق هو د. عبدالفتاح القاضى، وتعرفت بحسنى العرابى.. واجتمعنا نحن الثلاثة لإصدار مجلة.

وأنا كنت معروفا أنى شيوعى وكذلك حسنى العرابى ولا يمكن منحنا رخصة للمجلة، ولهذا طلبت الرخصة باسم د. عبد الفتاح القاضى.

وكان هناك شخص اسمه إلهامى موظف بالسكك الحديدية وفصل لأنه شيوعى وعمل فى المجلة كمدير للإدارة.

وتآمر ضدنا متعهد توزيع الجرائد واسمه الفهلوى فكان يخزن الأعداد ولا يوزعها.. وأحسسنا أننا نفلس أو أفلسنا فعلا، وبدلا من أن نغلق المجلة بأيدينا.. هاجمنا الحكومة بشدة وعنف فاجتمع مجلس الوزراء وأصدر قرارا بإغلاق المجلة.

وسافر حسنى العرابى إلى ألمانيا لأنه أفلس وفى ألمانيا أعجب بالحركة النازية فكان يكتب لنا مادحا فى هذه الحركة، لكنه كان يعيش هناك فى حالة سيئة جدا وكان يعطى دروسا فى اللغة العربية.

وعندما أوشكت الحرب على القيام أدرك الإنجليز أن من الخطر بقاء حسنى العرابى فى ألمانيا حتى لا يستخدمه النازى بوقا للدعاية لهم.. وهكذا تدخل حسن نشأت باشا بإيعاز من الإنجليز لإعادته لمصر. وعندما عاد حسنى وتقابل معى ومع الدكتور القاضى حاول أن ينضم إلينا وتمسك بالمظهر الشيوعى لأنه أحس أن كل ما له من احترام وكرامة فى مصر كان بسبب اضطهاده بسبب شيوعيته.

وأصدر جريدة أظن اسمها "الكفاح" وكانت سياسته مائعة يقول مثلا إن الفلاحين مظلومون.. لكن لا يقول ما هو الحل لإنهاء الظلم.. أى كلام يمكن أن يستخدمه الشيوعى ويستخدمه النازى.

وظل الأمر كذلك حتى غزت ألمانيا أراضى الاتحاد السوفيتى، وأنا أوعزت إلى د. القاضى بضرورة إعلان الهجوم على ألمانيا والدفاع عن الاتحاد السوفيتى.. وعقد اجتماع لمناقشة الموقف وقال القاضى إن علينا أن نعلن دفاعنا عن الاتحاد السوفيتى فقال حسنى العرابى إنه يطلب ثلاثة أيام مهلة للتفكير.. كان يأمل أن تسفر الأيام الثلاثة عن نتيجة الحرب. فلما سمع جورنج يقول إن الجيش الألمانى سيشق روسيا كما يشق السكين قالب الزبد خيل إليه أن الألمان هم الحصان الرابح وأعلن رفضه لفكرة الهجوم على الألمان.. وتركنا وانضم إلى مجموعة من مؤيدى الألمان.. وكون تنظيماً فعلا.. وكون "وزارة ظل" فى انتظار احتلال النازى لمصر.. وأعدوا رايات وفصلوا قمصانا لونها بنى وعندما انتصر الاتحاد السوفيتى حاول حسنى العرابى أن يتصل بنا من جديد فرفضنا.

س: فى الفترة من ١٩٣٠ حتى ١٩٣٨ ألم تشكلوا تنظيما؟

ج: لأ. كان الأمر مجرد عملية إصدار مجلات. وأنا مثلا أصدرت رواية فى عام ١٩٢٩ اسمها "عاصفة فوق مصر" "عن نضال الفلاحين". وفى سنة ١٩٣١، أصدرت كتابا اسمه "التجديد الاجتماعى، أبحاث فى شئون العمال والفلاحين"، وفى ١٩٢٦ ترجمت لتولستوى قصة "النور يضىء فى الظلام". وفى سنة ١٩٣٣ أصدرت كتاب «مبادئ الاشتراكية». وترجمت كتاب "حركة العمال والاشتراكية الديمقراطية" عن اللغة الألمانية وهو بقلم باول كمفماير.

وهذه الكتب كانت ذات تأثير لدرجة أنهم قبضوا على خلية شيوعية فى المنصورة اتضح أنها تقوم أساسا على دراسة هذه الكتب.

والحقيقة أنه فى فترة الحرب العالمية الثانية الإنجليز تهاونوا فى العمل ضد الشيوعية، وبالتالى سكتت الحكومة المصرية عنا.. فأنا مثلا أصدرت عدة كتب منها "لماذا تعنى الرأسمالية الحرب؟" وكتاب "الاتحاد السوفيتى" ونشطت مجموعة سلامة موسى وظهرت معه جماعة تحيط به مثل رمسيس يونان ومصطفى كامل منيب، لكن الحركات الجديدة كانت فى الأساس من أناس جدد.

س: مجد الدين حفنى ناصف ما هى علاقته بالاشتراكية؟

ج: لا علاقة له.. لكن هو اشتراكى وزار الاتحاد السوفيتى وقابل تشيشيرين لكنه لم يعلن اشتراكيته لأسباب شخصية، ولأنه لا يريد أن يدخل معركة..

س: لكن لماذا اتهمه الوفد باليسارية؟

ج: كنا أنا وهو «حزب وطنى»، وكنا نهاجم تهادن الوفد.. ومجد الدين كان سكرتير جمعية الطلبة فى باريس. لكنه كان ضد الوفد لأنه من الحزب الوطنى. وأنا مثلا حضرت مؤتمر الطلبة المصريين الذين يدرسون فى أوروبا.. وكان ذلك عام ١٩٢١ وفى الاجتماع هاجمت سعد زغلول وقلت له نحن نسحب منك الثقة فقال: أنا وكيل الأمة ولست وكيل جمعية طلبة.

س: اتهمت فى العشرينيات بأنك على علاقة بعناصر إرهابية وبأنك وضعت فى سترتك شارة عليها صورة الوردانى (الذى اغتال بطرس غالى باشا) فهل كنت تؤيد الاغتيالات السياسية؟

ج: هذا صحيح، وأنا كنت أعتقد أنه فى ظل التخلف السياسى وضعف النشاط الحزبى فإن الاغتيالات يمكن أن تلعب دورا ثوريا فى تحريك الجماهير..

محضر نقاش رقم (٢)
مع الأستاذ عصام الدين حفنى ناصف
يوم ٢/ ١٠/ ١٩٦٨

س: عندما كنتم فى ألمانيا هل كانت لكم علاقة مباشرة بالحزب الشيوعى الألمانى؟

ج: كنا نتعلم منهم، وكنا نتابع أعمالهم، لكن لم تكن هناك علاقة مباشرة بالحزب والحقيقية أننى لم أدرك أهمية النضال العملى من أجل الاشتراكية إلا بعد عودتى من ألمانيا.

لكن الذى لا شك فيه أننا تأثرنا كثيرا بهذا الحزب وأفكاره.

وأيضا أود أن أذكر أنه كانت فى القاهرة مكتبة فى شارع عدلى اسمها المكتبة الألمانية كان يعمل فيها شخص شيوعى وكان يمدنا ببعض الكتب الاشتراكية مجانا.

س: لماذا اختلفت مع الدكتور القاضى؟

ج: لأسباب كثيرة منها أننى لم أكن أثق فى الطبقة العاملة المصرية وكنت أطلب الاتجاه إلى المثقفين.

ومع ذلك فقد قررت يوما ما الاتصال بالحركة النقابية واتصلت بعباس حليم وأعلنت أننا يجب أن نسعى لتكوين حزب للعمال.. ولكن فشلت العملية.. وأود أن أذكر أننى تناقشت مع عباس حليم كثيرا، وبالرغم من أنه كان يكره الملك إلا أنه كان ضد الاشتراكية.. وكان يدافع عن العمال فى حدود، وكثيرا ما قال لى.. لا تنس أننى نبيل.

ثم قال عصام ناصف: لدى تعليق أود أن أقوله على الحركة الاشتراكية عموما..

كانت الحركة الاشتراكية فى مرحلتها الأولى التى تولى زعامتها حسنى العرابى تهدف إلى الإثارة وإحداث ضجيج عال حتى يصل صداه إلى موسكو تأييدا للحركة العمالية التى توجه من هناك..

ولهذا فقد جانبها التوفيق وأعوزتها الفطنة عندما اصطدمت بقيادة الحركة الوطنية

الاستقلالية المشهورة باسم ثورة ١٩١٩ والتى كان يضطرم بها الشعب كله.. فكانت عقبى ذلك أن حملت الصحف جميعا على الشيوعية وجعل الناس ينظرون إليها على أنها موحى بها من أحزاب الأقليات السياسية المعادية للوفد، وظلت هذه النظرة قائمة لفترة طويلة فعانت الحركة الشيوعية من جرائها، وكان رعاتها يلاقون الاضطهاد من الجانب الحكومى والشعبى على السواء. ولم يطلع زعماء تلك المرحلة على الشعب بأى كتاب لشرح المذهب الاشتراكى، ومما أقعدهم عن ذلك أن أكثرهم كانوا ذوى ثقافة ضحلة وعلى العكس من ذلك - امتازت المرحلة التالية (مرحلتنا) بظهور كتب ومجلات وشعارات ودراسات اشتراكية وكان من الممكن أن يتضاعف عددها لو أنه كان هنالك حزب منظم يباشر الأمر بطريقة جماعية. ويجب ألا ننسى أن إخراج تلك الكتب كان أمرا بالغ الصعوبة للافتقار إلى المراجع وهو النقص الذى سدته فيما بعد مكتبة الميدان (هنرى كورييل) ولأن الوعى الطبقى كان مفتقدا فكان المؤلف أو المترجم يقبل على العمل والشك يداخله هل تسمح به السلطات أم لا؟ وهل سيباع هذا الكتاب أم لا.. ومن المؤكد أنه لن يربح منه مطلقا.

جورج حنين

«إن هدفنا ليس تغيير الرغبة، بل تغيير المجتمع وتكييفه وفق رغباتنا، ولا يمكن للفن أن يكون عاطفيا فقط، فهو ضد النظام القائم، وضد الطبقة الحاكمة وضد الخنوع، وضد الركوع البوذى، فالفن ليس سوى مخزن للذخيرة»

جورج حنين

نحن الآن مع أرستقراطى ابن أرستقراطى وزوج أرستقراطية، أبوه صادق باشا حنين، كان سفيرا لفترة طويلة، ثم أصبح مديرا عاما لشركة المياه، وجورج كان هو أيضا مديرا فى شركة المياه، ثم مديرا فى شركة جاناكليس للسجائر، وفى مساء شتوى من أمسيات ديسمبر ١٩٣٩ دخل جورج إلى مكتبة «هاشيت» التى كانت ملتقى النخبة الأرستقراطية المثقفة التى تتكلم اللغة الفرنسية كنوع من التمايز المترفع على المصريين ولغتهم، وهناك التقى بفتاة غاية فى الجمال إنها بولا العلايلى حفيدة الشاعر أحمد شوقى وابنة حامد بك العلايلى، تعارفا بالفرنسية وتحابا رغم اختلاف الدين وظلا طوال حياتهما معا رغم رفض الأسرتين.

وفى أولى جلساتهما الغرامية قرأ عليها بعضا من أشعاره باللغة الفرنسية وكتاباته فى مجلة تصدر بالفرنسية عن جماعة «المحاولين» وهى مجلة Lagerpe وكانت مجلة مشاغبة تقول فى صدر صفحتها الأولى «نحن المجلة الوحيدة النزيهة فى مصر ونحن مركز الفكر الحر» وفى هذه الجلسة قرأ جورج على بولا مقالا نشرته هذه الجريدة له بعنوان «قاموس لاستخدام العالم البرجوازى» وفيه..

* فوضى = انتصار الروح على اليقين
* جمال = سلطة تنفيذية
* شرعية = لجام للشعوب

* امرأة شريفة = احتكار جنسى

* عمل = كل شيء لا ترغب فى فعله

الشاب الأرستقراطى الذى لم يذهب للمدرسة حتى لا يختلط بالفقراء كان له مرب خاص فرنسى الجنسية ليعلمه اللغة الفرنسية والحساب، لكن المربى كان يساريا فمنح تلميذه جرعات من اليسار، وفى عام ١٩٢٦ دخل الفتى مدرسة ثانوية فرنسية بالقاهرة وحصل على البكالوريا ثم سافر إلى فرنسا ليلتحق بالسوربون ويحصل على ثلاث شهادات دفعة واحدة، ليسانس فى القانون وأخرى فى الأدب وثالثة فى التاريخ، وذلك فى ١٩٣٩، وطوال فترة دراسته كان جورج يتردد على مصر ويعمل مع جماعة يسارية هى «المحاولين» ومنذ عام ١٩٣٥ بدأ فى الكتابة بالفرنسية مكرسا نفسه كواحد من مفكرى السيريالية وأصدر كتابا مع يسارى آخر من المحاولين عنوانه «التذكير بالقذارة»، وكان يراسل مجلة باريسية ذات توجه تروتسكى اسمها «المتواضعين» وكتب فيها مقالا بعنوان «غناء دعاة العنف» طالب فيه البروليتاريا بالثورة الفورية، وباختصار كان ثوريا يعيش فى مصر مغتربا، مغتربا عن الشعب وعن اللغة. ويصدر جورج أول دواوينه باللغة الفرنسية بعنوان «لا معقولية الوجود»، ورويدا رويدا بدأ جورج فى الالتقاء مع مثقفى النخبة المصرية الفرانكفونية. وعندما شن هتلر حملته ضد بعض اللوحات التشكيلية وأحرقها قائلا إنها فن منحط، أصدر جورج هو وأربعون مثقفا من الأجانب والمتمصرين والمصريين بيانا باللغة الفرنسية بعنوان «يحيا الفن المنحط»، وفى عام ١٩٣٩ أسس مع عدد من الفنانين والمثقفين المصريين جماعة «الفن والحرية» اتخذت لنفسها مقرا فى شارع المدابغ لكنه كن ينتمى أيضا إلى بيت فى مبنى عتيق فى درب اللبانة بالحلمية الجديدة اسمه «بيت الفن» حيث وجدت جماعة «الحرافيش»، وفى ديسمبر ١٩٣٩ اشترك مع راؤول كورييل وريمون أجيون فى إصدار مجلة بالفرنسية اسمها «دون كيشوت» وكان شعارها «الفن معمل بارود، ويجب أن تكفل الحكومة لكل فرد نصيبه من الخبز والشعر معا»، وتقول: «نحن نناضل ضد الفوارق الطبقية والمغالطة التاريخية، والتساهل والممارسة التى يمارسها الناس بحرية، وضد كل التلفيقات وكل التوريات»، ثم يسهم جورج فى إصدار مجلة «التطور» و«المجلة الجديدة» وكلتاهما صدرت باللغة العربية.

إنها نقلة نوعية لهذا الفرانكفونى المترفع. كما أسهم فى إنشاء دار لنشر الكتب العربية

هى «دار القرن العشرين». وباختصار حاول الأرستقراطى الفرانكفونى أن يلتحق بركب الشعب لكنه يحبط عندما يجد الناس معرضة عن مجلة «التطور»، وعندما يقول له أحد السياسيين إنها تسبق الجمهور بعشرين عاما. لكنه لا يشعر باليأس فهو يكتب: «اليأس يجعل المدن تعود. وهو السحابة التى ستنضج تحتها العوالم المجهولة للخلاص». ويقرر جورج مزيدا من الانغماس مع الجماهير فيرشح فتحى الرملى فى الانتخابات فى دائرة السيدة زينب، وهناك احتشد خلف الرملى مثقفو النخبة ألبسوه «أوفرولا» حتى يبدو كالعمال وهتفوا فى مسيراته المحدودة العدد «الأرض للفلاحين - المصانع للعمال - الخبز والحرية للجميع» وينشدون..

قوموا عبيد الأرض قوموا

قوموا يا محرومين م الخير

سخطكم بقى رعد ياللا قوموا

ده الانتفاض الأخير

لكن الناس كانت تتهكم عليهم ويحصل مرشحهم على ٣٢ صوتا.

وهنا يصبح اليأس قاتلا وليس سبيلا للخلاص، ويعيش جورج وبولا كل ما تلا ذلك من أيام فى باريس، ومع ذلك ألح فى وصيته على أن يدفن فى مصر.

أنور كامل

«نحن نحارب الرجعية ونثور على القديم، ندافع عن حقوق الأفراد، وننادى بحق المرأة فى الحرية والحياة، المرأة التى تخدم الرجل، والرجل الذى يخدم الرئيس كلاهما من طبقة واحدة، طبقة العبيد».

أنور كامل

وأنور كامل شخصية متفردة فى تاريخ اليسار المصرى، مثقف، موسوعى، متعدد المواهب، معتزل، منعزل، يفكر بالفرنسية ثم يكتب بالعربية كلاما فوق طاقة الفهم العام فى السياسة، هو تروتسكى المنطلق، وفى الكتابة يعرف كيف يمسك بخيط الكلمات ليصنع منه طلقة رصاص، بدأ أنور كامل مسيرته نحو الفكر الليبرالى المتجه يسارا فى بداية الثلاثينيات، ولأن ثقافته فرنسية خالصة فقد خاض معاركه ضد الاحتلال والقهر والرجعية والموج الفاشى المتصاعد وسط الجماعات الأجنبية المتمصرة والنخب الثقافية المصرية المتأجنبة. ووسط جماعة المحاولين «Essayists» بدأ أنور كامل معركته من أجل التنوير ومن أجل الديمقراطية ليكتب كلاما لم يألفه الناس مثل: «إن من حق المواطن أن يعيش حراً ٢٤ ساعة كل يوم»، لكن هذه العلاقة لم تشف غليله فإذا به يصدر فى عام ١٩٣٦ كتابا متفجرا مثله أسماه «الكتاب المنبوذ» قال فيه كل ما أراد، قاله مكشوفا صارخا سواء فى العلاقة بالمجتمع أو الاحتلال أو الجنس، وأكد فى كتابه أنه شخصيا «لا يؤمن بالأحادية فى الحب فقلبه ينفتح لكل جمال يراه»، ويشهق المجتمع هلعا أو دهشة من هذه الكتابة ويصدر مجلس الوزراء قرارا بمصادرة الكتاب مبرراً ذلك بأنه «يدعو إلى الإباحية والتجرد من الأديان والتخلى عن الفضيلة فى سبيل الشهوات الجنسية»، لكن هذا الكتاب فتح أمامه - رغم مصادرته - آفاقا جديدة؛ فقد تعرف عبره بكامل التلمسانى وعرفه التلمسانى بجورج حنين ومعا بدأوا فى تأسيس «جماعة الفن والحرية» التى خاضت

معارك من أجل الحرية وورفض التخلف ومواجهة الفاشية، لكنها كانت بالأساس جماعة فنية تمثل تيارا جديدا هو «السيريالية» وعندما دمر هتلر عددا من روائع الفن التشكيلى قائلا إنها «فن منحط» أصدرت الجماعة بيانا باللغة الفرنسية عنوانه «يحيا الفز المنحط» جاء فيه «نحن نرى أن الأحكام المسبقة فى المجال الدينى أو العنصرى أو الوطنى، التى يدعى بعض الذين أطاحت نشوة القوة بصوابهم ومحاولة إخضاع مصير العمل الفنى لها، عبثا جديرا بالاحتقار الكامل». كان البيان من صفحة واحدة وفى ظهرها صورة للوحة جرنيكا لبيكاسو، لكن عبارة وردت فى البيان تقول: «نحن نرفض أن نرى فى هذه الأساطير الرجعية شيئا بخلاف معسكرات لتعذيب الفكر» ألهمت الكثيرين للتوقيع، ووقع البيان ٣٣ مثقفا كانوا جميعا من المصريين وكان هذا هو الانتصار الحقيقى لجماعة الفن والحرية. إنهم يتمصرون وكأنهم يتوضأون، لكن الفكر الفرنسى والمعرفة الفرنسية واللغة الفرنسية تلاحقهم دوما. وفى عام ١٩٤١ يصدر أنور كامل كتابا بعنوان «مشاكل العمال فى مصر» ليحقق انطلاقة جديدة نحو التمصير وقبلها كانت جماعة «الفن والحرية» التى أعادت تسمية نفسها بـ«الخبز والحرية» قد أصدرت شهابا جديدا لمع فى سماء الفكر الليبرالى والتقدمى هو مجلة «التطور».. وتأتى «التطور» لتقدم لمصر فكرا جديدا وتوجها جديدا ولغة جديدة فى طرح هذه الأفكار. وليس هذا غريبا، فقد كان أنور كامل هو رئيس التحرير الذى صاغ مفردات شديدة الحماس وشديدة التفجر، ونقرأ: «نحن نرفض هذه السجون التى تضعها على عقولنا فئة ضئيلة جاءتها القوة عفوا هى رجال الدين»، ثم يقول: «إن لرجال الدين فى التاريخ صفحة سوداء».

ويقول: «نحن نؤمن بالتطور الدائم والتغيير المستمر.. نحن نقاوم الأساطير والخرافات ونكافح القيم المتوارثة التى وضعت لاستغلال قوى الفرد فى حياته المادية».

وباختصار كان أنور كامل يتجه سريعا نحو اليسار ويجر معه مجلة «التطور»، الأمر الذى أغضب جورج حنين، ذلك الحالم الأرستقراطى الذى يعتمد الفن أداة للصراع، فسحب جورج حنين الضمان المالى الذى قدمه كى تصدر «التطور» فتوقفت.

لكن أنور كامل يواصل. وفى عام ١٩٤٥ يصدر كتيبا بعنوان «لا طبقات» ونقرأ على غلاف هذا الكتيب: «لن تحل بنا الهزيمة ما دمنا لم نرفع أيدينا بعلامة التسليم، قد نطوق بالأغلال وقد يوضع الحديد فى أقدامنا لكننا هنا وسنبقى هنا وسنبقى على عهدنا فى

تمثيل آمال الشعب والتعبير عن إرادة الجماهير، الجماهير الكادحة».

وقبلها كان قد أصدر كتابا آخر عن «الصهيونية» أدانها فيه كفكرة ونظرية عنصرية لا تخدم سوى مصالح أغنياء اليهود، وطالب فقراء اليهود بالتمرد عليها وأكد على عروبة فلسطين.

ويكون عام ١٩٤٦ نقطة تحول خطيرة فى حياة أنور كامل، فقد قبض عليه فى «قضية الشيوعية الكبرى» وذلك رغم أنه كان قد أصدر كتابا بعنوان «أفيون الشعوب» هاجم فيه الاتحاد السوفيتى وستالين، ولولا بعض انتقادات وردت فى الكتاب للفكرة الماركسية لتصور البعض أنها مجرد انتقادات تروتسكية المذاق، وقد استخدم أنور كامل كتابه هذا فى الدفاع عن نفسه فى تحقيقات النيابة، وبعدها خفت صوت أنور كامل.

وعندما جاءت ثورة يوليو علق عليها آمالا كبارا ووجه إلى محمد نجيب رسالة مطولة مؤرخة فى ١٢ أكتوبر ١٩٥٢ مؤكدا فيها أن حركة يوليو «لم تكن منذ اشتعلت سوى انعكاس لما كبت فى صدر هذه الأمة فى عهود الضغط والإرهاب». ونتذكر فقط أن تاريخ الرسالة كان تاليا بأيام قليلة لإعدام خميس والبقرى.

ويبرر أنور كامل موقفه هذا بسبب من الضغط الأمنى والمطاردة فى الرزق. وفى حوار أجريته معه (فبراير ١٩٨٨) يعترف «بسبب المطاردة والتجويع توقفت. ولم أكن أستطيع إلا التوقف فى حدود قدراتى الاجتماعية والاقتصادية والنفسية». لكن أنور كامل يؤكد: «لم أكن ميتا ولا أحب أن أعيش ميتا»، ولهذا ظل يكتب أوراقا سماها «الفسائل» يطبع من كل منها عدة نسخ يوزعها على أصدقائه، منها مثلا «أمشاط ماس مكسورة»، وعندما زار أنور كامل باريس عام ١٩٦٧ سأله جورج حنين: «ماذا يفعل الثائر الاشتراكى فى بلد غير اشتراكى؟» فأجاب: «يتحول إلى ليبرالى غير ليبرالى». وهكذا كان أنور كامل.

رمسيس يونان

«إن ظلا ثقيلاً يضغط على رقاب المستقبل حتى لا يبقى لنا إلا اليأس. لكن يظل لنا أن نغذى ميزان تحررنا من هذا اليأس فنحن لسنا إلا مجانين لم تعلمنا التجارب أننا لا نتغذى إلا من هذياننا، وهذا اليأس لا يحرمنا من الوضوح».
رمسيس يونان

نحن الآن إزاء فنان لم يتكرر ولا يتكرر. فنان يرسم بفرشاته السيريالية ألوانا حالمة وأطيافاً غاية فى الرقة والشفافية، وإذ يدع الفرشاة ويمسك بالقلم فإن الكلمات تتبدى حادة كسكين، صادمة كرصاصات تخرج من مدفع رشاش.

تعالوا نقرأ بعضا مما كتب: «إننا ننعت بالمتواطئين وبالتالى بالمجرمين كل أولئك الذين لا يدفعهم الوجه الحالى للعالم إلى أشرس التمردات ونضع على رأس هؤلاء المجرمين جميع الآباء البلهاء روحيين كانوا أم لا، وجميع القادة سياسين كانوا أم لا، الذين لا يعملون بطاقاتهم وبثقلهم إلا على تدعيم وتقوية المواقع الرئيسية للنظام الأبوى القائم، حتى وهم يتشيعون لمواقف توصف بالثورية». ونمضى مع الكلمات إذ تزداد التهاباً: «فالآباء القادة هم عموماً مشبوهون فى حد ذاتهم، وذلك لطبيعة وظائفهم ذاتها، والخطوة الأولى التى يجدر القيام بها لمواجهة السلطات وريثة الحالة المشئومة للعالم الراهن إنما تتمثل فى العصيان المدنى على كل الجبهات. يا شباب جميع العالم افضحوا آبائكم وابصقوا على وجه الطغاة».

ويردد رمسيس يونان أفكاراً غريبة بحيث تبدو انعكاساً لسيرياليته فى الفن فيكتِب فى المجلة الجديدة: «إن الذين خارج الطبقات هم وحدهم الحائزون لحق النطق باسم المستقبل. وهم وحدهم القادرون على أن يصبحوا ثوريين. وإن حالات ماركس وإنجلز ورامبو وساد ولينين وتروتسكى جديرة بالبرهنة على هذا الشىء. وهكذا فإننا نستبدل الفكرة الاقتصادية

القائلة بصراع الطبقات بالتصور الهذيانى لصراع محموم بين الذين خارج الطبقات. وعلى هذا فإن على أبناء العامل، مثلما على أبناء البرجوازى، أن يتعلموا وأن يمقتوا بعمق جميع الممارسات التى يمكن أن تقربهم من ممارسات آبائهم. هذه خطوة جنونية بالطبع، غير أن الحرية لا يمكن امتلاكها إلا بهذا الثمن. إذ ليس من الممكن خدمة المجتمع والعمل على قلبه فى ذات الوقت». ويمضى قائلاً فى جنون: «لنكن غير نافعين بشكل كلى، لننبذ القادة والآباء والمهن. لندعم صفوف الذين خارج الطبقات ولنعلن جنوننا حتى يشمل جميع نوابض هذا المجتمع الإجرامى». وكان رمسيس يونان هو أول من وشم شعار «الفن للحياة» فى الحياة الفنية المصرية. ونقرأ: «منذ نصف قرن والآداب العالمية جميعاً تتجه نحو الأدب فى سبيل الحياة والأدب المغذى للعواطف المتمردة على الأطواق والقيود، الشعر المولد للدماء الحمراء فى السواعد الفتية التى يجب أن تتعاون على بناء عالم أسعد وأفسح آفاقاً».

لكننا يجب أن نلاحظ فى جميع الأحوال أن رمسيس يونان كان بالأساس رساماً وليس كاتباً، فماذا عن الرسام السيريالى الذى تمرد على السيريالية وأصبح تجريدياً؟. يقول صبحى الشارونى عن المرحلة الأولى فى فن رمسيس: «كانت لوحات رمسيس يونان مرسومة من خلال ألوان بنية داكنة تمثل أشكالا غريبة تصدم المتفرج، وتدور حول الجوع والجنس، فمثلاً تجده فى إحدى لوحاته يرسم طبقاً عليه ثدى امرأة، وفى لوحة أخرى نرى شجرة تثمر عيوناً ونهوداً وأفخاذاً». (المجلة الجديدة – فبراير ١٩٦٧– مقال الثقافة والتمرد ورمسيس يونان).

أما محمد شفيق فيقول: «نشاهد مظاهر فن تصويرى مشحون بدراما فاجعة يختلط فيه الحلم بالواقع. وجوه عرقى تندلع فيه إنسانية مرعبة تنادى فى يأس بحثاً عن من ينقذها، وأيد تلتف حول الأجساد تعتصر رحيقها كالأفاعى المفترسة، ونساء عاريات فى أجسادهن قسوة، ونحيب حيوانى، وأشجار تنبت فى صحراء قاحلة ذات نهود وقبضات معروقة تمتصها الرمال». (مجلة الفنون – عدد ٢٢ – ربيع ١٩٧١ – مقال بعنوان: رمسيس يونان وجيل التمرد). أما صديقه الحميم والدائم جورج حنين فيعلق على أحد معارضه قائلاً: «يرسم رمسيس يونان أعصاباً لدرجة الحاجة إلى القطع بل لدرجة استدعاء القطع. رسومه لا تعرف الراحة ولا التوقف ولا التراخى، إنه سيريالى مثل تلك

البيوت التى صدعها غضب داخلى أو خربها تمرد الأرض. وعندما تصل شخصياته إلى درجة التقلص الذى لا يمكن أن يستمر وقتا أطول فإنه لا يتردد عن بترها».

والحقيقة أن السيريالية قد بدأت تهيمن على رمسيس يونان منذ كان طالباً فى الفنون الجميلة ثم اكتسبت عمقها الفلسفى مع توطد علاقته بجورج حنين وفنانى بيت الفن وجماعة «الفن والحرية».

* * *

«كانت مأساة رمسيس يونان أنه أحس بأنه ليس مفهوماً من اليمين ولا من اليسار»

لويس عوض

لكن من هو؟

الأسرة بروتستانتية من مدينة المنيا، شديدة الفقر، شديدة التدين، ولعل هذا هو سر تمرده على الأسرة وعلى الدين معاً. مات والده وهو فى الخامسة عشرة وتحمل هو عبء إعاشة الأسرة «الأم وثلاثة إخوة» فقد كان الأكبر بينهم، كان يعمل ويدرس، ومضت به رحلته الدراسية إلى مدرسة السعيدية حيث التقى بمدرس رسم فنان حقيقى وأستاذ لجيل كامل من الفنانين هو الأستاذ يوسف العفيفى، وفى عام ١٩٢٩ التحق بمدرسة الفنون الجميلة. لكن الفقر يرغمه على ترك الدراسة ليعمل مدرساً للرسم فى مدارس بطنطا والزقازيق وبورسعيد، وفى عام ١٩٣٥ انضم إلى جماعة «الرعاية الفنية» ليبرز فى صفوفها كواحد من أعمق النقاد التشكيليين. وفى عام ١٩٣٩ شارك برسومه السيريالية المذهلة فى معرض جماعى. وقبلها بعام فجر رمسيس يونان قنبلة فنية مدوية بإصداره كتاب «غاية الرسام العصرى»، ويقول رمسيس فى هذا الكتاب: «إن الفن الذى نحيطه بهالة مقدسة لا بد وأن يكون قادراً على القيام بدور هام فى هذه الدراما الباطنة. أعنى أن يكون قادراً كالأديان على إيجاد الحلول لبعض منازعاتنا النفسية وبذلك يساعدنا على الوصول إلى حالة من السلم والهدوء النفسى». وينخرط رمسيس بحماس فى جماعة «الفن والحرية» ويسهم بحماس أيضاً فى مجلة «التطور» مع أصدقائه الدائمين: جورج حنين – أنور كامل – عبدالحميد الحديدى. ليفجر على صفحاتها شعاراً مدوياً «الفن معمل بارود».

وفى عام ١٩٤٢ أصدر «المجلة الجديدة» بتمويل من جورج حنين بعد أن تنازل صاحبها سلامة موسى عن امتيازها لهذا الشاب المتفجر حماسا، وأعلنت المجلة أن شعارها

«الكفاح والتجديد الاجتماعى» وقد وزعت المجلة على مشتركيها هدايا من كتب رائعة منها: «فونتامارا» لايجنازيو سولونى (وهى رواية رائعة ضد الفاشية)، و«انهيار فرنسا» لإيليا اهرنبورج، و«برابرة سائبون» لمولوتوف، تحدث فيه عن جرائم النازية فى الأراضى السوفيتية المحتلة.

وكالعادة توقفت «المجلة الجديدة» لأسباب مالية وفى عام ١٩٤٦ ترجم رمسيس مسرحية ألبير كامى «كاليجولا» وكتب لها مقدمة ناقش فيها فكرة الانتحار من منظوره المتمرد شبه الفوضوى متسائلاً فيها: «إذا لم يجد الإنسان مغزى للحياة فهل ينبغى أن يحمله ذلك على الانتحار؟».

وفى يوليو ١٩٤٦ يقبض عليه فى الحملة الشاملة على كل رموز اليسار التى شنها إسماعيل صدقى. وفى سبتمبر من ذات العام، أى بعد أقل من شهرين، يفرج عنه بكفالة كبيرة يسددها صديقه جورج حنين.

وفى ١٥ فبراير ١٩٤٧ صدر فى القاهرة كراس بالفرنسية عنوانه «حصة الرمل» قدمه الناشر قائلاً: «الكراس الحالى المتضمن نصوصاً شعرية ونقدية طبعته فى القاهرة حركة الفن والحرية تحت الإشراف الشخصى لجورج حنين ورمسيس يونان. وتقدم الكراسة نفسها للقارئ قائلة: لن تجد فى الصفحات التالية إشارات تبعية ولا تأكيدات جامدة وهو لا يجيب على أى هدف معين إلا الاشتراك فى تبادل الآراء فى وقت يبدو فيه الإنسان نفسه وكأنه ليس أكثر من شكل من أشكال القرف، إن لدينا اعتقاداً ضعيفا فى إمكان حل المشاكل التى تؤرقنا لكن ذلك يجب أن يحدث فى مناخ حر يجب امتلاك الحرية وجعلها تستعيد ما سرق منا».

وكانت هذه آخر نفحات الثورى المتشدد فبعد سجن دام أقل من شهرين قرر الرحيل من مصر ونتوقف لنتأمل الثلاثة الذين تفجروا بكلمات نارية كطلقات رصاص، وما إن تلامسوا مع السجن بقدر قليل حتى هاجروا من مصر: أنور كامل ورمسيس يونان وسبقهما جورج حنين الذى لم يسجن لأنه أرستقراطى وابن للطبقة الحاكمة. إنها عقلية ونفسية البرجوازى الصغير يتشدد ويبالغ فى تشدده لكنه لا يحتمل ثمار تشدده فيهرب. وفى فرنسا عمل رمسيس رئيساً للقسم العربى فى إذاعة باريس وتزوج بولندية وأنجب ابنتين والتحق هناك بالسوربون، حيث درس الاجتماع والفلسفة (الأهرام -

١٩٦٦/١٢/٣٠ - مقال بعنوان كان رائداً شجاعاً) وينغمس هناك فى نشاطات الأممية السيريالية ثم يخوض ضدها صراعاً حاداً، وفى ١٩٥٦، وفى أعقاب العدوان الثلاثى يرفض أن يكون بوقا لإذاعة المعتدين فيعود إلى مصر بعد أن فصلوه. لكنه يعود بلا عمل ويتوسط له أصدقاء قدامى فيحصل على منحة تفرغ من وزارة الثقافة. لكن خصوم اليسار ظلوا يطاردونه. وفى ١٩٦١ قرر عباس العقاد، وكان مسئولاً عن التفرغ، إلغاء تفرغه هو وتحية حليم وآدم حنين وراتب صديق واضعاً استقالته فى كفة وعودتهم للتفرغ فى كفة، لكن وزير الثقافة يصمم على تفرغهم فيتراجع العقاد. لكن المؤامرات تستمر ويلغى تفرغه كفنان فيدبر له تفرغ كمترجم، لكن هذا الأمر أحزنه حزنا عميقاً، ومع ذلك بدأ فى ترجمة كتاب «تناسخ صور الآلهة» لأندريه مارلو، وترجم منه ٦٨ صفحة ثم رحل. ويكتب توفيق حنا غاضباً مؤكداً أن: «تحويل تفرغه من الفن إلى الترجمة جعله يعيش إرادة الموت». (الكواكب - ١٠/ ١٩٦٧/١- مقال: نعم هذا الفنان قتلناه)، أما لويس عوض فيهاجم لجنة التفرغ قائلاً: «هنيئاً للجنة التفرغ بتيجان العار لا تيجان الغار».

فؤاد كامل

«إن بين الموت والحياة الدائمة معركة هائلة تنتج أكبر تشويه رهيب أواجهه فى صدرى، إن فى أغوار كل شىء روحا تدب فيه.. كل شىء حتى الجماد».
فؤاد كامل

ويعود بنا حديثنا عن فؤاد كامل إلى ذات الحديث القديم عن هؤلاء البرجوازيين الصغار من الكتاب والفنانين الذين استخدموا كلمات حادة مدببة مليئة بالسخط الذى يخيل إليك أنه شجاعة، ومفردات عنيفة لم يسبقهم إليها أحد، ولا تحتملها الأوضاع العامة للجماهير، بل ولا يحتملون هم نتائجها، فما إن يواجهوا ردود فعل السلطة حتى ينسحبوا دون تردد، البعض يهاجر والآخرون يصمتون، وقد بدأ فؤاد كامل رحلته صامتا، ربما كان خائفا، وربما كان مترددا، لكنه نطق.. نطق مرة واحدة ثم صمت حتى النهاية.

وكانت جماعة «الفن والحرية» قد أرادت التحول من منتجع للفن السيريالى إلى حركة ثورية سياسية فرشحت فتحى الرملى الذى كان قد أسس جماعة مصرية خالصة أسماها «نحن أنفسنا» تمايزا عن الثقافة الفرانكفونية ورجالها. رشحته الجماعة فى انتخابات مجلس النواب (١٩٤٤). ويبدو أن المثقفين البرجوازيين الصغار خشوا على أنفسهم من هذه المعركة فاختاروا شخصا آخر، ألبسوه أفرولا ليصبح عاملا وأنفقوا على معركته الانتخابية ونظموا له مؤتمرا انتخابيا فى دائرته الانتخابية «السيدة زينب». ويروى لويس عوض قصة هذا المؤتمر الذى عقد لأول مرشح اشتراكى فى تاريخ مصر الحديث.. «فى هذا الاجتماع وجدت هناك أنور كامل ورمسيس يونان وجورج حنين وبولا العلايلى وعشرات من أقطاب اليسار، تعاقب الخطباء وكان أكثرهم معتدلا فى كلامه حتى وقف فؤاد كامل وألقى كلمة عنيفة ندد فيها بالأخطبوط الرأسمالى، وطالب بتقطيع أرجل الأخطبوط، وقال كلاما كثيرا يعاقب عليه القانون، وتكهرب الجو، ولا أتذكر كيف تدخل

البعض لفض الاجتماع خشية أن يتدهور الموقف، لكن المجتمعين قرروا الخروج فى مظاهرة فى شوارع القاهرة، وهكذا خرجنا نحو العاشرة مساء ولم يكن عددنا يزيد على مائتى شخص، أكثرهم من الكتاب والفنانين، وسرنا ونحن نهتف: «الأرض للفلاحين والمصانع للعمال والحرية للجميع، تحيا وحدة المثقفين والعمال» (ذكريات بعيدة – ص١٢٤)، ويكمل د. مجدى وهبة الحديث: «ووضع البوليس نهاية للحادث فصادر منشوراتنا وضربنا فى مزاح ثقيل»، وإلى هنا تنتهى ثورية فؤاد كامل. مزاح بوليسى ثقيل أفرغ من صدره كل رغبة فى أى فعل سياسى، وتفرغ للفن. والبداية كانت كالعادة مع الرائد يوسف العفيفى مدرس الرسم فى السعيدية الثانوية. ثم حصل على دبلوم المدارس العليا للفنون الجميلة، ثم دبلوم المعهد العالى للتربية الفنية، ويعين مدرسا للرسم فى مدرسة ثانوية، ورغم موهبته الفذة فى فن البورتريه إلا أنه رسم أساسا لوحات سيريالية، وذات يوم سأله ناقد فنى كبير عن تفسير للوحة من الخربشات ذات الألوان المتقاطعة، فرد فؤاد كامل: «لقد حاولت أن أعبر عن مشاعر الكرسى عندما تجلس عليه»، ويعلق الناقد جون باستيا على هذه العبارة قائلا: «نحن واثقون بأن الكرسى لو استطاع أن يعبر عن مشاعره لاحتج على محاولات وتفسيرات فؤاد كامل» (البروجريه إجيبسيان – ١٦/٣/١٩٤١). وعندما أقام معرضه الثانى صرح للصحفيين: «سأكون شاعرا عندما لا أجد ما أشترى به الألوان»، وفى كتالوج المعرض الثانى للفن المستقل يكتب: «للمرأة، كلحن موسيقى أثر فعال فى خلق أجواء صدرى، يوم صاحت فى أعماقى، يا أختى الشجرة ويا أخى الحجر، غمرنى فى الوقت نفسه قانون الوجود الواحد فى كل شىء، وشعرت بالتناسق الغريب الذى يربط ويخضع كل كائن فى نظام دقيق ومعجز، وقد أصبحت لا أقلق عندما لا أفرق كثيرا بين شعر حصان وشعر امرأة، أو بين مقعد وجسم بشر، إن بين الموت والحياة الدائمة معركة هائلة تنتج أكبر تشويه رهيب أواجهه فى صدرى، إن فى أغوار كل شىء روحا تدب فيه حتى الجماد».

أما كامل التلمسانى فيتحدث عن رسوم صديقه وزميله فؤاد كامل قائلا: «لجج من ظلمات، عالم مظلم يبقى يوما بعد يوم، ومتجردا من الشمس وسيظل كذلك حتى نهاية الحياة، لجج من ظلمات، فالرجال مصابون بالعمى لأن عيونهم تظهر كل درجات الرؤية والتلوين ولا تصل إلى الغوص فى أعماق الحب الإنسانى، كل فرد يمتلك عيونا واسعة

أحيانا وضيقة أحيانا، عيونا سوداء بلا إبصار، زرقاء بلا إبصار، خضراء بلا إبصار، إنه إخراج ممتلئ بالعاطفة المشبوبة يعلن بها فؤاد كامل أنه يحب الإنسانية المطلقة، وحده فؤاد كامل قادر على أن يمنحها غذاء، هو الذى اصطدم بهذا العالم، وعانى كل أهوال الألم الذى جعل صمته جسدا من كل عضو صامت فى عائلة الأوجاع» (مقال بالفرنسية مجلة دون كيشوت – ١٨/١/١٩٤٠). وهكذا تنبأ كامل التلمسانى بصمت زميله صمتا مطبقا فى عالم السياسة.

وتثير رسوم فؤاد كامل عاصفة من النقد فتنشر مجلة «الرسالة» «إن الجماعة التى تسمى باسم الفن والحرية لا تفهم الحرية إلا على أنها فوضى لا ضابط لها ولا قانون. كما أن مسايرة الفن الأوروبى فى تخبطاته الأخيرة ليست حرية.بحال من الأحوال بل هى عبودية عمياء». ثم يشير الكاتب فى سخرية إلى بيان جماعة «الفن والحرية» الذى هاجم هجوم هتلر على بعض الرسوم متهما إياها بأنها فن منحط فأصدرت الجماعة بيانا عنوانه «يحيا الفن المنحط» ويقول: «إننى أؤكد بكل قواى أن هذه الرسوم هى بالفعل فن منحط» (الرسالة – العدد ٣١٦ – مقال نصرى عطا الله سوس). ويرد نيابة عن فؤاد أخوه أنور كامل فى رسالة إلى مجلة «الرسالة» قائلا: «والمجتمع المصرى بحالته الراهنة مجتمع مريض مختل، فقد الاتزان لا فى مقاييسه الخلقية فحسب بل فى أوضاعه الاجتماعية والاقتصادية أيضا» (مجلة «الرسالة» – العدد ٣٢١).

.. وهكذا وبعد مغامرة نطق واحدة لجأ الفنان الثورى البرجوازى الصغير إلى صمت مطبق على مدى الحياة، وتفرغ للفن، وإفراغ كل غضبه فيه، فتفوق وشارك فى معرض السيريالية الدولى فى باريس (١٩٤٧)، وفى معرض الفنانين العرب الذى أقيم فى أمريكا (١٩٤٨) وحصل على الجائزة الأولى، وفى عام ١٩٦٠ حصل على منحة تفرغ من وزير الثقافة «د. ثروت عكاشة»، وفى عام ١٩٦٨ حصل على الجائزة الأولى فى بينالى الإسكندرية.. واكتفى بذلك ورحل.

كامل التلمسانى

«السواد والدماء والأشكال الممزقة، والخطوط الحزينة الصارخة هى الصور الوحيدة التى يمليها على الفنان عالم غير متجانس، تعيش فيه إنسانية مشوهة».
كامل التلمسانى

ولد كامل التلمسانى لأسرة شديدة الفقر فى قرية نوى (مركز شبين القناطر)، وبرغم فقرها طمحت إلى تعليمه. وعندم حصل على الابتدائية ارتحلت الأسرة بحثاً عن الرزق إلى القاهرة التى وصفها التلمسانى أكثر من مرة بأنها مدينة متوحشة. وإلى المدرسة السعيدية، وهناك، وكما اعتدنا، تتلقفه أيدى أستاذ أساتذة الفن التشكيلى يوسف العفيفى مدرس الرسم بالمدرسة. وحصل كامل التلمسانى على البكالوريا والتحق بكلية الطب البيطرى، لكن جنون الرسم لاحقه فأهمل الدراسة ورسب ثم رسب وكان رسوبه الأخير اختياراً، فقد توافق موعد الامتحان مع موعد افتتاح معرضه الخاص. لم يذهب إلى الامتحان، وذهب إلى الفن.

وقد أبدع التلمسانى لوحات أكثر من رائعة، وصفها شيخ النقاد التقدميين رمسيس يونان قائلاً: «قد نرى فى صور التلمسانى زرقة السماء، وخضرة الحقول، وحمرة الورود، ولكن السماء والحقول والورود والحمرة والخضرة والزرقة تأتى فى صورة معان غير تلك المعانى التى يراها الخارجون للنزهة مع عيالهم أيام الجمع والآحاد، هذه الوجوه المتعبة المكدودة وهذه الأجسام الممتلئة لوعة، المحاطة بهالة من السواد، وهذه العيون التى لم تزل تلمع بشرر التمرد مع شدة الإعياء، وهذه الشعور الشريدة بين عواصف الحيرة والقلق والثورة. هذا ما تقابلنا به صور التلمسانى، وقد لا تسعدنا المقابلة، لكن المفاجأة تصدمنا فنحس خلال أعصابنا أصداءها تأتى حلقة بعد حلقة حتى تصل إلى قرارة الأحشاء» (المجلة الجديدة – عدد ٤٠٣ – صـ٩). ويقول ناقد آخر هو «آرتين مريل»: «التلمسانى

متطرف فى استخدام عناصر الهدم والتحطيم، ولكن رغبته فى إرضاء أكثر الناس اعتدالاً جعلت الشخصيات التى يرسمها تكتفى بجرعات محدودة من الشجاعة». أما التلمسانى نفسه فقد كتب عديداً من المقالات النقدية اللاذعة والشديدة القسوة على عديد من الأعمال التشكيلية اشتبك فيها بحوار شديد القسوة مع الرسامين. فكتب عن لوحة قائلاً: «لماذا تنتحرين أيتها الكآبة التى نسجت كل قطرة دم منك ظلا؟ أيتها المخلوقة الحزينة التى عجنت لك قطرة دم منك ظلاً». ثم يتحدث عن لوحة أخرى ويخاطب المشاهد: «انزع اللوحة، حطم الإطار وألقه بعيداً من النافذة حتى تستطيع أن تعيش مع هذه الكائنات العزيزة التى خطفها الغيورون الذين لا يفهمون الحياة والإنسان».

لكن ثمة شيئاً يوجع قلب التلمسانى ووجدانه فأقاربه فى «نوى» وجيرانه فى القاهرة لا يفهمون ما يكتب ولا ما يرسم وربما كانوا يتهكمون عليه وعلى رسومه ومقالاته. ويتحدث جورج حنين عن أحزان التلمسانى قائلاً: «إنه يطمح أن يكون محبوباً ومفهوماً» ولهذا تمرد التلمسانى على الفن التشكيلى والمقالات غير المفهومة، فإن كان يردد مع زملائه مقولة «الفن للحياة» و«الفن فى خدمة المجتمع» فلماذا نرسم رسماً سيرياليا لا يفهمه الناس ونكتب ألغازاً يتهكمون عليها؟ وأجرى التلمسانى نقاشاً مع زملائه جورج حنين ورمسيس يونان وأنور كامل وفؤاد كامل وغيرهم، وكانوا تروتسكيين، وسأل: لماذا لا نرسم ونكتب ما يفهمه الناس؟ فاتهموه بأنه ستالينى يريد أن يطوع الفن لخدمة السياسة. فترك لهم الفن غير المفهوم والكتابة المليئة بالألغاز وارتحل كلية إلى فن يفهمه الناس ويحبونه، ذهب إلى السينما التى وصفها بأنها «سحر القرن العشرين» فى كتابه الجميل «عزيزى شارلى».

وفى عام ١٩٤٤ عمل مساعد مخرج فى استوديو مصر، وفى عام ١٩٤٦ أخرج واحداً من أجمل أفلام هذه المرحلة وأكثرها ارتباطاً بالجماهير ومشاكلها هو فيلم «السوق السوداء»، لكن الفيلم لم ينجح جماهيرياً، فقد تكاتف ضده تجار السوق السوداء فى السينما وحذرت بعض الصحف من هذا النوع «الثورى» من الأفلام، واضطر التلمسانى إلى التراجع قليلاً فأخرج أفلاماً عادية مثل «أنا وحبيبى» و «كيد النساء» و «البوسطجى» و«الناس اللى تحت».

وفى هذه الأثناء كان يكتب، لكن كتاباته تركزت أساساً فى فن السينما فأصدر كتابين «عزيزى شارلى» و «سفير أمريكا بالألوان الطبيعية».

إنه الطائر المهاجر دوماً بحثاً عن الشعب والحقيقة. هرب من كلية الطب البيطرى إلى الرسم ومن الرسم إلى الكتابة ومن الكتابة ومن الرسم معا إلى السينما فكتب قائلاً: «إن الرسم لا يصل إلا إلى البرجوازية وحدها فهى التى تشاهد الأعمال التشكيلية، والسينما الآن هى أفضل وسيلة للوصول إلى الجماهير».

ولم يتوقف التلمسانى عن الكتابة، وحتى الكتابة السياسية الساخطة على الأوضاع القائمة، لكنه كان يوقع فى أغلب الأحيان باسم مستعار، ونقرأ له: «فى هذه الأيام العصيبة والمتلئة ظلمة يعيش الفنانون فى هذه البلاد فى أبراج أرستقراطية عالية، وفى عزلة غريبة بعيدة كل البعد عن جوهر المجتمع وبينهم وبين إخوانهم فى الإنسانية حائط صد». قال ذلك فأغضب رفاقه القدامى فى جماعة «الفن والحرية»، ثم هو يغضب القائلين بالفن للفن فيقول: «خلف هذا الانحطاط الثقافى تكمن مأساة الفن للفن التى يعيشها فنانونا بين النسخ والنقل عن تلك القناطير من الزبالة والبقالة الفنية المتوارثة والتى تخزنها الحكومات فوق جدران مدارسها الكلاسيكية».

ويكتب عن الفنون الأخرى قائلاً: «إن السينما والمسرح والغناء والموسيقى المصرية عبارة عن تجارة يقوم بها بضعة بقالين لسرقة الشعب المسكين الذى هو أكثر الطبقات مشاهدة للأفلام. إن شخصاً مثل عبد الوهاب ينقل كل موسيقاه بجرأة غريبة عن الموسيقى الغربية، وهو ينقل حرفياً أتعس ما أوجدته هذه الموسيقى، فإن كان لا بد أن ينقل فلماذا لا ينقل عن كورساكوف أو رحمانينوف؟ ثم هو يهاجم موقف الأزهر من اختلاط الجنسين ويقول: «إن ذلك يؤدى إلى أمراض نفسية تتحول إلى تجارة فى أفلام هابطة تستثير غرائز الشباب» (المجلة الجديدة – ١٧/٦/١٩٤٢).

ويبقى أن نختتم بعبارة للتلمسانى «على الدولة أن تحقق لكل فرد نصيبه من الشعر والفن ونصيبه من الخبز فى آن واحد».

لطف الله سليمان

«أريد أن أدفن فى مصر، وأرجو أن تنثروا رمادى بين أمواج النيل عند مدينة المنصورة».

لطف الله سليمان

بحثت عنه طويلا.. وعندما عثرت عليه وأجريت حوارا معه كان على عتبات الرحيل، قابلته فى مطعم باريسى أنيق بدعوة من الصديق المشترك يوسف حزان، وتركز الحوار أساسا على ترجمته الفرنسية لكتاب أسهمت فيه «ضد التطرف المتأسلم»، لكننى لم أفلت الفرصة واعتصرت منه كل ما أريد.

قال لطف الله: «أنا من أسرة عريقة جدا لكنها فقيرة جدا، أصلها سورى لبنانى، كنا نقيم فى المنصورة فى حى الحسينية. تعلمت فى مدرسة الفرير وكانت طائفة الروم الكاثوليك تدفع لى مصروفات الدراسة، تعرفت وأنا طفل بسيدة يهودية، زوجها، برغم يهوديته، كان من أبطال الثورة العرابية، احتضنتنى، علمتنى، شرحت لى أسرار الحياة، قدمت لى كنوزا من المعرفة وأنا لم أزل طفلا فى التاسعة، كانت المنصورة تموج بمظاهرات صاخبة وانغمست فيها، وفى الثانية عشرة من عمرى كنت أواظب على القراءة فى مكتبة المنصورة، وفى سنة ١٩٣٦ عملت فى مكتبة بريطانية ورأيت هناك التفريق بين المصرى والأجنبى، وفى ١٩٣٩ زرت النادى الديمقراطى الذى أسسه هنرى كورييل، ومن المنصة هاجمت اتفاق ستالين – هتلر، فهاجمنى الحاضرون وأنزلونى بالقوة من فوق المنصة وأنقذنى من أيديهم جورج حنين وأصدقاؤه، وكانوا يميلون نحو التروتسكية، ومنذ ذلك الحين التصق بى وصف التروتسكية، لكنهم كانوا يعيشون فى عالم مخملى رقيق، وشعرت معهم أننى زنجى يعيش فى عالم من الأرستقراطية البيضاء، وكان الفارق بينى وبينهم هو المال.

وقررت التخلص من ثياب الزنجى فسرقت كمية هائلة من المال من بنك فى المنصورة وأسرعت إلى القاهرة حاملا كومة كبيرة من المال وقدمته للمجموعة التى كانت مجتمعة فى جروبى، ورفضوا أخذ المال وأمرونى بإعادته، ولم أفعل.

فقررت أن أستخدم المال فى تحرير الفلاحين، أو هكذا تخيلت، استأجرت ٢٥٠ فدانا من أسرة سراج الدين بالقرب من المنصورة، كان أجر العامل الزراعى ٣ قروش فى اليوم فمنحتهم ١٧ قرشا يوميا وساعة راحة ظهرا، أستغلها فى أن أجلس معهم وأقرأ لهم الصحف وأحدثهم فى السياسة، وعندما هاجمت الدودة أرض الباشا حاول تشغيل عمالى عنده فرفضوا، مطالبين بسبعة عشر قرشا فى اليوم، صعق الباشا وقطع المياه عن أرضى حتى مات الزرع وتركت المشروع، وعندما أصبح سراج الدين وزيرا (١٩٤٢) أمر باعتقالى فى الطور.

وفى عام ١٩٥٧ أنفقت ما تبقى من المال المسروق فى تأسيس دار النديم للنشر بهدف نشر الثقافة التقدمية، وفى ١٩٥٩ اعتقلت وصودرت الدار وكانت تجربة الاعتقال فى الواحات مريرة جدا، وعندما أفرج عنى أخذت أولادى ورحلت إلى الجزائر، كنت أتصور أننى أسافر من القاهرة إلى طنطا، لكننى رأيت هناك غربا مزيفا وفرنسا مغشوشة، أصدرت هناك مجلة، لكن مقالاتى لم تعجبهم فرحلت إلى فرنسا، حيث أصبحت متخصصا فى قضايا الشرق الأوسط. وفى مايو ١٩٦٧ شعرت بأن الجو قد تكهرب وأن مصر ستهزم إذا قامت حرب. وكتبت مقالا لجريدة «نوفيل أوبزر فاتير» قلت فيه ذلك ورفضوا نشره لأنهم يريدون مزيدا من التعاطف مع إسرائيل، وبعد الهزيمة كرست كل جهودى لمواجهة النفوذ الصهيونى فى فرنسا، كتبت مئات المقالات وحضرت عشرات الندوات أدافع عن مصر وأهاجم إسرائيل، الكتاب والسياسيون العرب فى فرنسا صمتوا، أنا وحدى حملت العبء واكتسبت شهرة عالية جدا وسط الجاليات العربية، حتى إن أصحاب المطاعم العرب وسائقى التاكسى كانوا يرفضون أن أدفع، وبعد عشرات من الندوات والمناظرات التليفزيونية الحادة أصبحت نجما، بل ممثلا للعرب وللعروبة فى فرنسا، وذات يوم علق مكسيم رودنسون على إحدى مقالاتى قائلا «إنه يهذى»، قالها رغم أنه كان متعاطفا معنا لكنه كان يخشى على من تشددى ضد إسرائيل والصهيونية، ورددت عليه بمقال قلت فيه «وماذا بقى لنا غير الهذيان»، وباختصار أصبحت نجما، واعتبرنى اليمين الفرنسى العدو

الرئيسى، وكتب أحدهم مقالا عنيفا ضدى قال فيه: «هذا الفلاح المصرى خلع جلبابه، ولبس لباسنا، وسرق لغتنا وأقام فى بلادنا كى يحاربنا»، واعتبرت هذا المقال أغلى وسام على صدرى، وبعد انتصار ١٩٧٣.. انتهى كل شىء بالنسبة لى، ونسينى الناس والجمهور العربى والسفارات العربية التى كانت تلاحقنى بدعواتها.. وعشت وحيدا».

كان الرجل مجهدا من كثرة الحديث المتحمس، ومع ذلك ظل يناكفنى حول الكتاب الذى يترجمه ويفرض على رأيه فى كتابتى وفى رؤيتى ويحاول أن يلعب دور الأستاذ القوى الإرادة وليس دور المترجم، وأعترف أننى تنازلت أمامه كثيرا فأصبح أكثر من مترجم.

وفيما نشرب «الاكسبرسو» بعد الغداء قال فى هدوء وقور: «لقد عدت إلى مصر عام ١٩٧٦ وعرض على بعض المسئولين البقاء اعترافا بموقفى بعد الهزيمة قلت لهم: «إن بقيت لن أسكت والأفضل أن أبقى بعيدا لأدافع عن الخطوط العريضة»، وعاد إلى فرنسا.

وفيما أصافحه أمسك بيدى ولم يتركها وكأنه يشعر أنها آخر خيط بينه وبين مصر، قال بصوت تبلله الدموع: «عشت فى فرنسا ٣٢ عاما، أولادى نشأوا فى فرنسا، وأحفادى فرنسيون، الجيل المصرى الجديد لا أعرفه، حتى إننى أشعر بدهشة شديدة من بعض مقولاتك التقدمية، قد أتفق معها، لكننى أدهش كيف وصلت هذه الأفكار إليكم وكيف ترددونها بهذه الطلاقة والبساطة والفاعلية، كنت أتمنى أن أكتب وصية أعلن فيها حبى لمصر ولنيل المنصورة، لكننى أكره مثل هذه العبارات المصطنعة والتى يكتبها أصحابها متصورين أن التاريخ سوف يسجلها، إننى فى السادسة والسبعين، وهذا يكفى، أتصور أن يكون آخر أعمالى الانتهاء من ترجمة كتابك، ولا بأس بذلك فهو إسهام فى معركة مصر ضد المتأسلمين، كما تحب أن تسميهم، وعبارتى الأخيرة لكم هى عندما أموت أكون مت، وكفى!».

وأسرع لطف الله سليمان فى ترجمة الكتاب وبعد صدوره بعدة أسابيع.. رحل.

فتحى الرملى

«إن الملكية الفردية تنتهى إلى تركيز الثروة فى يد طبقة ضئيلة هى حفنة من أصحاب المصانع، وحرمان طبقة كبيرة هى الشعب كله».
فتحى الرملى
(فى كتابه أهداف الاشتراكية)

ثمة أناس يناضلون بكل نفس من أنفاسهم، يعيشون النضال ليل نهار وفى كل تصرف من تصرفاتهم، ولهذا بهرنى منذ أيام صباى ذلك الرجل الذى أسمى ابنيه «لينين» و«ستالين»، والذى عاش حياته مناضلا بكل ذرة فى حياته وحتى آخر أيامها، سعيت نحوه حتى التقينا قبل رحيله بعامين (رحل فى ١٩٧٧/٦/٢)، وفى جلسة حميمية فى جروبى انطلق أبو لينين ليحكى بصوت واهن وكلمات بطيئة لكنها تمتلك بريقا ممتعا، «أنا من أسرة فقيرة، عانت أمى كثيرا كى تنفق علينا، بعد وفاة أبى دخلت المدرسة الصناعية بالمنيا قسم النقش لأشبع هوايتى فى الرسم، ثم تركتها إلى المدرسة الثانوية، كانت أمى تدوخ لتستدين مصروفات المدرسة، فتركت المدرسة محاولا أن أذاكر دروسى فى المنزل، وذات يوم وقعت فى يدى نسخة من جريدة «الصرخة» التى كانت تصدر عن مصر الفتاة، الكلمات الملتهبة استهوتنى وانضممت إليها، وذات يوم استدعانى وكيل المديرية ليحذرنى من نشاطى المحموم فوجد على سترتى دبوس مصر الفتاة (أهرامات ثلاثة ومكتوب تحتها.. الله، الوطن، الملك) ثار الرجل وتصور أننى أتحداه وأمر بإيداعى الحجز، وخرجت وأنا أكثر حماسا.. ألم أسجن مثل القادة الكبار؟، ووجدت عملا فى جريدة محلية اسمها «الإنذار» وكان راتبى مائة وثمانين قرشا فى الشهر، واعتبرت نفسى صحفيا وجمعت حولى عددا من الصبية وأصدرنا منشورا بعنوان «أرقام مخيفة» وتضمن معلومات مثل ٧٠٪ من أبناء الفلاحين معرضون للإصابة بالسل.. وهكذا، ثم مجموعة شعارات ساخنة

جدا، وقبض على الصبية وهم يوزعون المنشور، وقبض علىّ وأفرجت النيابة عنا لكن البوليس أمر بإبعادى عن المنيا فازددت زهوا فأنا أنفى مثل كبار الساسة، أتيت للقاهرة متعطلا ولم أجد عملا لفترة، كنت مصمما على أن أعمل صحفيا وأخيرا عملت فى «مصر الفتاة» وكان راتبى مجموعة من الكوبونات التى يرغب أصحابها فى الاشتراك بالجريدة وقيمتها جنيهان» لكن الفتى ما لبث أن اصطدم بأحمد حسين وهاجمه فطرد، وعمل بالقطعة فى مجلة «الشعلة»، ولأنه كان شعلة من الحماس لفت أنظار فرج جبران سكرتير التحرير، فأتى له بابن أخته الطالب أسعد حليم (أحد قادة العمل الشيوعى فيما بعد) ليدربه على العمل الصحفى، واشتعلت مناقشات بين الشابين واتسعت دائرة المناقشة.. الرملى أحضر زميلا قديما فى «مصر الفتاة» هو «بدر عوض» وحضر أيضا صالح عرابى «سودانى» وعبدالعزيز هيكل وموسى عبد الحفيظ، وقاده بدر عوض إلى مارسيل إسرائيل ثم ذهب إليه ومعه بقية المجموعة وبدأ مارسيل فى تدريس الماركسية لهذه المجموعة التى انضم إليها فيما بعد أنور كامل، وأسمت المجموعة نفسها «الخبز والحرية»، وعن طريق أنور كامل تلامس معهم جورج حنين وبقية التروتسكيين.

وذات يوم كانوا مجتمعين لكن النور انقطع وساد الظلام وعرفوا أن السبب هو أن جورج حنين لم يسدد قيمة الكهرباء بسبب خلاف حاد مع فتحى الرملى، وصاح الرملى: «لا نريد نقودكم سنعتمد على أنفسنا».. وأعجبه الاسم فسمى مجموعته «نحن أنفسنا». وإذ ابتعد الفتى عن مدرسة مارسيل إسرائيل وعن مموله جورج حنين، وجد نفسه فى حيرة من أمره، ماذا يفعل؟ وقرر أن يدعو زملاءه إلى حوار مفتوح. إنها حفلة تفكير أسماها الرملى «أسبوع التفكير الحر» ودعا الجميع إلى حوار مفتوح وبلا قيود ودعا محاضرين ليبراليين أمثال د. إبراهيم ناجى وعبد المجيد نافع المحامى، لكن البوليس سئم من شغب الرملى فأغلق دار «نحن أنفسنا». ولم يهدأ الفتى، اتخذ له مقرا فى أحد أركان قهوة بحى الفوالة، يشترى صحف اليوم ويحضر الزملاء يقرأون ويناقشون ويتفقون على حضور ندوات ثقافية، كانت القاهرة تموج بها آنذاك، يحضرون ويناقشون ويشاغبون ومنهم تكونت مجموعة أسمت نفسها «الجبهة الاشتراكية». وأصبحنا الآن فى عام ١٩٤٤ والانتخابات البرلمانية على الأبواب، قاطعها الوفد لأنها تجرى فى ظل الأحكام العرفية، وانتهز فتحى الرملى الفرصة ورشح نفسه فى دائرة السيدة زينب وارتدى الأفرول الأزرق وتجول فى الحى، معلنا أنه مرشح العمال وأنه يرشح نفسه على المبادئ

الاشتراكية، والتف حوله عديد من اليساريين.

ونقرأ فى تقرير لسليم زكى «مساعد حكمدار بوليس مصر» مؤرخ فى ١٩٤٤/١٢/٢١ يقدم فيه معلومات عن القبض على شخص «يدعى بخورمنشة بتهمة أنه يكتب على الجدران شعارات مثل «الاشتراكية ستقود العالم»، «الاشتراكية ضد الاستعمار»، وقد اعترف شفاهة بأنه كتب هذه الجمل المذكورة لأنه من أتباع فتحى الرملى، ويروج لانتخابه ويدعو للاشتراكية»، وتمضى المذكرة، «ومن هنا يتضح لسعادتكم أن فتحى الرملى وأفراد الجبهة الاشتراكية يقومون بدعاية مثيرة للخواطر ومخلة بالأمن العام». وقد تمادى الرملى فطبع جملة منشورات بحجة الدعاية الانتخابية يدعو فيها للاشتراكية. إنها مجرد حيلة لجأ إليها المشاغب فتحى الرملى ليدعو للاشتراكية، فالدائرة كان بها عشرة مرشحين منهم خصمه القديم أحمد حسين، ولا أمل له فى الفوز وإنما يريد تكرار اسم الاشتراكية ولهذا أسهم هنرى كورييل ولطف الله سليمان وجورج حنين فى تمويل معركته وحشد المتظاهرين معه.. وحصل على ٣٢ صوتا.

ولم يزل الفتى يناضل ولم يفقد الأمل.

* * *

«وأنجبت طفلاً وأخذت أفكر فى الأسماء أصلها وفصلها وقررت أن أسمى ابنى لينين».
فتحى الرملى

ولم يكن الأمر سهلاً، فاسم لينين أثار دهشة غامرة، ويروى الرملى: «سافرت سعاد زهير (الزوجة) إلى مؤتمر نسائى عالمى، وما إن حلقت الطائرة حتى تذكرت الأم وليدها وأخذت تبكى «يا حبيبى يا لينين» «يا ترى عامل إيه يا لينين» وسادت الدهشة ركاب الطائرة حتى علموا أن ابنها اسمه لينين. وعندما هبطت الطائرة أسرعت سعاد لترسل برقية إلى الأب «مشتاقة لك أنت ولينين» ويأتى البوليس فى أعقاب البرقية ويقتاد الأب إلى النيابة ويدهش وكيل النيابة ويسأل هل صحيح هناك طفل بهذا الاسم. ويضحك الأب المشاغب، سائلاً وكيل النيابة تحب حضرتك أجيب الولد باعتباره مضبوطات؟» (فتحى الرملى– قبل أن أعترف – صـ ٦٩). ويبقى أن نسجل انتصار الأب فابنه هو الفنان الرائع لينين الرملى. ومع تواصل الشغب يقبض على فتحى الرملى فى «قضية الشيوعية الكبرى»

عام ١٩٤٦، ويكون المتهم العاشر بتهمة أنه أسس «الجبهة الاشتراكية» وألف كتاباً بعنوان «أهداف الاشتراكية» فى عام ١٩٤٥. ويرد فى قرار الاتهام: «روج فى هذا الكتاب للشيوعية وكفاحها الثورى مؤكداً أنه لا فرق بين الشيوعية والاشتراكية فالكلمتان مترادفتان وكلتاهما تهدف لغرض واحد وفلسفتهما واحدة» (حيثيات الحكم فى قضية الشيوعية الكبرى ١٩٤٦). ويفرج عنه ليواصل شغبه ونضاله، لكنه هاجم بشدة عدداً من المنظمات الشيوعية لأنها قبلت قرار التقسيم، وتأتى حكومة الوفد عام ١٩٥٠ وتكون انفراجة ديمقراطية ويحدث لقاء غريب وغير متوقع.. خصوم الأمس التقوا معاً، منظمة «حدتو» وفتحى الرملى وأصدرا معاً جريدة «البشير». فتحى الرملى الصحفى المخضرم ومبارك عبده فضل الشيوعى المخضرم يصدران معا جريدة من أحد المقاهى، وكانت الجريدة جيدة التوزيع لكن هناك عجزاً قدره ثلاثون جنيها شهرياً تغطيها «حدتو»، وكانت الجريدة تلتهب ثورية على يد الرملى الذى اختار لها شعاراً «الحقيقة هى أثمن ما نناضل فى سبيله».

وكان الرملى قد استأجر الجريدة من ورثة صحفى قديم، ويتفق البوليس مع الورثة على فسخ عقد الإيجار، ويواصل الرملى معركته متحالفاً مع «حدتو» فيصدران جريدة أخرى بذات الحجم وذات الشعار واسمها «المستقبل» فقط أضافا إلى اسم الجريدة أنها مجلة ديمقراطية شعبية، وتغلق الجريدة بقرار أمنى ويعتصم الرملى فى نقابة الصحفيين ويضرب عن الطعام احتجاجاً على مطاردة الأمن له. وترد الحكومة الوفدية بإلقاء القبض عليه بتهمة «التحريض على ارتكاب جنايات القتل والحض على الثورة وبغض الطوائف» (مذكرة الأفوكاتو كامل غالى فى القضية العمالية ٢٥٨٣ لسنة ١٩٥٢)، ويرفع الرملى قضية أمام مجلس الدولة ويحكم لصالحه فى ٢٨ ديسمبر ١٩٥١، وبعدها بعشرة أيام يصدر جريدة المعارضة ويسعى الرملى لتأسيس حزب أسماه «الحزب الديمقراطى» وفى صدر جريدة المعارضة نقرأ «برنامج كامل لخلق مصر من جديد - إعلان تأليف الحزب الديمقراطى فى مصر»، ويطارده الرقيب وتصدر المعارضة وكثير من صفحاتها بيضاء، الرقيب شطبها والرملى يأبى إلا أن يسجل ذلك. وبعد حريق القاهرة ٢٦ يناير ١٩٥٢ يكون الرملى مؤهلاً تماماً للاعتقال ويختفى عن الأنظار تاركاً رئاسة الجريدة، وفى صدر العدد الصادر فى ١٩٥٢/١/٢٠ نقرأ: «اعتكف الأستاذ فتحى الرملى فى الأسبوع الماضى

لمرضه وقد عهد إلىّ برئاسة التحرير مؤقتاً فأرجو لصديقى العزيز عودة سريعة لقرائه». والتوقيع «إبراهيم البعثى». ويتعين علينا أن نحسب لفتحى الرملى أنه قاد فى هذه المرحلة حملة واسعة من أجل تأميم قناة السويس، ويقول إنه جمع نصف مليون توقيع من القراء مؤيدين لتأميم القناة.

وإذ تقال حكومة الوفد، ويأتى على ماهر، يكتب الرملى من مخبئة افتتاحية يحذر فيها على ماهر من العودة للمفاوضات ويكون عنوانها «إياك يا رفيع المقام» ويواصل الرقيب شطب مساحات بأكملها، وتكاد «المعارضة» أن تصدر بصفحات بيضاء. ويتوقف الرملى مرغماً.

ويواصل الرملى معاركه، تفصله نقابة الصحفيين بناءً على طلب الأمن بحجة أنه لا يتوافر فيه شرط حسن السير والسلوك، ويرفع قضية ويكسبها ويعاد قيده. وفى عام ١٩٥٨ نجح فى أن يعين فى جريدة «الجمهورية» لكنه يفصل بعد أسبوعين.

ويعين عام ١٩٦٧ فى دار التعاون، وفى عام ١٩٧٣ صدر قرار جمهورى بعودة الصحفيين الذين سبق فصلهم وأعيد لجريدة «الجمهورية» لكن رئيس التحرير رفض، تسرع دار التعاون بفصله بحجة أنه عين فى جريدة أخرى - ويتجه الرجل إلى نقابة الصحفيين ليصرخ فى وجه الظلم، كما اعتاد أن يصرخ ولكن صوته لم يطاوعه.. لسانه ثقيل. إنها جلطة فى المخ.

ومن فراش المرض، وفور إعلان منبر اليسار، يمسك فتحى الرملى القلم بيد مرتعشة من مرض عضال ويكتب «عزيزى الأستاذ الكبير خالد محيى الدين رئيس منبر اليسار أرجو قبولى عضوا منكم حتى أستطيع أن أساهم وإياكم فى تحقيق رسالتنا. أقدم طلبى وأنا طريح الفراش إذ أصبت بجلطة للمرة الرابعة، وفقنا الله لخدمة الوطن. فتحى الرملى تحريراً فى ١٩٧٦/٤/٣». وانتظرناه أن يأتى لكنه رحل فى ١٩٧٦/٦/٢.

إعادة التأسيس

بول جاكو

«لنكن حذرين أشد الحذر فى العمل السرى وليكن شعارنا ما لا ينفع يضر».
بول جاكو

بحثت عنه طويلاً. وفى باريس حيث كان يقيم التقينا فى مقهى اللوكسمبورج أمام واحدة من أجمل حدائق العالم.. طويل ممشوق القوام لا يمكنك أن تحدد عمره ولا حتى على وجه التقريب، لكننى كنت أعلم أنه مولود فى ١٩٠٥ أى قبل ٦٨ عاماً من المقابلة. وكنت أعرف أنه سويسرى الجنسية ومهندس ابن مهندس شهير. وفيما نقتسم الكرواسون والقهوة باغته بسؤال «والتر لا كور فى كتابه (الشيوعية والقومية فى الشرق الأوسط) قال إنك كنت ممثلاً للكومنترن فى مصر فهل لك أن تحدثنى عن هذه التجربة؟». انتفض الرجل، دق المائدة بقبضة فتى فى العشرين وقال: «أؤكد لك أن هذا غير صحيح وكذب.. كذب.. كذب»، وبعد أن هدأ باغته بسؤال آخر: «يتكرر اسمك دوماً على أنك مؤسس ذلك التنظيم الشيوعى متعدد الأسماء واسمه الأشهر هو طليعة العمال»، ومرة أخرى يغضب الرجل ويؤكد: «أنا مصمم وأؤكد أننى لم أؤسس أى تنظيم، أنا وضعت البذور وتركتها تنمو، أنا كنت من الناحية المبدئية ضد أن يقوم أى أجنبى بتأسيس أى تنظيم مصرى، أنا أقرر وبوضوح أن تاريخ هذه المنظمة قد بدأ بعد أن تنحيت أنا عن العمل المباشر. لقد عملت فى مصر عشر سنوات من النضال الديمقراطى والماركسى بهدف نقل الفكر الماركسى إلى عدد من المصريين، وهذا هو كل دورى وبعد ذلك تركتهم يفعلون ما يشاءون».

وبعد هذين السؤالين الاستفزازيين بدأ الحوار سهلاً. ابتسمت وقلت معتذراً: إن هذين السؤالين هما مجرد حيلة تعلمتها من أستاذى الألمانى فبهما يكون الحوار العادى قادراً على فتح مسام الذاكرة وعلى تقليل حرص الذى تحاوره فيقول كل ما تريد.

ابتسم ابتسامة أبوية وقال: أعرف، وعلى أى حال أنا جاهز. قلت تفضل:

«أبى كان مسيحيا متعصبا وكان مهندس كهرباء كبيرا، عمل لدى الحكومة المصرية ثم أسس شركة كبيرة للمصاعد. أنا سافرت إلى ألمانيا بهدف دراسة الموسيقى وهناك التقيت برفاق من الحزب الشيوعى الألمانى. لم أنضم للحزب، كنت فقط ضمن فرقة من الدعاة يقتصر نشاطنا على الدخول إلى المقاهى وإلقاء الخطب والأناشيد الثورية. وفى عام ١٩٣٢ عدت إلى مصر مزمعاً الإقامة لفترة وجيزة، ثم أعود لألمانيا، لكن أبى أرسلنى لأشرف على مشروع تقوم به شركته فى أسوان كجزء من عملية بناء الخزان، وأقمت فى إدفو مصطحباً معى كتاب «رأس المال» لكارل ماركس وكنت قد أحضرت معى من ألمانيا مجموعة لا بأس بها من الكتب الماركسية، كنت أقرأ وأجد أمام عينى البؤس والفقر والقهر وقررت أن أفعل شيئاً من أجل هؤلاء الفقراء. وفى هذه الأثناء وصل هتلر إلى الحكم وأصبح مستحيلا أن أعود للالتقاء بمحبوبتى الجميلة..» وابتسم قائلا: «إنها الموسيقى وليست فتاة، وعدت إلى القاهرة وقررت أن أبحث عن الشيوعيين المصريين وأن أعمل معهم، لكنهم كانوا فى ذلك الوقت فى محنة متصلة، وكانوا مطاردين من الأمن ولم أجد أمامى سوى المجموعة الشيوعية اليونانية والتى كانت تعمل بنشاط وسط الجالية اليونانية فقط، كانت مجموعة مغلقة تماما على نفسها ولا تنفتح أبدا على المصريين، وإن كانت لها صلات ببعض المجموعات الأجنبية الأخرى، وذات يوم طلبوا منى أن أوزع بيانا يطالب بالإفراج عن المناضل الشيوعى الألمانى «تيلمان» وقد قضيت وقتا طويلا فى مناقشة مع ياناكاكس، مسئول هذه المجموعة، محاولا إقناعه بضرورة فعل شيء أكثر جاذبية للجماهير المصرية، لكنه رفض بشدة متمسكا بحذره وحرصه الشديدين ويمكنك أن تقول إننى تعلمت كثيرا من هذا الحرص، وغضبت وانسحبت أنا وعدد من الشباب من المجموعة اليونانية لكننى خرجت، وفى جعبتى كم كبير من الحذر، وقررت تأسيس منبر علنى أستطيع من خلاله أن ألتقى بعدد من المصريين، ولكى لا تعترض الحكومة أو سلطات الاحتلال أو أثير شكوكهما، قررت أن يكون هذا المنبر معاديا للفاشية وللحرب التى تعد لها ألمانيا، واتسع نشاط اتحاد أنصار السلام. وكان له فرعان، الأول فى القاهرة والثانى فى الإسكندرية، وقد كافحنا بشدة ضد الفاشية والنازية وأصدرنا العديد من المنشورات والكتيبات بالعربية والإنجليزية والفرنسية تدين الفاشية وتطالب بمقاطعة البضائع الألمانية، كما قمنا بمساندة الثورة الإسبانية ونظمنا حملات لجمع التبرعات المالية والعينية لها، وفى سينما ميامى أقمنا

احتفالا كبيرا لعرض فيلم «حصار برشلونة» المناصر للثوار الجمهوريين، وألقيت خطابا فى الاحتفال مؤيدا الجمهوريين الإسبان».

وقاطعته قائلا: «يقول يوسف درويش إن شابين من اتحاد أنصار السلام أحدهما مصرى اسمه مصطفى سافرا للقتال فى صفوف الجمهوريين الإسبان»، فقال: «هذا صحيح».

* * *

«ولم يكن كل هذا النشاط بلا هدف، كان هناك هدف غير معلن وهو التلامس مع عدد من المصريين أو الأجانب الذين يجيدون اللغة العربية كمقدمة لتأسيس تنظيم شيوعى».
بول جاكو
(فى حواره معى)

ويظل لغز بول جاكو محيرا، حتى بعد أن تحدثت معه فى مقهى اللوكسمبورج فى باريس وظللت أمتلك عديدا من الأسئلة. وبعدها بعام دخلت بالمصادفة إلى ذات المقهى ووجدته جالسا، لم يلتفت ولم تتغير ملامح وجهه وكأنه لا يعرفنى ولم يقابلنى أبداً، دهشت، وربما غضبت، وقمت لأسلم عليه فقام مرحبا ودعانى للجلوس معه. قلت له: ظننتك لا تريد الحديث معى. قال: أبداً كنت مشتاقاً للحديث معك. فلدى معلومات إضافية أريد أن أحكيها لك. فسألت: ولماذا تجاهلتنى؟ أجاب ببساطة: لقد تعلمنا منذ بداية عملنا ألا نبادر قادما بالسلام فقد يكون مراقبا من الأمن وعلينا أن نتأنى حتى يبادر هو. قلت: لكن الأوان فات ونحن فى باريس وأنت وأنا لا علاقة لنا بما يستوجب المراقبة هنا أو هناك؟ وأجاب فى هدوء وهو يقلب السكر فى فنجان النسكافيه: إنها مسألة مبدأ. وقد ظل هذا المبدأ مهيمنا على التنظيم الذى وضع بذوره فى التربة المصرية. فقد أخفوا ولزمن اسم التنظيم – ربما حتى يستكمل قوته – وأخفوا عن الأعضاء أنهم أعضاء فى تنظيم – إنه المبدأ المهيمن «ما لا ينفع يضر» وكان ذلك مختلفا عن معايير التنظيمات المصرية الأخرى التى ربما كانت منفتحة أكثر من اللازم فوقعت مفارقة استمرت طويلا.

المهم جلسنا ليكمل بول حكايته. وبدأ بعتاب فقد لمح أننى كتبت على الورقة التى أسجل فيها حواره «بول جاكوب»، وقال: اسمى «جاكو»، قلت هل الفارق يهم؟ قال: نعم لأن

البعض من خصومنا أضافوا الباء زاعمين أننى يهودى، أنا لست عنصريا ولا تهمنى عنصريتهم، لكن الحقيقة هى أن اسمى «جاكو» وأننى مسيحى. ثم أكمل بعد أن ذكرت له ما أذكره من حواره السابق: «وقفنا عند نشاط اتحاد أنصار السلام، والحقيقة أننا نشطنا نشاطا واسعا ففى بياناتنا وكتبنا هاجمنا الصهيونية هجوما عنيفا باعتبارها فكرة عنصرية وكتبنا أكثر من مرة عن رفضنا الشديد لقيام وطن قومى لليهود عى أرض فلسطين. وعندما حضرت لجنة من عصبة الأمم لاستطلاع رأى الشعب المصرى بشأن مشاريع تقسيم فلسطين أرسل الاتحاد اثنين من أعضائه اليهود، وهما يوسف درويش وريمون دويك، ليعلنا للجنة مساندتهما للشعب الفلسطينى وليسجلا رفضنا لفكرة قيام وطن لليهود على أرض هذا الشعب. وفى إحدى رحلاتى للخارج التقيت بالسياسى الهندى الشهير «كريشنامنون» وخلال حوارنا أبلغنى برغبة الزعيم الهندى نهرو فى مقابلة النحاس باشا وبعد عودتى رتبت هذه المقابلة عن طريق أحد أعضاء اتحاد أنصار السلام وهو عبد الفتاح الطويل (باشا) وتمت المقابلة ١٩٣٧. لكن ترتيب هذه المقابلة تسبب فى وقوع أول شرخ فى الاتحاد. فالأعضاء التروتسكيين چورچ حنين وزملاؤه كانوا متشددين جداً، واحتجوا على أن ينظم الاتحاد مقابلة لنهرو مع سياسى برجوازى وانسحبوا من الاتحاد. ثم اشتعلت الحرب العالمية الثانية ولم يعد طبيعيا أن نستمر فى الحديث عن السلام العالمى بينما الحرب تعصف بالعالم، فأعلنا حل الاتحاد وأسسنا بدلا منه «جماعة الدراسات» معلنة أن هدفها هو تعريف الأوروبيين المقيمين بمصر وجنود جيش الاحتلال بأوضاع المجتمع المصرى وبمطالبه فى الاستقلال الكامل وجلاء القوات الأجنبية بعد الحرب. كانت الحدود قد أغلقت وتوقفت الاتصالات مع أوروبا ولم تعد مصادر الثقافة الأوروبية متاحة، ومن ثم كانت هناك فرصة للمثقفين الأجانب أن يتجهوا لدراسة الواقع المصرى فقمنا بإعداد دراسات جديدة عن الواقع المصرى منها: «الفلاح المصرى - تاريخ مصر - ثورة عرابى - نهر النيل.. إلخ».

هذا هو الهدف الظاهرى، لكن «بول» كان يواصل تحقيق حلمه الأهم وهو تدريب وتثقيف عدد من الكوادر ليكونوا قادرين على تأسيس وقيام تنظيم شيوعى مصرى، ويحكى «بول»: «كانت لى علاقات مع عدد من الإنجليز العاملين فى القوات البريطانية فى مصر منهم كابتن كلوجمان، وكان شخصا ممتازا ونشيطا وتعرفت عن طريقه إلى أستاذ

إنجليزى فى الجامعة المصرية، وكان هذا الأستاذ شيوعيا واقترحا إلى أن نصدر كتبا عن مصر وتاريخها بهدف تعريف جنود الاحتلال بمصر وكسبهم إلى صف القضية الوطنية المصرية. وكان أول كتاب أصدرناه باللغة الإنجليزية بعنوان «مصر الآن» وقد لقى رواجا كبيرا».

وفى هذه الأثناء كان «بول» قد التقط ثلاثة رجال هم الأكثر إخلاصا وثقافة واستعداداً وكان يدرس لهم «الماركسية» وعندما نضجوا ونضجت الظروف جمعهم «يوسف درويش – صادق سعد – ريمون دويك» ليلقنهم كل ما اختزن من معارف وحرص وأشواق وأحلام. وتركهم ليبدأوا هم تأسيس تنظيم أسموه «الطليعة الشعبية للتحرر»، أما هو فقد اكتفى بالتوجيه من بعيد. واكتفى بمتابعة نشاطه فى «جماعة الدراسات». ولم أزل وحتى الآن وكلما زرت باريس أذهب إلى ذات المقهى وأجلس إلى ذات المائدة وكأننى أواصل حوارى معه.

صادق سعد

«هذه الدراسة هى محاولة للبرهنة على أن ثمة أداة علمية تصلح لتحليل التاريخ المصرى.. هذه الأداة هى المادية التاريخية».
صادق سعد
فى مقدمة كتابه «فى ضوء النمط الآسيوى للإنتاج.. تاريخ مصر الاجتماعى السياسى»

عندما أدرت حوارى مع بول جاكو وقال تنحيت عن المشاركة فى العمل الحزبى وتركت ثلاثة اخترتهم ليبدأوا فى تأسيس منظمة حزبية مصرية كان اسم صادق سعد أول هذه الأسماء الثلاثة. وهكذا أمسكت بخيط الحوار معه. وكالعادة سألته كيف ومتى؟ فقال: «كانت المصادفة مبكرا جدا وأنا مجرد طالب ثانوى فى مدرسة الليسيه الإسرائيلية بالإسكندرية (ونلاحظ أن كلمة إسرائيلى كانت تستخدم فى مصر كمرادف لكلمة يهودى وكانت خانة الديانة تستخدم كلمة إسرائيلى) وهى مدرسة صغيرة عدد طلابها محدود. وتكون المصادفة عندما تمرض مدرسة التاريخ وتحل محلها مدرسة أخرى مؤقتا. وكنا ندرس فى هذه السنة تاريخ الثورة الفرنسية. دخلت المدرسة الشابة الفصل ثم قالت فى تحد واضح أنتم تدرسون التاريخ بشكل خاطئ، ولكى تفهموا التاريخ فهما صحيحا يجب أن تدرسوه على ضوء الصراع الطبقي، وشرحت لنا وباختصار المادية التاريخية.

وانفتحت عيناى فى هذه اللحظة على طاقة ضوء ظلت تغمرنى طويلا، وجدت بابا جديدا ورحبا للمعرفة، ثم بدأت المدرسة الرائعة فى تزويدنا ببعض الكتب الماركسية، ثم دعتنا لحضور ندوة فى مقر اتحاد أنصار السلام، وكان هذا بداية خيط الاتصال بالاتحاد، هذه المدرسة وهى آنا طوبى» (هكذا ذكر اسمها فى حواره معى بتاريخ ١٩٧٥/٤/٦، لكنه عندما تحدث عنها فى كتابه «صفحات من اليسار المصرى» ص٣٩ أورد اسمها قبل الزواج وكان آنا كالينكو). ويواصل: «وبدأت أطلع على بعض المؤلفات الماركسية الصادرة

باللغة الفرنسية وأذكر خاصة «البيان الشيوعى»: وفى كتاب «صفحات من اليسار المصرى» يقول عن «البيان الشيوعى» «ألهبنى هذا الكتاب حماساً لترابطه البنائى والمنطقى المحكم ولأنه يقدم أداة علمية رائعة لتحليل التاريخ وشتى الاتجاهات السياسية» (ص٧٩).

«وفى عام ١٩٣٧ التحقت بكلية الهندسة وسافرت إلى القاهرة حيث الجامعة الوحيدة فى هذا الوقت، وبدأت بالطبع فى التردد على مقر اتحاد أنصار السلام وتعرفت إلى المهندس بول جاكو والشاعر القبرصى تيو بيريديس وزوجته إلكسندرا وريمون دويك ويوسف درويش وجورج حنين وغيرهم، وانضممت إلى حلقة دراسية كونها بول جاكو وكنا نجتمع كل أسبوع لقراءة كتاب فى الاقتصاد السياسى أو فى موضوع آخر ثم نجرى نقاشا حول موضوع الكتاب، ويرجع لهذه الحلقة الفضل فى تكوينى الفكرى، وإرساء فهم علمى للاقتصاد السياسى فى ذهنى، ومن المهم أن أقرر أننا فى هذه الحلقة الدراسية درسنا كتابا مهما معاديا للصهيونية وقد ألفه المفكر الشيوعى الألمانى «أتو هيللر» واسمه «نهاية اليهودية» والحقيقة أن هذا الكتاب كان حجر أساس مهم فى تربيتنا الفكرية المعادية للصهيونية معاداة حاسمة» (وهنا نتوقف لنذكر القارئ أن صادق سعد يهودى المولد وكان اسمه سارتيل سلامون ثم اعتنق الإسلام).

وأسأله ما هى علاقة «اتحاد أنصار السلام» بالمثقفين المصريين، فأجاب: «يمكن القول إنها كانت علاقة خفية ومحدودة، وقد نجحنا فى جذب بعض المثقفين المصريين وخاصة عبر الندوات والمؤتمرات التى كانت تتعلق بالنضال ضد الاستعمار مثل مشكلة الحبشة بعد احتلال الإيطاليين لها، ويجب أن نلاحظ أن مسألة الدفاع عن السلام لم تكن مفهومة فهما حقيقيا لدى الجمهور المصرى الذى كان ينادى بالحرب ضد الاستعمار، والحقيقة أن قاهرة ذلك الزمان كانت تغص فى كل يوم بعشرات الندوات والمؤتمرات وكان الشبان الماركسيون يتجولون بينها ليشرحوا فيها وجهات نظرهم». ويمضى صادق سعد: «وأذكر أننى بعد أن دخلت الجامعة دعا بعض أعضاء مصر الفتاة لإقامة مؤتمر لنصرة فلسطين، ودخل عدد من الطلاب إلى المدرج هاتفين ضد اليهود وأنا وقفت محتجا وتكلمت بلغة عربية ذات لكنة أجنبية متحدثا عن الفارق بين اليهودية كدين والصهيونية كحركة سياسية معادية للحق الفلسطينى وذات صبغة استعمارية، ودعوت الجميع للهتاف معى: تسقط الصهيونية».. ثم «وفى عام ١٩٣٩ قامت الحرب العالمية الثانية ولم يعد هناك مجال للحديث عن السلام

العالمى، واجتمعنا وكان عددنا حوالى عشرة أو خمسة عشر شخصا واتفقنا، وبناء على اقتراح من بول جاكو، على إعلان حل الاتحاد، وأسسنا جماعة أخرى أسميناها "جماعة البحوث" وكانت ناديا ثقافيا واتخذت مقرا لها فى شارع عدلى.

وتمضى هذه المجموعة المحدودة العدد والمعزولة عن الجمهور المصرى والتى يتسم أغلبها بأصول أجنبية أو متأجنبة ولم يكن فيها سوى ثلاثة مصريين: يوسف درويش وريمون دويك وصادق سعد، وإن كانوا منغمسين فى بحر الثقافة والتعليم الأجنبى.

لكن يوسف درويش فعلها.. كان محاميا شابا وكان يسكن فى شارع سكة جلال الملك فى بولاق وهناك تعرف بمجموعة من العمال وأسس منهم ومعهم "جماعة الشباب للثقافة الشعبية".. وهكذا انطلق أول سهم نحو الجماهير المصرية».

* * *

«لقد كان هدفنا الأول فهم مصر، ولأنه لا يمكن فهم مصر من الكتب فقد عملنا على إيجاد علاقات جماهيرية بالحركة الشعبية الوطنية والديمقراطية المصرية».

صادق سعد

(فى حواره معى)

ولم يكن الأمر سهلا، الثلاثة صادق سعد - ريمون دويك - يوسف درويش اختارهم الأستاذ والمعلم بول جاكو علمهم أوليات السباحة ثم تركهم كى يعبروا المحيط سباحة، لكنهم نجحوا.

وعلى مبدأ الحذر الشديد كان نهج الثالوث، قرروا التأنى وعدم التعجل فى إنشاء «تنظيم» وإنما حاولوا فهم مصر وأوضاعها ومشاكلها وإقامة نقاط ارتكاز للعمل الجماهيرى، يقول صادق سعد: «منعنا أنفسنا عن وعى من إنشاء تنظيم وأحسسنا أن هذا التعجل غير مفيد»، وكان هذا الفهم أحد أسباب الصراع بين التيارات الشيوعية، فالبعض تمهل والبعض تعجل، وعندما كتب شهدى عطية مقالا فى «الجماهير» باسم سرى هو «محمود حمدى» وكان المقال بعنوان «يريد الشعب حزبا من نوع جديد» وكان يقصد الحزب الشيوعى، رد عليه أحمد رشدى صالح أحد أعضاء هذه المجموعة معارضا، ومضت هذه المجموعة فى طريق آخر أصدرت مجلة «الفجر الجديد» وأسست «دار القرن العشرين»

للنشر، ولكن مقال رشدى صالح فتح باب صراع بين اتجاهين ومضى الشيوعيون الآخرون يقولون إن هذه المجموعة ضد تأسيس حزب، مكتفية بعلاقاتها مع مجموعة «الطليعة الوفدية» وإنها تطمح وفقط إلى موقع على يسار حزب الوفد.

وفى حوارى معه يقول صادق سعد عن هذا الموضوع «الحقيقة أننى الآن (١٩٧٥) وبعد مراجعة متأنية لما حدث أعتقد أن موقفنا كان خاطئا بشكل جزئى، لأنه كان من الممكن إنشاء تنظيم دون أن يؤدى ذلك إلى إعاقة أنشطتنا الأخرى، بل ربما كان سيساعد فى إنجازها»، ويمضى صادق سعد فى نقد ذاتى شجاع لم يفعله كثيرون: «إننى يمكن أن أنتقد موقفنا أو بالدقة أنتقد نفسى مؤكدا أن أهدافنا الاشتراكية لم تكن واضحة، كنا باسم الشيوعية أو باسم الماركسية وطنيين إلى أقصى درجة، وديمقراطيين إلى أقصى درجة، لكننا لم نوضح بما فيه الكفاية أهدافنا الاشتراكية أو بالدقة لم نبرز فى ساحة المجتمع كموقع طبقى متميز، ولذلك امتزجنا إلى حد ما بالحركة الواسعة للبرجوازية الصغيرة»، وعلى أى حال فإن هذه المجموعة ما لبثت أن تعرضت هى وكل القوى الوطنية واليسارية لضربة صاعقة على يدى حكومة الطاغية صدقى وأغلقت صحفها «الفجر الجديد - الضمير» ودار القرن العشرين ولجنة نشر الثقافة الحديثة واعتقل عدد من قادتها.. ولم يعد هناك مفر من تأسيس تنظيم لكنه تأسس وفق المبدأ الأساسى «ما لا ينفع يضر». ونواصل مع صادق سعد: «اتفقنا أولا على إعداد الوثائق الأساسية (لائحة - خط سياسى - خط تنظيمى - خط جماهيرى - خط نقابى) واتفقنا على الاتصال مع عدد من زملائنا الموثوق بهم تماما وعرضت عليهم هذه الأوراق فى شكل مجموعات وناقشوها واختارت كل مجموعة مندوبا عنها وكان هؤلاء المندوبون سبعة، واجتمعنا فى سبتمبر ١٩٤٦ فى مقهى خريستو فى شارع الهرم وتم إقرار الوثائق واعتبر المجتمعون أنفسهم مؤتمرا تأسيسيا وانتخبوا لجنة مركزية من ثلاثة أنا مسئول سياسى ويوسف درويش مسئول تنظيمى ومحمود العسكرى مسئول عمل جماهيرى، وقد تم ضم أحمد رشدى صالح إلى اللجنة المركزية فيما بعد، وكان التنظيم مطلق السرية، حتى إن أعضاءه لم يكونوا يعرفون اسم المنظمة التى ينتمون إليها، وأحيانا كانوا لا يعرفون أنهم أعضاء فى المنظمة أصلا، وكان شعارنا «ما لا ينفع يضر». بمعنى أنه طالما أن المعلومة لا تنفع فلا مبرر لقولها لأحد وهكذا حمينا تنظيمنا» وتمضى رحلة التنظيم ويغير اسمه أكثر من مرة ربما بسبب تغير

المهام وربما بسبب الأمان، فهناك الطليعة الشعبية للتحرر (ط.ش.ت) ثم الديمقراطية الشعبية (د.ش) ثم طليعة العمال (ط.ع) ثم حزب العمال والفلاحين الشيوعى المصرى.

وتجرى مياه كثيرة فى النهر ليس هذا مكانها، لكن الأهم فيما يخصنا هو صادق سعد المفكر، تألق صادق سعد على صفحات «الفجر الجديد» والتى استغرقت مقالاته فيها ٢٠٨ صفحات من كتابه «صفحات من اليسار المصرى»، وفى عام ١٩٤٥ أصدر صادق أول كتبه «مأساة التموين» ثم «مشكلة الفلاح» و«فلسطين بين مخالب الاستعمار» ثم «أسئلة وأجوبة حول الموقف الراهن»، وينضم صادق إلى التجمع لكنه يبقى قلقا فى التجمع، لم يتسق معه وظل مختلفا فى كثير من المجالات حتى حول كامب ديفيد اختلف، وفى بيروت أصدر عديدا من الكتب.

وأذكر أننى كنت عند ناشر شهير هو د. بشير الداعوق «دار الطليعة» وقدم لى كتابا ينتقد برنامج حزب التجمع وكان النقد راقيا وموضوعيا ولاذعا والاسم على الغلاف «محمود عبد المولى» وسألته من هذا قال: صادق سعد، ثم تفرغ صادق سعد لكتاب موسوعى عنوانه «فى ضوء النمط الآسيوى للإنتاج.. تاريخ مصر الاجتماعى والسياسى».. وهو كتاب رائع بل وأكثر من رائع.

يوسف درويش

«أيها العمال دافعوا عن حقوقكم. كونوا لجان الإضراب، كونوا صناديق الإضراب».
يوسف درويش
(من منشور أصدرته لجنة العمال للتحرير القومى)

سمعنا اسمه كثيرا سواء فى أحاديث بول جاكو أو صادق سعد. فقد كان واحداً من الثلاثة الذين أوكل إليهم بول جاكو مهمة تأسيس تنظيم شيوعى فى مصر فمن هو؟ والآن نستمع إليه:

«ولدت عام ١٩١٠ لأسرة يهودية، أبى كان واحداً من أمهر من اشتغلوا فى حرفة الصياغة بدأ بافتتاح ورشة صغيرة فى الصاغة، ثم إلى جوارها افتتح محلا كبيرا للمصوغات وأصبح واحداً من أشهر تجار الصاغة. الأسرة ميسورة تقترب من الأعيان المتوسطين فأحد أقاربى كان مراد بك فرج محامى الخديوى عباس حلمى الثانى، ومن أقاربى أيضا الموسيقار الشهير داود حسنى. دخلت مدرسة الفرير بالخرنفش ثم الكلية الفرنسية بالظاهر (١٩٣٠) ثم سافرت إلى فرنسا حيث حصلت على شهادة الدراسات العليا وليسانس الحقوق وعدت عام ١٩٣٤». ولكن كيف بدأت رحلتك السياسية؟ وأجاب: «كنت متحمساً منذ البداية للحركة الوطنية ولسعد زغلول وزاحمت وأنا طفل، المستقبلين له فى محطة مصر عند عودته من المنفى. وكنت أزداد حماساً مع كل حدث. وفى مدرسة الفرير ألقيت محاضرة حماسية عن الثورة الفرنسية فغضب المدرس المشرف على الجمعية واتهمنى بأننى «ثورى» فأسست جمعية ثقافية خارج المدرسة من عدد من زملائى الطلاب منهم حامد سلطان (أستاذ القانون الدولى فيما بعد) وأحمد بدرخان (المخرج السينمائى الشهير وعضو الحركة المصرية للتحرر الوطنى فيما بعد) وما إن شعرت إدارة المدرسة بنا حتى أخذت تحذر التلاميذ من نشاطنا». ثم..

«وذات يوم وقع فى يدى عدد من مجلة تصدر بالفرنسية واسمها "عالم مصر"، وكان محررها، أحمد راشد، ذا فكر تقدمى وقرأت فيها مقالا رائعا عنوانه «دفاعاً عن الاتحاد السوفيتى" ولم أنم، إنه العشق من أول نظرة». ونمضى مع يوسف درويش.

«وتحددت ملامحى الفكرية: وفدى متحمس، يسارى وتقدمى لا يعرف كيف يكون يسارياً حقاً. وعندما مات سعد زغلول زاحمت المشيعين وظللت ألبس بدله سوداء وكرافتة سوداء لمدة شهر». ثم. . «وعندما سافرت إلى فرنسا للدراسة فى تولوز شاركت فى جمعية الطلبة العرب، وكان معى من المصريين حامد سلطان وبهاء الدين كامل (والد د. حسين كامل بهاء الدين) وكنا نناقش معاً ونقرأ معا، وانغمست فى القراءة عن الثورة الفرنسية وعدد من الكتب الماركسية واستمعت إلى خطب نارية من المحامى الشهير مورو جيافيرى الذى ترافع عن ديمتروف الزعيم الشيوعى أمام المحاكم النازية. وهناك فى تولوز وجدت فرصة لا تتكرر: محام شيوعى ألمانى أتى إلى فرنسا هربا من النازية فتح بيته مدرسة لتدريس الماركسية للشبان وتتلمذت هناك». ويمضى فى حواره معى «كان المحامى "بوشر" يشرح لنا الماركسية بحماس وبساطة وأخذت أنصت لأفهم وتحول الفهم إلى قناعة والقناعة إلى عشق ودعتنى صديقة فرنسية إلى اجتماعات إحدى خلايا الحزب الشيوعى وكنت أحضر كمستمع. ثم أسست أنا وعدد من الشبان لجنة الطلبة ضد الفاشية والحرب». ويعود يوسف درويش فى ١٩٣٤ إلى مصر. عاد شيوعيا ومعاديا للفاشية. وذات يوم حضر حفلا فى ناد إيطالى بالقاهرة وعزف نشيد الشباب الفاشستى ووقف الجميع احتراما إلا هو. حاول البعض دفعه للوقوف، ورفض وبعد انتهاء النشيد تجمع الفاشيون حوله وضربوه علقة ساخنة، إنه أول ثمن يدفعه فى سبيل العشق. وسمع عن جماعة اسمها «اتحاد أنصار السلام» ظل يجوب شوارع وسط العاصمة حتى عثر على المقر والتقى هناك مع بول چاكو.. وكانت بداية جديدة. ونستمع إليه.

«التقيت هناك بمجموعة مثيرة للدهشة، مصريون ديمقراطيون وليبراليون ومعادون للفاشية ومنهم عبد الرازق السنهورى (أشهر أساتذة القانون المدنى وأول رئيس لمجلس الدولة فيما بعد) وعبد الوهاب العشماوى وفاطمة نعمت راشد»، وطبعا التقيت بزميلى الكفاح الأبدى صادق سعد وريمون دويك. ويحكى يوسف بدايات عمله فى اتحاد أنصار السلام: «فى عام ١٩٣٦ وصلت إلى مصر لجنة عصبة الأمم المكلفة التحرى عن رأى

الشعب المصرى بشأن مشاريع تقسيم فلسطين وذهبت أنا وريمون دويك وتحدثنا معها ورفضنا أى قرار للتقسيم مطالبين بأن تكون فلسطين وطناً موحداً لأبنائها. وفى ذات العام حضر وفد من الثوار الفلسطينيين (موسى الخالدى وأحمد الحسينى) وكلفت إبلاغهما تضامننا مع نضالهم».

ورأينا فيما سبق كيف تم حل اتحاد أنصار السلام مع اشتعال الحرب. وكيف بدأت محاولة تأسيس تنظيم شيوعى. وأسس يوسف «جماعة نشر الثقافة الحديثة» بهدف محو الأمية وتعليم اللغة العربية والحساب وتاريخ مصر، والفرع الأول كان فى بيته ٧ سكة جلال الملك فى بولاق. ثم فرع آخر فى السبتية بشارع ورشة القطن، وثالث يقترب من الفلاحين فى ميت عقبة، ورابع فى طنطا، وخامس فى أبو صير الملق (قرية حلمى يسن).

وهكذا اندفع «الحديدى» (وهذا هو الاسم الحركى ليوسف درويش) بكل قواه نحو الالتحام بالجماهير الحقيقية.

* * *

«ظهرت "الضمير" فى ميدان النضال حاملة مشعل النور إلى الطبقة العاملة والشعب المصرى، رافعة علم الجهاد لمناهضة الاستعمار والاستغلال حتى تتحرر الإنسانية من الظلم والاستعباد».

يوسف درويش

(مجلة الضمير – ١٩٤٦/٦/٢٤)

وإذ ينغمس المناضل فى بحر الجماهير فإنها تأتى إليه بطاقات متوهجة ولا حدود لها، فمن خلال فصول محو الأمية فى ٧ سكة جلال الملك ببولاق التقى يوسف درويش بمحمود العسكرى المناضل العمالى الشهير، ثم أتى محمد يوسف المدرك، التقطه ريمون دويك إذ كان يعمل عند أحد أقاربه وكان متوهج النشاط، ثم جاء طه سعد عثمان وكان شخصية عمالية ونقابية بارزة، فقد ظل رئيسا للنقابة العامة لعمال النسيج الميكانيكى وملحقاته بالقاهرة وضواحيها من ١٩٣٨ وحتى ١٩٤٢، ثم أمينا لصندوق ذات النقابة من ١٩٤٣ إلى ١٩٤٤ (طه سعد عثمان – مجلة الكاتب – يوليو ١٩٧١).

وبهذا الثالوث «العسكرى – المدرك – عثمان» بدأ التنظيم الوليد رحلته نحو النضال

العمالى والنقابى. ونقرأ لطه سعد عثمان: «كنت فى ذلك الوقت مع نفر من العمال والنقابيين نقرأ بعض الكتب الاشتراكية، وكان بعض المثقفين الاشتراكيين دائبى الاتصال بنا، واقتنعنا بضرورة تكوين تنظيم سياسى ومجلة تنطق باسمه» وهكذا بدأ يوسف درويش فى إعداد برنامج التنظيم السياسى، والذى أسمى «لجنة العمال للتحرير القومى - الهيئة السياسية للطبقة العاملة» وأصدرت اللجنة مجلة «الضمير» وكان يوسف درويش المشرف السياسى عليها وظل يكتب فيها باستمرار باسم محمود خيرى، «كان صاحب المجلة الدكتور عبد الكريم السكرى وكان شخصية تقدمية مشهورة»، وفى ذات الوقت كان يوسف درويش ينشط فى اتجاه المثقفين فأسهم فى أنشطة لجنة نشر الثقافة الحديثة واستأجر رخصة لمجلة اسمها «الأسبوع» لتصدر باسم اللجنة وكان وفى ذات الوقت ينشر مقالات عديدة فى مجلة «الفجر الجديد» التى أصدرتها ذات المجموعة ويوقع مقالاته باسم «حسن زكى».

نحن إذن أمام مناضل متعدد الأسماء، ومتعدد المواهب.

* يوسف درويش المحامى بالمحاكم المختلطة والمتخصص فى أغلب الأحيان فى القضايا العمالية.
* حسن زكى المحرر فى مجلة «الفجر الجديد» وأحد المسئولين السياسيين عنها.
* محمود خيرى المسئول السياسى عن مجلة «الضمير» «العمالية» وأحد أنشط كتابها.
* الحديدى: اسمه الحركى فى التنظيم الذى لم يكن قد تأسس بعد، واستمر محتفظا بالاسم مع تطور وتعدد أسماء هذا التنظيم. وبالمناسبة فإن اسم «الحديدى» لم يأت من فراغ بل هو مماثلة لذات اسم «ستالين».

وتأتى حملة الطاغية إسماعيل صدقى لتعصف بكل المؤسسات العلنية، وفجأة فى يوليو ١٩٤٦ تغلق: الفجر الجديد والضمير والأسبوع ولجنة نشر الثقافة الحديثة ومدارس محو الأمية ولجنة العمال للتحرير القومى ودار القرن العشرين للنشر، ولم يبق أمام هذه المجموعة سوى العمل السرى، وفى سبتمبر ١٩٤٦ يجتمع سبعة مناضلين ليؤسسوا الطليعة الشعبية للتحرير «ط.ش.ت» وأعد يوسف درويش لائحة التنظيم وكانت لائحة حديدية تليق بالحديدى وتليق بتراث «ما لا ينفع يضر»، واختير الحديدى مسئولا للتنظيم وفى البداية كان أعضاء التنظيم ٢٤ عضوا وبعد الاجتماع تقرر ضم ٥٠ عضوا آخرين.

وفى مايو ١٩٤٨ تعلن حرب فلسطين وتعلن معها الأحكام العرفية، وفى نوفمبر ١٩٤٨ يقبض على يوسف درويش ويرسل إلى معتقل هايكستب. وفيما هو فى معتقل هايكستب ولدت زوجته إقبال ابنة أسمتها «نولة» باعتبار أن يوسف قد ترك لها هدية قبل أن يعتقل.

وفى هايكستب التقيت معه، ولم أزل أذكره، شورت كاكى والصدر عار تماما يكسوه شعر كثيف ونشاط عارم وحيوية دافقة وقدر، من الحنان والرعاية يسكبه نحو هذا الطفل التائه بين حمى الصراعات الفكرية والسياسية الناشبة بين مختلف المنظمات والانقسامات التى ماج بها المعتقل. هذا الطفل التائه هو أنا ولهذا ظللت ممتنا نحوه على الدوام.

وقد ترك يوسف درويش خلفه قبل الاعتقال ثقبا نضاليا مهما هو «مكتب الخدمات النقابية» الذى أصدر عديدا من الدراسات، كثير منها كتبه يوسف درويش بخبرة المحامى العمالى ومنها «دليل النقابات» و«تشريعات العمل» و«قانون إصابات العمل».. إلخ، ويفرج عنه فى عام ١٩٤٩ إثر حملة من اتحاد المحامين الديمقراطيين العالمى، ويقرر يوسف أن يهب حياته كاملة للنضال فيترك مكتبه للمحامى مصطفى كامل منيب ويحترف، يترك الأسرة والمكتب وكل شىء ويختفى، ولكن لا يلبث أن يقبض عليه ليمضى فى السجن ثلاث سنوات (محكمة النقض ألغت الحكم ولكن بعد أن أكمل مدة العقوبة بالسجن)، ويتواصل النضال، ويتواصل السجن، فترات السجن الطويلة تتخللها فترات نضال مستمر، ويرحل يوسف لفترة إلى الجزائر ليترك هناك عطرا يذكره الكثيرون ثم إلى براغ ليمثل مصر فى مجلة «السلم والاشتراكية».

ثم يعود ليواصل النضال من أجل معشوقته التى وهبها كل شىء حتى آخر نسمات الحياة.

محمد يوسف المدرك

«لا حرية ولا ديمقراطية ما دام الاستعمار يستعبدنا
ولا استقلال ما دام المستبدون يحطمون حرياتنا».
محمد يوسف المدرك

الأب نجار فقير جدا والأسرة تكاد تعيش جائعة على الدوام والمسكن مجرد غرفة مظلمة فى حارة درب غزية بالخليفة.

«هل هناك دافع أكثر من ذلك كى يشعر الإنسان بضرورة النضال ضد المستغلين؟» هكذا سألنى فى بداية حوارى معه.

ويواصل: «كان أمل أبى أن أتعلم وكذلك كان أملى، ذاكرت واجتهدت لكن للفقر قراراته الملزمة، فبعد أن وصلت إلى السنة الثانية فى مدرسة خليل أغا الثانوية أصبح حتميا أن أترك الدراسة لأعول أسرة بأكملها، وبحس الراغب فى التعلم اشتغلت بائع كتب وكتبت روايات بدائية ولكن لا تجارة الكتب ولا الكتابة يمكنهما أن «تأكل عيش» فتركتها، وجبت وابور الجاز من البيت وطاسة وشوية زيت ووقفت فى الشارع أبيع طعمية، لكن الفقر يظل يحتل بيتنا، فعملت كاتب حسابات فى محل ثم فى مصنع صغير، ومع مراجعتى للحسابات اكتشفت كيف يستغل صاحب المصنع العمال، وكم يأخذ هو وحده وكم نأخذ نحن جميعا، وبهدوء قررت أننى لن أخضع طوال حياتى لقواعد الحساب الرأسمالية.. وبدأت». وهكذا انضم كاتب الحسابات إلى نقابة عمال المحال التجارية ولمع بسرعة فانتخب قبل أقل من عام رئيسا للنقابة ثم وكيلا أول لاتحاد نقابات عمال المملكة المصرية «الذى كان يرأسه النبيل عباس حليم».

ونمضى معه: «وظللت أسأل نفسى، هل يمكن للنبيل سليل الأسرة المالكة أن يكون عونا للعمال؟ وفى الناحية الأخرى كان هناك اتحاد آخر يميل نحو حزب الوفد ويرأسه حمدى

باشا سيف النصر، فهل نظل تحت رحمة النبيل والباشا؟ هذا السؤال ظل يلاحقني. وبهدوء ومن دون ضجيج شكلت لجنة من النقابيين الشرفاء سميناها هيئة تنظيم الحركة النقابية وكان هدفنا تخليص حركة الطبقة العاملة من سيطرة الباشوات، ثم أسست مكتبا سميته "مكتب الأعمال النقابية" وكانت مهمته تقديم الخبرة القانونية والعملية للعمال فى عملهم النقابى والتعريف بحقوق العمال»، وبعد فترة استطاع المدرك أن يكون علاقات واسعة بالحركة النقابية الوليدة وفاجأ الجميع بمظاهرة كبيرة سمتها الصحف «المظاهرة العمالية الكبرى» فى ٨ مايو ١٩٣٨، ويقول: «وأحسست بأن الموج يتجه معنا وأن العمال على استعداد للتحرك ففاجأنا الجميع بحركة جديدة أنا وسبعة من أشهر العمال النقابيين، افترشنا مساحة من ميدان العتبة معلنين الإضراب عن الطعام حتى تصدر الحكومة القوانين المطلوبة لتنظيم الحركة النقابية والتى تكفل حق التنظيم النقابى، وقد هز هذا الإضراب المفاجئ والاختيار الشجاع للمكان عديدا من الأوساط الصحفية والمسئولين وأنصت الجميع لى وأنا أتحدث باسم المضربين مطالبا بحقوق العمال، وكان ذلك فى ١٢ يوليو ١٩٣٩، وبهذا تكرس دورى كقائد عمالى». وفى الوقت نفسه كان المدرك يكتب مطالبا بحقوق العمال وتألقت مقالاته فى عديد من الصحف: شبرا – الشعاع – اليراع، وبعد ذلك فى مجلتى: الضمير والواجب، كما أصدر عديدا من الكتيبات التى توضح للعمال أهمية العمل النقابى وطرق النضال العمالى ومنها: الحركة النقابية، الفكرة النقابية، عيد أول مايو، حول مشكلة عمال المحلة الكبرى، الضمان الاجتماعى ضد البطالة، دليل التعارف النقابى، مجموعة قوانين العمل والعمال.

وهكذا أصبح الشاب بائع الطعمية السابق محمد يوسف المدرك، الأب الحقيقى والمفكر والمثقف للحركة العمالية فى موجتها الجديدة، بعد أن دمر اتحادها الأول تحت مطارق الحكومة الوفدية عام ١٩٢٤، والتى قررت حل الحزب الشيوعى وحل اتحاد نقابات العمال ومصادرة مقاره وأمواله وسجنت قادته، ونجد أنفسنا أمام زعيم عمالى حقيقى، ليس نبيلا ولا باشا لكنه عامل حقيقى ابن عامل حقيقى، ويبقى أمام هذا الزعيم أن يخطو خطوة أخرى وهى الربط بين النضال النقابى والنضال السياسى، حتى يمكن تغيير آليات الظلم التى يقوم عليها المجتمع الرأسمالى.

ويلتقى المدرك بالمحامى يوسف درويش ويلتقى معه قائدين عماليين آخرين، هما محمود

العسكرى وطه سعد عثمان، ويؤسسون معا «لجنة العمال للتحرير القومى، الهيئة السياسية للطبقة العاملة». إنها بداية حلم المدرك فى تأسيس منبر عمالى حقيقى يخوض نضالا سياسيا حقيقيا، ولأن المدرك يدرك أهمية النشر العمالى، فقد خاض مع رفاقه معركة إصدار جريدتهم العمالية «الضمير».

ويبدأ محمد يوسف المدرك معركته النضالية الحقيقية باتجاه الاشتراكية وباتجاه النضال الوطنى. وبصفته السكرتير العام للجنة العمال للتحرير القومى يوجه بائع الطعمية السابق رسالة موقعة باسمه إلى مجلس الأمن الدولى، مطالبا فيها بحقوق مصر فى استقلال حقيقى وبجلاء القوات البريطانية من مصر.

* * *

«أيها العمال. الحرية والاستقلال والديمقراطية هذه خلاصة مطالبنا. أيها العمال هيا للنضال من أجل أجور مناسبة وظروف عمل مناسبة».

محمد يوسف المدرك

كان العمال الذين يلتهبون حماساً، خاصة فى شبرا الخيمة والمحلة الكبرى قد تلقنوا درساً قاسياً بسقوط المرشح العمالى فى دائرة شبرا الخيمة فى انتخابات مجلس النواب، لقد جمع العمال قروشهم وجهودهم وحشدوا جموعهم حول مرشح وحيد من صفوفهم هو فضالى عبد الجيد، لكن الرجعيين تحالفوا ضده وأسقطوه. وهنا تفجر السؤال الحاسم ما هو الدور السياسى للعمال؟ وكيف يمكن للعمال أن يغيروا الخريطة السياسية الظالمة والمنحازة دوما للرأسماليين؟ ورويداً رويداً بدأت تتبلور فكرة إنشاء تنظيم سياسى للعمال، وإعداد برنامج سياسى للعمال. ونوقش الأمر أكثر من مرة فى الاجتماع الرباعى: يوسف درويش - محمد يوسف المدرك - محمود العسكرى - طه سعد عثمان، واستجمع المدرك خبراته السابقة ليضعها أمامهم، وأخيرا اتفق على وضع برنامج عام لتنظيم سياسى يحدد مطالب جميع الفئات الشعبية، وطنيا واقتصاديا واجتماعيا. برنامج يجمع بين البعد الوطنى التحررى والبعد الاجتماعى المنحاز للفقراء، وبعد مناقشة البرنامج الذى أسهم المدرك إسهاما كبيرا فى صياغته، تقرر تأسيس التنظيم وسمى «لجنة العمال للتحرير القومى - الهيئة السياسية للطبقة العاملة»، واتفق المجتمعون على أن هذه اللجنة هى فى

حقيقة الأمر لجنة تحضيرية لحزب الطبقة العاملة المصرية السياسى. واتفق على تأجيل إعلان الحزب لحين استكمال العمل التنظيمى والسياسى والجماهيرى وبعد أن يرتبط مؤسسوه بجماهير حقيقية. كما تقرر إصدار مجلة ناطقة باسم اللجنة وهى مجلة «الضمير» وأن تعلن اللجنة وجودها يوم إعلان إلغاء الأحكام العرفية، واتخذت اللجنة والمجلة مقرا لهما فى المنزل ١ شارع الباب الشرقى بالأزبكية. وفى أول يناير ١٩٤٦ قبض البوليس على الثلاثى المدرك – العسكرى – طه عثمان، بسبب مقالات نشرت فى «الضمير» ويتحرك العمال فى مصر وخارجها، للمطالبة بالإفراج عنهم، وفى الخطاب الدورى رقم ٣ الصادر عن مؤتمر نقابات عمال القطر المصرى تدعو اللجنة التحضيرية العمال والنقابات إلى الاحتفال بعيد أول مايو وتدعوهم إلى أن «يتذكروا أن زملاءهم محمد يوسف المدرك والعسكرى وطه مودعون فى السجن منذ ثلاثة أشهر لأنهم دافعوا عن قضية الحركة النقابية والعمالية» (مؤرخ فى ٢٨ أبريل ١٩٤٦). وبدأت الحملة العالمية فأرسل مصطفى العريس، ممثل عمال الشرقين الأدنى والأوسط فى اللجنة التحضيرية، لاتحاد نقابات العمال العالمى برقية إلى إسماعيل صدقى رئيس الوزراء يحتج فيها على اعتقال المدرك وزميليه بسبب نضالهم فى سبيل العمال، وقال فيها: «أحتج أشد الاحتجاج وأطلب الإفراج عنهم وإعادة الحرية لهم ليعودوا إلى ميدان النضال فى صفوف الشعب المصرى وفى سبيل حرية مصر واستقلالها»، وبرقية أخرى من إبراهيم بكرى باسم عمال سوريا.

ويتذكر المدرك مفردات تاريخه النضالى والإضراب عن الطعام فى ميدان العتبة فيضرب هو وزميلاه عن الطعام مطالبين بالإفراج عنهم، وقد بدأ الإضراب فى ٥ مايو ليثير موجة من الاحتجاجات العمالية ويفرج عنهم فى ٣٠ مايو ١٩٤٦. ولم يكن التدخل العمالى العالمى والعربى وليد المصادفة. فالمدرك كان شريكا مؤسساً فى اتحاد نقابات العمال العالمى، فقد فاجأ الجميع بظهوره فى باريس حيث عقد الاجتماع التأسيسى لاتحاد النقابات العالمى، محملا بتوقيعات ١٠١ نقابة عمالية، تفوضه فى الانضمام باسم عمال مصر إلى الاتحاد العالمى، وقد انتخب عضوا فى المجلس العام للاتحاد.

وفى عام ١٩٤٨ تعلن الأحكام العرفية ويكون المدرك من أوائل المعتقلين، وخلال اعتقاله قرأ عن تشكيل المجلس الاقتصادى والاجتماعى التابع لمنظمة الأمم المتحدة فاستثمر وقت المعتقل فى إعداد تقرير مفصل عن أوضاع العمال المصريين الاقتصادية والاجتماعية

والقيود المفروضة على حقوقهم النقابية. وتم تهريب هذا التقرير من المعتقل وأرسل إلى المجلس الذى ناقشه باستفاضة، كما نشرت الصحف المصرية الكثير عن هذا التقرير. وإذ تلغى الأحكام العرفية وتأتى حكومة حسين سرى باشا لتجرى انتخابات برلمانية جديدة، ويرشح المدرك نفسه فى دائرة شبرا الخيمة. ويبدأ المعركة بدعوة العمال للتبرع بقروشهم لحملته الانتخابية. «هات قرشك وأعطنى صوتك».. وفى أحد المؤتمرات الانتخابية وقف المدرك يشرح برنامجه الانتخابى: «أيها العمال.. نريد لكم أجراً مناسباً وظروف عمل مناسبة، وللفلاح الفقير أرضا ليزرعها، وللموظف الصغير مرتباً أعلى، وللتاجر الفقير وقاية من الإفلاس. نطالب للشعب بتعليم مجانى وعلاج مجانى ومسكن صحى. ونريد للشعب أن يحكم نفسه بنفسه لتحقيق خيره ومصالحه»، وكان هذا البرنامج كفيلا بأن تتوحد كل الأحزاب الرجعية وتجمع جهودها لإسقاطه. تماما كما حدث مع فضالى عبد الجيد من قبل.

ثم يأتى السجن من جديد، فبين أعوام ١٩٥٩ و ١٩٦٤ يكمل المدرك دورته على مختلف السجون، وفى عام ١٩٦٧ يهاجمه الشلل فيرقد فى فراشه مستمرا فى نضاله، كتابة وتثقيفا، لوفود لا تنقطع من أجيال جديدة من العمال. وتتألق مقالاته المعنونة «صفحات من تاريخ عمال مصر» على صفحات مجلة «الثقافة العمالية».

واخيرا يقهره المرض والفقر وعذابات السجون ويرحل المدرك فى أغسطس ١٩٧٧، يرحل تاركا تاريخا لا ينسى.

محمود العسكرى

«لماذا أنا مجنون؟».
(اسم رواية لم تكتمل لمحمود العسكرى)

حاول محمود العسكرى أن يدون تاريخ حياته فى رواية «لماذا أنا مجنون؟» لكن زحمة الحياة ومعارك النضال السياسى والنقابى وانتزاع لقمة الخبز حرمته وحرمتنا من متعة استكمالها.

ويتخذ العسكرى فى هذه الرواية أو فى مشروعها اسم «خيرى» ويحكى لنا حكايته: «الأبوان فقيران نزحا من ريف مصر إلى القاهرة بحثا عن لقمة خبز، عمل الأب فى سكك حديد الحكومة المصرية (هكذا كان اسمها لأنه كانت توجد خطوط سكك حديد غير حكومية مثل الدلتا والفرنساوى) لكن الأب يشارك بحماس فى ثورة ١٩١٩ فيصدر قرار بفصله وظل مفصولا حتى مات. وكالعادة دخل «خيرى» الكتّاب، لكنه يتمرد فيرفض عقاب الشيخ المتكرر ولأن «الألفة» وهو واحد من تلاميذ الكتاب ينوب عن الشيخ فى متابعة حفظ التلاميذ للقرآن، وينوب عنه فى ضرب من يستحق العقاب كان يضطهده، فقد جمع خيرى مجموعة من التلاميذ وترصدوا «الألفة» خارج الكتاب وضربوه علقة ساخنة. وانتهت علاقته بالكتاب. ويدخل المدرسة الابتدائية ويتسلط على أبيه حلم أن يصبح الابن ضابطاً. وبعد أن يحصل محمود على الابتدائية أخذ يعمل فى ورشة ميكانيكية نهاراً ثم يدرس بالقسم الليلى فى المدرسة الثانوية. لكن الحياة تطحن بقسوتها كل الأحلام. والفتى المتمرد يساعدها على ذلك فالمدرس يأمر التلاميذ بشراء كتاب خارجى غالى الثمن ويتصدى له الفتى ويضربه فيفصل».

ولنترك «خيرى» لنواصل مع محمود العسكرى رحلته النضالية التى بدأت باشتغاله فى شركة «النسيج والحياكة المصرية» ويزداد المتمرد تمرداً فيقود إضرابا لعمال المصنع

ليذوق طعم النضال النقابى ويتخذ منه سبيلا لنضال لا يهدأ. وفى عام ١٩٣٧ يصبح عضوا فى مجلس إدارة نقابة نسيج الحرير والنسيج اليدوى. وفى عام ١٩٣٨ ينتخب عضوا فى مجلس إدارة النقابة العامة لعمال النسيج الميكانيكى وملحقاته بالقاهرة. وفى ١٢ يونيو ١٩٣٩ فوجئ سكان القاهرة بمجموعة من العمال تفترش مساحة من ميدان العتبة معلنين إضرابا مفتوحاً عن الطعام احتجاجاً على تأخير صدور التشريعات العمالية، وفى مقدمتها قانون الاعتراف بالنقابات. وكان محمود العسكرى هناك جنبا إلى جنب مع محمد يوسف المدرك وعديد من المناضلين النقابيين.

وفى عام ١٩٤٣ اعتقل العسكرى بقرار من الحاكم العسكرى مصطفى النحاس باشا. والسبب مثير للدهشة؛ فقد نظم العسكرى إضرابا لعمال النسيج احتجاجا على تعيين فؤاد سراج الدين وزيراً للشئون الاجتماعية (وهى الوزارة المختصة بشئون العمال) بدلا من وزير محبوب من العمال هو عبد الحميد عبد الحق. وتجرى الانتخابات النقابية وهو فى المعتقل لكن العمال لم ينسوا قادتهم فينتخبونه سكرتيرا عاما لنقابة عمال النسيج. ويبدأ السجل النقابى الحافل.

– ١٩٤٤ يشارك فى تأسيس مؤتمر نقابات عمال الشركات والمؤسسات الأهلية.

– ١٩٤٥ يصبح عضوا فى اللجنة التحضيرية لمؤتمر نقابات عمال مصر.

– ١٩٤٥ تصدر الحكومة قراراً بحل نقابته (النقابة العامة لعمال النسيج الميكانيكى وملحقاته بالقاهرة وضواحيها).

– وفى العام ذاته يصدر قرار من اتحاد الصناعات بوضع اسم محمود العسكرى فيما سمى «القائمة السوداء» وهى قائمة تضم أسماء العمال الذين يتعين على كل أصحاب الأعمال الامتناع عن قبولهم كعمال فى مصانعهم أو ورشهم.

وهكذا فصل محمود العسكرى فصلا أبدياً كما حدث مع والده. لكن زملاءه العمال منحوه تفرغاً نقابياً فتفرغ للنضال ضد استغلال رجال الأعمال. وفى ذلك الحين يلتقى العسكرى بالمحامى يوسف درويش ومحمد يوسف المدرك زميل إضراب العتبة ويعمل محمود معهما فى «جمعية الشباب للثقافة الشعبية» التى نظمت مدارس لمحو أمية العمال. ويسهم العسكرى فى تكوين لجنة العمال للتحرير القومى» وفى إصدار مجلة «الضمير». ثم تبدأ رحلة السجون.

– يناير ١٩٤٦ يسجن فى قضية مجلة «الضمير» التى اتهم فيها بالعمل على قلب نظام الحكم.

– يوليو ١٩٤٦ قبض عليه بتهمة الدعوة لعقد اجتماع غير مشروع «لأنه دعا مؤتمر نقابات عمال مصر للاجتماع لتقرير الدعوة لإضراب عام ضد الاحتلال الإنجليزى واحتجاجاً على تجاهل الحكومة للمطالب العمالية».

– ١٩٤٨ اعتقل فى أعقاب إعلان الأحكام العرفية. ويبقى حتى ١٩٥٠. ثم يعتقل عقب قيام ثورة يوليو ليظل معتقلاً حتى ١٩٥٦ ثم يقبض عليه فى يناير ١٩٥٩ ليبقى فى السجن حتى ١٩٦٤، إنه المفصول أبداً المسجون دوماً.

وفى غمار هذه الملحمة كان واحداً من أربعة أسسوا تنظيما شيوعياً اتخذ أسماء عدة، وهو ما طالعنا مسيرته فى حديثنا عن صادق سعد ويوسف درويش والمدرك وغيرهم.

.. أما أنا فأتذكره عندما كنت طفلا لم أزل وساقونى إلى معتقل هايكستب كان هناك أصحاب ملابس أنيقة يزهون بها فى تباه، أما هو وزميلاه عبد الفتاح الباجورى وعبد الغفار الزعفرانى فقد تحدوا الجميع بلباس من الدمور ولا شىء آخر، وعديداً من المرات شاهدت حوارات بين العسكرى وزملاء المنظمات الأخرى، كان يجلس ويتحدث فى كبرياء قائلاً «إننا نرى» فباغته أحدهم عن عمد «أنتم من؟». فيقول العسكرى «نحن» (أليس قائدا فى التنظيم الذى يرفض البوح باسمه).. وهناك أطلقوا عليه وعلى زملائه اسم «نحن».

وعندما أفرج عن العسكرى مع جميع الشيوعيين عام ١٩٦٤ تقرر منحه عملا بسيطا فى أقاصى الصعيد فرفض الابتعاد عن شبرا الخيمة ولكن الأسد لا يعدم فريسة كما قال جمال الدين الأفغانى. فأخذ يحاضر فى النقابات وكتب فى مجلة «العمال» سلسلة من المقالات عن تاريخ الحركة العمالية المصرية. ويواصل العسكرى معاركه ففى انتخابات ١٩٧١ يجمع رجاله من العمال ليساندوا المرشح القبطى إسكندر صليب تحديا لحملة إخوانية ضده، ثم أمعن فى التحدى والتمسك بشعار الوحدة الوطنية فانضم إلى جمعية مسيحية فى الحى. وعندما تأسس التجمع ظل يطل علينا من بعيد. يتعاون، يجامل، يحضر الندوات، يتحدث فيها لكنه لم ينضم إلينا.. ربما لأننا لسنا حزبا بروليتاريا خالصا. ولكن اتفاقيات كامب ديفيد وما صحبها من حملات عنيفة على التجمع ورجاله أتت به إلينا وحرر استمارة العضوية قائلا: «ما دام فيه سجن ومعركة لازم نبقى موجودين». ثم نظر إلىّ تأملنى طويلا وقال: «ياه. فين أيام زمان سنة ١٩٤٩ لما أنا كنت شاب وأنت كنت عيل»؟ وفى العام ذاته ١٩٨٧ قرر أن يرشح نفسه لانتخابات مجلس الشعب، وفيما أشجعه على أن يستكمل أوراق الترشيح وصلنى نبأ رحيله.

أبو سيف يوسف

«مع أن الوفد كان يمثل الطبقة البرجوازية المتقدمة إلا أن إمكانيات هذه الطبقة أخذت تضعف فانعزلت شيئا فشيئا عن الشعب، وظهرت طبقة شعبية أخرى هى طبقة العمال».

أبو سيف يوسف

(الفجر الجديد - ١٦/٧/١٩٤٥)

وإذا كان الشاعر القديم قد أكد

أيقنت أن المستحيل ثلاثة..

الغول والعنقاء والخل الوفى.

فإنه لم يتعرف على أبو سيف يوسف الذى ظل وحتى رحيله من المستحيل أن تجد سبيلا لدفعه للحوار عن نفسه أو عن تاريخه أو عما فعل أو عما سيفعل، هل هو العزوف التقليدى للفلاسفة، أم الترفع عما هو ذاتى أو هو التطبيق العملى لشعار «ما لا ينفع يضر» لكن زملاءه فى تبنى هذا الشعار تحدثوا جميعا عندما أدركوا أن تقادم الأحداث يجعلها متاحة، وأن إغلاق عين التاريخ يضر ولا يفيد، لكن أبو سيف يوسف ظل صامدا صامتا مترفعا عن الحديث عن نفسه، وكان من الضرورى أن نبحث عن مصادر أخرى لنتعرف على السياسى والفيلسوف أبو سيف يوسف، وعن الرفيق عباس، وهذا هو اسمه الحركى الأخير.

ووجدنا عدة مصادر للتعرف عليه منها حوارات مع رفاقه وأيضا كتاباته فى «الفجر الجديد» التى كتب فيها باسمين «رأفت يوسف» و«أ.ى» وفى العدد الأول للفجر الجديد نقرأ مقالا فلسفيا بعنوان «الفن والطبيعة والمجتمع» ونتعثر فى قراءة المقال لصعوبة المرتقى، فيه عبارات من نوع «لا ينبغى أن نعارض المثال بالحقيقة لأن المثال هو التعبير الأسمى عن الحقيقة»، والمقصود من العبارة معلوم لكنه أتى مغلقا بإحكام، وقد أكد لى أبو سيف فى جلسة صفاء فى مجلة «الطليعة» أنه مظلوم بهذا المقال لأن أحد مسئولى الجريدة أعطاه

المقال بالإنجليزية وطلب ترجمته، وفات الجريدة أن تشير إلى أن المقال مترجم (الفجر الجديد - ١٦/٥/١٩٤٥)، وفى المجلة مقال عن حزب الوفد كتبه هو تحت توقيع «رأفت سيف» وهنا تجد التحليل السلس والمتقن فالحديث فى السياسة رحب، وفى المقال نقرأ «لقد تغلبت العناصر اليمينية على سياسة الوفد ووجهتها، وكان أن أصبح أميل من ذى قبل إلى التفاهم مع المستعمر، ومنذ أقيلت الوزارة الوفدية الأخيرة وسياسة الوفد مطبوعة بطابع التردد إزاء المستعمر، وإزاء المشاكل الداخلية على السواء، فإزاء الاحتلال يكتفى بإرسال مذكرات ضعيفة للسفارة البريطانية، ثم تعلن صحفه أن الوفد قد أدى مهمته، أما فى الداخل فالوفد لا يعرف كيف يدافع دفاعا سليما عن حقوق الشعب وحرياته الأساسية» (الفجر الجديد - ١٣/٣/١٩٤٦)، وفى عدد آخر تقرأ مقالا بعنوان «فلسفة أم أسطورة»، وبرغم أنه لم يورد فيه كلمة الماركسية ولا مرة واحدة فإن مطالعة المقال: تكشف عن مقاربة ذكية وسلسة يبشر فيها بالماركسية، ونقرأ فى ختام المقال «والمذهب المادى يمكن أن يفهم فهما عقليا سليما، وقد وجدت الفلسفة التى قدمته فى صورة قبلها العقل وأقرها العلم ونعنى بها المادية الجدلية التى استعانت بمنهجها الدياليكتيكى على دراسة الطبيعة والإنسان فى تطورهما وخرجت من ذلك بمذهب إنسانى متناسق»، واكتفى أبو سيف بهذا الوصف (الفجر الجديد- ١/٧/١٩٤٥)، وإذا كان العقاد يترصد أى فكر حر أو تقدمى فقد هاج لهذا المقال وشن هجوما عنيفا على «الفجر الجديد» التى بادلته هجوما بهجوم ويبرز أبو سيف يوسف باسمه المستعار فى رد موضوعى متقن فيقول: «ونحن نستطيع أن ندحض اتهام الماركسية أنها عقيدة جامدة وتبشير، بالنظر فى طبيعة هذه الفلسفة، وقد قلنا فيما تقدم إن الماركسية تتفق مع العلم فى أنها تنظر إلى الحقيقة نظرة نسبية ونرى أن الوصول إليها عمل تحققه الإنسانية والأجيال المتعاقبة لا فرد واحد»، ثم يقول: «ولقد بدأ اختبار الفلسفة الماركسية، وقد دل الاختبار على نجاحها البين الملموس، أن الفلسفة الماركسية فلسفة حركة، بل لعله من الأفضل أن نقول إنها الفلسفة الأولى والوحيدة للحركة العامة، حركة العقل البشرى فى محاولته أن يوافق الحقيقة موافقة وثيقة، ومدللا باستمرار على هذا التوافق بنجاحه العملى» (١/١٠/١٩٤٥).

وتكون معركة أبو سيف يوسف ضد العقاد سبيلا لكى تكشف «الفجر الجديد» تماما عن وجهها فتخوض معركة الدفاع عن الماركسية ونقرأ له فى عدد آخر (١٦/٩/١٩٤٥):

«يتهم العقاد الماركسية بالباطل فى كل شىء وهو يزعم أن ماركس لم يحيا حياة إنسان، وحقا أن ماركس لم يكن يتصف بالصفات الأساسية التى تجعله إنسانا فى نظر العقاد وأشباهه فهو لم يكن أنانيا ولا بوقا للرأسماليين ولا داعيا يفسد كل القيم ليعيش فى يسر ولين بينما الملايين مستعبدون ومضطهدون»، ثم تصدر «الفجر الجديد» كتابا أعده أبو سيف بعنوان «من حقائق الماركسية.. رد على العقاد».

ويمضى الرفيق عباس فى رحلة النضال إلى نهايتها يواصلها مفكرا ومنظما وقائدا. وعندما يقبض عليه بعد رحلة هروب طويلة يكون صاحب قرار الاعتراف بعضوية الحزب الشيوعى أمام المجلس العسكرى العالى. وعندما يفرج عنه فى ١٩٦٤ يبدأ رحلة عمل فكرى راق فى مجلة «الطليعة» ثم فى مركز الدراسات الاستراتيجية بـ«الأهرام» ومؤسسا فى منبر اليسار وقائدا فى حزب التجمع ويبقى كتاباه عن الأقباط والوحدة الوطنية ثم كتابه «وثائق ومواقف من تاريخ اليسار المصرى» علامات أساسية فى الفكر المصرى.

حلمى يسن

«فى القرية، جمعت كل ما أمتلك حتى أوفر نفقات زواج أختى، وفيما أنا عائد إلى القاهرة سمعت أن عدداً من رفاقى قبض عليهم فقررت اقتسام المبلغ، النصف لأسر الرفاق المعتقلين والنصف للعروسة».

حلمى يسن

(فى حوار معه)

هو واحد من أبناء الأكابر ليس فى قريته «أبو صير الملق» وحدها وإنما فى كل مديرية بنى سويف. والده كان واحداً من الأعيان، أو بالدقة كبار الأعيان، وفى ذلك الزمان كان كبار الأعيان يتم استدعاؤهم مرتين فى العام إلى قصر عابدين لحضور التشريفة الملكية ومصافحة مولانا جلالة الملك. (يوم عيد ميلاده ويوم عيد جلوسه). الأب المفعم بروح الأكابر اصطحب ابنه الطفل حلمى لحضور التشريفة فى سابقة لم تحدث من قبل. رجال تشريفات القصر حاولوا إبعاد الطفل فثار كل أكابر بنى سويف وصمموا - من أجل عيون كبيرهم - على حضور الابن. وقد كان، الجد كان شديد الثراء ثم تفرقت ثروته على تسعة أبناء، ووالده نال نصيبا كبيرا من الثروة والأرض. وعاش هو والأسرة عيشة مترفة. كان الوالد مثقفا ومتحررا والأم التى كانت طالبة بالمدرسة السنية كانت أيضا تهوى القراءة، ومع اشتعال ثورة ١٩١٩ كان الأب والأعمام فى المقدمة، وكانوا جميعا وفديين وبرز منهم واحد من أشهر الأسماء الوفدية التى اندفعت وبلا حدود فى الولاء للوفد وللنحاس باشا وهو الأستاذ حسن يسن.

والطفل حلمى يرضع السياسة منذ البداية، وعندما تعلم القراءة كان هو ومجموعة من الأطفال يقفون على مشارف القرية انتظارا للبوسطجى الطواف الذى يأتى حاملا لفافتين لجريدتين اشترك فيهما الأب وكانتا المنبع الوحيد للتعرف على التطورات السياسية فى قرية لا تصلها إلا هاتان النسختان (كوكب الشرق والجهاد)، وعندما يتسلم حلمى

اللفافتين يقف بقامته القصيرة ليقرأ بصوت جهورى مفعم بالحماس أهم المقالات على جمهور يحتشد سريعا من رجال القرية.

وعندما هدأت الثورة وبدأت الانشقاقات فى حزب الوفد كانت المعارك الانتخابية ضارية وكان الأب قائدا فى هذه المعارك التى كثيرا ما كان يستخدم فيها السلاح والعنف، ودوما تنتهى المعركة، إما بفوز المرشح الوفدى وإما بدخول الأب إلى السجن.

وفى انتخابات برلمان الطاغية صدقى تقرر أن يزور الباشا المدير بنفسه هذه القرية المشاكسة ليضمن نجاح مرشح الحكومة. وتحركت الأم، جمعت كل نساء القرية وأحضرن طفلا أسمر اللون وجردنه من ثيابه وبللنه بالماء والطين ومددنه بعرض الطريق الوحيد المؤدى إلى القرية، وما إن اقترب موكب الباشا المدير حتى بدأ الصراخ والعويل حزنا على الغريق المزعوم، لكن المدير الذى ربما اكتشف الملعوب، حاول اختراق حشد النساء وهنا تصدى له الرجال بالحجارة والنبابيت وانتهت المعركة بالقبض على الأب والأم ومعهما عديد من رجال القرية ونسائها.

وفيما كان حلمى يحاول إنجاز تعليمه الثانوى بالقاهرة كانت الأسرة تتهاوى اقتصاديا، رجال الأسرة، وفيهم الأب، أدمنوا المخدرات وبددوا ثروتهم وتبدد معها نفوذهم. وطوال المرحلة الثانوية كان «حلمى» وفديا نشيطا ومتحمسا ومشاركا فى كل المظاهرات التى كان يقودها دوما حسن يسن، زعيم الطلبة الوفديين. وككل شاب وفدى متحمس انضم لفرق القمصان الزرقاء، لكنه شعر بالحزن فى طابور الاستعراض عندما كان د. محمد بلال قائد فرق القمصان يهتف أمام الطابور «شبابنا للملك والوفد» وجماهير الطابور تردد خلفه الهتاف. وفى أعماقه قال حلمى لنفسه: للوفد نعم ولكن للملك لا.

وخلع القميص الأزرق وبقى وفديا متحمسا، وفى عام ١٩٣٦ حصل على شهادة البكالوريا قسم علمى، وفقد الأمل فى استكمال تعليمه؛ فالأب أفلس تماما وكان عليه البحث عن وظيفة ليعول الأسرة، وتوظف فى المعامل المركزية لوزارة الصحة بوظيفة مساعد معمل كيماوى، والراتب خمسة جنيهات.

وإذ تشتعل الحرب العالمية الثانية، التهبت نقاشات لا تنتهى حول من يقف مع من؟ كل من كانوا حوله يؤيدون هتلر وموسولينى ضد الاحتلال الإنجليزى، أما هو، ولا يدرى لماذا، فقد وقف ضد النازى وساند الحلفاء وخاض فى ذلك معارك كلامية لا تنتهى، وفى غمار

النقاش المحتدم دعاه أحد أقاربه إلى ندوة تناقش ذات الموضوع. وفى ٥ شارع عدلى خطا حلمى يسن أولى خطواته نحو وعى جديد ومستقبل جديد ونحو مصير أبدى.

***

«لعل عبد الناصر قد تصور أن وجود ضباط كبار على منصة القضاء سوف يرهبنا لكنه فوجئ بنا ونحن أشد ضراوة، ونعلن بوضوح وإصرار أننا أعضاء فى الحزب الشيوعى».

حلمى يسن

(فى حوارى معه)

الآن الفتى يخطو نحو إشراقة الشمس، ففى ٥ شارع عدلى كان مقر «جماعة الدراسات» تلك الجماعة التى تشكلت كبديل لاتحاد أنصار السلام، وهناك التقى بعديد من الشخصيات الملهمة كان هناك بول جاكو ويوسف درويش وصادق سعد وريمون دويك وعبد العزيز فهمى ومحمد إسماعيل، ومع تراكم الندوات والمحاضرات كان الضوء يتراكم والفتى يقترب أكثر فأكثر من وعى جديد، وإذ يتزايد عدد المصريين فى «جماعة الدراسات» يجرى تجميعهم فى جماعة جديدة «جماعة الشباب للثقافة الشعبية»، وهناك تابع محاضرات من نوع جديد، فالمحاضرون الشيخ أمين الخولى الذى حدثهم عن فهم مستنير للإسلام وإلى بنت الشاطئ وعبد الحميد الحديدى، وكانت العيون اليقظة تتابعه واكتشفت إصراره ووعيه فقرروا منحه جرعة تدريب ودعوه إلى أن يقرأ دراسة مترجمة عن خزان أسوان ثم يستعرضها أمام المجتمعين، وخطوة أخرى نحو الاقتراب من الفلاحين والعمال وكانت مدرسة محو الأمية فى قرية ميت عقبة وأخرى فى بولاق للعمال مجالا لبداية نشاطه، ومع محو الأمية، كانت محاضرات مبسطة عن التاريخ والثقافة العامة، والفتى الملتهب حماسا ازداد حماسا، ينتهى من عمله فى المعامل المركزية لوزارة الصحة فينطلق إلى الترامواى ليركب حتى نهاية الخط حيث مكان مسرح البالون الحالى، ثم سيرا على الأقدام لعدة كيلومترات حيث الفلاحين تلاميذه فى فصل محو الأمية فى ميت عقبة.

وعندما صدرت مجلة «الفجر الجديد» كلف أن يتسلم عددا من النسخ ليقوم ببيعها، فكان الأكثر قدرة على البيع، ثم أسهم فى تحريرها بعديد من التعليقات وقعها باسم

«محيى» أحيانا، وأحيانا أخرى باسم «حمادة»، ويأتى يوليو ١٩٤٦ وتأتى معه أكبر حملة بوليسية ضد القوى الاشتراكية والتقدمية وكل الليبراليين واليساريين المصريين، ورأينا كيف دفع حلمى نصف ما خصصه لزواج أخته لأسر السجناء وترك النصف الآخر للعروسة.

وفى سبتمبر ١٩٤٦ اتصلت به زوجة ريمون دويك وأبلغته بموعد سيلتقى فيه مع شخص فى ميدان الإسماعيلية «التحرير»، هناك وجد صادق سعد، سارا معا وبهدوء قال صادق: «أود أن أبلغك قرارا مهما»، وأرهف حلمى السمع.. وإذا بالقرار أنه تقرر منحه العضوية، صاح حلمى: «يا نهار اسود أمال أنا كنت إيه طوال الست سنوات الماضية»، وأجاب صادق بذات الهدوء «كنت مرشحا»، وهكذا وبعد ست سنوات من نضال ساخن أصبح حلمى عضوا فى خلية لتنظيم «طليعة العمال» وكان معه فى الخلية عبد العزيز فهمى ومحمد إسماعيل وسائق أتوبيس اسمه عم محمد. وفى الاجتماع الأول ألقت الخلية على عاتقه مهام كثيرة مثل أن يعمل على إنشاء رابطة لمساعدى المعامل بوزارة الصحة.. العمل على إنشاء ناد رياضى بحى الخليفة.. الانضمام إلى لجنة حزب الوفد بحى الخليفة، وأيضاً جمع توقيعات للمطالبة بانتخابات حرة تجريها حكومة محايدة.. وكذلك الاشتراك فى توزيع المنشورات السرية الحزبية.

ولعل هذه المهام توضح بذاتها مسارات عمل هذا التنظيم، وكانت دراسة الماركسية منتظمة فى اجتماعات الخلية.

وذات يوم حددوا له موعدا فى سرية تامة ليجد نفسه فى شقة بشارع الشيخ ريحان، إنه مؤتمر مدينة القاهرة، كان المندوبون ١٢ وجرى انتخابه مسئولا للقسم ثم تم تصعيده إلى لجنة منطقة القاهرة، وفى عام ١٩٤٨ تعلن الأحكام العرفية ويقبض على عدد كبير من الرفاق ويتم تصعيده إلى اللجنة المركزية، وفى عام ١٩٤٩ وفيما كان قد استقر وظيفيا وأصبح مساعدا للمدير العام للمعامل المركزية وزاد راتبه إلى ١٥ جنيها، استدعى لمقابلة مسئول وتم ترتيب اللقاء بحرص شديد وهناك التقى بأبو سيف يوسف الذى سأله بهدوء: «هل أنت مستعد للاحتراف؟» وبلا تردد خرجت نعم من فمه مفعمة بالحماس، وبعد يومين استقال من الوظيفة ووهب نفسه كلية للنضال، وكان راتبه كمحترف ستة جنيهات، وبعد فترة قبض عليه وأفرج عنه ثم قبض عليه ليفرج عنه، وأصدر له التنظيم قرارا بالاختفاء

والسفر للإسكندرية، الاختفاء هنا له مذاق خاص، أن تبحث عن عمل لنصف الوقت يكون غطاء وتعتمد على دخله فى المعيشة ولا تكلف التنظيم شيئا، وعمل كمدرس خصوصى، ثم توجه إلى المحلة ليعمل ممرضا فى عيادة للأمراض الصدرية.

ويأتى يناير ١٩٥٩ ليكون ضمن المقبوض عليهم ويقف أمام قضاة المجلس العسكرى العالى معلنا: «أنا أعتز وأتشرف بأن أعلن أننى عضو فى الحزب الشيوعى المصرى»، ويحكم عليه بالأشغال الشاقة ثمانى سنوات نال فيها من التعذيب الوحشى ما ناله كل الرفاق.. ويبقى حتى أبريل ١٩٦٤ حيث يفرج عن الجميع.

ومع أول شعاع لمنبر اليسار كان حلمى يسن معنا وظل معنا حتى الآن.

وتلقيت رسالة خطية منه يحكى فيها بعض ما فاته أثناء حوارى معه اختتمها قائلا: «إن هذا التاريخ أذكره بكل احترام واعتزاز وفخر وأعتبر أننى أديت بما فعلته بعضا من دين للوطن والشعب والعقيدة التى جعلت منى إنسانا آخر».

وأنت تستحق يا رفيقنا العزيز المزيد من الفخر.

د. عبد الكريم السكرى

«إن سياسة الحكومة هى قصر التعليم على أبناء السادة حتى لا يجلس معهم أو يتعلم مثلهم أبناء عبيدهم من العمال والفلاحين»
د. عبد الكريم السكرى

وابتداء يتعين أن أتقدم باعتذار إلى هذا المناضل د. عبد الكريم السكرى الذى نسيه الجميع وربما أنكره الجميع. فلسبب أو لآخر تتساقط من ذاكرة اليسار أسماء مناضلين حقيقيين لكنهم كانوا يعملون فى صمت ولا يجيدون فن إظهار أنفسهم. وعلى أية حال لسبب ما اختفى اسم عبد الكريم السكرى من ذاكرة اليسار المصرى.

اعتذار آخر أتقدم به لزميل الدراسة فى كلية الحقوق مجدى السكرى الذى لم أقابله ولم أسمع عنه منذ أكثر من خمسة وخمسين عاما وأتمنى له كل خير. أعتذر له لأننى صدمته صدمة كانت قاسية بالنسبة له. ففى ساحة جقوق عين شمس كنت أقف إلى جوار مجلة حائط كتبتها من أولها لآخرها وكان اسمها «صوت الشعب»، ويدرك الطلاب أنها مجلة يسارية، فاقترب شاب فى مثل سنى أو أصغر قليلاً وقال بكبرياء: «أنا مجدى السكرى قريب الدكتور عبد الكريم السكرى» وبطريقة لم أغفرها لنفسى، ولن أغفرها قلت: «مين عبد الكريم السكرى؟» فابتعد الفتى ولم يحدثنى مرة ثانية حتى تفرقت السبل. وظللت ألوم نفسى ثم تراكم اللوم عندما عثرت على أعداد من مجلة «الضمير» فعرفت الرجل ودهشت لأننا تذكرنا جميع من أسهموا فى مجلة «الضمير» وأنكرناه.

وبدأت رحلة البحث: أصدر عبد الكريم السكرى مجلة «الضمير» عام ١٩٣٨، وكانت مجلة إقليمية تصدر فى بلدته بنى سويف.

وأشرك السكرى معه عدداً من طلاب الجامعة التقدميين. وكانوا يطبعونها فى المكتب الدولى للطبع والنشر فى الجيزة. وفى ١٩٤٥ نجح محمود العسكرى فى إقناع عبد الكريم

السكرى فى إصدارها باسم «لجنة العمال للتحرير القومى»، ولم يكن توافق السكرى مع هذه اللجنة التى تقول عن نفسها إنها «الهيئة السياسية للطبقة العاملة» مجرد مصادفة. فقبل هذه العلاقة كان السكرى قد أصدر من مجلته ٢٧٢ عددا كمجلة ليبرالية وتقدمية. ويمكن القول أيضاً إنها كانت يسارية لكنها كانت محلية محصورة فى بنى سويف فلم يسمع عنها الكثيرون. المهم يكتب طه سعد عثمان فى مذكراته: «فى الساعة الخامسة من مساء الخميس أكتوبر ١٩٤٥ خرج محمود العسكرى من المطبعة حاملا معه نسخ أول عدد من الضمير أصدرته لجنة العمال للتحرير القومى». ويواصل السكرى مساهمته فى تحرير «الضمير» ونقرأ له فى مقال بعنوان «العمال للإنتاج القومى كالعمود الفقرى للجسم الإنسانى»: «قوام الإنتاج فى محيط حلبة الأعمال المختلفة وكل ما يحتاج إليه العالم الإنسانى من مطالب الحياة.. هو العامل. ومن هنا كان من حقه أن يفخر بحق حين يرى نفسه الوسيلة الوحيدة للإنتاج القومى»، ثم يقول: «وأظن أن الزمن الآن يدفع الطبقة العاملة إلى أن تسعى وراء حقها المهضوم ومطالبها العادلة فى أن يكون لها نصيب من هذه الحياة الرغدة يتناسب مع جهدها وتضحياتها، ولا تستطيع هيئة منصفة أن تقف أمام جهاد العمال فى سبيل حقوقهم المشروعة العادلة» (الضمير - ٧ / ١١ / ١٩٤٥).

ويكتب السكرى على صفحات «الضمير» سلسلة من المقالات بعنوان «أيها العامل.. دعنى أحدثك» قال فى واحدة منها: «أنت عامل ومعنى ذلك أنك مواطن منتج، وعلى هذا الأساس الصحيح أرجو أن تحيى فى نفسك شعور الثقة بالنفس والاعتزاز بالكرامة.. أنت مجتهد فى عملك فكن مجاهداً فى الدفاع عن حقك، وما ضاع حق وراءه مطالب» (٦/٢٤/ ١٩٤٦).

ويقبض البوليس على الثالوث «المدرك - العسكرى - طه سعد عثمان»، لكن السكرى لا يفزع ولا يتوقف فيستمر هو فى إصدار « الضمير» فيقبض عليه ليبقى يومين كإنذار وتفرج عنه النيابة بالضمان الشخصى. ويخرج السكرى ليواصل التحدى فيكتب فى «الضمير»: «أيها العامل دعنى أحدثك عن ليلتين على الأسفلت»، ويحكى للعمال فى هذا المقال قصة استغلال الإنسان لأخيه الإنسان منذ ألفى عام بما دفع «الفلاسفة الأقدمين أمثال سقراط وأفلاطون إلى الدفاع عن العدل». وفيما كان زملاؤه فى السجن هرب السكرى بمجلته إلى بلدته بنى سويف طوال الفترة من يناير حتى مايو ١٩٤٦، هرب بها

لكنه لم يهرب منها ولا من مبدئه فقد ظلت طوال هذه الفترة تؤكد أنها «لسان حال لجنة العمال للتحرير القومى». ويفرج عن المعتقلين وتعود «الضمير» إلى القاهرة لكن السكرى يعود بها وهو أكثر شجاعة وأكثر تمسكا بالمبدأ، فيكتب افتتاحية لأول عدد بعد العودة للقاهرة يقول فيها: «عدنا إلى ميدان النضال الحر الشريف لنناهض الاستعمار أيا كان نوعه وفى أى بقعه من بقاع العالم. عدنا لنحقق آمال الوطن ولتحيا الإنسانية فى أمن وسلام وسعادة. واليوم تعود الضمير إلى ميدان النضال حاملة مشعل النور إلى الطبقة العاملة والشعب المصرى رافعة علم الجهاد المشروع ضد الاستعمار والاستغلال حتى تتحرر الإنسانية من الظلم والاستعباد ومن الجوع والحرمان».

.. ثم ينقطع خيط الاتصال مع الدكتور عبد الكريم السكرى. ويكفينى أننى أستعيد الآن ذكراه ونضاله وإصراره..

لكننى ومهما كتبت سأظل مدينا له بالاعتذار هو والزميل القديم مجدى السكرى. وليته يكون حاضرا ويقرأ هذا الاعتذار.

مارسيل تشيريزى (إسرائيل سابقا)
ردا على أسئلة المؤلف

إلى الرفيق المؤرخ (رفعت السعيد)

مقدمة:

أولا: بالرغم من أننى قد أبعدت عن مصر منذ أكثر من عشرين سنة، سأحاول جاهدا أن أرد على أسئلتك باللغة العربية، وأنا واثق من تسامحك فيما يختص بالأخطاء اللغوية والسبب فى تفضيلى لكتابة بعض ذكرياتى الخاصة بحياتى وكفاحى فى مصر باللغة العربية هو طموحى إلى أن أظل محتفظا بمصرية نضالى وانتمائى.

ثانيا: أنا كما تعلم عضو فى الحزب الشيوعى الإيطالى، وأخضع بطبيعة الحال لنظام ولائحة الحزب ولذلك لا أستطيع أن أتدخل فى المسائل الخاصة بالحركة الوطنية المصرية وبما أن أى حديث عن الماضى يمتد دائما إلى الحاضر وخاصة إذا تعلقت المسألة بالحركة الثورية المصرية والتى تميزت بالسرية والانقسامات، لذلك كان الدافع لكتابة هذه الذكريات هو الشعور بأداء واجب نحو هذه الحركة التى أتشرف وما زلت أتشرف بأننى كنت فى يوم من الأيام عضوا فى صفوفها.

وسأحاول بقدر الإمكان (وهذا أمر بالغ الصعوبة) تجنب كل تفسير أو أحكام قد تستطيع أن تعيد إلى الحياة منازعات قديمة، مع الحرص فى نفس الوقت على ألا أقع فى عملية تجميل للواقع بتغطية جوانبه السلبية.

فأرجو أن تعتبر كل المعلومات التى أقدمها إليك مادة أولية لاستعمالها بعد التأكد من صحتها وتحت مسئوليتك فى عملك كمؤرخ.

ثالثا: إن كافة التحليلات والآراء والمنظمات السياسية التى أدافع عنها هنا، تخص الماضى، ولذا لا أتحمل مسئولية فيما يختص بتفسيرها أو تطبيقها على الواقع الحاضر للحركة.

رابعا: أرجو أن تعلم أننى بمجرد وصولى إلى إيطاليا قد استرجعت بأمر من رئيس الجمهورية الإيطالية اسم العائلة الأصلى (شيريزى) وهذا لاستبعاد أية اختلاط أو صلة بينى وبين دولة إسرائيل - حتى ولو اسميا - لأننى قد كافحت وما زلت أكافح ضد سياستها العدوانية تجاه الشعوب العربية.

فأرجو الإشارة إلى اسمى (مارسيل شيريزى) - إسرائيل سابقا .

خامسا: حرصت على أن أكون موضوعيا فى كتابة هذه المذكرات، ولم أكن متواضعا وهذا يرجع إلى أننى أعتبر أن التواضع هو أخطر أشكال التفاخر.

* * *

بعض المعلومات عن حياتى:

ولدت فى القاهرة بشارع طور سينا، وهو شارع شعبى بحى الظاهر فى ١٩١٣/٧/١٧، وأنتمى عن طريق والدى إلى عائلة إيطالية هاجرت إلى مصر فى أوائل القرن التاسع عشر، وقد جاء جدى إلى مصر بناء على فرمان من السلطان العثمانى لتعيينه رئيسا لطائفة اليهود بمصر، ثم أصبح فى عهد الخديوى إسماعيل عضوا فى المجلس الاستشارى، وتحول بعد ذلك بطبيعة منصبه إلى أحد كبار الملاك الإقطاعيين بمنطقة ميت غمر، وقد كان والدى متمصرا إلى حد كبير وكان معظم أصدقائه من المصريين (وأذكر من بينهم - يوسف الجندى،. إمبراطور زفتى) وكان والدى يتكلم اللغة العربية ويرتدى الطربوش ولم يتخلف مرة واحدة عن حضور حفل غناء لصالح عبد الحى، وفى نهاية الحرب العالمية الأولى فقد أبى كل ثروته وأصبح موظفا فى شركة للحليج بصفته فرازا للقطن.

أما والدتى فكانت من أصل إيرانى وكانت أمها - أى جدتى - تتكلم اللغة العربية وترتدى إلى آخر أيام حياتها عند الخروج الملابس المصرية الشعبية (الملاءة) و(الحبرة).

عشت السنوات الأولى من حياتى بميت غمر، وكانت لدى الأسرة جارية تقوم بتربيتى وكان اسمها (نصرة) وكانت جدتى قد اشترتها، وقد تحررت نصرة بعد ذلك ورجعت رغم هذا لتعيش معنا، وقد ارتبطت بهذه الجارية وكنت أحبها حبا عميقا، وكانت تمثل فى ذهنى الكرامة والرزانة الكاملة.

اختلطت فى شبابى بالفلاحين فى ميت غمر وميت بره وطلخا والعديد من العزب

المحيطة وكنت أشعر بتعاطف شديد معهم (دون أى مضمون سياسى) وأشفق عليهم من القسوة والشقاء والبؤس الذى كان يلازمهم بشكل دائم.

بدأت حياتى الدراسية بمدرسة (الفرير المسيحية) فى الظاهر حيث كان ممنوعا منعا باتا التحدث باللغة العربية، ثم انتقلت إلى مدرسة (الليسيه فرانسيه) حيث حصلت على دبلوم عال فى التجارة والاقتصاد. وتوظفت بعد ذلك بأحد البنوك وانتسبت إلى كلية الحقوق الفرنسية حيث درست القانون والعلوم الاجتماعية، ولكننى غادرت الكلية قبل الامتحان النهائى، كان ذلك دون شك تطرفا يساريا ورومانتيكيا. وكان لدى اهتمام كبير بجانب دراستى للعلوم الاقتصادية بدراسة الفلسفة وقد قرأت العديد من الكتب والمراجع الفلسفية ومن بين من قرأت لهم ابن رشد وابن سينا وابن ميمون وابن خلدون الذى شدنى إليه تحليله العلمى للظواهر التاريخية.

وقد أثر على بشكل كبير قبل دراستى للماركسية كل من الكاتب الروسى (ليو تولستوى) والفيلسوف الكبير (سبينوزا) وإذا كان سبينوزا قد جلعنى أؤمن قبل كل شىء بالعقل الإنسانى، فقد جعلنى تولستوى أنظر إلى أى إنسان كأخ يجب احترامه ومحبته بل والتضحية من أجل سعادته. وقد تأثرت أختى فى نفس الوقت بآراء تولستوى مما أدى إلى اعتناقها للدين المسيحى وتحولها إلى راهبة ولا تزال، أما أنا فقد أصبحت ولا أزال شيوعيا.

*** كيف أصبحت شيوعيا؟**

أول إحساس شديد بكراهية المجتمع الرأسمالى وضرورة الثورة عليه، وقع فى نفسى بأحد مصانع الحليج، ففى أوائل كل موسم كان المقاولون يقومون بجمع آلاف الأطفال والغلمان الذين تتراوح أعمارهم بين ١٤ و١٦ سنة وشحنهم إلى مصانع الحليج للعمل بها، وكان يوم العمل يتجاوز ١٥ ساعة، وكان الملاحظون والمراقبون يتجولون داخل المصنع ويضربون الأطفال بالكرابيج لأقل وأتفه الأسباب، وفى نهاية الموسم كان عدد كبير من هؤلاء الصبية يتوفون نتيجة لإصابتهم بمرض السل والأمراض الناتجة عن استنشاق غبار القطن وأيضا من المجهود الشديد الذى يبذلونه فى العمل وسط ظروف بالغة القسوة.

وكنت ذات يوم فى زيارة لوالدى بمصنع للحليج كان يعمل فيه، وقد شاهدت واقعة ضرب شرسة لطفلين بالكرابيج، وأمام صرخات الطفلين لم أملك سوى أن أهجم على

مراقب العمل وأنتزع السوط من يده، وقد حاول أن يقنعنى بعد ذلك بأن ضرب الأطفال شىء ضرورى وإلا فسوف يتفرغون للضحك واللعب وينصرفون عن العمل، وقال لى إنه يتقاضى مرتبه من أصحاب العمل للقيام بضرب الأطفال من آن لآخر.

شعرت منذ تلك الحادثة بظلم المجتمع القائم، وأدركت أنه مبنى على استغلال الأغنياء للفقراء.

جذبتنى دائما المظاهرات الجماهيرية، وكنت أنشد دائما السير وسط الجموع الصاخبة فاشتركت فى المظاهرات الوفدية ضد دكتاتورية الملك وعميله صدقى (١٩٣٠) وقد أصبت فى العديد من المرات بضربات الهراوات وعصى البوليس.

وفى يوم ٢١ فبراير سنة ١٩٤٦ اشتركت فى المظاهرة الكبرى وكنت فى ميدان الإسماعيلية (التحرير) أثناء اعتداء الجيش على المتظاهرين بالدبابات، ورأيت دبابات الجيش والجنود يهاجمون الشباب ويقتلون الكثير منهم.

وقد أثر موقف (ديمتروف) من قضية الريشستاج سنة ١٩٣٣/١٩٣٤ فى نفسى تأثيرا كبيرا مما جعلنى أتوجه لقراءة الكتب الشيوعية.

أول كتاب ماركسى درسته كان كتابا عنوانه «المادية التاريخية» لبوخارين، ثم بعد ذلك قرأت «البيان الشيوعى»، ثم «رأس المال»، وعندما كنت أقرأ الصفحات التى كان ماركس يتكلم فيها عن استغلال الأطفال فى مصانع النسيج الإنجليزية كنت أرى أمامى عيون الأطفال المصريين الباكية فى مصانع الحليج.

وفى سنة ١٩٣٤ أصبت بمرض (الربو) وكان مرضى شديدا لدرجة أننى لم أكن أحيانا أستطيع أن أتنفس، فقدمت استقالتى للبنك الإيطالى الذى كنت أعمل به، وظللت بلا عمل لمدة ٣ سنوات ولم ألتحق بأى عمل آخر، بل قضيت السنوات الثلاث فى دراسة النظرية الماركسية. وأستطيع أن أقول بأن مرض الربو هو الذى أتاح لى أن أتفرغ لدراسة الكتب الماركسية بعمق وتوسع، بل لقد لعب ذلك المرض دورا مهما فى حياتى بعد ذلك فيما يتعلق باتصالى بالحركات الشيوعية المنظمة، إذ إن الأطباء كانوا قد نصحونى بالذهاب إلى لبنان فى صيف عام ١٩٣٥ وهناك التقيت برفيق شيوعى لا أذكر اسمه الآن، وكان منضما داخل الحركة الشيوعية بلبنان، وقد تناقشنا كثيرا فى النظرية الماركسية ولكن دون دخول فى الجوانب العملية.

عدت مرة ثانية إلى لبنان سنة ١٩٣٦ ووقع حادث جعل (فرج الله الحلو) يتصل بى، فقد حدث بينما كنت أتجول بإحدى القرى الجبلية واسمها (بحمدون) أن شاهدت شابا يعتدى على بائع حلوى، وكان هذا البائع بذراع واحدة وقد فقد ذراعه الأخرى نتيجة لحكم جزائى وقع عليه فى المملكة السعودية، اندفعت لأدافع عن بائع الكحك وأخذنا نتبادل أنا وذلك الشاب الضربات، وكان هذا الشاب ابنا لحاكم لبنان، وبعد مرور يومين حضر رجال البوليس إلى الفندق وطلبوا منى تقديم اعتذار لذلك الشاب فرفضت، فقامت جريدة حكومية تطالب بإبعادى عن لبنان، ودافعت عنى جريدة ديمقراطية، وتدخل بعد ذلك القنصل الإيطالى ولكن إزاء تصميمى على عدم الاعتذار انتهت المشكلة إلى لا شىء، اتصل بى فرج الله الحلو فى ذلك الوقت وقدمنى إلى شاب شديد الذكاء وقوى الشخصية وهو نيقولا شاوى - بسكرتارية الحزب الشيوعى اللبنانى الحالى - أخذت أجتمع لعدة مرات مع شاوى وآخرين من الرفاق بمنزل أحد الرفاق الفرنسيين، وقد قدمنى نيقولا شاوى إلى خالد بكداش ولرفيق أرمنى اسمه ميدويان، وقد قام نيقولا شاوى بإقناعى بأن واجب كل شيوعى يعيش فى مصر هو الاتصال بالعمال والمثقفين المصريين وإقناعهم بالنظرية الماركسية، وقد طلب منى قبل رجوعى إلى مصر بأن أرسل إلى جريدة «صوت الشعب» مقالات عن الواقع المصرى، وقد واظبت لمدة سنتين على كتابة مقالات للجريدة عن الأحداث العمالية والوطنية فى مصر، وفى نفس الوقت كنت أقوم بالكتابة لجرائد فرنسية تنشر فى مصر مقالات ضد الفاشية والنازية، ومقالات تأييد لقضية الجمهوريين فى إسبانيا ضد فرانكو وأيضا مقالات لتأييد الاتحاد السوفيتى. واتصل بى فى ذلك الوقت عضو من (جمعية السلام) ودعانى للانضمام إليها، وبعد مرور فترة قصيرة أصبحت ضمن قيادة الجمعية، التى كانت تقوم بنشاط ديمقراطى ولم تكن جمعية شيوعية. وقد قمت فى نفس الوقت بتجنيد عدد من الشبان الأجانب وبنشاط محدود فى الحركة الإيطالية المعادية للفاشية.

وفى صيف عام ١٩٣٧ عدت إلى لبنان لمعالجة المرض الذى كان يهاجمنى من آن لآخر نظرا للمجهود الشديد والنشاط الذى كنت أبذله، وتناقشت فى تلك الفترة مع الرفاق اللبنانيين فى موضوع نشاطات لجنة السلام، وقد انتقد الرفاق نشاط اللجنة نظرا لصبغته الأجنبية وعدم تكيفه مع ما يدور فى الواقع المصرى بخصوصيته، وقال الرفاق إن الواجب

الأساسى للماركسيين الأجانب فى مصر هو العمل على تكوين ماركسيين من بين العمال والمثقفين المصريين.

وعند رجوعى إلى مصر طلبت من سكرتير لجنة السلام، (وكنت متأكدا من أنه شيوعى) مناقشة آراء الرفاق اللبنانيين، ولكنه أجاب بالرفض وعدم الرغبة فى مناقشة أى قضية عدا الدفاع عن السلام والكفاح من أجله.

وقد قمت بعد ذلك بتكوين تيار داخل لجنة السلام ينادى بتمصير نشاطها، وقد أدى ذلك إلى إبعادى عن لجنة السلام.

وفى نفس الوقت أخذ بعض أعضاء لجنة السلام يعتقدون بأننى تروتسكى، وأنا لم أكن ولو للحظة واحدة فى حياتى تروتسكيا، وقد كان الدافع وراء ذلك الاعتقاد هو أننى عبرت خلال الفترة من ١٩٣٧ - ١٩٣٨ أكثر من مرة عن دهشتى وتشككى فى صحة الاتهامات الموجهة ضد جميع أعضاء اللجنة المركزية البلشفية، ولكننى لم أبتعد قط عن مبادئ الدولية الثالثة وهذا موقف ما زلت أفتخر به للآن.

وفى سنة ١٩٣٧ قدمت طلبا إلى السفارة الإسبانية فى مصر للانضمام إلى الفرقة الدولية التى كانت تحارب ضد فرانكو ولكن السفير الإسبانى دعانى وأقنعنى بالتعاون مع القوى الديمقراطية الإسبانية للدعاية فى مصر ضد سياسة فرانكو وضد الفاشية عامة. وقد قمت بذلك بشكل دءوب ومستمر. وتعاونت فى ذلك الوقت مع آخرين لنشر كتاب بالعربية والفرنسية عن إسبانيا الجمهورية - حتى سقوط الجمهورية فى ١٩٣٩.

وباختصار فقد أصبحت شيوعيا:

- من خلال معايشتى للواقع المصرى، وليس باستيراد الشيوعية من الخارج.
- عن طريق حزب شيوعى ورفاق عرب وهم الرفاق اللبنانيون، وليس بمساعدة حزب أو تنظيم أجنبى.

وقد أشرت إلى هاتين النقطتين تفسيرا للاتجاه الذى دافعت عنه باستمرار والذى كان دائما هو الأساس لنشاطى العملى كشيوعى، ألا وهو محاولة الربط بين النظرية الماركسية والواقع المصرى الملموس.

عن دورى فى الحركة الوطنية المصرية:

لم يكن دورى فى الحركة إلا نتيجة لاقتناعى بالخط الذى يجب أن تبذل فيه كل جهودى

إلا وهو تكوين الكادر الماركسى المصرى القادر على تنظيم وقيادة العمال والفلاحين وجميع الكادحين للانتصار فى معركة التحرر الوطنى والاجتماعى.

وكان الدور الذى أقوم به للتعاون من أجل تحقيق ذلك الهدف منصبا على الدعاية وعلى التدريس النظرى للماركسية، وبالرغم من الرأى المنتشر فأنا لم ألعب دورا قياديا فى المنظمات المختلفة التى كافحت فيها طوال عشرين سنة باستثناء فترات قصيرة.

أما بخصوص دورى السياسى فى الحركة فقد كان استجابة لمنطلقين أساسيين:

الأول: السعى لتوحيد المنظمات الشيوعية على أسس ثورية.

الثانى: ربط عملية توحيد الحركة بعملية تأسيس الحزب.

وإننى أعتبر أن الدور الذى لعبته فى تنظيم مؤتمر ١٩٤٨ السرى (مؤتمر الثلاثة وثلاثين) والتقرير الطويل الذى قدمته فى هذا المؤتمر، ثم الدور الذى قمت به فى اللجنة التحضيرية لمؤتمر تأسيس الحزب سنة ١٩٤٩ هما أهم ما قمت به أثناء فترة كفاحى فى مصر.

وأخيرا أضيف إلى ذلك الجهود التى كنت أبذلها داخل السجون فى فترات الاعتقال مع الرفاق من سائر التنظيمات لتنظيم وإعداد المحاضر والدروس الماركسية.

الكتب والأبحاث التى كتبتها:

١ - كتيب باللغة الفرنسية عن حركة السلام العالمية، وحركة السلام بمصر سنة ١٩٣٨.

٢- كتاب يشتمل على مناقشاتى مع العمال وتحليلاتى واستنتاجاتى المستخلصة من فترة وجودى بمصنع المعصرة، وقد أفادنى هذا الكتاب كثيرا فى معرفة الواقع المصرى من وجهة نظر العمال، وإلى حد ما من وجهة نظر الفلاحين (إذ إن معظم عمال المعصرة كانوا فلاحين أو من أصول فلاحية وفى كل الأحوال كانت هناك روابط وثيقة بينهم وبين الفلاحين).

٣ - كتاب لشرح النظرية الماركسية عنوانه «تفسير العالم» وكان يشتمل على دراسات عن المادية الجدلية وعن تطور المجتمعات وعن العلاقات الإنتاجية كأساس تحتى للمجتمع وعن الدولة وجميع الأبنية الفوقية مثل القانون والعلوم والفن والدين (وكنت أتناول الدين بمفهوم علمى فحسب)... إلخ (كتب سنة ١٩٤١).

٤ – كتاب عنوانه «تغيير العالم» أو المسائل العملية والنظرية للثورة المصرية. وكان الكتاب يتكون من أربعة أجزاء:

(أ) تكوين الكادر الماركسى المصرى.

(ب) تحليل الواقع المصرى الاقتصادى والاجتماعى والسياسى.

(ج) الاندماج بالحركة العمالية.

(د) الاندماج مع الفلاحين. (كتب سنة ١٩٤١).

٥ – بحث عن مشكلة الفلاحين فى مصر (١٩٤٤).

٦ – بحث عن الصناعة فى مصر (١٩٤٤).

٧ – تقرير تفصيلى عن مشكلة الوحدة بين المنظمات (١٩٤٥).

٨ – دراسة عن تاريخ اليهود فى مصر ودورهم السياسى ووسائل تحويلهم من حليف للاستعمار إلى حليف للشعب المصرى فى كفاحه الوطنى والاجتماعى (١٩٤٧).

٩ – «بيان اللجنة اليهودية لمكافحة الصهيونية» باللغة العربية واللغة الفرنسية، وهذه اللجنة كنت قد كونتها أثناء مسئوليتى عن قسم الأجانب بمنظمة «حدتو» (١٩٤٧).

١٠ – وقد كتبت مقدمات للعديد من الكتب، وأتذكر من بينها لأهميته التقرير الذى قدمه زادانوف إلى الكومنفورم عن تقسيم العالم إلى معسكرين (١٩٤٨).

١١ – بحث تاريخى عن أسباب الانقسامات التنظيمية فى مصر وعدم القيام بتأسيس حزب شيوعى وعنوان البحث «تصفية الحزب قبل تأسيسه»، وقد اعتبره شهدى عطية مثالا للتطبيق الصحيح للجدلية على الواقع المصرى (١٩٤٨).

١٢– بحث عن واقع وضع الحركة المصرية وطريقة توحيدها، وقد أصبح ذلك البحث الأساس الذى اعتمدت عليه فى التقرير الذى قدمته إلى مؤتمر (١٩٤٨) (مؤتمر الثلاثة وثلاثين)، وكان البحث يشير إلى خطأ الفصل بين عملية توحيد الحركة عملية تأسيس الحزب، وقد تضمن اقتراحا بتكوين لجنة تحضيرية بين جميع التنظيمات للدعوة لعقد مؤتمر تأسيس الحزب على أساس مناقشة البرامج واللوائح والخطط السياسية.

١٣– بحث تفصيلى عن خطورة نظرية الكتل (١٩٤٨).

١٤– اشتركت مع رفيق فى كتابة بحث مطول عنوانه «مهمات الحركة الشيوعية المصرية» وكان البحث يحدد هذه المهمات وفق تحليل لطبيعة المرحلة القادمة للثورة المصرية (١٩٤٩).

١٥- الاشتراك فى تحضير لمشروع برنامج الحزب الشيوعى المصرى (١٩٤٩).

وقد كتبت العديد من المقالات السياسية والنظرية نشرت فى المجلات والنشرات السرية والعلنية، كما اشتركت مع رفاق آخرين فى كتابة عدة كتب وأبحاث، ولسوء الحظ فإننى لا أملك الآن نسخة واحدة مما كتبته فقد صادرها البوليس، إما قبل أو بعد نشرها، كما صادر البوليس أيضا مكتبتى الماركسية التى كانت تضم مئات الكتب.

*** طريقتى فى تجنيد وتكوين الكادر:**

أولا: الاتصال بالعديد من العمال والمثقفين المصريين، ثم اختيار العناصر المخلصة والذكية، بصرف النظر عن آرائهم السياسية (فقد استطعت تجنيد عدد كبير من أعضاء حزب مصر الفتاة).

ثانيا: معاملتهم على أساس المساواة والصراحة والاحترام وليس على أسس أبوية أو (طبطبة) ودون أى تنازل عن المبادئ.

ومثال على هذا المنهج فى التعامل يتضح من الموقف التالى:

فى أواخر عام ١٩٤٨ اتصل بى الرفيق شهدى عطية وطلب منى أن ينضم إلى تنظيم العمالية الثورية، وكانت هذه مرحلة كفاح عنيف بين المنظمات المختلفة، وخاصة فى مجال التجنيد، وكانت كل المنظمات تسعى إلى جذب الرفاق الآخرين إليها من المنظمات الأخرى، وكنت أكن لشهدى تقديرا كبيرا منذ اللحظة الأولى التى عرفته فيها، كان الفقيد شهدى فى رأيى نظرا لإخلاصه وذكائه ولشخصيته الشعبية هو الرفيق الذى يستطيع أن يصبح فى يوم من الأيام سكرتيرا للحزب، من الواضح أن انضمام شهدى إلى العمالية الثورية كان يمثل مكسبا كبيرا لهذه المنظمة إلا أننى أجبت على طلبه على النحو التالى:

بما أنك قد قمت بتكوين أول تكتل فى مصر، وبما أن التكتلية خطر يهدد التنظيم الشيوعى فى أساسه، فلا بد قبل الموافقة على انضمامك إلينا أن تعترف بخطأ النظرية التكتلية وأن تستنكرها.

وكان شهدى قد اقتنع بعد قراءة البحث الذى كتبته عن خطر نظرية التكتل على وحدة الحركة بأنها نظرية معادية لإقامة تنظيم شيوعى قوى، فوافق على ذلك الشرط الذى قدمته، وكتب مقالة يستنكر فيها نظرية التكتلات ونشر المقال فى جريدة «الكادر العمالى»، وكان له أثر كبير بين جميع الرفاق، وفى نفس العدد أعلن عن انضمام شهدى إلى المنظمة.

ثالثا: كنت أتبع طريقة فى الإقناع تتلخص فى ربط قضية التحرر الوطنى، وهى القضية السائدة فى ذلك الوقت، بقضية التحرر الاجتماعى، وهذا عن طريق تحليل للحركة الوطنية وإبراز مضمونها الطبقى، وكذلك عن طريق شرح الدور الذى يقوم به الاتحاد السوفيتى فى مكافحة الاستعمار، كما أن المبادئ الماركسية كانت ترد فى الحوار دون إقحام غير مبرر وفى ارتباط متين بظواهر وأمثلة مستخرجة من الواقع المصرى الحى المتطور.

رابعا: وعند تدريس الماركسية كنت أستخدم لغة شعبية (وهى اللغة التى أتحدث بها طبيعيا) وكنت أتكلم بحماس، وكنت أجعل الحاضرين يدركون أننا بالرغم من ضعفنا جزء من الحركة الشيوعية أو العمالية التى تكافح فى كل مكان من أجل تحرير البشر، وفى نفس الوقت كنت أجعلهم يشعرون بأن حركتنا، بالرغم من الصعوبات، وبالرغم مما تتلقاه من ضربات الرجعية والاستعمار، ليست موسمية أو مؤقتة بل هى حركة تاريخية لا بد من انتصارها عبر تطور المجتمع الإنسانى.

ولقد قمت بتجنيد عدد كبير من الرفاق المصريين والسودانيين أرى من الأفضل عدم ذكر أسمائهم.

*** خبرتى التنظيمية:**

بما أننى لم ألعب دورا قياديا فى المنظمات المختلفة (باستثناء فترة قصيرة) فإننى لم أقم بدور تنظيمى مهم.

وبما أن التنظيم يخضع للخط السياسى فقد عملت على أن أطبق فى المرحلة الأولى من نشاطى الأسس التالية:

- تكوين تنظيم سرى يقوم على أساس المركزية الديمقراطية فى حدود السرية وتكون قيادته مصرية.
- تنظيم الرفاق المصريين والرفاق الأجانب كل على حدة.
- إصدار جريدة سرية للكادر.
- تكوين منظمات علنية ونشر دوريات ومجلات مختلفة تستفيد من جميع الإمكانات القانونية والشرعية.

وكنت أحاول طبعا الاستفادة من خبرات الأحزاب الأخرى. وكنت أسعى إلى تطبيقات

توافق الواقع المصرى وتبتعد عن الجمود النظرى، مثال ذلك الاقتراح الذى قدمته سنة ١٩٤٠ بصدد تطوير الاتصال بالجماهير عن طريق خلق نوعين من الخلايا:

الأول على أساس المصانع ومواقع العمل.

والثانى على أساس المقاهى البلدية التى تنتشر فى جميع الأحياء الشعبية. وقد أدى ذلك الاقتراح إلى أن أحد الرفاق قد قال إن هذه ليست ماركسية بل مارسيلية.

وفيما يختص بسرية العمل واحترام احتياطات الأمان وقواعده فإننى كنت أنادى دائما بذلك من الناحية النظرية إلا أننى كنت لا أبالغ فى تطبيق هذه القواعد حتى لا تصبح قيودا تمنعنى عن النشاط والحركة، ولكى لا يتهمنى أحد بالخوف كما حدث بعد رجوعى من فلسطين عام ١٩٤٤.

وفى شهر يوليو ١٩٤٨، وبينما كنت أعيش مختفيا، كلفت تحضير مؤتمر الثلاثة وثلاثين فى حلوان، وقد نجحت فى هذه المهمة واجتمعنا لمدة يومين فى منزل قائد عسكرى، وقد تناقشنا دون انقطاع وبجدية كاملة حول كل المسائل ورجعنا إلى القاهرة دون مراقبة أى من المشتركين فى المؤتمر بالرغم من الجو الإرهابى الذى أشاعه النقراشى باشا.

وقبل ذلك فى عام ١٩٤٧ عندما أصبحت نائب مسئول مكتب الدعاية فى «حدتو» قمت بتنظيم المكتب على أساس لجان طبقا للمهمات المختلفة.

واشتركت بعد ذلك فى تنظيم العمالية الثورية.

أما آخر مهمة تنظيمية قمت بها قبل القبض على وأبعادى عن مصر فكانت تنظيم اللجنة التحضيرية لمؤتمر تأسيس الحزب، وقد اشتركت فى هذه اللجنة جميع التنظيمات عدا تكتلاً صغيراً.

*** أسباب انقسام الحركة فى مصر:**

ليست الحركة المصرية هى الحركة الوحيدة التى تميزت بالانقسامات فحركات عديدة ولا سيما فى البلاد التى كانت تحت سيطرة الاستعمار البريطانى عانت أيضا من تاريخ حافل بالانقسامات.

أما فيما يختص بالحركة الشيوعية فى مصر فإن السبب الأساسى فى انقسامها هو أن أول منظمة شيوعية تكونت سنة ٣٤/٣٥ بعد انهيار الحزب الشيوعى المصرى الأول لم تتبع خطة إعادة تنظيم الحزب بحجة أن الظروف الموضوعية فى مصر لم تكن ناضجة

لإعادة تأسيس الحزب، مما منع هذه المنظمة من أن تصبح مركزا يبلور جميع الاتجاهات والتيارات التقدمية التى كانت الظروف الموضوعية المناسبة فى ذلك الوقت تخلقها تلقائيا، وبذلك تكونت على حدة، بمرور الوقت، العديد من المنظمات. فنظرية المنظمات، وليس الحزب، ساعدت على استمرار حالة الانقسام، فحتى سنة ١٩٤٨ لم يفكر أى تنظيم فى تكوين الحزب مما كان يعنى عمليا النشاط دون برنامج ودون لوائح ودون خطة استراتيجية وتكتيكية.

*** الاعتقال والسجن:**

قبض البوليس على لأول مرة فى شهر أكتوبر سنة ١٩٤١ مع عدد من الرفاق المصريين، وبعد مرور شهرين أفرج عن جميع الرفاق بينما استمر اعتقالى ونقلنى البوليس إلى معتقل الإيطاليين الفاشيين باعتبارى إيطالياً خطراً على الأمن العام.

وأثناء فترة الاعتقال قمت بتأليف كتاب «المسائل النظرية والعملية للثورة المصرية» كما أرسلت عدة مقالات لمجلة «المجلة الجديدة»، وكنت أخرج أسبوعيا تحت الحراسة بتوسط من الرفيق أبو بكر حمدى سيف النصر بحجة الذهاب إلى المستشفى فكنت أجتمع عادة مع الرفاق وأتناقش معهم.

وداخل المعتقل قمت بعمل دعاية مضادة للفاشية بين المعتقلين الإيطاليين، وقد أدى ذلك إبان انتصار روميل فى هجومه على مصر إلى عزلى داخل المعتقل، بل وأيضا تهديدى بالإعدام، وقد احتجت جمعية الإيطاليين المعادين للفاشية على اعتقالى وسط الفاشيين كما ناضلت أيضا من أجل الإفراج عنى مما أدى إلى الإفراج عنى وإبعادى عن مصر.

وبين سنة ١٩٤٦ وسنة ١٩٤٨ قبض على عدة مرات ولكن كنت أحتجز لأيام قليلة فى الأقسام، وفى شهر مايو ١٩٤٨ استطعت الهروب قبل القبض على وواصلت الكفاح السرى حتى أوائل شهر أبريل ١٩٤٩.

وكانت هذه الفترة أنشط وأجمل فترة فى حياتى الكفاحية، كنت أعيش متنكرا لدرجة أن والدتى لم تتعرف على، غيرت مسكنى ٢٨ مرة وكنت غالبا أسكن الأحياء الشعبية، وكنت أعيش مع رفاق آخرين عادة، وقد هاجم البوليس مرتين مقر اختفائى إلا أننى استطعت الهروب، وقد حدث ذات مرة عند ذهابى إلى منزل أحد الرفاق أن فوجئت بأن البوليس قد هاجم المنزل قبل وصولى بقليل وعند دخولى إلى باب المنزل واجهنى بعض

رجال البوليس فوجهت إليهم التحية بكل جدية ووقار رسمى، كما يفعل كبار الضباط، فردوا التحية بمنتهى الاحترام واستطعت أن أفلت بصعوبة من القبض على. وهنا أحب أن أذكر أننى قد اختفيت مع الرفيق شهدى عطية، ولم يكن شهدى يغادر المنزل فكنت أقوم أنا عمليا بدور عضو الاتصال (رغم حملة البحث عنى) وكنا نتناقش كل يوم لساعات عديدة فى جميع المسائل، وحدث ذات يوم أن طال النقاش بينى وبينه أكثر من عشر ساعات حول نقاط خاصة بتحليل مصر الاقتصادى، وذهبت للنوم مجهداً وفى الصباح جاء شهدى وطلب منى أن أستمع إلى قراءة كتاب من ١٠٠ صفحة تقريبا كان قد تمكن من كتابته أثناء الليل.

كان هناك مصنع صغير بجوار مسكننا وكانت ضجة المصنع تساعدنا على تغطية ضجة آلات الكتابة والطبع مما كان مفيدا جدا لنا من زاوية الأمان، وقد نجح عمال المصنع ذات يوم فى تنظيم إضراب وانقطعوا عن العمل، فكانت المرة الوحيدة التى تأسفنا فيها على نجاح إضراب عمالى لأننا اضطررنا لوقف عملية الكتابة والطبع.

جورج بوانتيه

«وفيما كان بوانتيه يركب القطار ليبدأ رحلة السفر ليحارب ضد الهتلريين، همس فى أذنى قائلا : أنا أعرف أننى سأموت، وأرجوك أن تقول لزملائى فى حزب العمل السويسرى إننى ظللت مخلصا للشيوعية حتى نهاية حياتى».
(من حوار أجريته مع هنرى كورييل)

نحن الآن مع شيوعى رومانسى، وربما هو نوع من هؤلاء المناضلين الذين ساقتهم رومانسيتهم وصفاء سريرتهم نحو فكرة كانت لم تزل غامضة فى أذهان الكثيرين فى مصر، فقد غلف شيوعيته الحازمة بغلاف رومانسى رقيق ومفعم بالحنان.

يصرخ الكثيرون ضد النازية لكنه لا يعرف معنى الصراخ. وبهدوء شديد رتب أموره وحزم أمره وسافر ليقاتلهم بالسلاح لا بالشعارات، وجورج بوانتيه شيوعى سويسرى، كادر من كوادر حزب العمل السويسرى، حضر إلى مصر فى بداية الثلاثينيات من عمره ليعمل مدرسا بمدرسة البوليس، يتحدث عنه راؤول كورييل (شقيق هنرى) محاولا أن يصوغ كلماته بحنان شديد ومحبة لم تمحها الأيام قائلا: «عندما تعارفنا كان فى الخامسة والثلاثين من عمره، وكان أكبر منا سنا وأكثر منا خبرة، وأكثر فهما لما يجب أن نعمل، طويلا، ممشوقا وشعره الكستنائى يجعل منه فتى أحلام الكثير من الفتيات، خاصة بسبب حيويته الدافقة وجاذبيته وتعامله الودود مع الجميع، وكان يقيم فى بنسيون متواضع إلى جوار صديقة حميمة له هى مارجريت فويو، وهى فرنسية تعمل كمدرسة، ومعها ومع عدد من الأصدقاء المصريين بدأ فى تكوين «حلقة نضالية» تدعو للغوص وسط المصريين وإلى تمصير أفكارنا النظرية الغامضة وإلى تحويل الجدل الفكرى إلى نشاط عملى فاعل»، ويمضى راؤول: «عن طريقى تعرف بوانتيه بأخى هنرى الذى كان يشعر فى هذه الأيام بقرف شديد من عدد من الماركسيين الذين تجمعوا معنا والذين كانوا يتصورون أنه يتعين

علينا أن نحفظ الكتب النظرية من «رأس المال» إلى بقية الكتب التى كتبها ماركس وإنجلز ولينين عن ظهر قلب قبل أن نخطو أى خطوة عملية.

وبالنسبة لى أعتقد جازما أن بوانتيه هو الذى جعل من هنرى كورييل شيوعيا، ولم ينس هنرى ذلك أبدا وعندما كنا نتذكره فى أواخر أيامنا كان يتحدث عنه بتأثر شديد، وحين أقام هنرى فى فرنسا بشكل سرى فى عام ١٩٥١ اتخذ لنفسه اسما سريا هو "بوانتيه" ولاء ووفاء لذكرى أستاذه». ونمضى مع حوار راؤول: «كنا فى حيرة من أمرنا نحن نسمى أنفسنا «شيوعيين» ولكن لا يوجد حزب، وذات يوم وفى جلسة صاخبة صاح ريمون أجيون: ليس أمامنا سوى خيار من اثنين إما أن نقبل النظام القائم ونعمل فى إطاره، وهناك أمامنا الثروة والثراء، وإما أن نصبح ثوريين بحق»، واتخذ بوانتيه وهنرى كورييل قرارهما.. سنكون ثوريين «لكن بوانتيه والذى كان يبدو أهمنا بخبرته الأكثر وثوريته الحازمة فوجئ معنا بقرار ستالين بالاتفاق مع ألمانيا الهتلرية وتوقيع ستالين هذا الاتفاق مع روبنتروب» وانقسمت المجموعة.. ونعود إلى راؤول كورييل: «كنت فى غاية الحنق والغضب وبدأت فى الهجوم على ستالين بما منح السرور للشبان التروتسكيين، ورفضت التبرير الذى ساقه بوانتيه بشكل مرتب وشبه منطقى فقد قال لنا: «لا بد أن ندرك جدلية فكر ستالين فى التعامل مع هتلر ومع دول أوروبا الأخرى، فقد حاول بوضوح وصراحة تكوين حلف بين الاتحاد السوفيتى والدول الأوروبية ضد هتلر وموسولينى، لكن الأوروبيين (إنجلترا وفرنسا ومن خلفهما أمريكا) كانوا يحلمون بأن تتوجه طلقات النازى ضد الاتحاد السوفيتى وأن يشبع هتلر شهوته التوسعية باحتلال أراضى الاتحاد السوفيتى.

ورفضوا يد ستالين، وكان على ستالين أن يوقع اتفاقا مع هتلر فتتوجه نيران هتلر نحو باريس ولندن ويكسب هو بعضا من الوقت لإعداد جيشه، وكان صوته يعلو أمام استهزاء أغلبية الجالسين، مؤكدا: هى مجرد مهلة قصيرة ومؤقتة وعلينا أن نستعد للحرب مع النازى من الآن، ولم يقف مع بوانتيه إلا هنرى كورييل». ويمضى راؤول، «أما أنا فلم أقتنع، وصرت أهاجم ستالين صراحة وتشاجرت مع هنرى عندما رفعت صورة ستالين وقلت له خذ هذه وضعها فوق سريرك، أما أنا فلا حاجة لى بها».

وفيما كان الكثيرون منهمكين فى الهجوم على ستالين، وقليلون جدا على رأسهم هنرى

كورييل يقبلون بأفكار جورج بوانتيه قرر هو أن يلقن الجميع درسا، فالتوقيع على الاتفاق المؤقت بين ستالين وروبنتروب لا يعنى عدم محاربة النازى حيثما وجد. ورتب أمره وفاجأ الجميع أنه مسافر إلى فرنسا لينضم إلى الجيش الفرنسى الذى أوشك النازى على اجتياحه.

قليلون هم الذين صدقوا، وأقل منهم الذين ذهبوا لوداعه، منح بوانتيه صديقته مارجريت فويو قبلة حارة وقال لها بصوت مسموع: «أعدك يا حبيبتى الجميلة أن نتزوج يوم النصر»، ثم عانق هنرى كورييل عناقا طويلا جدا وهمس فى أذنه: «أعرف أننى سأموت فأبلغ رفاقى تحياتى»، صعد بوانتيه إلى القطار، وفيما القطار يتحرك وأيدى المودعين له تلوح.. وقف على باب القطار هاتفا: «سوف ننتصر، حتما ستنتصر الشيوعية على النازية».

وفى أغسطس ١٩٤٤ قتل بوانتيه مرتديا زى الجيش الفرنسى، لكن عينيه اتجهتا نحو رفاقه فى مصر.

وفيما أغادر راؤول العجوز قال: «لقد ذكرتنى بالجرح، نحن كنا نصرخ بالشعارات الشديدة الثورية، وهو كان هادئا ووديعا ومتعقلا، ها أنذا فى الثمانين أعيش هادئا وهو رحل بكبرياء، ليعلمنا أن الثورية فعل، وليست مجرد أقوال».

هنرى كورييل

«افتتح الشيوعى هنرى كورييل فى ميدان مصطفى كامل فى قلب القاهرة مكتبة اسمها "مكتبة الميدان" وقد تخصصت فى بيع الكتب الشيوعية وهكذا أصبح بالقاهرة مصدر معلوم للدعاية الشيوعية».

(من رسالة وجهها السفير البريطانى بالقاهرة إلى وزير خارجيته)

الاسم: هنرى دانييل كورييل

الاسم الحركى: يونس

تاريخ الميلاد: ١٩١٤

تاريخ الاغتيال: ٤ مايو ١٩٧٨

الصفة: أكثر الشيوعيين المصريين إثارة للجدل، البعض يضفى عليه مديحا غير مسبوق والبعض هاجمه هجوما غير مسبوق.

ولكنك إذا جلست إلى «الرفيق يونس» تدهش من فرط هدوئه وإحساسه بالسكينة، وهى سكينة غير مصطنعة وإن كانت تبدو مبالغا فيها، وكورييل يجمع فى تكوينه صفات عدة فهو يهودى ابن مليونير صاحب «كورييل وموصيرى بنك» تعلم على يدى الآباء اليسوعيين، وقد ظلت تعاليمهم تؤثر فيه وفى تكوينه الشخصى، وحتى عندما قابلته فى باريس وكان لاجئا سياسيا ممنوعا من ممارسة أى نشاط سياسى، استقبلنى ليجرى حواره معى عدة مرات، أكثرها فى دير كاثوليكى واثنان منها فى رحاب كنيسة نوتردام، ولأنه تعلم من اليسوعيين البساطة فى الحياة والبعد عن التباهى والفخامة فى العيش فقد عاش حياة بسيطة سواء فى القاهرة أو فى باريس، وعندما جرى ترحيله من مصر ١٩٥٠ لم يكن يمتلك سوى قصر شديد الفخامة فى الزمالك ومكتبة ضخمة، أما المكتبة فقد تبرع بها إلى دير الآباء اليسوعيين بالدراسة، أما القصر فقد ظل مغلقا حتى قامت الثورة الجزائرية

وأسهم فيها كورييل مناضلا وظهيرا لها فى باريس يرتب للهاربين ملجأ آمنا ويدبر وثائق شخصية يقوم بتزويرها واحد من أعضاء منظمته الدولية السرية «تضامن» والتى تخصصت فى مساعدة القوى الثورية المناضلة ضد الاستعمار «الجزائر - جنوب إفريقيا - منظمة التحرير الفلسطينية.. إلخ» وكان «يونس» هو الوحيد الذى ائتمنته الثورة الجزائرية على ثروتها المكونة من عدة ملايين من الفرنكات الذهبية، واحتفظ كورييل بالكنز لدى المفكر الذى لا يتطرق إليه الشك مكسيم رودنسون ثم أعاده لأصحابه بعد نجاح الثورة، أما قصره الفخم فى الزمالك فقد تبرع به لحكومة الثورة، ويرتفع الآن علم الجزائر فوق سفارتها.. التى كانت قصر الرفيق يونس.

ونعود إلى جلسات الحوار معه: «فى عام ١٩٣٦ تأثرت إلى حد كبير بنهوض الحركة الوطنية المصرية، وكان أول تعبير شخصى لهذا التأثر هو أننى عندما بلغت سن الحادية والعشرين قررت اختيار الجنسية المصرية بدلا من الإيطالية، ويمكنك أن تقول إننى أصبحت ماركسيا فى عام ١٩٣٧ واتصلت بآخرين وأسسنا الاتحاد الديمقراطى»، ويمكن القول إن الاتحاد الديمقراطى كان مجرد مرحلة انتقالية تعقد خلالها ندوات ولقاءات ومحاضرات بينما هو يتعلم ويلاحظ ويكتشف من بين الحاضرين أشخاصا يفاتحهم ويضمهم إلى مجموعة سرية، وبعد المرحلة الانتقالية تأسست «منظمة الحركة المصرية للتحرر الوطنى» (ح.م) ونلاحظ أنه لم يتعجل فى إطلاق اسم شيوعى عليها مراعيا - من وجهة نظره - أن مصر فى مرحلة التحرر الوطنى، ونعود إليه فى حواراته: «أنا أعتبر أن تاريخ تأسيس الحركة المصرية للتحرر الوطنى هو تاريخ أول مدرسة كادر لهذه المنظمة، وإذا تابعت المدرسين والتلاميذ فى هذه المدرسة ستعرف كيف بدأنا، ولماذا نجحنا وكيف توصلنا إلى كوادر مصرية قادرة وفاعلة، فالمدرسون: محمد زكى هاشم (وكان وقتها وكيلا للنيابة وأصبح فيما بعد محاميا شهيرا وسياسيا مرموقا) وأحمد الدمرداش تونى (رئيس اللجنة الأوليمبية المصرية فيما بعد)، وتحسين المصرى ومحمد نصر الدين (مدرس لغة فرنسية فى كلية الشرطة) وموسى الكاظم وأنا، أما الطلبة فكانوا ٢٥ طالبا منهم سيد سليمان رفاعى «الرفيق بدر» والذى ضم إلى التنظيم مجموعة كبيرة من الفنيين فى سلاح الطير ن وأصبح فيما بعد السكرتير العام لمنظمة (حدتو) يوسف مصطفى (فنى بالطيران) سيد حافظ (فنى بالطيران) مختار العطار (طالب بالفنون الجميلة) كمال شعبان (طالب بكلية الهندسة) عبد

الرحمن الثقفى (طالب بالأزهر) عبده دهب (سودانى) وتفرغ الجميع للدراسة يستيقظون فى الصباح فينشدون نشيد الأممية الشيوعية: قوموا عبيد الأرض قوموا – قوموا يا محرومين من الخير، سخطكم بقى رعد ياللا قوموا – دا الانتصار الأخير. وبعدها تبدأ المحاضرات: تاريخ مصر على ضوء المادية التاريخية – جغرافية مصر – الاقتصاد السياسى – المادية الجدلية – صراع الطبقات.. إلخ، وفى ختام المدرسة ألقيت خطبة قلت فيها للطلاب قد نكون نحن المدرسين عناصر ثورية لكنكم أنتم ومن الآن قد أصبحتم أصحاب القضية».

* * *

«فى النادى الديمقراطى نشب خلاف فكرى، أنا ومجموعة أعلنا أننا شيوعيين لكن ما معنى أن نكون شيوعيين؟ لا أحد يعرف. كيف؟ قلت يجب أن ندرس ولكى ندرس يجب أن تكون هناك كتب، ولهذا افتتحت مكتبه الميدان».

هنرى كورييل

ونمضى مع رحلة تأسيس الحركة المصرية للتحرر الوطنى. ويمضى كورييل قائلا: «أول منشور باللغة العربية أصدرته (ح.م) كتبه أربعة: جورج بوانتيه ومحمد نصر الدين ود. فؤاد الأهوانى وأنا. وطبعنا منه ٤٠٠٠ نسخة ونزلنا إلى الشارع ووزعناه بأنفسنا. وكان ذلك عام ١٩٤٢. وبعد ذلك أصدرنا مجلة «حرية الشعوب». وبعدها أعددنا كورس محاضرات أولها محاضرة بعنوان «عيوب المجتمع» وكانت تقدم تفسيرا علميا لعيوب المجتمع ومصادرها الحقيقية، وكان الهدف منها ضرب التيارات الإصلاحية التى بدأت تنتشر فى ذلك الحين كذلك أصدرنا سلسلة الكتب الخضراء وهى كتب ماركسية مهمة مترجمة عن الإنجليزية والفرنسية والألمانية (١٢ كتابا)، وقد أقمنا (ح.م) على أساس فئوى فهناك أقسام قومية مثل قسم الأرمن والنوبيين والسودانيين. وأقسام اجتماعية: عمال – طلاب – نساء – أزهريون، وكنا نسعى بذلك إلى حماية أمن المجموعات وإلى قدرة كل مجموعة على التوسع فى محيطها، وفى الجيش بدأنا بنشاط واسع جدا وسط صف ضباط سلاح الطيران لكن بداية العمل وسط الضباط جاءت بعد الوحدة مع ايسكرا، وكانت تضم أحمد حمروش الذى قام بتأسيس قسم الجيش، وكنا نسميه اسما سريا «شركة الملح والصودا». وحدث أن اتصل أحد زملائنا السودانيين (صالح عرابى) بضابط

بالجيش من أصل سودانى هو محمد نجيب الذى طلب أن يقابلنى ليعرف رأى الشيوعيين فى المسألة السودانية، وكانت فرصة كى ندرس هذا الموضوع وقررنا أن نرفض الشعار السائد «نيل واحد – شعب واحد – ملك واحد» ورفعنا شعار «الكفاح المشترك» ضد العدو المشترك. وعندما اقترب العام الدراسى ١٩٤٥ بعد انتهاء الحرب توقعنا نحن وكثير من السياسيين أن تبدأ فى أول يوم دراسى (٦ أكتوبر) إضرابات للمطالبة بجلاء قوات الاحتلال. وأعددنا نحن منشورا موجها إلى جنود وضباط الجيش والبوليس ندعوهم فيه إلى عدم التصدى للمظاهرات، لكن أتى ٦ أكتوبر ولم تقم مظاهرة واحدة، وشعر كثيرون منا بالإحباط وتهكم علينا البعض لكننا قلنا إن هذا ليس دليل فشل لنا، وإنما هو فشل القيادات الوطنية الرخوة التى تخشى من التصادم (حزب الوفد – مصر الفتاة.. إلخ) ولهذا قررنا تأسيس قوة جماهيرية طبقية منظمة وكانت اللجنة الوطنية للطلبة والعمال».

ويمضى كورييل ليقرر أن «ح.م» وبعدها «حدتو» كانت ذات حس أممى راق فقد اهتمت بتجنيد العديد من الطلاب السودانيين الذين أسسوا فى السودان منظمة «الحركة السودانية للتحرر الوطنى» (حستو) وكذلك مجموعة من الطلاب اليمنيين وخاصة طلاب عدن ومجموعة من الإثيوبيين كانوا قد حضروا ليتدربوا فى مصلحة البريد وشكلت منهم مجموعة لتعود فتنشط فى بلادها. وتظل الروح الأممية تلاحق كورييل، فقد اندمج مع ثوار الجزائر وقدم لهم مساعدات كبيرة وسجن معهم فى فرنسا.

كذلك كانت «ح.م» ثم «حدتو» تعملان لإصدار صحافة علنية واسعة الانتشار: حرية الشعوب – أم درمان – الجماهير – البشير – الكاتب – الملايين – الغد.

وعندما طرد هنرى كورييل من مصر رغم أنه ظل ومنذ ١٩٣٦ وحتى ١٩٥٠ مصرى الجنسية وصل إلى روما وتسلل منها سرا إلى باريس حيث أسس مجموعة أطلق عليها اسما حركيا هو «مجموعة روما» وظلت هذه المجموعة مهتمة بالشأن المصرى وبالدفاع عن السجناء الشيوعيين. وخلال إقامة كورييل فى باريس أقام شبكة علاقات واسعة نجح خلالها فى الحصول على معلومات بالغة السرية وبالغة الدقة عن الحشود العسكرية الفرنسية التى تستعد لغزو مصر فى العدوان الثلاثى. وكانت البيانات دقيقة إلى درجة أنها تضمنت أرقام الفرق وتسليحها وكان الملحق العسكرى المصرى فى باريس آنذاك هو ثروت عكاشة الذى تسلم هذه المعلومات وأسرع بها إلى مصر حيث سلمها إلى عبد الناصر شخصيا. ويروى ثروت عكاشة فى مذكراته «مذكرات فى الفن والسياسة –

الجزء الأول» كيف أن عبد الناصر دهش من دقة المعلومات ودهش عندما علم أن مصدرها هو كورييل، وطلب ثروت عكاشة مكافأته بإعادة الجنسية المصرية إليه، ووعد عبد الناصر ولم يف بوعده.

وعندما تأسس الحزب الشيوعى المصرى باتحاد كل التنظيمات جاءت لخصوم كورييل فرصة الانتقام فأصدر المكتب السياسى للحزب فى مارس ١٩٥٨ أى بعد شهرين من الوحدة قرارا نصه: «يقرر المكتب السياسى حل مجموعة روما نهائيا ابتداء من ١٤ مارس ١٩٥٨، ويحظر أى اتصال بأى من أفراد المجموعة».

ويصل القرار إلى باريس وتجتمع المجموعة، ويستعيد كورييل تسامحه اليسوعى ويصدر القرار التالى: «احتراما للنظام الحزبى تحل فورا مجموعة روما، وتعبر المجموعة فى ذات الوقت عن أسفها للشكل الذى تم به اتخاذ القرار. ويقرر الرفاق وهم خارج الحزب الاستمرار فى دفع اشتراك مالى يساوى الاشتراك السابق، وتضع المجموعة تحت تصرف الحزب آلاف النسخ من المؤلفات النظرية التى قمنا بترجمتها إلى العربية وطباعة آلاف من النسخ منها، وحتى نتلافى أى شبهة فى أننا نحاول الظهور بمظهر الممثلين للحزب الشيوعى المصرى بالخارج، فقد قررنا أن نختار لأنفسنا اسما لا يفسح مجالا لأى لبس. قررنا أن نطلق على أنفسنا اسم «مجموعة الإخلاص - مجموعة بالخارج لأعضاء سابقين فى الحزب الشيوعى المصرى ظلوا مخلصين لحزبهم». وبعيدا عن المرارة واليأس لما مسهم من إجراء يرونه غير عادل يلتزم الرفاق بأن يبذلوا جهودا مستمرة فى خدمة قضية الطبقة العاملة المصرية وقضية استقلال مصر وقضية السلام - عاشت الطبقة العاملة المصرية - عاش الحزب الشيوعى المصرى».

لكن كورييل لا يهدأ فيؤسس منظمة «تضامن» وهى منظمة أممية سرية ضمت فى صفوفها أعضاء من مجموعة روما وقساوسة كاثوليك يسعون لسلام البشرية والدفاع عن المظلومين ومفكرين فرنسيين كباراً. وقدمت «تضامن» مساعدات كبيرة لحزب المؤتمر فى جنوب إفريقيا ولحركات التحرر الإفريقية ولأحزاب يسارية مطاردة فى البرتغال وإيران والعراق وغيرها، كما قدمت دعما كبيرا للقضية الفلسطينية وفتحت أمامها قنوات اتصال متعددة فى أماكن عديدة فى العالم.

وفى ٤ مايو ١٩٧٨ أطلقت رصاصات على هنري كورييل وهو فى مصعد منزله الذى يفترض أن عنوانه لم يكن معلنا. ولم يعرف القاتل. غير أن منظمة شبه فاشية وسرية اسمها «دلتا» أصدرت بيانا من سطر واحد «اغتلنا اليوم عميلاً مهماً للاتحاد السوفيتى هو هنرى كورييل».

وثيقة قضائية (كمعلومات تكميلية)
نادى الاتحاد الديمقراطى
«المركز الثقافى الاجتماعى»(*)
محضر تحقيق النيابة

فتح المحضر يوم السبت ١٣ رمضان سنة ١٣٦٥ الموافق ١٠ أغسطس ١٩٤٦ الساعة الثامنة وخمسون دقيقة مساء بسراى النيابة.

بالهيئة السابقة: وجدنا بين مخلفات النيابة العسكرية العليا تحقيقات أجرتها تلك النيابة بتاريخ أول فبراير ١٩٤٣ فى بلاغ مقدم من حكمدارية بوليس مصر بتاريخ ١٦ يناير سنة ١٩٤٣ بشأن النادى الذى كان يطلق عليه اسم «المركز الثقافى والاجتماعى» ومقره سكة الفضل رقم واحد بقسم عابدين والذى كان يتولى إدارته وأعمال سكرتاريته المدعو توماس بلاموتس المستخدم بشركة كوتسكا واليونانى التبعية، ويقول البلاغ إن هذا النادى يقوم بنشاط سياسى ظاهره الدعوة للحلفاء والديمقراطية وباطنه نشر الدعاية الشيوعية وإثارة الخواطر ضد النظم الرأسمالية، وقد أشير فى بلاغ الحكمدارية إلى ما وصل لعلمها وقتذاك من أن توماس بلاموتس سكرتير المركز الثقافى هو وسلمون سليم المستخدم التجارى بشركة الغزل المصرية أخذا ينشطان فى دعايتهما لإثارة خواطر العمال، وأن لسلمون سليم أصدقاء بالإسكندرية وأنه يسافر إليهم أحيانا لمقابلتهم فى أيام الآحاد وأن من هؤلاء أبو النيل سكرتير نقابة عمال الأحذية بالإسكندرية.

كما أشير إلى حضوره من الإسكندرية فى يوم ١٩٤٢/١٢/١٦ بشأن استئجار جريدة الحقائق.

والبلاغ المشار إليه طويل ومحرر على خمس ورقات وقد أشير فيه إلى ما تم من تفتيش

(*) يتضمن هذا المحضر بعض معلومات مهمة عن المرحلة الأولى من نشاط هنرى كورييل وعن نادى الاتحاد الديمقراطى و«المركز الثقافى الاجتماعى». كذلك يتضمن إشارات إلى معلومات البوليس حول نشاط قوى اليسار المصرى فى هذه الفترة المبكرة، وهذا المحضر وارد فى ملف قضية الشيوعية الكبرى لعام ١٩٤٦ فى الصفحات ١٠٢٦-١٠٢٧-١٠٢٨-١٠٢٩- ١٠٣٠-١٠٣١. (المؤلف).

بعض الأماكن بناء على أمر صادر من الحاكم العسكرى بمنطقة القاهرة إذ ذاك وما ضبط بحجرة فوق سطح المنزل رقم ٦ شارع أمين باشا سامى من أوراق ومنشورات ومنها مذكرة موصوفة بأن بعضها محرر بخط اليد والبعض الآخر بالآلة الكاتبة تتضمن دراسة عن الأحزاب المصرية وعلاقتها بالعمال، ومذكرة محررة باللغة العربية بخط اليد معنونة «تقرير» عن مدى النشاط وتكوين الخلايا وأسماء أعضائها، وجاء به أن الخلية الثالثة مؤلفة من طلعت جوجو (طالب بالجامعة) وأحمد معروف (موظف) وزينب جوجو (طالبة بمدرسة بنات الأشراف). وأن الخلية الرابعة مؤلفة من محمدى الهندى «المقاول» وعلى أبو النيل «عامل» ومحمد محرز «عامل»، وإنه جاء به كذلك أن جميع هذه الخلايا قررت العمل بعد دراسة الدستور الشيوعى والسير على نظام الدولية الثالثة وضرب الطبقة البرجوازية الذى لا يمكن أن يتحقق بغير الثورة العمالية، وأن هذا التقرير كان بتاريخ ١٩٤٢/١٢/٢٠ ولاحظنا أن التحقيق الذى أجرته النيابة فى هذا البلاغ جاء مقصوراً على سماع شهادة حضرة أحمد حمدى بك مفتش الضبط فرع «ب» بمحافظة مصر، وقد جاء فى أقواله عن المركز الثقافى الاجتماعى أنه تألف أولا تحت اسم (الاتحاد الديمقراطى) بمعرفة هنرى كورييل الإسرائيلى المصرى الجنسية، وكان يعاونه شخص إيطالى من المعادين للفاشية لا يذكر اسمه، وبعد بضعة أشهر انفصل هذا الشخص الإيطالى وقام بالإشراف على النادى هنرى كورييل ومعه أعضاء مجلس الإدارة ثم غير اسم هذا النادى إلى اسم «المركز الثقافى الاجتماعى» وكان هنرى كورييل هو المشرف عليه كذلك، وقد اعتقل هنرى كورييل فترة من الزمن وأخلى سبيله على شرط الابتعاد عن التدخل فى الشئون السياسية والاجتماعية، وقد تولى توماس بلاموتس أعمال سكرتارية هذا المركز وكان هو المشرف على إدارته، وعقد الإيجار محرر باسم هنرى كورييل والشخص الإيطالى الذى ذكر أن اسمه ساندرو روكه. أما أعضاء مجلس الإدارة فمن بينهم توماس بلاموتس وعزرا هرارى وسلمون سليم. ولما كان قد تبين من تحقيقات أجرتها نيابة الإسكندرية بناء على التفتيش الذى قامت به فى منازل بعض من اتهموا بترويج مبادئ الشيوعية بالإسكندرية أن على أبو النيل له صلة وثيقة بلطف الله حنا سليمان، كما هو واضح من الاطلاع على محضر استجواب هذا المتهم فقد دعونا هنرى كورييل وأعدنا سؤاله:

– اسمى هنرى كورييل.

(سابق سؤاله).

س: ماذا كانت علاقتك بالنادى الديمقراطى أو نادى الاتحاد الديمقراطى؟

ج: كان أخى راؤول كورييل من ضمن مؤسسى هذا النادى وأنا كنت عضواً فيه.

س: ومن كان سكرتيره؟

ج: السكرتاريون تغيروا كثيرا.

س: ألم يكن سكرتيره توماس بلاموتس؟

ج: أنا لم أكن عضوا فى النادى لما كان سكرتيره توماس بلاموتس.

س: ألم تكن أنت مستأجر مقر النادى باسمك؟

ج: لا. وإنما كان أخى راؤول كورييل بصفته أمين الصندوق هو الذى استأجر النادى بعقد موقع عليه منه ومن ساندرو روكه.

س: ولماذا غير اسم «نادى الاتحاد الديمقراطى» إلى «المركز الثقافى الاجتماعى»؟

ج: لأن الدعاية الإنجليزية فى أول الحرب أرادت أن تستغل اسم النادى الديمقراطى لصالحها هى فقرر أعضاء النادى تغيير الاسم وسموه «المركز الثقافى الاجتماعى»، وعلشان كمان يكون اسمه بعيد عن السياسة.

س: ولكن المفهوم من أقوالك فيما سبق أن هذا النادى كان يشتغل بالأمور السياسية؟

ج: فى الأول كان فى النادى عدد كبير من الأعضاء طليان من المعادين للفاشية وكان بيحصل فى النادى اجتماعات وحفلات إلى أن تدخلت السفارة الإيطالية قبل أن تدخل إيطاليا الحرب وأبلغت الحكومة المصرية بأن النادى شيوعى فكان البوليس يمنع الاجتماعات، أقصد الحفلات العامة، وعلى كدة الأعضاء تغيروا واتخذ النادى شكلاً اجتماعياً.

س: أبلغ البوليس ضد هذا النادى فى أوائل عام ١٩٤٣ أنه يقوم بنشاط سياسى ظاهره الدعوة للحلفاء والديمقراطية وباطنه نشر الدعاية الشيوعية وإثارة الخواطر ضد النظم الرأسمالية؟

ج: أنا اعتقلت فى ١٩٤٢، وأفرج عنى بعد شهرين وأخذوا على تعهداً بأنى لا أشتغل فى السياسة، وأن أكون بعيدا عن النوادى السياسية، ولهذا ابتعدت عن هذا النادى.

س: وهل تعرف لمن كانت الحجرة التى كانت بسطح المنزل رقم ٦ بشارع أمين باشا سامى؟

ج: لا.

س: هذه الحجرة كانت مؤجرة بمعرفة عزرا هرارى.

ج: أنا لا أعرفه.

س: ألم يكن عضوا بالنادى هو أيضا؟

ج: مش فى الوقت اللى انا كنت فيه.

س: هل تعرف على أبو النيل؟

ج: لا.

س: ألم تسمع باسمه؟

ج: لا.

س: ضبطت فى ذلك الوقت أوراق ومنشورات مهمة تدعو للشيوعية صراحة ومن بين هذه الأوراق مذكرة تتضمن دراسة عن الأحزاب المصرية وعلاقتها بالعمال ومذكرة باللغة العربية بخط اليد، وهى عبارة عن تقرير عن مدى النشاط فى تكوين الخلايا وأن من ضمن أعضاء الخلايا على أبو النيل.

ج: أنا لا أعرف شيئاً عن هذه المضبوطات.

س: هل تعرف طلعت جوجو أو زينب جوجو؟

ج: لا.

س: حدد لنا مدى علاقتك بلطف الله حنا سليمان.

ج: ما فيش علاقة، إنما شفته مرتين ثلاثة فى مكتبة النهضة.

س: ولكنه ترك مكتبة النهضة واشتغل فى مكتبة كاديموس.

ج: أنا لم أذهب إلى مكتبة كاديموس.

س: ألم تعرض فى مكتبتك كتابه المنقول عن كتاب باللغة الإنجليزية والذى أسماه كارل ليبنخت؟

ج: لا أتذكر شيئاً من هذا.

س: هو يقول إنه سلم مكتبتك عددا من النسخ من هذا الكتاب.

ج: يجوز أنه حضر فى غيابى وسلم العاملة نسخاً من كتابه.

س: ألا تعرف شيئا عن لطف الله حنا سليمان هذا وعن ميوله وآرائه؟

ج: يمكننى أن أؤكد أن مفيش أى تفاهم أو اتصال أو انسجام بينى وبينه.

س: تبين من التحقيق الذى أجرى مع لطف الله سليمان ومن بعض الأوراق المضبوطة أنه يشتغل «مسئول» الخلايا.

ج: أنا لا أعرف شيئا عن هذا الموضوع.

س : هل تعرف كتبا تبحث فى الخلايا؟

ج: لا أبداً، وأنا قرأت كتباً كثيرة جدا يسارية وغير يسارية ولم أجد كتابا يبحث فى الخلايا.

س: هل تعرف خليل الآسى؟

ج: لا .

س: ضبط مع خليل الآسى خطاب مرسل من على أبو النيل إلى لطف الله سليمان يعتب عليه فيه أنه لم يتلق معونته بسبب القبض عليه فى قضية المنشورات بالرغم من أنه وصله خبر الفلوس التى أتت من الخارج؟

ج: أنا لا علم أى شىء عن على أبو النيل ولا عن لطف الله سليمان ولا عن فلوس من الخارج.

س: ولكن فى الأوراق المضبوطة بشأن التفتيش الذى أجراه البوليس فى أوائل ١٩٤٣ بمناسبة نشاط المركز الثقافى الاجتماعى إشارة إلى الخلايا فى التقرير الذى ضبط بالحجرة التى بسطح المنزل رقم ٦ بشارع أمين باشا سامى وذكر فى التقرير أن على أبو النيل من أعضاء الخلية الرابعة.

ج: أنا لما كنت عضو فى النادى الديمقراطى لم أسمع باسم على أبو النيل مطلقا ولم تكن له علاقة بالنادى.

س: تبين من أقوال لطف الله سليمان أن له شلة من بينها رمسيس يونان وبولا العلايلى ويتردد عليهم أحيانا أنور كامل كما أن من بين الشلة جورج حنين.

ج: أنا أعرف أنهم أصحاب وأعرف أن اللى جمعهم فى الأول مذهب السيرياليزم أو ما فوق الطبيعة، وهو مذهب من المذاهب الغامضة وظهر بعد الحرب الماضية، وفيه بعض أدباء فرنساويين ورسامين أيضا من أتباع هذا المذهب ومن المؤلفين الفرنساويين المشهورين أندريه بروتون فى الأدب، وسلفاتور دالى فى الرسم، وهذا المذهب وإن كان فيه

اتجاه يسارى ولكنه غير شيوعى بالمرة وأتذكر أنهم عملوا معرض أو اثنين لرسوم هذا المذهب وعرض فيها رمسيس يونان بعض صور رسمها وأظن كان ذلك حوالى ١٩٤٣. وأنا فاكر إنه كان فيه وقت حصل إن أنور كامل وجورج حنين زعلانين من بعض وأنا كانت علاقتى بيهم عن طريق أخى راؤول وبعد أن سافر أخى إلى الكونغو انقطعت علاقتى بهم.

س: وما سبب هذا الزعل؟

ج: مش فاكر والكلام ده من سنتين ثلاثة لأنى من سنتين ثلاثة لا أعرف عنهم أى شىء.

س: هل تعرف عبده دهب؟

ج: أيوه أعرفه من أيام جريدة «حرية الشعوب» اللى استأجرتها عام ١٩٤٢، وكان سكرتير الإدارة فيها، أما الآن فهو يعرض مجلة «أم درمان» عندى فى المكتبة وليس بينى وبينه صلة غير كده.

س: وهل تعرف عبد الماجد حسبو؟

ج: لا.

س: هل تعرف محمود العسكرى؟

ج: محمود العسكرى بتاع شبرا الخيمة؟

ج: هل تعرفه؟

ج: لا.

س: وكيف عرفت أنه بتاع شبرا الخيمة؟

ج: ده مشهور وقرأت عنه فى الجرائد لأنه كان له قضية علشان مجلة وطلع براءة.

س: وهل تعرف إبراهيم حافظ العطار؟

ج: لا.

س: عندما قبض البوليس على كمال أحمد شعبان وجدت معه ورقة بأسماء سبعة عشر كتابا فى الماركسية واللينينية وغيرها وأمام كل اسم عدد النسخ: وفى ذيل الورقة عبارة: «هذه هى الكتب التى وجدناها فى مكتبته» فهل يمكن شراؤها؟ فهل توجد هذه الكتب عندك فى مكتبك؟

ج : نعم (بعد أن أطلع على الورقة المضبوطة مع كمال أحمد شعبان والمشار إليها فى محضر استجوابه).

س: هل تعرف بخط من كتبت أسماء هذه الكتب باللغة الإنجليزية؟

ج: لا أعرف. وهذه الكتب موجودة عندى.

س: يقول البوليس إن كمال شعبان هذا متصل بك وإنه من أتباعك؟

ج: لا. أبدا.

تمت أقواله.. وامضى.

إمضاء

رئيس النيابة

إمضاء.

ديدار فوزى

«كرهت الحياة الأرستقراطية وقيودها، وتمردت على كل شىء حتى التقيت هنرى كورييل فوثق بى وأعطانى أخطر مسئولية فى التنظيم فوجدت نفسى قادرة وملتزمة، بل شديدة الالتزام».

ديدار فوزى

وتبدأ حكاية فتاة مرفهة ومتمردة فتقول «شعرت بالقرف من الأرستقراطية والأرستقراطيين فقررت الهرب». سرقت شورت أخيها وقصت شعرها لتبدو ولدا وكانت فى الرابعة عشرة من عمرها عندما هربت متخفية كولد، وركبت القطار هى وصديقة من مدرسة الليسيه لتهربا إلى أمريكا، الأسرة الثرية أقامت الدنيا، وقبضوا على البنتين فى بنها، وإلى قسم البوليس ذهبت الأخت الكبرى لتتسلم ديدار وكان معها هنرى كورييل، وبدأت علاقة صداقة حميمة.

مغامرات ديدار لا تنتهى، أحبت شابا طائشا فاعترضت الأسرة، فأوحى لها أن يشربا السم وينتحرا معا، هى شربت السم أما هو فلا، أنقذوها، وكان هنرى إلى جوارها، لم تفلح ديدار فى الدراسة فتركت المدرسة لتعمل فى البنك الذى يديره أبوها.

إلى ذلك الحين كان اسمها ديدار روسانو.

لكنها ما لبثت أن تعرفت إلى ضابط شاب فى الجيش، عثمان فوزى ضابط الفرسان ذو الأصل الأرستقراطى أمه الإنجليزية منحته بشرة ناصعة البياض وشعرا أشقر، وجده الشركسى منحه قامة مهيبة، حصل على بطولات عديدة فى الفروسية، وزيه المميز لضباط الفرسان جعله محط اهتمام الكثيرات من بنات المجتمع الراقى.

التصادم الأول بين هذه الفتاة المتمردة وعثمان كان عندما قال لها إنه ضابط فى الجيش المصرى، فسألته فى استهتار «هل هناك جيش مصرى» لكنهما تصالحا وتزوجا،

وعثمان ضابط من نوع خاص قام بإنشاء فصول محو أمية لجنود كتيبته، بما لفت أنظار أمن الجيش إليه فأرسلوه إلى سلاح الحدود قائدا لكتيبة من الجنود السودانيين لكنه ظل نموذجا لضابط مصرى يسارى وضع اللبنات الأولى لتنظيم الضباط الأحرار. وهنا قرر هنرى كورييل أن يطوع هذه الفتاة المتمردة، كان رأيه أن الإنسان إن كان مخلصا وتولى مسئولية جادة فسوف يقوم بها بجدية وكفاءة حتى ولو تبدى مستهترا، ونجحت ديدار التى أصبح اسمها ديدار فوزى فى القيام بهذه المهمة بمهارة وكفاءة، فمن كان يصدق أن هذه السيدة الأرستقراطية الأجنبية الأصل التى تتحدث الفرنسية أكثر من تحدثها بالعربية والتى تقضى ساعات طويلة فى نادى الجزيرة تلعب التنس والاسكواش وتركب الخيل هى مسئولة الاتصال بقسم الضباط فى تنظيم شيوعى.

لكن الزوج يسافر إلى حرب فلسطين ويعود مصابا، وفى هذه الأثناء تعززت علاقاته أكثر فأكثر بالضباط الأحرار.

وتتولى ديدار بعد قيام الثورة عدة مهام خطيرة منها تهريب شريف حتاتة ومحمد الجندى من معتقلهما فى قصر العينى، وهناك فى بيت الضابط المرموق والمحبوب من قادة الثورة عثمان فوزى يختفيان حتى يتم تهريبهما إلى خارج البلاد، ثم محاولة أخرى لتهريب محمد شطا، وهنا ربما يتنبه قادة يوليو إلى دور عثمان فوزى، واحتراما لمكانته يرسل ملحقا عسكريا فى موسكو وتسافر معه ديدار التى كانت على وشك القبض عليها.

وبعد فترة يقع الانفصال وتغادر ديدار إلى باريس وهناك تعود إلى دورها المفرط الحساسية والخطورة، حلقة الاتصال فى عديد من المهام شديدة الخطر، فعندما حصلت مجموعة كورييل عبر صداقات متعددة على معلومات دقيقة ومفصلة، عن استعدادات فرنسا للعدوان الثلاثى على مصر، قامت هى بإيصالها إلى ثروت عكاشة، الملحق لعسكرى المصرى فى باريس، كما قامت بتهريب عديد من الوثائق حول هذا الموضوع إلى مكان آمن فى جنيف، وعندما أقام كورييل علاقة وثيقة بالثورة الجزائرية، كانت هناك لتلعب أكثر الأدوار خطورة فالثورة بحاجة إلى تمويل.. وكان يتم تجميع قرابة نصف مليون فرنك فرنسى، من الجزائريين المقيمين فى فرنسا ومن أصدقاء الثورة الفرنسيين تمثل تقريبا نصف احتياجات الثورة، وقامت ديدار فى أحيان كثيرة بدور حامل الحقيبة، تحمل الأموال إلى جنيف، ومن هناك يتم تهريبها إلى الجزائر، وعندما يقبض عليها تكون المنظم لعملية

هروب شديدة التعقيد.

هنرى كورييل قضى فترة السجن فى سجن فرين مع فرنسيين من أنصار الثورة الجزائرية ومع جزائريين، وجعل من السجن مدرسة حقيقية لمحاضرات عديدة، وفى شهر رمضان أقنع جميع الفرنسيين بالصوم تضامنا مع الجزائريين، أما ديدار وقد وضعت فى سجن لابيتيت روكيت فقد نجحت فى ترتيب عملية هروب شديدة التعقيد نجحت بها فى تهريب خمس سجينات معها، وعندما تنتصر الثورة الجزائرية تسافر إلى الثوار المنتصرين لتنال تكريما خاصا، وعندما يؤسس هنرى كورييل منظمة «تضامن» التى كرست جهدها لمساندة حركات التحرير الأفريقية، خاصة حزب المؤتمر فى جنوب أفريقيا تكون ديدار هناك فى أكثر الأنشطة سرية وخطورة.

وتبقى ديدار فوزى، ولم تزل جزءا من جسد النضال اليسارى المصرى بمذاقه المحلى والأممى، وبرغم الشيخوخة فإنها لم تزل تستشعر حنينا جارفا لهذا النضال الأسطورى.

شحاتة هارون سلفيرة

«أنا مصرى ويهودى وماركسى، كنت ولم أزل وسأظل متمسكا بعناصر وجودى هذه، كاملة غير منقوصة، ولن أتنازل عن أى منها ولو وقف العالم كله ضدى».
شحاتة هارون

هذا الرجل الذى ذاب حبا فى تراب مصر والمصريين وظل يذوب فى هذا الحب حتى آخر نسمات حياته، وعاش يؤكد هذا الحب الثلاثى الأبعاد رغم غباوات وحماقات وإنكار كثيرين من الحمقى الذى تزخر بهم حياتنا.

ذات يوم جلست إليه لأسجل حوارا معه، وما إن لمست الجرح الغائر فى القلب حتى وقف غاضبا: «أنا مصرى وهذا عشقى، ويهودى وهذا حقى، وماركسى وهذه عقيدتى التى أعرب بها عن عشقى لمصر وعن حقى فى التمسك بديانتى ولن أتنازل أبدا عن عشقى ولا عن حقى ولا عن عقيدتى» (حوار فى ٢٥/٤/١٩٧٠).

الأسرة عاشت فى مصر أجيالا طويلة وظلت على الدوام متشددة فى تدينها، جده زكى كرايم كان يهوديا متشددا وصمم على أن يعيش شحاتة كيهودى حقيقى، فأحضر له حاخاما ليقوم بتدريس الديانة اليهودية والتوراة فى المنزل، ولكن الأب خشى على الابن من عدم إتقان اللغة العربية فيعيش فى مصر كخواجة فأحضر له شيخا معمما ليدرس له قواعد اللغة العربية، وكان فى ذات الوقت طالبا فى مدرسة الفرير بباب اللوق حيث الرهبان الكاثوليك المتزمتون، وعلى مدى سنوات ظل يحفظ التوراة ويتلقى دروس العربية على يدى شيخ معمم، ويتعلم فى مدارس كاثوليكية وكأنه يجسد العلم المصرى الجميل والقديم (الهلال والثلاث نجوم) ويمضى شحاتة مبتسما: «أنا كنت دائما أعتبر نفسى رمزا للنجوم الثلاث التى كانت ترمز للديانات السماوية الثلاث». وإلى كلية الحقوق ذهب حاملا معه عشقه للوطن والتزامه الدينى وهناك وجد نفسه فى دوامة ملتهبة من العمل

السياسى». عبد الرحمن الشرقاوى ألح عليه كى ينضم إلى «مصر الفتاة» لكن تطرفهم الدينى أبعده عنهم وبقى كما كان لفترة من الوقت يميل نحو الوفد بسبب تسامحه الدينى، وأخذ بهذه الصفة يشارك فى المظاهرات والمؤتمرات ويتحمس فى العداء للاحتلال وأحزاب الأقلية والقصر الملكى.

وفى الحوار سألته: «متى أصبحت شيوعيا؟» فقال: «أول مرة سمعت فيها كلمة شيوعى كانت عندما أحلت إلى مجلس تأديب بكلية الحقوق بسبب المشاركة فى تنظيم مظاهرة وكان معى محمد عودة وسمعت المحقق يسأل عودة: إنت وفدى؟ فأجاب بحماس: لا.. أنا شيوعى».

لكن الكلمة لم تستلفت انتباهه الذى لم يزل مغلفا بالحيرة، كان يريد أن يفعل شيئا جادا لمصر: ذهب إلى نادى المكابى «اليهودى» لكن المناخ المنغلق على اليهود وحدهم لم يعجبه. انضم إلى جمعية تسمى «عصبة مكافحة العداء للسامية» لكن هدوء الأعضاء وبرودة الكلمات لم تعجبه. حضر اجتماعا للجمعية الصهيونية «وكانت علنية» لكنه شعر بالقرف، التقى بالمصادفة ضابطا إنجليزيا اسمه «زاميث هاينز» واستمع إليه طويلا وكثيرا وهو يتحدث عن الاشتراكية والشيوعية وحقوق الفقراء، لكنه يظل متمسكا بسلبيته، وظل كذلك حتى تخرج فى كلية الحقوق وعمل محاميا، وأخيرا وجد خيط النجاة نحو اقتناع حقيقى بأن يفعل شيئا للوطن، قابله موظف يعمل مع أبيه (كان الأب بائعا فى محل شيكوريل) هو دافيد ناحوم، وكان رئيسا لنقابة عمال المحال التجارية، فتح أمامه طاقة ضوء وانبهر الفتى المحامى بالحديث عن الماركسية وعن الدفاع عن الفقراء وتحدى ظلم الرأسماليين، وقدمه ناحوم إلى هنرى كورييل وضمه كورييل إلى منظمة الحركة المصرية للتحرر الوطنى «ح.م». وفى هذه الحركة كان ثمة قسم للأجانب لأن بعضهم لم يكن يتكلم العربية بقدر يكفى للعمل المشترك، شحاتة رفض قسم الأجانب وعمل مع المصريين، وقبض عليه ذات ليلة فى قهوة «بج بن» بشارع سليمان باشا بتهمة عقد اجتماع شيوعى، واحتجز فى نقطة كوتسكا «شارع معروف». ضحك وكيل النيابة عندما شهد ضابط البوليس السياسى بأنه قبض عليهم (كانوا ثلاثة أحدهم كورييل) لأنهم كانوا يتهامسون خوفا من أن يسمعهم أحد وكان تهامسهم هو سبب القبض عليهم، وأفرج عنهم، لكن القبض يتوالى مرة ومرات حتى فزع الأب وسأله غاضبا: «إنت عايز تبقى وزير فى بلاد المسلمين؟» لكن

شحاتة لم يكن يريد سوى تحرير المصريين من الظلم، وهذا يكفيه ويزيد، وفى يوليو ١٩٤٦ قبض عليه فى «قضية الشيوعية الكبرى»، وخرج بعد أشهر، ثم قبض عليه مرة أخرى فى عام ١٩٤٨ عندما أعلنت الأحكام العرفية بسبب حرب فلسطين، وظل فى المعتقل حتى قدوم حكومة الوفد عام ١٩٥٠ وإغلاق المعتقلات.

لكن اشتعال حرب فلسطين كان بداية معاناة حقيقية لكل اليهود المصريين. الكثيرون منهم هاجروا لكنه بقى مصمما على حقه المثلث الأضلاع «مصرى - يهودى - شيوعى» زوجته الجميلة والوفية مارسيل، الفرنسية الجنسية، كانت تسانده وتحمى ظهره. السفارة الفرنسية عرضت عليها أن تقوم بتسفيرها هى والأولاد إلى فرنسا ثم تعطى الفرصة لشحاتة كى يلحق بهم، لكنها رفضت، فشحاتة لن يترك مصر، وهى أيضا معه.

وكانت معاناة حقيقية أن تنظر إليك العيون فى تساؤل: لماذا بقى هذا الرجل ولم يهاجر مثل آلاف غيره؟ وشحاتة لا يغضب، فهم لا يعرفون قيمة العشق للوطن، وذات يوم عادت الابنة ماجدة إلى البيت باكية كانت فى السنة الأولى - إعدادى، وفوجئت بمدرسة التربية الاجتماعية تقول «اليهود فى المنطقة معزولين زى الكلب الجربان»، ذهب بها شحاتة إلى المدرسة وجلس ليشرح للمدرسات وللناظرة الفارق بين «اليهودية» «الديانة» - وبين «إسرائيل» «الدولة المعتدية» وبين «الصهيونية» «السياسة العنصرية» وأعلن أن «البنت مش هتدخل الفصل إلا إذا اعتذرت لها المدرسة أمام التلاميذ»، واعتذرت لها المدرسة، وكان شحاتة يعلم أولاده كل يوم «احترموا أنفسكم يحترمكم الناس، أحبوا مصر يحبكم الناس».

وفى عام ١٩٥٦ وعلى أثر العدوان الثلاثى يوضع مكتبه تحت الحراسة ويعتقل هو، لكنه يعتقل هذه المرة كيهودى وليس كشيوعى فرفاقه كانوا هناك فى بورسعيد يحاربون العدوان، الجرح هذه المرة كان غائرا، فهو على استعداد أن يقبض عليه ألف مرة كشيوعى ولكن القبض عليه كيهودى خلال عدوان إسرائيلى يعنى الشك فى وطنيته، وهذا ما لا يقبله، فوجه من المعتقل رسالة صاخبة وغاضبة إلى عبد الناصر، وأفرج عنه. وفى ١٩٦٧ وعندما تندلع الحرب مرة أخرى يطلب إلى نقابة المحامين أن ينضم إلى كتيبة المحامين التى كانت تتدرب للذهاب للجبهة، لكنه يقبض عليه، ويكون القبض عليه هذه المرة شديد القسوة ويعامل معاملة غير مسبوقة، وعرف السبب، فقد استبق شحاتة أحداث العدوان

بعدة أشهر وردا على خطاب عبد الناصر فى عيد الوحدة فى ٢٨ فبراير ١٩٦٧ وجه شحاتة إليه رسالة مطولة وغاضبة عدد فيها مظاهر التمييز ضد اليهود المصريين دونما نظر لمصريتهم، ولا لولائهم لمصر وحرصهم على البقاء رفضا للسفر لإسرائيل، وكانت لهجة الرسالة واضحة وشجاعة ولهذا اعتقل يوم ٥ يونيو وعومل معاملة شديدة القسوة.

فماذا قال شحاتة فى رسالته لعبد الناصر؟

* * *

«أنا يهودى ضد الصهيونية، تماما كما تكون مسلما وضد الإخوان المسلمين. والصهاينة يعتبروننى خائنا، وأنا مصمم على البقاء فى مصر حتى ولو قطعوا رقبتى على أرضها».

شحاتة هارون

سألنا ماذا أغضب عبد الناصر فى رسالة شحاتة هارون التى أرسلها له فى فبراير ١٩٦٧؟ والإجابة تكمن فى نصوصها، فالرسالة تبدأ: «فى إطار الصيغة الجديدة المطروحة اليوم على منطقتنا فى فهم المعركة الدائرة بين الاستعمار والرجعية والعنصرية الإسرائيلية من جهة، وبين القوى الثورية من الجهة المقابلة، فإنه ما من شك فى أن للتقدميين من اليهود دورهم الإيجابى ومكانهم فى صفوف القوى الثورية، وهؤلاء لا بد من ضمهم صراحة إلى باقى القوى الثورية لمساعدتهم على تعبئة الجماهير اليهودية فى العالم لتقف معنا فى معركة التحرير والديمقراطية والاشتراكية»، وتمضى الرسالة: «فمنذ عام ١٩٤٨ والحكومات العربية تسلك نحو مواطنيها من اليهود سلوكا دفعهم إلى الهجرة بما أدى إلى مد دولة إسرائيل بحوالى ٦٠٪ من عتادها البشرى». ويمضى شحاتة فى رسالته: «ويبقى الحال إلى الآن كما هو برغم التحولات الثورية الجذرية فى بعض الدول العربية مما أسبغ على حكوماتها التقدمية شبهة أو ظلالا من العنصرية تتناقض تناقضا صارخا مع ما تعتنقه من مبادئ اشتراكية علمية، والحقيقة أنه إذا لم يكن ثمة مبرر لهذا السلوك فى بداية الأمر فإن استمراره مع اشتراكيتنا اليوم أصبح تبريره صعبا بل مستحيلا»، ثم يسأل: «كيف يمكننى وأنا المولع بثورتنا والمقدر عن وعى صادق وعميق للدور التاريخى والخلاق الذى يلعبه عبد الناصر أن أبرر لغيرى من اليهود هنا وفى العالم أسلوب التعامل مع اليهود المصريين»، «فأنا وغيرى

محرومون من أداء الخدمة العسكرية، ومحرومون من حق العمل فى المؤسسات العامة، ومحرومون من مغادرة البلاد لأى فترة إلا بعد التنازل عن الجنسية المصرية أو عن حق الإقامة فى مصر»، وتمضى الرسالة لتسرد عناصر التمييز ضد اليهود المصريين ثم تسأل «:كيف يمكن التوفيق بين ما يعلن وما يقال وبين ما يجرى فعلا وعملا، مثل تلك التدابير الخفية وغير الخفية التى تحز فى النفس وتغضب وتؤلم وتذل». وكان طبيعيا أن يغضب عبد الناصر من هذه الجرأة، وكانت المعاملة الشديدة القسوة له شخصيا عقب اعتقاله فى ٥ يونيو ١٩٦٧ لكنه يظل متمسكا بحقه ورؤيته، وفى المعتقل ظل يؤكد لمن حققوا معه فى أسباب توجيهه لهذه الرسالة إلى الرئيس وقال لهم: «إن وحدة القوى الثورية لا تحتمل أى استثناء أو أى إقصاء لجزء من تلك القوى الثورية يكون مرده إلى اختلاف فى الأصل أو الدين»، ويظل شحاتة فى معركته المتصلة فيتقدم بطلب لنقابة المحامين لقيده فى جدول المحامين أمام محكمة النقض، وترفض النقابة لأنه «يهودى» ويرسل شحاتة برقية لعبد الناصر ويقول: «رفضت النقابة طلبى لأننى يهودى وليس هذا جرما مانعا» وترضخ النقابة بعد معركة طويلة.

وبعد حرب أكتوبر يعلن شحاتة هارون على صفحات مجلة «الطليعة» ابتهاجه قائلا: «لقد قضى العبور نهائيا، وبما لا رجعة فيه على أسطورة أن إسرائيل دولة لا تقهر»، ويفسر شحاتة فى مقاله سر مساندة أمريكا لإسرائيل بأن أمريكا تتخذ من إسرائيل أداة ردع لحماية المصالح الأمريكية الاقتصادية والبترولية فى المنطقة، فإذا صفيت هذه المصالح لم يتبق لأمريكا سبب لمساندة إسرائيل، ويمضى المقال مطالبا بوقفة عربية معادية لأمريكا وإسرائيل معا (الطليعة - أكتوبر ١٩٧٤).

وفى يناير ١٩٧٥ وعقب مظاهرات صاخبة طالب فيها العمال بالخبز قبض عليه، وتزف الصحف الحكومية النبأ فى بهجة متهمة إياه بأنه كان بين المتظاهرين محرضا لهم.. بينما قبض عليه فى بيته. وبعد أن يفرج عنه يجرى معه صلاح حافظ حوارا (روزاليوسف - ٢ مارس ١٩٧٥) يقول فيه شحاتة كلمات موحية: «نعم أنا يهودى، نعم أنا يسارى، لكن الصفة الأهم هى أننى مصرى، وفى حدود معلوماتى أنه لا يشترط لكى أكون مصريا أن أغير ديانتى ولا أن أغير معتقداتى السياسية، ولا توجد جهة فى الدولة لا تعرف جهودى فى الحرب ضد الصهيونية سواء هنا أو فى خارج البلاد».

وعندما تكون كامب ديفيد يعلو صوت شحاتة هارون رفضا لها، مؤكدا: «اتفاقيات

كامب ديفيد ليست فى رأيى سوى سلام أمريكى بشروط المؤسسة الصهيونية الحاكمة فى إسرائيل وبالتالى فإنها فى اعتقادى ضد مصالح الشعبين الإسرائيلى والفلسطينى». (القبس الكويتية - أكتوبر ١٩٨٠).

نحن إزاء رجل أسطورى يذكرنا بالبطل الإغريقى الأسطورى سيزيف لكنه لا يحمل صخرة واحدة وإنما ثلاثاً عشقه لمصر والتزامه الدينى وتمسكه بمعتقده، ورغم صعوبة المرتقى واصل معركته بلا كلل، وفى ١٠ يناير ١٩٧٦ وجه برقية إلى الرئيس السادات يطالب فيها «بإلغاء كل الإجراءات والقرارات - السرى منها والعلنى - التى تفرق فى المعاملة بين اليهود وغيرهم من المواطنين، وأن يضع حدا للمقالات والأحاديث الإذاعية والتليفزيونية التى تحقر الدين اليهودى» قائلا: «إن يهود مصر جزء منها وكرامتهم من كرامتها، وآمالهم من آمالها مهما ادعى السفهاء والمغرضون». ويغضب السادات، لكن الرجل اعتاد على غضب الرؤساء منه.

وعندما تأسس منبر اليسار فى أبريل ١٩٧٦ أتى شحاتة هارون فى اليوم الأول ليقدم طلب الانضمام.. وليواصل رحلته معنا حتى يصبح عضوا فى اللجنة المركزية للحزب.

وفى ١٩٧٩ وإثر التوقيع على اتفاقية السلام ومعاهدة الصلح مع إسرائيل حضر إيجال يادين، نائب رئيس وزراء إسرائيل، وذهب للصلاة فى المعبد اليهودى بشارع عدلى، وذهب شحاتة، ونستمع إلى حكايته هناك: «وبعد تفتيش دقيق وخشن دخلت المعبد وتقدمت مباشرة إلى إيجال يادين وقلت له بصوت مرتفع إنى كمصرى أرى أن هذه المعاهدة مهينة لكرامة الشعب المصرى. والتف حولى حراس مصريون وإسرائيليون ومنعونى من الصلاة واقتادونى خارج المعبد». ويدفع شحاتة الثمن فبعد فترة وجيزة يقبض عليه مجددا.

ويبقى نضال شحاتة هارون متواصلا ليذكرنى ببيت الشعر القائل:

أرى العنقاء تكبر أن تصادا

فعاند ما استطعت له عنادا

يعاند الصهيونية والعنصرية ويتمسك بمصريته وعشقه لوطنه وشعبه.. يتمسك بذلك كله حيا وميتا، وعندما يرحل يكون قد أوصى بألا يصلى عليه حاخام قادم من إسرائيل «وهو ما يحدث مع كل من يتوفى من اليهود المتبقين فى مصر»، وينتظر شحاتة حتى يحضر حاخام من فرنسا.. وبذلك يرقد مستريحا، بعد أن سجل وفى آخر نفس من أنفاسه عداءه لإسرائيل وللصهيونية.

د. مصطفى هيكل

«أن تلقن الفلاحين فنون النضال الماركسى هذا أمر قد يبدو صعبا فى البداية، لكن أن تخترق بهم قلعة الدكتور محمد حسين هيكل باشا قطب أقطاب حزب الأحرار الدستوريين (حزب كبار الملاك) فإن لهذا مذاقا خاصا وجميلا للغاية».

د. مصطفى هيكل

(فى حوارى معه - ١٩٦٩ ببرلين)

ولست أعرف كيف أبدأ؟ هل أبدأ بحواره المتحمس فى فندق إنتردين لندن ببرلين «الشرقية» أم بحنينى الدائم كى ألتقيه وبحثى الطويل عنه لأكمل معلوماتى عنه وعن تنظيمه المسمى «القلعة».

وربما كانت البداية الأكثر جمالا هى حكايتى مع ثماره الأكثر إبهارا من فلاحى كفر غنام الشيوعيين، فعندما كنت لم أزل طفلا فى الخامسة عشرة قبض علىّ وهناك حيث تجمعنا جميعا أمام محقق مرتبك لا يعرف معنى كلمة شيوعية ولا لماذا يحاكم المتهمون بها؟ ولا كيف؟ فجمعنا جميعا «حوالى ثلاثين شخصا»، أفندية ومدرسين وطلبة وفلاحين وعمالا وصاحب مكتبة وبائع كتب سريح وعسكرى مطافئ وأطفالا، وصار يحقق معنا واحدا واحدا أمام الجميع، هناك سمعت محاورات غاية فى الإمتاع، كنت مرتجفا من الرعب ليس من السجن الذى لا أعرفه، وإنما من أبى الذى أعرفه، وكان الفلاحون الآتون من كفر غنام هم الأكثر ذكاء وقدرة على إرباك الباشا وكيل النيابة. عم عبدالله عبدالحفيظ «عضو مجلس المديرية»، يتحدث عن الباشا محمد حسين هيكل بافتخار فهو ابن قريتهم وقريبه لكنه لا يلبث أن يهاجم الإقطاع والظلم والبؤس الذى يعيشه الفلاحون ويلقن وكيل النيابة دروسا فى الوطنية والعداء للاستعمار.. ويرتبك وكيل النيابة.. هل يحبس قريب الباشا أم يصغى لما يقوله من كلام يتدفق وطنية وعدلا، وهناك أحمد هرمز «طبال نقرزان

– والنقرزان هو طبل معلق أعلى جمل يتقدم أى موكب وزفة أى عرس»، وكان الطبال فصيحا وذا صوت مجلجل مثل النقرزان، ويدافع عن حقه فى قطعة أرض من تلك التى يزرعها لحساب الباشا وأمثاله ويقول إنه يكمل لقمة الأطفال بالعمل كطبال، أما المثير للدهشة فكان ذلك المرتدى جلبابا بلديا وصديريا أنيقا و«بلغة» ذات لون متألق. وعندما نادى عليه وكيل النيابة: فين أحمد هيكل؟ قدم مبتسما وصحح لوكيل النيابة: أنا الأستاذ أحمد هيكل. ويكتشف وكيل النيابة أنه مثقف مرموق وموظف كبير ورسام مبدع، فيتلعثم، ذلك أنه أيضا ابن أخ الباشا هيكل، ويسود الارتباك الحضور من محقق وضباط، ويأمر وكيل النيابة بحبس الجميع، حتى يتخلص من الارتباك، وذلك بعد أن اكتفى بسؤالهم: اسمك؟ سنك؟ مهنتك؟ عنوانك؟ ثم يحبسهم أربعة أيام على ذمة التحقيق.

وفى الحجز جلست القرفصاء لساعات طويلة وأنا أنصت لهؤلاء وهم يتحدثون عن الأستاذ مصطفى الذى كان المحقق يسأل كلا منهم، تعرف مصطفى هيكل؟ وتكون الإجابة «ده ابن بلدنا»، ويسأله المحقق: هل حدثك بهذه الأحاديث التى قلتها عن الفقراء والإقطاع؟ وتكون الإجابة: «هى دى محتاج حد يعلمهلنا؟».. وفى معتقل الهايكستب التقيت به لعدة أيام التقطنى من بين الجميع، الشورت الذى يرتديه طفل والارتباك الذى يلفه، لفت نظره إلى وأجلسنى ليشرح لى لماذا أنا معتقل؟ ولماذا يعتقلوننا؟ ولماذا يجب أن أثقف نفسى؟ وبعدها بأيام جرى ترحيله مع دفعة كبيرة ممن حضروا معى من المنصورة إلى معتقل الطور، وتمضى سنوات لأقرأ له كتيبات عدة ثم يختفى.

وعندما بدأت فى دراسة تاريخ الحركة الشيوعية بحثت عنه كثيرا دون جدوى، وفى أول زياراتى لبرلين الشرقية لأحضر اجتماعا لحركة السلام العالمية كان على سلم الطائرة ليستقبلنى، وبعدها تعددت اللقاءات وتعددت محاضر النقاش.

ونبدأ معه: «أبى شيخ أزهرى كبير وكان عضوا فى هيئة كبار العلماء، هو شيخ مستنير من مؤيدى الشيخ على عبدالرازق ومنه تعلمنا الفهم المستنير للدين، ومفردات الحرية والديمقراطية والمساواة أنا وأخى الأكبر أحمد وأخى الأصغر عبدالفتاح وحتى عمنا الدكتور محمد حسين هيكل باشا، كنت أسكن فى المنزل رقم ٦ درب اللبانة أى المنزل الملاصق لبيت الفن، ولم أكن بحاجة إلى مقدرة خاصة لاقتحام بيت الفن، فأخى أحمد رسام موهوب وكان له مرسم هناك.

وهناك عشت منبهرا بلوحات الفنانين السيرياليين، منصتا لحوارات لا تنقطع عن دور

الفن كمعمل بارود يفجر الراكد فى هذا المجتمع، وسمعت أشعارا ومساجلات، هل الفن للفن أم الفن للحياة؟ وعن الليبرالية والتروتسكية والعدمية، وفى المساء كان أخى أحمد يعيد شرح هذه المفردات، وتعرفت هناك إلى كبار اهتموا اهتماما خاصا بهذا الفتى الصغير»، وصمت ثم قال: «هل عرفت لماذا منحتك اهتماما خاصا عندما التقيتك فى هايكستب لقد فعلت ما فعل بى هؤلاء الكبار»، ويمضى: «التقيت وتناقشت فى تردد مع كامل التلمسانى وفؤاد كامل وأنور كامل وعصام الدين حفنى ناصف الذى كان يناقش التروتسكية بقرف واضح، وبعدها أخذنى إلى عيادة د. عبدالفتاح القاضى وتحدثا معى عن الاحتلال والفاشية والقصر الملكى ومعاهدة ١٩٣٦، وبدأوا فى فتح آفاق الماركسية أمامى، ولم أكن أكتفى بالاستماع، فكل ما أسمعه أعيده على أصدقائى، وفى عام ١٩٣٩ بدأنا نلتقى كمجموعة من طلاب الثانوى، الأغنياء بالبيجامات والفقراء بالجلاليب، عصر كل يوم فى تلك الزاوية التى تفصل بين مسجدى الرفاعى والسلطان حسن، كان أغلبنا من طلاب الخديوية الثانوية وبنباقادن الثانوية».

وفى كل عصر تدور حوارات صاخبة، لكن الفتى مصطفى كان يمتع الجميع بفهم جديد يستقيه من لقاءاته مع رواد بيت الفن ومن أبيه ومن أخيه أحمد، ومن كتب أمده بها عصام الدين ناصف ود. عبدالفتاح القاضى، ويمكن القول إنه كان المتحدث الأساسى أو بالدقة المحاضر الدائم، وتتسع المجموعة لتضم طلابا مثل فتحى هيكل وعبدالعزيز بيومى وعبدالفتاح يونس (طالب أزهرى – ابن شيخ التكية التركستانية، وكانت بؤرة شديدة العداء للاتحاد السوفيتى) ومحمد البخارى (طالب أزهرى وأصله من إندونيسيا) وعاملين أحدهما من الترسانة اسمه عبدالعزيز وآخر فى المطبعة الأميرية اسمه رمضان، وعلى أى حال يؤكد مصطفى هيكل: «كنا ثمانية، نتحاور كل يوم حتى أصبحنا مجموعة متقاربة فى الفكر والرأى».

* * *

«عندما قرأت كتاب "رأس المال" لكارل ماركس وجدته شديد الصعوبة وقررت تبسيطه وتلخيصه فأصدرت فى عام ١٩٤٧ كتابا سميته "خلاصة رأس المال" لكنه جاء أكثر تعقيدا من كتاب ماركس».

د. مصطفى هيكل

(من حوارى معه عام ١٩٧١)

لكن جغرافيا المكان، الذى تلتقى فيه هذه المجموعة فى تلك الزاوية بين مسجدى الرفاعى والسلطان حسن، فرضت عليهم القرب من مقر المركز العام لجماعة الإخوان المسلمين، وواحد من المجموعة أشار إلى الجماعة وإلى إمكانية الحوار معهم. وعن طريق صلاح عبد الحافظ الذى أصبح فيما بعد كادرا إخوانيا مرموقا قابل مصطفى الشيخ حسن البنا، وبدأت المجموعة فى حضور حديث الثلاثاء وأثاروا صخبا بأحديثهم عن الحرية والديمقراطية والعدل وهجومهم على الأغنياء وكان صوت مصطفى الجهورى يعلو فوق صوت الجميع. هذا الجمع الذى اعتاد الاستماع والاستماع فقط لما يقوله فضيلة المرشد وأمر المرشد بمنعهم من دخول المركز العام وكان ذلك عام ١٩٤٢. فعاد مصطفى ليكتفى بمجموعته.

ونقرأ فى محضر نقاش آخر أجريته مع واحد من أفراد هذه المجموعة هو عبد العزيز بيومى المحامى: «كان مصطفى ينطلق كالمدفع الرشاش سريع الطلقات يتحدث عن المجتمعات البدائية التى سماها الشيوعية البدائية ثم المجتمع العبودى ثم الإقطاع ثم الرأسمالية ثم الاشتراكية موضحا أن هناك قانونا يحكم هذا التطور وتناثرت منه عبارات وكلمات غير مألوفة مثل قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج والمادية التاريخية.. واستوقفته كثيرا مستوضحا عن معنى هذه الكلمات والمثير للدهشة أنه استطاع أن يشرح ذلك ببساطة وإقناع، وفى جلسة أخرى تحدث عن الاستعمار وعن الكفاح المشترك مع الشعب السودانى وتحدث عن حق تقرير المصير للشعب السودانى. وكان باهراً لنا جميعا وأصبحنا معه كدراويش يتلقون المعرفة من شيخهم، وأتى حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ ليربكنا من جديد وليطيح بكل ما كان لدينا من ميول وفدية، وقررنا أن نؤسس تنظيما ماركسيا، ولم نكن نعلم أن هناك تنظيمات ماركسية أخرى فقد كنا محاصرين فى تلك الزاوية بين المسجدين. ويمكننى القول إننا أصبحنا فى عام ١٩٤٢ حلقة ماركسية. وحصل مصطفى عن طريق أصدقاء له (ربما كانا عصام الدين ناصف وعبد الفتاح القاضى) عى كتيبات مترجمة (منها «البيان الشيوعى - رأس المال والعمل المأجور» و«القيمة والثمن والربح» وانهمكنا فى دراستها وهى بعض مما سمى فى «ح.م» المكتبة الخضراء». واتفقنا أن يجند كل منا عددا من معارفه». ونعود إلى مصطفى هيكل «فى العام ٤٢-١٩٤٣ دخلت كلية التجارة ودخل عبد العزيز بيومى كلية الحقوق، وأذكر أن عبدالعزيز لامنى بشدة لأننى

دخلت كلية البقالين بينما هو دخل كلية الوزراء، لكننى أفحمته بأننا ندرس فى الكلية علم الاقتصاد، والاقتصاد محرك التاريخ. وكانت مصر فى شوق بالغ للتغيير وكان الباب مفتوحاً أمامنا للتجنيد واتسعت مساحة العمل إلى ما هو خارج حى القلعة. وفى الجامعة ضممنا إلينا أحمد الرفاعى وعادل سيف النصر ومصطفى أغا وحمدى عبد الجواد وفؤاد عبد الحليم ونشط أخى فتحى وسط طلاب بنباقادن الثانوية ونشط الأزهريان عبد الفتاح يونس ومحمد البخارى فى الأزهر، وفى حى القلعة عديد من الحرفيين وضممنا بعض صانعى الأحذية وأقمنا علاقة بنقابتهم. وقررنا أن ننشط خلال الإجازة الصيفية فى قرانا، أحمد الرفاعى فى طناح وأنا وفتحى فى كفر غنام. واتسع نشاطنا عبر عبد العزيز بيومى فى منطقة المحجر وسوق السلاح، وفى إحدى زياراتى لعمى هيكل باشا قابلت شخصية كانت لامعة جدا فى ذلك الزمان هى محمد بك خطاب الذى أدرك هويتى وقابلنى مرات عديدة ليشرح أفكاره عن الإصلاح الزراعى والعدل الاجتماعى، وقال لى عبارة لم أزل أذكرها: «بدون إصلاح زراعى وعدل اجتماعى سينهار النظام القائم».

وعن طريق خطاب بك تعرفت إلى الضابط أحمد حمروش وانضم إلينا واتصلت بالمفكر الكبير نيقولا حداد فى النادى الشرقى (حيث المقر المركزى لحزب التجمع الآن) ورفض الانضمام إلينا قائلا إنه ضد تأسيس حزب، وأعطانى كتبا كثيرة واتصلت بسلامة موسى الذى منحنى كتبا عديدة، وكذلك محمد عبد الله عنان الذى شرح لى أسس بناء تنظيم سرى على أساس خلايا منفصلة كل منها من ثلاثة أعضاء. وفى عام ١٩٤٥ أصبح عددنا ١٥٠ عضوا، وسمع بنا أعضاء المنظمات الأخرى. ولأننا متمركزون أساسا فى حى القلعة، سمونا مجموعة القلعة ووجدت الاسم ملائما قبلت هذه التسمية، ولأن عمى كان هيكل باشا أسمونى الباشا ورحبت بهذا الاسم وتركت اسمى «منصور» وأصبح اسمى الباشا باعتباره التسمية التاريخية لباشا القلعة، وأصبح الباشا مرموقا فقد أصدر عام ١٩٤٥ كتابا بعنوان «مؤامرات فى ميدان السياسة المصرية»، ويتضمن تحليلا لحقيقة جماعة الإخوان وقد ساعده فى طبعه عدد من الوفديين، وفى عام ١٩٤٦ أصدر كتيبا بعنوان «قضيتنا الوطنية بين الحكومة والشعب» وكان عبارة عن برنامج علنى لتنظيم القلعة، وفى عام ١٩٤٧ أصدر مع عبد الرحمن بصيلة كتيبا عنوانه «تطور المجتمع»، وقد صدر باسم سرى هو مصطفى عبد الرحمن، ومع عبد الواحد بصيلة أصدر كتابا بعنوان «لماذا أيدنا

الاتحاد السوفيتى» وكان تنظيم القلعة يمضى فى توسعه وتشكلت له لجنة مركزية من مصطفى هيكل سكرتيرا عاما، وحمدى عبد الجواد وأحمد حمروش وعبد الواحد بصيلة وفؤاد عبد الحليم أعضاء.

ونعود إلى مصطفى هيكل فى حوار آخر معه: «سمعت أن المنظمات الأخرى تتوحد فاندفعت للتوحد معها دون أن يطلبوا منى ذلك ورفعت شعار: «ليس ثوريا من لا يوحد الثوريين. وانضم بعضنا إلى ايسكرا والبعض الآخر إلى الحركة المصرية للتحرر الوطنى ثم التقينا جميعا فى منظمة حدتو. لكن شهدى عطية الذى كان أول من اتصلت به من أجل الوحدة قام بتكتل ضد القيادة سماه التكتل الثورى. وطلب إلى الانضمام إليه مطالبا بإبعاد الأجانب من القيادة فرفضت وبدأت مفاوضات بينه وبين القيادة، واقترحت اختيار شهدى سكرتيرا عاما لحدتو، وأن يتم تجميع الأجانب فى قسم خاص بهم ورفض الآخرون الحل، فكيف نكافئ المتكتل بتوليه موقع السكرتير العام. وباختصار كنا أنا ومجموعة كبيرة من كوادر حدتو فى مأزق، نحن نرفض التكتل ونديه ونرفض القيادة بتركيبها المثير للخلاف وقادنا هذا الارتباك إلى موقف أكثر ارتباكا فأصدرنا نشرته سرية عنوانها «صوت المعارضة» نعارض الطرفين، ولكن نعلن فى نفس الوقت عن خضوعنا التنظيمى لقيادة حدتو».

«وفى عام ١٩٤٩ اعتقلت رغم أن عمى كان أحد أقطاب الحكم آنذاك، وبعد الإفراج عنى تفرغت بعض الوقت للكتابة فأصدرت «مذكرات معتقل» و«السلام وحرية الشعوب» و«أناشيد من فيتنام» و«كيف تكتب القصة القصيرة»، وكان الانقسام لم يزل ينهش الجسد الحزبى ودون أن أجد أى قدرة على التبرير لما فعلت تركت مصر تاركا وظيفتى فى مصلحة البريد ورحل معى أخى فتحى. حيث بدأ كل منا فى إعداد رسالة دكتوراه وعملنا معا فى الإذاعة العربية لفرنسا، وفى عدوان ١٩٥٦ رفضنا إذاعة البيانات عن العدوان الثلاثى بل تمادينا فأذعنا بيانا باسمنا ندين فيها العدوان وهربنا من فرنسا إلى ألمانيا الديمقراطية، ليكمل كل منا الدكتوراه ولأعمل مدرسا فى جامعة برلين ويعمل فتحى فى جامعة ليبزج».

وينتهى الحوار مع صاحب تجربة خصبة لا يمكن نسيانها.

هليل شوارتز (وثيقة تكميلية)
محضر تحقيق النيابة
أجرى التحقيق فى ١٥ /٣/ ١٩٥٠

فتح المحضر فى ١٩٥٠/٣/١٥ الموافق ١٣٦٩/٥/٢٦

بدائرة قسم مصر الجديدة. الساعة السابعة والنصف صباحا

نحن محمد طاهر عبد الحميد - وكيل النيابة

ومعنا الجاويش محمد سليمان الهنداوى: كاتبا للتحقيق بعد حلفه اليمين

حيث انشغلنا الليلة حتى منتصف الثانية صباحا بالتحقيق فى حادث ضبط وكر شيوعى بدائرة مصر الجديدة وإثر الانتهاء من تحقيقه قدم لنا حضرة الصاغ أحمد حلمى محضرا تناول إجراءات ضبط وتفتيش هليل شوارتز وبعد الاطلاع عليه دعونا المتهم وسألناه قال:

(١) هليل شوارتز (هلال أدهم) هو مؤسس تنظيم شرارة (ايسكرا) ومسئوله السياسى وصاحب نظريته وأسلوبه فى العمل، وقد اشتهر فى صفوف الحركة الشيوعية المصرية بالاسم الحركى «شندى» وفى غمرة الانقسامات التى اجتاحت «حدتو» عام ٤٨-١٩٤٩، انقسم «شندى» مكونا مع عدد آخر من المنظمات المنشقة منظمة «ن. ح. ش.م» (نحو حزب شيوعى مصرى) ألقى القبض عليه فى مارس ١٩٥٠ ثم رحل بعد الإفراج عنه فى عام ١٩٥٢ إلى خارج البلاد.

وأقام بعدها فى باريس حيث عمل موظفا بوكالة الأنباء الفرنسية، حاول المؤلف الاتصال به أكثر من مرة وإجراء مناقشة معه لإثباتها فى هذا الكتاب لكنه رفض بإصرار معلنا أنه قرر عدم الحديث عن فترة إقامته بمصر وأنه نسى كل ما يتعلق بها. ومن هنا فإن محضر تحقيق النيابة معه يصبح ذا أهمية لأنه الوثيقة الوحيدة المتاحة التى تقدم لنا بعضا من جوانب شخصيته. والنص الذى نقدمه هنا منقول من ملف القضية التى اتهم فيها شوارتز وهو مثبت بالصفحات ١٠٢٩-١٠٣٠ من الملف (المؤلف).

- اسمى هلال أدهم

- سنى ٢٧ سنة
- مولدى بالقاهرة .
- ومقيم فى شارع مراد بك نمرة ٢٦ بمصر الجديدة
- أعمل مدرساً خصوصيا وخريج الليسيه فرانسيه عام ١٩٤٠

س: ما قولك فيما نسب إليك؟

ج:أنا لاأاعترف بالتفتيش اللى تم لأنه تم فى غير حضورى، ولا حدش مضانى على محضر.

س: هل كنت تحتفظ بمنزلك على أوراق ونشرات؟

ج: أنا مش مستعد أرد على السؤال ده.

س : ضبط فى حقيبة قماش كمية كبيرة من نسخ مختلفة من النشرات والتقارير الشيوعية.

ج : انا موش حا أجاوب على حاجة، وانا لن اجيب على أى سؤال إلا لما اسأل المحامى بتاعى وأشوف أجاوب إيه.

س: اعترفت بملكية الأوراق المضبوطة معك، كذا اعترفت بالأوراق والكتب المضبوطة بمسكنك.

ج: محدش سألنى، وانا موش حا اجاوب على حاجة دلوقت، وانا ما اعترفتش لحد.

س: أنت متهم بالانضمام إلى المنظمة الشيوعية والترويج لمبادئها.

ج: محصلش كلام زى كده.

تمت أقواله

ملحوظة

طلبنا إلى حضرة الصاغ أحمد حلمى تحريز المضبوطات وإرسالها إلينا بالنيابة.

(تمت الملحوظة)

وأقفل المحضر على ذلك فى تاريخه عقب إثبات ما تقدم، ويرفق محضر حضرة الصاغ أحمد حلمى الذى تأشر عليه منا بذلك، ويطلب لباكر صاحبة المسكن أحمد حلمى والملازم صلاح متولى والملازم محمد توفيق لمعى ومدام أنيس فرتنش وزوجة المتهم ويحبس المتهم عسكريا وقررنا العودة.

وكيل النيابة

إمضاء

حضرة على بك نور الدين لإتمام التحقيق.

رئيس النيابة

إمضاء

هليل شوارتز
محضر تحقيق النيابة
أجرى التحقيق فى ١٦/٣/١٩٥٠

نيابة الصحافة والنشر:

فتح المحضر يوم الخميس ١٦ مارس ١٩٥٠ الموافق ٢٧ جمادى الأول ١٣٦٩هـ. الساعة الواحدة وخمس عشرة دقيقة مساء.

بسراى نيابة استئناف مصر.

نحن على نور الدين وكيل النيابة

وعبد الستار الدمنهورى كاتب التحقيق

أحال علينا حضرة صاحب العزة رئيس النيابة اليوم المحضر الخاص بضبط المدعو هليل شوارتز الذى تم تفتيش مسكنه فى ليلة ١٥/٣/١٩٥٠ بمعرفة حضرات ضباط القسم المخصوص بوزارة الداخلية وضبط به عدد كبير من الأوراق والتقارير والنشرات التى أثبتت انضمام المذكور إلى جمعية تدعو للمبادئ الهدامة وذلك لإتمام تحقيق هذا المحضر.

وبالاطلاع على هذا المحضر وجدناه محرراً على ورقتين بمعرفة حضرة الصاغ أحمد حلمى الضابط بالقسم المخصوص بوزارة الداخلية بتاريخ ١٤/٣/١٩٥٠ الساعة الحادية عشرة وخمس وخمسين دقيقة مساء. وثابت به أنه وردت لإدارة الأمن العام معلومات تفيد أن هليل شوارتز الذى ينتحل اسم هلال أدهم المعروف بتزعمه للحركة الشيوعية والسابق صدور أمر عسكرى باعتقاله لخطورته على الأمن العام والهارب منذ ١٥ مايو ١٩٤٨ يقيم فى الوقت الحاضر فى شقة بالمنزل رقم ٢٦ بشارع مراد بك تبع قسم مصر الجديدة ويزاول نشاطه الشيوعى فى الإشراف على توجيه القائمين بالحركة الشيوعية وإنه بناء على الإذن الصادر من النيابة قد تم تفتيش مسكن هذا المتهم بمعرفة حضرة محرر المحضر.

ومرفق محضر آخر محرر بمعرفة حضرة طاهر بك عبد الحميد وكيل النيابة يوم

١٩٥٠/٣/١٥ الساعة السابعة والنصف صباحا ثابت به إبلاغ حضرته بهذا الحادث أثناء انشغاله بالتحقيق فى حادث ضبط وكر شيوعى بدائرة قسم مصر الجديدة، وثابت به أيضا استجواب المتهم الذى ذكر أنه يدعى هلال أدهم، وقرر أنه لا يعترف بالتفتيش الذى تم فى غير حضوره ورفض الإجابة عن الأسالة التى وجهت إليه عن حيازته للأوراق المضبوطة إلا بعد سؤال محاميه، كما أنكر اعترافه بملكيته لهذه المضبوطات أمام حضرة الضابط صلاح متولى، وقد أمر حضرة وكيل النيابة بحبس المتهم عسكريا، وأمر بطلب حضرة الصاغ أحمد حلمى والملازم صلاح متولى والملازم محمد توفيق لمعى وزوجة المتهم وصاحبة المسكن اليوم لسؤالهم.

وقد حضر اليوم حضرة الملازم أول صلاح متولى ولم يحضر حضرة الصاغ أحمد حلمى، وعلمنا أنه سيحضر بعد قليل ومعه الأحراز، كما حضر المتهم وزوجته وصاحبة المسكن.

فشرعنا فى التحقيق بالآتى:

أدخلنا المتهم هليل شوارتز داخل غرفة التحقيق وسألناه عن اسمه فقال: أنا اسمى هلال أدهم، فسألنا عن اسم هليل شوارتز فقال: أنا كان اسمى القديم هليل شوارتز، وغيرته باسم هلال أدهم بناء على حكم المحكمة من سنة ١٩٣٥ تقريبا، وهذا الحكم غير موجود معى ويسأل والدى الدكتور يوما شوارتز بميدان سليمان باشا رقم ١ شقة رقم ٨ وهو اللى عارف المسألة دى.

ثم سألناه بالآتى:

اسمى هلال أدهم

سنى ٢٧ سنة

مدرس خصوصى

مولود فى القاهرة

مقيم بشارع مراد بك رقم ٢٦ بمصر الجديدة

س: متى سكنت فى شارع مراد بك رقم ٢٦ بمصر الجديدة؟

ج: أظن من أكتوبر ١٩٤٩ وسكنت فى أودة استأجرتها من مدام أنيس بثمانية جنيهات فى الشهر، وأقمت فيها باستمرار من أكتوبر ١٩٤٩ لغاية النهارده مع زوجتى.

س: ما اسم زوجتك؟

ج: اسمها برت متالون.

س: ومتى تزوجتها؟

ج: تزوجتها فى عام ١٩٤٤.

س: وأين كنت تسكن قبل سكنك فى مصر الجديدة أى قبل أكتوبر؟

ج: كنت ساكن مع والدى فى ميدان سليمان باشا.

س: ولماذا تركت السكن مع والدك وسكنت بمفردك؟

ج: نتيجة إعلان الأحكام العرفية شكيت انهم يقبضوا على فسبت مسكن أبى.

س: وأين كنت تسكن من تاريخ إعلان الأحكام العرفية فى مايو ١٩٤٨ إلى أكتوبر ١٩٤٩ عندما سكنت فى مسكنك الحالى؟

ج: مش عاوز أرد على السؤال ده لأنى شايفه خارج عن موضوع التحقيق وانا تركت السكن مع والدى من تاريخ إعلان الأحكام العرفية.

س: هل كانت زوجتك متزوجة من شخص آخر قبل زواجك بها؟

ج: لا.

س: ولكن الثابت فى المحضر أن زوجتك ذكرت أنها تدعى مدام باشكس؟

ج: فعلا احنا سمينا نفسنا أنا باسم موريس باشكس وزوجتى باسم مدام باشكس لما سكنا فى مصر الجديدة علشان نهرب من البوليس، لأن البوليس كان عاوز يقبض على وانا شكيت فى ذلك.

س: ولماذا كان البوليس يبحث عنك للقبض عليك؟

ج : هذا السؤال يوجه للبوليس.

س: ولكنك كنت تعرف بأن البوليس يريد القبض عليك.

ج: كنت أشك فى هذا.

س: لأى سبب كنت تشك فى هذا؟

ج: لأنى بصفتى يهودى كنت ألاحظ أن هناك ناس كتير من اليهود بيتمسكوا بدون أى مبرر فخفت على نفسى.

س: هل كان بحث البوليس بسبب أنك يهودى فقط؟

ج: أنا ما اعرفش هم كانوا بيدوروا على علشان إيه، حتى انا معنديش تأكيد إنهم كانوا بيدوروا على.

س: كيف قبض عليك؟

ج: قبض على وانا ماشى فى الشارع وراجع إلى البيت يوم الثلاثاء الساعة عشرة مساء تقريبا قرب البيت وكنت ماشى لوحدى.

س: من الذى قبض عليك؟

ج: اثنين رجالة واحد منهم لابس جلابية والثانى بدلة، أظن كده.

س: وما الذى حصل بعد أن قبض عليك هذان الشخصان؟

ج: أخذونى إلى البيت فلقيت هناك الأفندى إللى كان قاعد هنا (يشير إلى حضرة الملازم أول صلاح أفندى متولى الذى كان يجلس فى غرفة التحقيق) وضابط أخر لابس رسمى، وأظن كان فيه مخبر ما أخدتش بالى منه، ولقيت واحد من الضباط وهو اللى كان لابس رسمى كان مع زوجتى فى الشقة ومقدرتش اتصل بها، وعرفت أنه حصل نوع من التفتيش، وشفت أوراق مرمية على الترابيزة والأفندى (يقصد الضابط صلاح متولى) فتشنى وأخذ منى ظرف كنت شايله فى إيدى وأخذ منى محفظة فيها شوية فلوس حوالى ١٢٥ قرش وحاجات عادية زى قلم.

س: كيف عرفت أن البوليس فتش مسكنك قبل حضورك؟

ج: لقيت الورق محطوط وشفت القفل بتاع الضلفة اللى فى الشمال بتاعة الدولاب مكسورة.

س: ألم تسأل زوجتك أو صاحبة المسكن؟

ج: لا مكنش عندى فرصة أكلمهم.

س: وما هى الأوراق التى رأيتها موضوعة على الترابيزة؟

ج: ما قدرتش أتأكد لأنى شفتهم من بعيد، وكنت فى أودة تانية، غير الأودة اللى كان فيها الورق.

س: ألم تستطع أن تتبين أن هذه الأوراق لك أم لا؟

ج: لا ما عرفتش.

س : هل تستطيع أن تعرف إن كانت هذه الأوراق لك أم لا، إذا عرضت عليك الآن؟

ج: أيوه.

س: ألم تسأل الضباط الذين وجدتهم بالمنزل عن سبب القبض عليك وتفتيش المنزل؟

ج: سألت المخبر فى السكة، ومش متذكر إذا كنت سألت الافندى انه بوليس وما قليش أى سبب.

س: الم يسألك الضباط عما إذا كانت هذه الأوراق التى رأيتها موضوعة على الترابيزة لك من عدمه؟

ج: لأ ما سألنيش، وانا سألت الافندى الضابط إذا كان عنده أمر تفتيش من النيابة فقال لى لأ مش محتاجين لحاجات من دى.

س: هل كنت تحتفظ بنقود لك فى ضلفة الدولاب التى كسرت؟

ج: نعم.. وانا كنت شايل فيها سبعين جنيها تقريبا وحاططهم فى ظرف.

س: ألا تذكر أوصاف هذا المبلغ؟

ج: أظن كان فيه ورقتين بعشرة جنيه وسبع ورقات أو ثمان ورقات بخمسة جنيهات والباقى جنيهات باستثناء ٣ أو ٤ أوراق من فئة الخمسة وعشرين قرشا، وطبيعى مش ممكن اتذكر نوع الأوراق بالضبط وقد طلبت من حضرة الملازم الأول (وأشار إلى صلاح افندى متولى) أن يترك هذه الفلوس والفلوس اللى فى محفظتى ويعطيهم لزوجتى فرفض.

س: وأين كنت تضع هذا المظروف الذى به النقود فى الدولاب؟

ج: على أرض الدولاب – ثم عاد وقال: مش متذكر بالضبط.

فسألناه إن كان يضع هذا المظروف فى حقيبة فقال مش متذكر بالضبط ومتهيألى انه ما كانش فى الشنطة.

س: هل كانت توجد حقيبة فى الدولاب؟

ج : نعم.

س: ما شكل هذه الحقيبة؟

ج: شكلها زى دى (وأشار المتهم إلى الحقيبة المضبوطة والتى أحضرها منذ برهة حضرة الصاغ أحمد حلمى مع باقى الأحراز) ودى حقيبة عادية جدا زى ما انت شايف ومش ممكن أضمن أنها هى بتاعتى.

س: هل كنت تضع فى الدولاب أوراقا؟

ج: نعم أوراق خاصة بشغلى كمدرس.

س: وكتب؟

ج: نعم كتب خاصة بشغلى كمدرس وكتب عادية للاطلاع.

س: فى أى مادة تشتغل بالتدريس؟

ج: بادرس لغات وبادرس أدب وفلسفة وتاريخ.

س: ولمن تقوم بالتدريس؟

ج: تلامذة وناس مش تلامذة.

س: هل تستطع أن تذكر لنا أسماء التلاميذ الذين تدرس لهم؟

ج: أرفض الإجابة على هذا السؤال، لأنه فى رأيى خارج عن موضوع التحقيق.

س: ولكن هذا يثبت أن لك عملا إذا تقدمت بالدليل عليه.

ج: ممكن أكون مدرس واشتغل فى الشيوعية، وممكن مكونش مدرس وما يكونش لى أى عمل ولا أشتغل فى الشيوعية، إذن ردى على هذا السؤال لا يمكن أن يثبت شىء.

س: يقول البوليس إنك تشتغل بالشيوعية فهل هذا صحيح؟

ج: لا.. غير صحيح.

س: وهل لديك معلومات عن المبادئ الشيوعية؟

ج: أرفض الإجابة على هذا السؤال لأنه ليس له علاقة بالتحقيق.

س: ضبطت لديك بعض الكتب الشيوعية مما يدل على أنك تهتم بهذه المواضيع.

ج: هل اهتمامى المزعوم بهذ الموضوع يعتبر جريمة؟

س: هل أنت تهتم بهذا الموضوع؟

ج: بما أن اهتمامى أو عدم اهتمامى بهذا الموضوع لا يمكن أن يعتبر جريمة فى ذاته فأرى أن السؤال خارج عن موضوع التحقيق وأرفض الرد.

س: ألم يسبق لك أن اتهمت فى جريمة شيوعية؟

ج: لا.

س: ما مقدار كسبك الشهرى من عملك كمدرس خصوصى؟

ج: حوالى ٢٥ جنيه.

س: ألم يسبق لك العمل بأى مصلحة أو شركة؟

ج: اشتغلت فى عدة شركات وسيبت عملى بعد إعلان الأحكام العرفية لما شكيت إن البوليس عاوز يقبض على، واشتغلت من وقتها مدرس خصوصى.

س: وما مصدر النقود لديك؟

ج: من عملى، ولما تركت عملى فى مصلحة تابعة للسفارة الأمريكية فى مايو سنة ١٩٤٨ كان عندى فلوس متوفرة.

س:ألديك أقوال أخرى؟

ج : عاوز أسجل احتجاجى على بعض نقط:

أولا: التفتيش ما تمش بأمر النيابة، وإذا كان فيه أمر فماشفتوش.

ثانيا: التفتيش تم فى غيابى.

ثالثا: ما اتعملش محضر تفتيش وإذا اتعمل محضر ماشفتوش.

رابعا: إن البوليس حرم مراتى من الفلوس التى كانت معايا.

خامسا: إن البوليس كسر قفل الدولاب فى غيابى.

س: ما جنسيتك؟

ج: مصرى.

تمت أقواله.. وامضى

إمضاء

وكيل النيابة

إمضاء

انتهى التحقيق

دار الأبحاث العلمية (وثيقة تكميلية)
مذكرة (*)

نفيد بأن القائمين على إدارة دار الأبحاث العلمية هم حضرات: الدكتور محمد الشحات مدرس الكيمياء بكلية الطب، وشهدى عطية الشافعى أفندى مدرس بالمعهد العالى التجارى، ومحمد عبد المعبود الجبيلى أفندى معيد بكلية العلوم، وأبو بكر نور الدين أفندى خبير بوزارة العدل.

حكمدارية بوليس مصر

وقد أرفقنا هذه المذكرة بالأوراق، كما أرفقنا الأوراق التى سلمها إلينا حضرة صاحب العزة رئيس النيابة، ونبهنا بطلب سيارة أجرة للانتقال بها لإجراء تفتيش دار الأبحاث العلمية.

وأقفل المحضر على ذلك، بعد إثبات ما تقدم حيث كانت الساعة السادسة والخامسة والعشرين دقيقة مساء وقررنا الانتقال لتنفيذ المطلوب.

وكيل النيابة

إمضاء: مصطفى محرم

ولما كان من الضرورى محاولة استقصاء أكبر قدر ممكن من المعلومات عن هذه الدار، مكانها، طبيعتها، أسلوب عملها نشاطها، قيادتها فقد وجدنا أنه من الملائم تقديم هذه البيانات الواردة فى ملف قضية الشيوعية الكبرى عام ١٩٤٦ والتى تتضمن معلومات أجهزة الأمن عن هذه الدار ومسئوليها. ووصف للمكان الذى كانت تحتله الدار. ومحضرى تحقيق مع اثنين من المشرفين عليها، وقد وردت هذه المعلومات المهمة فى الصفحات ٦٠٠- ٦٠١-

---

(*) كانت دار الأبحاث العلمية المنبر العلنى لمنظمة شرارة (ايسكرا)، وقد لعبت دورا مهما فى تاريخ حركة اليسار المصرى فى الأربعينيات وتردد اسمها كثيرا فى كل دراسة عن النشاط اليسارى فى هذه الفترة.

٦٠٢- ٦٠٣- ٦٠٥- ٦٠٦- ٦٠٧- ٦٠٨- ٦٠٩، من ملف القضية السالفة الذكر (المؤلف).

أعيد فتح المحضر فى تاريخه الساعة السادسة والخامسة والخمسين مساءا بدار الأبحاث العلمية بالهيئة السابقة.

انتقلنا بسيارة الأجرة ومعنا حضرات الضباط وقوة من رجال البوليس حيث دخلنا إلى دار الجماعة وهى بشارع نوبار رقم ٧ وتم افتتاح هذا المحضر، وبدخولنا لاحظنا أنها عبارة عن شقة بالدور الأرضى من المنزل المذكور، ويمين الداخل من بابها العمومى صالة مساحتها ٥×٧ أمتار، وبها سبعة غرف نبهنا بتوزيع رجال القوة فيها جميعا وبحراسة مداخلها ومنع أى أحد من الدخول أو الخروج، وملحق بهذه الشقة حوش وجدنا به وبالدار عدة أشخاص كلفنا أحد حضرات الضباط بأخذ أسمائهم وعناوينهم وبدأنا تفتيش الغرفة الأولى التى تقع على يسار الداخل، وهى غرفة مساحتها حوالى ٣×٥ متر، وبها دولاب به عدة كتب، وبجواره مكتبة مكشوفة وكتب كثيرة على الأرض كما أن بها مكتب وبجواره كتب وللغرفة نافذة تطل على الشارع وأخرى تطل على الحوش، وقد وجدنا بالغرفة غالى كامل فهمى أفندى سن ٢٥ سنة طالب بكلية الطب البيطرى الذى أبلغنا أنه يستآجر المنزل بأجمعه من ناظرى الوقف ويقيم بالدور العلوى وأنه أجر الدور الأرضى من باطنه، الغرف الثلاثة التى تقع على يسار الداخل بعد غرفة المكتب التى تحرر بها محضرنا الآن لدار الأبحاث العلمية والغرفة التى تقع على يمين الداخل لاتحاد البكالوريا والتى تليها لدار التوريدات الصناعية والتى تليها لاتحاد البكالوريا، وأضاف إلى ذلك أن غرفة المكتب خاصة به وأنه يستذكر دروسه بها، وأن جميع ما فيها له عدا الكتب الموجودة بدولاب الكتب إذ إنه لدار الأبحاث وكذا الكتب الموجودة بجوار هذا الدولاب إذ إنها خاصة بجماعة الأبحاث وإنه سمح لهم باستعمال هذا الدولاب وحفظ الكتب وبالغرفة نظرا لضيق غرفهم ولعدم وجود دواليب لديهم، وقد فتشنا الغرفة وفحصنا ما بها من كتب فوجدنا بالدولاب نسختين متشابهتين عبارة عن العدد الثانى من نشرة دار الأبحاث العلمية سنة ١٩٤٥. ووجدنا بالمكتبة الصغيرة المكشوفة نشرتين أخريين عبارة عن العددين الثانى والخامس من نشرة الدار المذكورة ولم نجد بالغرفة عدا ذلك سوى كتب علمية فى مختلف العلوم منها ما هو خاص بالدار ومنها ما هو خاص بغالى أفندى حسب قوله.

وقد سألنا غالى كامل أفندى عمن استأجر الغرف المخصصة للدار منه فأجاب بأنه

الأستاذ شهدى عطية الشافعى، وقد سألناه أيضا عن المسئول عن إدارة الدار فأجاب بأنهم ثلاثة هم منير ملطى أفندى وظريف عبدالله افندى، وعبد الرحمن نصر افندى*، وقد سألنا عن هؤلاء الأربعة فحضر الأستاذ شهدى عطية وظريف عبدالله أفندى الذى قرر لنا أنه محام لدى المحاكم الوطنية وسألناهما عما يخص دار الأبحاث فى هذه الغرفة فأجابا بأنها الكتب الموجودة داخل الدولاب وبجواره، وسألنا غالى كامل فهمى أفندى عن النشرتين التى وجدناهما بمكته المكشوفة فأجاب بأنه اشتراها من الدار وثمن النسخة ثلاثة قروش، وسألنا، عما إذا كان لديه غيرها فأجاب بأنه لا يذكر، وذلك لأنه يقرأها ويضعها بالمكتبة، وسألناه عمن باعها له فقال إن أعضاء الدار جميعهم يبيعونها، وقد سألنا الأستاذين شهدى عطية وظريف عبد الله عن النشرتين الأخيرتين المظبوطتين فى الدولاب فأجابا بأنهما من نشرات الدار تقوم الدار بطبعهما لدى مطبعة لا يذكران اسمها، وأن هذه النشرات تطبع عادة بعدد يكفى الأعضاء وزوار الجمعية المعتادين التردد على الدار، وأن بالدار مجموعة من هذه النشرات لم يتم توزيعها بعد ومن المحتمل أن يكون العدد الأول قد نفد. وقد سألناهما عمن يقوم بتحرير هذه النشرات فأجابا بأنها تحرر عادة متضمنة ملخص ما يلقيه أعضاء الدار من أبحاث بالدار وملخص لأبحاث بعض الأعضاء الخاصة.

وقد استدعينا الأستاذ شهدى عطية وسألناه بالآتى:

- اسمى شهدى عطية الشافعى

صحة الاسم: عبد الرحمن الناصر.

- سنى ٣٢ سنة
- مولود بالإسكندرية
- مقيم ٣ شارع القصر العينى
- مهنتى أستاذ بمدرسة التجارة

س: ما صلتك بجماعة دار الأبحاث العلمية؟

ج: أنا عضو فى دار الأبحاث.

س: لاحظنا من الاطلاع على النشرة الخاصة أن شخصا نشر مقاله بتوقيع «شين» عنوانها «مسرحية هزلية» فمن هو كاتب المقالة؟

ج : ما اعرفش.

(وقد لاحظنا من الاطلاع على صدر هذه المقالة على عبارة يفهم منها أنها مرسلة من أحد أصدقاء الدار وأن الدار نشرتها عملا بحرية النشر، وعلى أن ما جاء بها لا يقيد المسئولين بالدار).

س: وهل من المصرح به لغير الأعضاء نشر مقالات؟

ج: الدار بها صندوق للمقالات كل شخص يريد نشر مقالة يضع فيه مقالته، ونظرا لأن الدار تعود الأعضاء وأصدقاءهم على حرية الكلام وحرية النشر حتى توفر بذلك تطبيق الأسلوب العلمى الحق لمناقشة العضو فيما كتب، ونحن اعتدنا قبول أى مقالة توضع فى الصندوق ونشرها وتكتب باسم كاتبها أو لا نكتبه، حسب رغبته فى المقال.

س: هل تعرف شخصا يدعى شكرى سالم؟

ج: أيوه وهو من أعضاء الدار.

س : وهل تعرف عنوانه؟

ج: لا أذكره لأنى لست مسئولا عن الإدارة الآن وإن كنت أنا فى الأصل استأجرت الدار من غالى أفندى، ولأنى لا أعلم بالضبط إن كان فى الدار دوسيهات بعناوين الأعضاء من عدمه.

س: ألديك أقوال أخرى؟

ج: لا.

تمت أقواله وامضى

إمضاء

وكيل النيابة

إمضاء

وقد استدعينا الأستاذ ظريف عبد الله وبسؤاله أجاب بمثل ما أجاب به الأستاذ شهدى عطية، وأضاف إليه أنه من شروط الالتحاق بالدار عدم اشتغال الأعضاء بالسياسة واستمرارهم فى عدم الاشتغال بها طوال مدة عضويتهم، وعدم الانضمام لأى حزب سياسى فإذا انضم يفصل أو يستقيل، وقد سألناه عن عنوان شكرى سالم فأجاب بأنه يعلم أن شكرى هذا من أعضاء الدار وأن لا يمكن له معرفة عنوانه، وأنه يمكن معرفة ذلك

من الأعضاء، واكتفينا بذلك من مناقشته، وقد سألنا الأستاذين شهدى عطية وظريف عبدالله عما إذا كان يوجد بالدار دفاتر وكشوفات خاصة ببيان الأعضاء السابقين والحاليين بالدقة فأجابا بأنهما لا يعرفان ذلك على وجه الدقة وإن كانا قد رجحا وجود مثل هذه الكشوفات.

وقد أفهمناهما أننا فتشنا الدار ولم نعثر على شيء من هذه الكشوف فأجابا بأنه من المحتمل أن يكون منير ملطى أفندى وعبد الرحمن الناصر أفندى على علم بمقر هذه الأوراق، وأنه كان قد تقرر أن يذهب الأخير منهما إلى وزارة الشئون الاجتماعية خلال هذا الأسبوع ومعه نسخة من قانون الدار والأوراق اللازمة لتسجيل الدار كجماعة تعمل لغرض مشروع ولا يعلمان ما الذى تم فى هذا الشأن للآن.

وأقفل المحضر على ذلك حيث كانت الساعة الثامنة والخامسة وخمسون دقيقة مساءا وصرفنا الأعضاء الذين فى الدار بعد أن سألناهم عما إذا كان أحدهم يعرف عنوان شكرى سالم فأجابوا بالنفى. وقد أرفقنا بالأوراق كشفا بأسماء الأشخاص الذين قرروا أنهم من بين الأعضاء وهم أربعة وعشرون شخصا من بين الموجودين.

وكيل النيابة

مصطفى محرم

مبارك عبده فضل

«كان أبى يشجعنى على حفظ القرآن كى أدخل الأزهر. وكان يقول لى كل صباح إن لم تتعلم لن يكون أمامك سوى أن تعمل خادما لتشرب الإهانة والذل كل يوم»
مبارك عبده فضل

لا ضرورة للقول إنه فقير ابن فقير، يكفى أن تقول هو نوبى. فالفقر يطحن النوبيين جميعا. الأب خادم فى أحد منازل الأغنياء ثم أسعده الحظ وعمل ساعيا فى وزارة المالية بأربعة جنيهات شهريا. وتعلق طموحه بأن يتعلم مبارك ويصبح أفنديا، لكن الولد ضعيف الإبصار وسقط فى الكشف الطبى فلم يستطع الالتحاق بمدرسة عنيبه الابتدائية، ولا سبيل سوى الالتحاق بالأزهر. وفى عام ١٩٣٩ وكان فى الثانية عشرة حضر مبارك إلى القاهرة وعكف على حفظ القرآن على يدى شيخ نوبى هو الشيخ حسن قاسم. استغرق الأمر عامين كاملين كل يوم كان والده يذكره : إما حفظ القرآن وإما أن تعمل خادماً. وفى عام ١٩٤٢ أتم الحفظ ودخل ابتدائية الأزهر. الإخوة خمسة والسكن فى غرفة واحدة فى منزل فقير بالسبتية. وكل يوم يعطيه الأب خمسة مليمات. يمشى من السبتية إلى الدراسة حيث المعهد، ويعود ماشيا أيضا، أما المليمات الخمسة فهى لطعامه طوال اليوم.. طعام لا يتغير، سندوتش مكرونة. واستمرت المعاناة حتى ١٩٤٥ عندما قررت الحكومة منح الطلاب الغرباء معونة شهرية. والمثير للدهشة أنهم كانوا يعتبرون النوبيين غرباء، وضموهم هم والنوبيين السودانيين فى رواق واحد هو رواق شمال السودان، ولم يثر الأمر دهشة أحد، فالجميع كانوا يعتبرون أن وحدة مصر والسودان أمر واقع. الأزهر منحه ثلاثة جنيهات شهريا وجنيهًا رابعًا من مجلس الوزراء. هذه الثروة اقتسمت بالعدل؛ «الشيخ مبارك» (بهذه الثروة استحق لقب شيخ) ينال جنيها كاملا والثلاثة للأسرة. ويقول مبارك: «بهذه الجنيهات الثلاثة أصبحت الأسرة، كلها تحترمنى وتغيرت معاملة أبى تماما، توقف تماما

عن ضربى أو إهانتى (وكان يفعل ذلك بسبب ودون سبب)، وأصبح يتشاور معى فى شئون الأسرة وهكذا اكتشفت قيمة أن أتعلم، وبالذات أن أكون أزهريا. كنت طالبا مجدا وأنجح بتفوق وأقرأ كثيرا. وخاصة فى كتب الأدب، ثم تحولت إلى كتب التاريخ». ثم كانت البداية: «فى صيف عام ١٩٤٥ وخلال الإجازة الصيفية وبعد أن نجحت فى امتحان النقل من الثالثة إلى الرابعة الابتدائية. وفيما أتجه أنا وطالب أزهرى يسبقنى بعامين لنلعب مباراة كرة شراب (هو محمد عثمان نور) وهو من أبناء قرية أبو هور النوبية سألنى: ماذا تعرف عن الشيوعية؟ فقلت أعرف أنها تساوى بين الأغنياء والفقراء (إنه إحساس الفقير المطحون الذى دفع عديداً من الشبان النوبيين إلى صفوف الحركة الشيوعية) وسألنى ثانية: عايز تبقى شيوعى؟ قالها ببساطة ودون مقدمات، وأجبته ببساطة: أيوه - وببساطة أصبحت عضواً فى الحركة المصرية للتحرر الوطنى. حيث تلقيت تسع محاضرات مطبوعة أذكر منها (أمراض المجتمع - تطور المجتمع - الرأسمالية - الاستعمار - الاشتراكية - الفاشية والحرب). وكانت محاضرات مبسطة جداً كل منها حوالى سبع صفحات. ويشرحها لنا طالب سودانى هو عبدالله الأمين. وبعدها أصبحت عضواً فى الحركة المصرية. وفيما كان أبى يشرف على تنظيف الغرفة فى يوم إجازة عثر على مجموعة من النشرات والكتيبات الشيوعية، وفزع وجرى نقاش حاد انتهى بعبارة حاسمة: يا ابنى أنا كمان ضد الأغنياء لكن لا يمكن لفقير مثلنا أن يحاربهم ولازم تكون غنى علشان تقدر عليهم». الأب بكى للمرة الأولى فحلمه فى ابن معمم ينال مرتباً كبيراً ويصبح ملاذا للأسرة كلها يتبدد. ومن البكاء إلى مجالس عائلية، لكن الفتى يزداد عنادا فكان أن طرده الأب من البيت. وظل الفتى يرسل لأمه سراً بعضا من الجنيهات الأربعة ويدرس فى المعهد ويعمل فى قسم الأزهر الذى كان يضم عديداً من الأزهريين الشيوعيين، كما أسهم مع زكى مراد ومحمد خليل قاسم فى بناء القسم النوبى فى التنظيم. وفى عام ١٩٤٨، وكان فى ثانوية الأزهر وجرت محاولة من المشيخة لتنظيم مظاهرة من طلاب الأزهر يتقدمهم شيوخ الأزهر الكبار رافعين علم الأزهر للسير إلى قصر عابدين لتهنئة الملك بعيد ميلاده.. رفع العلم فى المقدمة ووقف الشيوخ فى الصف الأول يتوسطهم الشيخ أحمد حسن الباقورى لكن التلاميذ تمردوا، كان مبارك وقسم الأزهر فى «حدتو» ومجموعة الأزهريين الوفديين قد حشدوا الطلاب ليرفضوا الخروج. وفشلت المظاهرة وتحول الفشل إلى كارثة فالقصر كان

ينتظرهم. وتقرر فصل الطالب مبارك عبده فضل من الأزهر الشريف والتهمة «شيوعى»، ورغم الفصل فقد كان «الشيخ الصغير» يقفز عبر السور ليلتقى بالطلاب وينظم منهم مظاهرة فى ٢١ فبراير ١٩٤٨ ويقف ليلقى خطبة نارية ضد القصر وضد الاحتلال، ويقبض عليه ويحبس ثلاثة أشهر تكون بداية لمشوار طويل عبر السجون.

وفيما كان الفتى يقترب من سن الحادية والعشرين كانت «حدتو» تعانى من ضربات عدة، الضربات البوليسية المتتالية والانقسامية التى أربكت صفوف المنظمة. وطلب إليه أن يحترف فوافق على الفور. ويقول: «حضرت اجتماعات لجنة بحرى وكانت تضم، فيما أذكر، فؤاد عبد الحليم، وحمدى عبد الجواد، وفهمى زغلول، وعسكرى مطافى من الزقازيق اسمه رزق سرور، وأصبحت مسئولا عن قسمين: المحلة ودمنهور. وكان فى دمنهور عدد محدود من الرفاق منهم شاب نوبى هو عبد المنعم مكى (موظف فى شركة كوكاكولا) والأديب محمد صدقى وعدد من الرفاق. وكان مكى مرعوبا من توالى حملات القبض فاستقبلنى بحذر برغم أنه نوبى مثلى، وفيما أغادر كان معى قرش واحد (وهذا يوضح وضعنا كمحترفين) طلبت منه أى مبلغ فرفض بشدة وكأنه يقول لى لا تعد إلى هنا مرة أخرى. وكنت مطلوبا للبوليس ولا ملجأ لى إلا فى طنطا. ولا أستطيع المغامرة بركوب قطار بلا تذكرة. فسرت على قضيب القطار متجها إلى طنطا. وعندما وصلت إلى كفر الزيات (أى سرت حوالى ٦٠ كيلو مترا) كنت على وشك الإغماء وأشفق على عسكرى كشك المرور فأوقف سيارة نقل أوصلتنى إلى طنطا. ومن طنطا إلى المحلة وقبض على هناك. وبقيت فى سجن طنطا لعدة أشهر ثم أفرج عنى ورحلت إلى قسم بولاق فى انتظار ترحيلى إلى المعتقل. وبقيت فى حجز قسم بولاق خمسة عشر يوما هى أسوأ أيام حياتى.. بلا طعام (ثلاثة أرغفة فقط ودون أى طعام آخر) ولا غطاء ولا أى شىء سوى الأسفلت، والبرد كان شديداً جداً، وكدت بالفعل أموت من البرد، ومع ذلك لم أتصل بأسرتى التى تسكن قريبا من السجن كجزء من عنادى إزاء إصرار أبى على تركى للعمل الشيوعى. ثم رحلت إلى هايكستب وبدأت فى التعرف على المعتقل وما فيه من معتقلين، كثير منهم من هواة الثرثرة والانقساميين». ويسكت مبارك لأتحدث أنا فقد كنت هناك وتلقفنى هو. أنقذنى من الضياع وسط غابة مناقشات لا تنتهى، وظل يدرس لى كل ما تعيه ذاكرته من معلومات وخبرات.. وأصبحنا أصدقاء..

ويفرج عنا جميعا مع عودة حكومة الوفد (١٩٥٠) إلا هو، فقد قرروا ترحيله من مصر باعتباره سودانيا لكنه نجح فى إثبات مصريته.. وأفرج عنه ليبدأ من جديد.

***

«وتعلمت الدرس الحاسم، فالبرجوازيون الصغار فى صفوفنا هم الأكثر كلاما والأكثر نقداً والأسرع فى الهروب»

مبارك عبده فضل

خرج من المعتقل إلى أحضان «حدتو» التى عانت طوال فترة ١٩٤٧ - ١٩٤٩ معاناة شديدة، كثير منها بسبب المطاردات الأمنية، لكن الأكثر أتى من الانقسامية. فالانقساميون ملأوا الدنيا ضجيجا، ومزقوا المنظمة، وثرثروا بما كشف أمان الكثيرين. وفى المعتقلات والسجون كانوا الأعلى صوتا والأكثر نقدا للآخرين، كل الآخرين، وعندما أفرج عن الجميع ذابوا بعيدا عن الأنظار. عديد من قادتهم تقبلوا برضاء الدخول فى المصيدة التى نصبها لهم فؤاد سراج الدين. وكان وزيرا للداخلية فى حكومة الوفد. والعرض بسيط للغاية. الدولة ستوفدك لإعداد رسالة الدكتوراه فى الخارج وقبل الكثيرون منهم وسافروا إلى لندن وباريس ولم يعد كثيرون منهم إلا بعد انتهاء الأيام الصعبة وبعد أن تحصنوا بالدكتوراه. لكن مبارك ليس أمامه ولا خلفه سوى حزبه ونضاله فوضع نفسه تماما وبشكل كامل تحت تصرف الحزب، وأصبح عضوا فى السكرتارية المركزية التى تمثل أعلى مستوى قيادى يومى، وتولى العمل فى قطاع منطقة المعز (القاهرة) كما كلف الإسهام فى إصدار مجلة «البشير».

وكانت «البشير» هى الخطوة الأساسية فى تحقيق توجه جماهيرى حقيقى لمنظمة «حدتو». استأجر الترخيص فتحى الرملى وأصدرها لفترة بمعاونة مجموعة ماركسية صغيرة ثم انفتحت عليه «حدتو» واتفقوا على أن تمول «حدتو» الجريدة (٣٠ جنيهاً كل عدد) وأن تحرر صفحاتها ما عدا مقالات فتحى الرملى. وأن تقوم بتوزيعها، ولا مقر للجريدة. يلتقى المحررون الثلاثة: فتحى الرملى - عبد المنعم الغزالى - مبارك عبده فضل فى مقهى صغير بالفوالة قبل موعد صدور العدد بيوم يكتبون العدد بأكمله، وكان فى الأغلب لا يحمل توقيعاتهم، لكننى أحضرت مجموعة «البشير» والتقيت مع مبارك فأشار

إلى عدد من المقالات مؤكدا أنه كاتبها. وفى أول عدد صدر بمساندة «حدتو» كتب مبارك: «إن هدفنا هو أن نخلق بجهودنا ومجهودكم مجلة حرة تمثل الأحرار فى مصر وتربطنا بالمعركة المستعرة الأوار فى العالم والتى تهدف إلى القضاء على الاستعمار بشتى صوره والقضاء على تجار الحروب أعداء السلام، لقد عقدنا العزم على أن نقفز قفزة كبيرة إلى الأمام، ونخرج المجلة فى ثوب جديد، ولن يتحقق هذا الأمل إذا لم تساهموا بجهودكم معنا». (البشير١/٧/١٩٥٠). ويجدر بنا أن نسجل أن «البشير» كانت توزع بأيدى أعضاء وكوادر «حدتو». ولا يستثنى أحد من مهمة التوزيع. فحتى مبارك عضو السكرتارية المركزية كان يتسلم حصته من المطبعة ليدور على المقاهى والأندية النوبية ليوزع البشير «مساء». وفى صباح اليوم التالى يحمل عددا من اللفافات إلى عدد من مدن بحرى. وفى كل أسبوع كان يحضر إلى المنصورة لينتظرنى عند بقال عضو جديد فى التنظيم لأمر عليه بعد انتهاء الدراسة وأتسلم منه خمسين نسخة وأعطيه ثمن العدد السابق.. ثم نمضى ساعة أو أكثر لنتابع تطور العمل الحزبى.

وكان أكثر ما يلح عليه الرفيق داود (مبارك) هو توسيع قاعدة العضوية والعمل الجماهيرى. وكان يدقق كثيرا فى مجال العمل من أجل السلام ويحصى بدقة عدد التوقيعات التى جمعناها طوال الأسبوع على ميثاق استوكهولم الذى يطالب بحظر استخدام الأسلحة النووية.

وتغلق «البشير»، ثم تحترق القاهرة، ويختفى مبارك، فقد كان يزهو دوما: «إذا لم يكن لديك مسكن فأنت فى مأمن من غدر البوليس». لكنه وبسبب ضعف إبصاره الشديد كان يتعرض للقبض عليه سريعا. وقبض عليه وإلى السجن من جديد. ثم تكون ثورة يوليو ويجرى صراع شديد وساخن حول الموقف منها، خاصة أن الرفيق ستالين هاجمها وقال إنها تعبير عن انتصار عملاء الاستعمار الأمريكى على عملاء الاستعمار الإنجليزى. لكن «حدتو» كانت شريكة فى صناعة الثورة (خالد محيى الدين - يوسف صديق - أحمد حمروش - أحمد فؤاد - وعشرات من الضباط) فكيف يمكن أن يقبل أحد أنها صناعة أمريكية؟! ولكن من يستطيع مواجهة ستالين؟ وتصدى مبارك بشجاعة ليعبئ كل «حدتو» فى مسار التمسك بالموقف الصحيح، تأييد الثورة وشن حملة شديدة للمطالبة بالديمقراطية، لكن الشق الثانى أدى إلى صدام عنيف انتهى بعديد من الكوادر إلى

السجون الناصرية. وكان مبارك هو المحرك الأساسى للتمسك بهذا الموقف الصعب الذى أدى بـ«حدتو» إلى أن تغضب الحركة الشيوعية العالمية والحكام العسكريين معا. كان الثمن باهظا. لكن الموقف كان صحيحا، وهكذا فرض مبارك على الشيوعيين المصريين منطقا صعبا هو أن تتمسك بالموقف الصحيح مهما كان الثمن الذى تدفعه. وتثبت الأيام صحة موقفه.

وإذ تتوالى فترات السجن يستقر به المقام فى «سجن مصر» (كان فى موقع كوبرى السيدة عائشة) وسط حوالى ستمائة من الشيوعيين من مختلف التنظيمات فينشط داعيا إلى الوحدة وينجح فى تشكيل لجنة للوحدة «مبارك (من حدتو) – حمدى عبد الجواد (من حدتو ت.ث – إبراهيم عرفة (النواة) أحمد خضر (النجم الأحمر) فخرى لبيب (طليعة الشيوعيين)، واختارونى لتولى سكرتارية اللجنة، أسجل المحاضر وأخفيها وأتولى إخراجها إلى خارج السجن حيث وجدت لجنة موازية»، وأثمر هذا الجهد «الحزب الشيوعى الموحد».

ويتوالى السجن مرة ومرات حتى يكون الإفراج عن الجميع فى ١٩٦٤. ثم يكون حل التنظيمين الشيوعيين الكبيرين. وفى اليوم التالى مباشرة للنكسة كان مبارك يجمع خمسة من الكوادر ليؤسس معهم حزبا جديدا سريا تماما، ومشكلا أساسا من عضوية جديدة، أما مطبوعاته فكانت توقع «أحمد عرابى المصرى» إمعانا فى السرية. ويبقى مبارك عبده فضل، مقاتلا حتى الرمق الأخير.

فوزى جرجس

«هناك يا ولدى طريق واحد واضح لا تناقض فيه، إنه طريق الدفاع عن أرض الوطن، لقد خلقنا من ترابه فنحن جزء منه، فأرضه لحمنا وماؤه دمنا»
فوزى جرجس
(من رسالة لابنه جهاد الذى كان فى الصفوف الأولى فى جبهة القتال)

خرجنا من السجن ودارت دوامة الحياة واختفى هذا الرجل الصامت المترفع المنطوى على نفسه اختفى عن ناظرى بل عن ناظرنا جميعا.

وعندما بدأت فى الكتابة عن تاريخ الحركة الشيوعية تذكرته وبحثت عنه حتى أضنانى البحث، ثم - وبالمصادفة - اكتشفت أنه جالس دوما على كرسى فى محل ضيق بشارع منحنى من شارع السبتية وسط كومة من الخردة والمواسير وقطع الغيار القديمة، لكننى أعترف بأننى لم أعتصر منه إلا القليل من المعلومات المحايدة، أما باقى المعلومات الحية فقد قدمها إلى ابنه جهاد بعد وفاته.

ونعود إلى فوزى جرجس.. الوالد موظف بالسكك الحديدية من أسرة قادمة من منفلوط، لكن الأب يرحل بعد مولد فوزى بثلاثة أشهر، وتدوخ الأم بحثا عن لقمة عيش للأطفال وتتاجر فى بعض الحبوب، وفوزى يريد أن يتعلم لكن الطريق مسدود، الابتدائية تكفى، وبها توظف فى مخازن وزارة الصحة، لكن عشق المعرفة لاحقه، علم نفسه اللغة الإنجليزية حتى أتقنها وترجم عنها تراجم مبدعة، قرأ وقرأ حتى أصبح مثقفا مرموقا، وعندما أصدر كتابا فى التاريخ هو «دراسات فى تاريخ مصر منذ العصر المملوكى» تلقفه الكثيرون باهتمام بالغ، وعبر عشق الثقافة أتى، ففى النادى الديمقراطى حضر محاضرة ألقاها الدكتور الأهوانى عن علم النفس ودخل مع المحاضر فى جدل علمى - حين لفت الأنظار إليه - فمدوا إليه يدهم، وتعرف هناك إلى محمد نصر الدين المدرس بكلية البوليس وكونا

مع مجموعة من المثقفين المصريين جماعة «ثقافة وفراغ» وعبر د. عبدالفتاح القاضى انضم مع مجموعته إلى الحركة المصرية للتحرر الوطنى، ولأنه كان يتأذى من كثرة الوجود الأجنبى فى الحركة فقد اهتم بتثقيف عديد من الشبان المصريين، ومن ثم تلقف بترحاب المسئولية التى أُحيلت إلى قسم المثقفين وهى ترجمة عديد من الكتب الماركسية فيما أسمى بـ«المكتبة الخضراء» (١٢ كتابا)، ويروى فى هدوء رزين: «بدأنا فى ترجمة سلسلة الكتب الخضراء، كنا نترجم من الإنجليزية ترجمة متقنة ثم يراجعها متخصصون فى اللغتين ثم يراجع النص العربى أحد أعضاء مجمع اللغة العربية، وبهذا قدمنا نموذجا متقنا يختلف عن الترجمات الشامية التى كانت تنفر الناس من قراءتها، وكنا نشرف على الطباعة والتصحيح ثم تجلد بأغلفة خضراء ولهذا سميت المكتبة الخضراء».

وتأتى حملة الطاغية صدقى فى يوليو ١٩٤٦ لتوجه ضربة شديدة للتنظيم، وهنا نقف أمام روايتين.. الأولى تقول إن فوزى جرجس ود. عبدالفتاح القاضى ومجموعتهما طالبوا بإحناء الرأس للعاصفة حتى تهدأ فلما رفض التنظيم انسحبوا وكونوا تنظيما صغيرا أسموه «العصبة الماركسية»، أما رواية فوزى جرجس فهى: «تبعثر التنظيم بعد الضربة البوليسية ولم يبق إلا قسم المثقفين فوجدنا أنفسنا دون ترتيب مسبق معزولين معا فكونا تنظيما هو العصبة الماركسية». المهم أننا نقف الآن أمام أول انقسام فى الحركة الشيوعية الوليدة، كانوا حوالى ستين عضوا، انقسموا وكانوا يلتهبون حماسا لكنهم تبعثروا.. ويقول فى حواره: «غلبة المثقفين فى هذا التنظيم أضعفت اندفاعنا الثورى، وتردد البعض مثل د. عبدالفتاح القاضى فانسحبوا، ونقطة الضعف الأساسية أننا لم يكن لدينا محترفون، ومن ثم خضع العمل التنظيمى للهواية ولأوقات الفراغ وهذا لا يمكنه أن يحقق أى تقدم»، ولكن ولأنك إذ تضع بذرة الانقسامية فإنك لا تجنى سوى ثمار مريرة فإن منظمة «الراية» إذ تأسست أقنعت عددا من أعضاء العصبة بالانقسام لينضموا إليها، وكان الانقسام مريرا فقد خرج طوسون كيرلس بعد أن سلب من التنظيم «المطبعة» سلاحه الأساسى، وأحس فوزى جرجس بأن الخارجين خرجوا ومعهم كل أسرار التنظيم ليعطوها للآخر.. أى آخر، وهو لا يثق أبدا فى الآخر.. أى آخر، فأعلن حل التنظيم، لكنه بدأ فى تشكيل تنظيم جديد هو نواة الحزب الشيوعى المصرى، وظل متحصنا فى هذا التنظيم الصغير جدا، رافضا الآخرين جميعا، وعندما توحد الجميع فى إطار الحزب الشيوعى المصرى، ظل هو مبتعدا،

توحد الجميع ثم انقسموا وهو مبتعد فى حصن من مجموعة صغيرة، انزوى بها فى سجن الواحات فى غرفة منفصلة نادرا ما يختلط أفرادها بالآخرين حتى أفرج عنه، وطوال سنوات السجن الطويل، كانت زوجته فُتنة تحمل عبء الأبناء فاشتغلت خياطة، وعندما أفرج عنه رفض كل المجاملات والمحاولات لتوظيفه وترفع على الجميع وانزوى وسط كومة من الخردة يشتريها متأففا ويبيعها متأففا وفى هذا المناخ المأساوى أثمر واحدا من أجمل وأعمق كتب التاريخ المصرى الحديث.

وفيما كنت أحاوره على باب محله ٩٨ شارع نفق السبتية اقتحمنا صبى يرتدى ثيابا متسخة بالمازوت: «يا عم فوزى عايز صامولة ٣ بوصة». اختفى بريق عينيه وظل يقلب أكوام الخردة بقدمه حتى أخرج الصامولة وقبض الثمن لكن بريق عينيه لم يعد.

ابنه جهاد يكمل الحكاية: «عندما حصلت على الإعدادية قال أبى فى حنان: الثانوية العامة ترف لا يليق بأبناء المناضلين ودخلت مدرسة الصناعات المعمارية، وتخرجت ثم إلى الجيش وفورا إلى الجبهة، وبتعليمات من أبى طلبت وألححت فى أن أصل إلى خطوط القتال الفعلية، كان أبى قد عبأ كل طاقات، حماسه ووطنيته، فى تشجيعى كى أحارب بشجاعة، وعندما أصبت كتب لى رسائل ملتهبة أن أشفى سريعا لأعود إلى الجبهة».

لكن واحدة من الرسائل التى زودنى بها جهاد تحكى كل المأساة ففى رسالة (١٤ أبريل ١٩٧٠) وصلته وهو على خط النار الأول نقرأ: «مضت مدة لم أكتب فيها، هى مشاغل الحياة، رغم تفاهة هذه المشاغل. ولعل أكثر المسائل قرفا وثقلا على النفس هى تلك المشاغل المجوجة التى ترتبط بالبحث الممل عن لقمة العيش. إن البحث الدائم عن لقمة العيش يميت القلب ويقتل الإحساس بأى جمال فى الحياة، ولو أن الزمن فرض على أن أتحول وفقط إلى آلة لكسب العيش لأصبحت الحياة شيئا كريها لا يطاق». إنها آلام الأيام الأخيرة فى محل نفق السبتية وسط أكوام الخردة، وتبقى حكاية قصيرة قالها لى د. يونان لبيب رزق فى حديث عن بداياته السياسية، قال د. يونان: «فى بيتنا فى شبرا كانت أمى تتحدث دوما عن قريبتنا الست فتنة الخياطة التى تشقى كى تطعم أولادها لأن زوجها مسجون شيوعى، وسألت نفسى لماذا؟ وبدأت فى قراءة العديد من الكتب الماركسية، وعرفت كيف يضحى إنسان من أجل المبدأ».

عبده دهب حسانين

«حاولت "مصر الفتاة" أن تستخدمنى للاتصال بالفاشست الإيطاليين فى مصر، وكلفتنى العمل لدى إيطاليين. لكن الإيطالى الذى عملت معه كان شيوعيا».

عبده دهب

كان الفتى الأسمر ابن وادى حلفا يغلى ثورية ضد الاحتلال. وكانت «مصر الفتاة» تطمح أن يمتد نشاطها إلى السودان. لكنها وصلت فقط إلى وادى حلفا، وفقط إلى الشاب عبده دهب. الفتى ارتدى القميص الأخضر وتجول به فى حوارى وادى حلفا مبشرا بالعداء للإنجليز وبنكهة فاشية. استدعاه الحاكم البريطانى لوادى حلفا، حاول استمالته فرفض، هدده فلم يرضخ. طلب منه فقط أن يخلع القميص الأخضر (الزى الخاص بالتنظيم شبه الفاشى لـ«مصر الفتاة») فأبى. فبدأ فى اضطهاده.. ولم يجد أمامه سوى أن يرحل شمالا إلى القاهرة، ويحكى فى حواره معى: «بعد أن غادرت وادى حلفا اتصلت فى القاهرة ببعض قادة مصر الفتاة وبعد فترة، ولأننى نوبى وأسعى للعمل، طلبوا منى أن أعمل لدى إيطاليين بهدف إيجاد علاقة مع الفاشست الإيطاليين فى مصر وكانوا كثيرين جدا». وفوراً يجد عبده دهب عملا فى حمام سباحة مملوك لأحد الإيطاليين. الفتى النوبى ينظف الحمام ويملؤه ويشتم الإنجليز فى كل خطوة وفى كل لحظة، ويظهر فى ذات الوقت تعاطفا مع إيطاليا محاولا أن يستدرج الإيطالى صاحب الحمام ليقيم بواسطته علاقة مع الفاشست، لكن صاحبه، كان ويا للمصادفة شيوعيا.

ويمضى عبده دهب فى حوار حميم فى جلسة مسترخية فى بيته بالخرطوم (١٩/١٠/١٩٦٩) متحدثا عن «ماريو» الإيطالى الذى سأله ذات يوم: لماذا أنت ضد الإنجليز بهذا الحماس؟ فقال: لأنهم يحتلوننا، فعاد ماريو ليسأل: ولماذا تحب إيطاليا؟ فأجاب لتخلصنا من الإنجليز. «وضحك ماريو وبدأ يتحدث معى عن مغزى ومحتوى

الاستعمار، ومزاحمة الدول الاستعمارية لبعضها البعض، وعن النظام الرأسمالى الذى يتولد منه الاستعمار. وإذا كان الإيطاليون يريدون طرد الإنجليز من مصر فهم يريدون أن يحلوا محلهم، وتدريجيا بدأ فى تدريس الماركسية لى. وتفتحت أمام عينى آفاق رحبة، وبدأ ماريو يحدثنى بانبهار عن الاتحاد السوفيتى وشاركته انبهاره». ويمضى الحوار: «وفى سنة ١٩٣٩ بدأت السلطات فى حملة اعتقالات طالت أغلب الإيطاليين خوفا من نشاط فاشى واسع وسطهم. وأتى البوليس إلى الحمام ليقبض على ماريو وفيما أودعه همس فى أذنى اتصل بـ«هنرى كورييل». ولم يقل لى من هو، ولا كيف أتصل به فقد أخذوه بعيدا».

ويسرح بصر عبده دهب بعيدا: «ذهب ماريو وتركنى وحيدا، الضوء الذى غمرنى به ظل يؤرقنى لكنه منحنى على الأقل رفضا للفاشية، فنظمت تمرداً داخل «مصر الفتاة» ضد التوجهات الفاشية، وتجمعت حولى مجموعة من الكوادر منهم: عصام عبد المعطى وفهمى عقل وحسن كمال، وأسسنا تنظيما مستقلا أسميناه: كتلة الشباب المصرى، وأصدرنا مجلة سميناها: الجلاء». وتولى عبده دهب قيادة المجموعة لكنه لا يكاد يعرف شيئا. فظل يبحث عن المعرفة، وأخذ يتجول هو وزملاؤه على المحاضرات التى كانت تملأ مناخ القاهرة فى أندية ثقافية متكاثرة. وبالمصادفة قادته قدماه إلى النادى الديمقراطى حيث مناظرة بين سلامة موسى وزكى مبارك حول «المرأة المصرية والمرأة الأوروبية»، وتفجر الفتى – المتفجر دوما – فى حوار حاد جدا مع د. زكى مبارك. وفيما يلملم أطراف جلبابه الأبيض همس شخص فى أذنه: أنت عبده دهب؟ فقال نعم، وأمسك به قائلا إحنا بندور عليك من زمان. وباختصار جلس معه كورييل جلسة طويلة اكتشف كل منهما فى الآخر كنزا. فالمعرفة والنظرية عند كورييل، أما عبده دهب فهو نوع من الرجال لا يتكرر كثيرا. يتفجر حيوية، قادر على العمل دوما، مخلص إخلاصا بلا حدود، قادر على أن يفعل أى شىء ويضحك عبده دهب قائلا: «يعنى زى ما بتقولوا فى مصر كنت بفوت فى الحديد، أى مهمة ممكن أن أنفذها فورا وعلى أحسن وجه». وعندما طلب منه كورييل أن يستأجر رخصة مجلة ذات اسم ملائم أتى فى اليوم التالى برخصة مجلة اسمها، ويا للدهشة، «حرية الشعوب» والإيجار جنيه ونصف الجنيه شهريا، زادت جنيها عندما بدأ البوليس مضايقاته. وجمعه كورييل مع نقابيين مخضرمين مثل سيد قنديل وزكى أبو الخير ثم ضم إليهم طالبا سودانيا هو محيى الدين صابر الذى أصبح فيما بعد مثقفا مرموقا. وصدرت «حرية

الشعوب» تحت شعار «مجلة مصرية سودانية عمالية ثقافية»، ويمضى فى حواره: «كان كوربيل يجلس معى على انفراد ليدرس لى المزيد من الماركسية وليستحثنى على ضم المزيد من الأعضاء وأنا لا أهدأ، وكنت كل يوم أضم عضوا جديدا على الأقل» وبسرعة أصبح عبده دهب عضوا فى اللجنة المركزية للحركة المصرية للتحرر الوطنى ويتأسس بعد ذلك القسم النوبى الذى ضم زكى مراد ومبارك عبده فضل ومحمد خليل قاسم وسيف صادق وعديدا من النوبيين، والقسم السودانى الذى ضم عشرات من الكوادر التى أسست بعد ذلك الحركة السودانية للتحرر الوطنى. وتعرف عبده دهب إلى شاب إثيوبى اسمه ملاس بوجوتى وضمه إلى مجموعته ثم سلمه لكوربيل الذى نظم له دورة تثقيف خاصة ليسافر بعدها إلى إثيوبيا فيؤسس تنظيما شيوعيا هناك.

وأقام عبده دهب علاقة وثيقة مع شاب تونسى لاجئ فى مصر ويسكن فى غرفة صغيرة فوق سطح منزل فقير فى الفوالة.. هو الحبيب بورقيبة، وقدم له مساعدات عديدة بتعليمات من «ح.م» وبعد ذلك أصدر عبده دهب مجلة «أم درمان» وقد تعثر إصدار الترخيص بسبب ممانعة الأمن لكن الرفيق أحمد دمرداش تونى توسط عند صهره محمد بك محمود جلال الذى أقنع رئيس الوزراء حسن باشا صبرى فاستدعى الباشا عبده دهب ودهش من فصاحته وحيويته ووافق قائلا: أنا واثق من أن اسم المجلة سيكون «موسكو» وليس «أم درمان». وفيما يجلس عبده دهب فى مقهى نوبى جلس إليه محمد حسن، وكان شماشرجيا بالقصر الملكى لكنه كان شخصية لامعة فى عالم السياسة. وقال له: إن مجلتك تقلق جلالة الملك لأنها ترفض شعار «نيل واحد ملك واحد» وتطالب بالكفاح المشترك وحق تقرير المصير، فإما أن تغلقها ولك منى ألفا جنيه (وهى ثروة هائلة بمعايير هذا الزمان) وإلا فإننى لا أضمن ألا يغتالوك وفوجئ رواد المقهى بعبده دهب ينهال ضربا على أشهر شخصية نوبية.. وهو يجرى وخلفه عبده دهب بشتائم وضربات بالشلوت. وبعدها أصدرت حكومة السودان (الإنجليزية) قرارا بمنع دخول «أم درمان» إلى السودان ثم جاء صدقى باشا ليغلقها عام ١٩٤٦. ويقبض على عبده دهب ويفرج عنه ليسهم فى إصدار «الجماهير» وليواصل عملا جماهيريا لا يهدأ ويقبض عليه عام ١٩٤٨ ليفرج عنه فى ١٩٥٠ ولكن إلى السودان ممنوعا من دخول مصر.

وتبقى ملاحظة أخيرة. نشرت حوارى مع عبده دهب فى كتابى «اليسار المصرى

١٩٢٥-١٩٤٠» وأشرت فى الهامش إلى أنه يبالغ فى دوره بعض الشىء، فغضب عبده دهب ولم أعرف كيف أصالحه. لكننى عندما قابلت هنرى كورييل فى باريس وجدته أكثر غضبا، وأكد لى أن ما قاله عبده دهب عن نفسه هو أقل كثيرا جدا مما فعل. وقال إنه كان شعلة متوهجة، وظلت متوهجة لا تهدأ مع إخلاص وانضباط وكفاءة فى كسب البشر. هو نموذج لا يتكرر.

ولا أجد سوى أن أعتذر لهذا الرجل الشجاع دوما، والمرح دوما والمتمسك بالمبدأ دوما.

زكى مراد

«الفارق بيننا فى الحركة المصرية للتحرر الوطنى وبين رفاق "ايسكرا"، أننا كنا نناقش أى موضوع سريعا ونصل إلى قرار ثم نبدأ فى العمل، أما رفاق ايسكرا فكانوا يستمتعون بالنقاش، يتكلمون جميعا وطويلا جدا ويستهلكون جلسة أو اثنتين أو أكثر دون أن نصل إلى اتفاق»

زكى مراد

(فى حوار معه أجريته فى ١٩٧٤/١١/٢٥)

تحدثنا عن نوبيين فقراء، كل النوبيين كانوا فقراء، وعمدة الفقراء هو أيضا فقير، سموه زكى العمدة لأن والده كان عمدة أبريم، والعمدة فى القرية النوبية هو محور الحياة، فالرجال يسعون شمالا نحو الرزق ليعملوا فى القاهرة بوابين أو سفرجية ويبقى العمدة لينظم حياة كل سكان القرية من نساء وأطفال وعجائز، هو البديل عن جميع الغائبين، والمنصب المهيب يضفى ظلاله على جميع الأسرة، الأب هو محمد العمدة والأم فاطمة العمدة والابنان فوزى العمدة وزكى العمدة.

هكذا كان الأمر دوماً سواء، والأطفال يلعبون معا فى حوارى «أبريم» أو بين تلاميذ مدرسة عنيبة الابتدائية. والنوبيون مكتوب عليهم أن يبنوا بيوتهم ويزرعوا نخيلهم ثم يتركوا كل شىء كى يغرق، هكذا يدفعون ضريبة الوطن، يدفعونها رغم أن الحكومات المتتالية أنكرت تضحياتهم ولم تترك لهم سوى العمل بوابين وسفرجية، غرقت بيوتهم ونخيلهم والتعويض هزيل. هزيل، يقول زكى بحماس: «تصور تعويض النخلة المثمرة كان ١٥ مليما، وعندما قال أحد أعضاء مجلس الشيوخ حرام هذا تعويض هزيل رد عليه إسماعيل صدقى: إذا اغتنوا مين حيشتغل عندنا بوابين وخدامين». بمثل هذا الاستخفاف الطبقى المرير أجبر النوبيون على حمل ما تبقى من حطامهم وانتقلوا.. ويشدو زكى مراد حزينا..

«لنفترق
لنفترق يا بيت والدى العزيز
يا قمرة الصبا
يا سكرة الحياة فى ربيعها المبكر الطليق
يا لمحة الطفولة الجميلة البريق
لنفترق
يا نيل، يا نخيل، يا أصيل
قريتى الوردى الجميل
يا قلعى الصغير، يا فلوكتى
يا شمعة تضىء فى جزيرتى».

وفى عام ١٩٣٩ يحصل زكى على الابتدائية ويرحل شمالا، يركب القطار للمرة الأولى فى حياته ويلتحق بمدرسة حلوان الثانوية، ولمدرسة حلوان قصة فى تاريخ اليسار، فهى المدرسة الأميرية الوحيدة بالقاهرة التى تضم قسما داخليا، وفيها احتشد طلاب من مختلف الأقطار: نوبيون من جنوب مصر ومن شمال السودان وسودانيون شماليون وجنوبيون، ويمنيون، وحضارمة، وصوماليون وتونسيون. وبين هؤلاء جميعا أنبت اليسار المصرى زهورا أينعت فى عديد من الأقطار، ووسط هؤلاء جميعا عاش زكى مراد وغنى أشعارا تمتلئ حنينا للنوبة ومحبة للوطن، ويحصل زكى على الثانوية العامة.. وإلى الجامعة، وينتقل إلى غرفة فى أعلى سطح منزل متهالك فى حى الفوالة حيث يتراكم النوبيون، الغرفة ضيقة، لكن الفقر يجبره على مشاركة زميل فيها، وكان زميل صباه ودراسته فى مدرسة عنيبة الابتدائية محمد خليل قاسم، تقاسما الغرفة الضيقة، المضاءة بلمبة جاز شحيحة وتقاسما اللقمة وتطارحا الشعر وجلسا معا فى أحد المقاهى حيث التقطهما عبده دهب وضمهما معا إلى الحركة المصرية للتحرر الوطنى، وينشط الاثنان فى حماس غامر بين الشباب النوبى فى المقاهى وفى الأندية النوبية والنادى النوبى العام.. الذى تحول على يديهما من مجرد دور للأفراح والتعازى والثرثرة إلى ساحة حية تنبض بندوات ومحاضرات وفصول محو أمية وجلسات صاخبة، وينهض القسم النوبى فى «ح. م» ليصبح أحد أعمدة التنظيم، ويتمدد النشاط إلى الطلبة السودانيين ليشمل أسماء لمعت بعد ذلك فى سماء السودان: عبدالخالق محجوب - عبدالماجد أبو حسبو- محمد أمين - شاكر

مرسال- التيجانى الطيب، وعشرات غيرهم كانوا عماد الحركة السودانية للتحرر الوطنى، «الحزب الشيوعى السودانى».

ويسهم زكى فى تأسيس مجلة «أم درمان» «مجلة الكفاح المشترك»، ويكون له ولزملائه فضل مواجهة الشعار السائد آنذاك «نيل واحد - شعب واحد - ملك واحد»، وتبنى شعار الكفاح المشترك ضد الاستعمار وحق تقرير المصير للشعب السودانى.

وعلى صفحات «أم درمان» يشدو زكى مراد شعرا..

«بينى وبينكم الدم
فتحكموا
ما شئتموا
إنى غدا متحكم».

.. وتغلق «أم درمان».. ضمن حملة الطاغية صدقى يوليو ١٩٤٦.

* * *

«ولأننى عشت محنة الانقسامية فإننى أخوض دوما معركة الوحدة بين كل القوى الوطنية والثورية».
زكى مراد

ونعود إلى فتى نوبى يشتعل حماسا وحيوية يعيش فى قلب النوبيين فى عابدين والفوالة ويقف على عتبات الجامعة.

كانت مصر تغلى وكان يغلى معها شوقا للحرية والتحرر، وكان يغلى مع النوبيين سخطا على هذه الطبقة التى جردتهم من كل شىء، الأرض والنهر والنخيل والأمل، لكنه أبدا لم يفقد بوصلة النضال، ويروى فى حوارى معه: «ذات يوم جاء محمد نور الدين، وكان سياسياً نوبياً سودانياً يعلن تعلقه بمصر وبأعتاب القصر الملكى، وبدأنا حوارا على مقهى بالفوالة، وهمس بالنوبية لماذا لا نعمل معا وسرا من أجل الانفصال عن مصر وعن السودان ونؤسس دولة نوبية؟»، كان زكى ومحمد خليل قاسم ينصتان فى قرف وانتفضا معا ضده، وتوسل لهما ألا يفشيا سره، ووعداه بذلك، زكى يناضل ضد الإقطاعيين والاستغلاليين والقصر الملكى من أجل حقوق الشعب المصرى كله ومن أجل الوطن المصرى

كله، وظل هو ورفاقه النوبيون يتعقبون دعوة الانفصال حتى قضوا عليها تماما.

وفى الجامعة أصبح الفتى ملء السمع والبصر وخاض وبنشاط معركة تأسيس «اللجنة الوطنية للطلبة والعمال» ويتألق ثورية وحماسا وشعرا فى المسيرات الحاشدة فى ٢١ فبراير و٤ مارس (١٩٤٦)، ويعمل زكى بلا كلل فى أكثر من اتجاه وسط النوبيين وفى قسم الطلاب وفى قسم الأحياء وفى أنشطة جماهيرية عديدة، ويتطلب الأمر أن يقترب بمسكنه من الجامعة، فالسير على قدميه من الفوالة إلى الجامعة يستغرق زمنا، ولا قدرة على دفع ثمن المواصلات، وأتى إلى غرفة معلقة هى أيضا فوق سطح متهالك فى المبتديان.

ويتوالى النشاط وتتوالى الضربات الأمنية ويتوالى السجن لكنه يواصل، ويحكى فى حواره وهو يضحك ضحكته المميزة: «كانت الضربات تتلاحق، وذات يوم مررت على محل شحاتة النشار فى شارع السد فقال لى والده إن مخبرين حضروا وسألوا عنه وقالوا إنه مطلوب، وأدركت أن ثمة حملة قادمة فقررت إبلاغ أعضاء لجنة القسم لتنظيف منازلهم من أى أوراق يمكن ضبطها، وصعدت مئات السلالم وأنا أجرى من بيت إلى بيت محذرا الرفاق وعندما انتهيت من تحذير الجميع تذكرت أننى نسيت نفسى، وأن غرفتى بها أوراق كثيرة فأسرعت لأجدهم فى انتظارى وقبضوا على ومعى أكوام من المضبوطات».

ويصبح زكى، وبعد فترة، عضواً فى اللجنة المركزية لمنظمة «حدتو»، وهى فى أوج ازدهارها (١٩٥٠ – ١٩٥٣) وتكون سنوات مجد حقيقى. حركة أنصار السلام التى هى بذاتها جبهة تضم قوى وطنية تمتد من باشاوات.. إبراهيم باشا رشاد وحفنى باشا محمود وكامل باشا البندارى، وفنانين وفنانات ومثقفين وأدباء وشعراء وحزبيين من مختلف الاتجاهات، واللجنة التحضيرية لاتحاد نقابات عمال مصر.. والاستعدادات تجرى على قدم وساق لعقد «مؤتمر شعوب الشرق الأوسط» الذى دعت إليه «حدتو» لتوحيد نضال الشعوب العربية ضد الاستعمار والصهيونية، وفيما يتألق الفعل الثورى المتعدد الجوانب وتتصاعد الدعوة إلى تأسيس جبهة وطنية ديمقراطية.. يفعلها الرجعيون وعملاء الاستعمار والقصر الملكى وتحترق القاهرة، ويقبض عليه ليفرج عنه بعد ثورة يوليو، ويكون الزمن الصعب أن تؤيد ثورة الجيش فى مواجهة رفض الحركة الشيوعية العالمية وكثيرين من الشيوعيين المصريين، وأن تعمل ضدها فى آن واحد عندما تنتهك الديمقراطية.. وتفتح المعتقلات والسجون ويهرب زكى مراد ويختبئ فى بدروم بيت بالدقى «بجوار فرن الجهاد»،

وكنا نحن نشتعل حماسا، نحن طلاب «حدتو»، ونغرق جدران القاهرة بشعارات ضد الدكتاتورية العسكرية.. وابتعدنا بالطبع عن موقع سكننا فى العباسية.. فكتبنا على جدران البدروم الذى يعيش فيه هاربا هو وخليل قاسم ومحمد شطا. وهم استشاطوا غضبا وخوفا من جذب أنظار الأمن، لكنه ضج فرحا، فالرفاق ينشطون، وفى هذه الفترة أعمل زكى كل قدراته من أجل تأسيس «الجبهة الوطنية الديمقراطية» وأقام لها قواعد عدة، ويقبض عليه وإلى السجن الحربى، وهناك يكتب رثاء لأبيه الذى رحل وهو فى السجن..

«يا أبى إنى أعيش فى جحيم مستعر
ليس لى غير كفاحى والصباح المنتظر
كنت أرجو أن تعيش لترانى أنتصر
أنا لم أهدك شيئا فى حياتى الماضية
غير أنى كنت أنوى فى حياتى الآتية
أن تكون الباقة المهداة دنيا ثانية
وطنا حرا سعيدا ونفوسا عالية».

ويحاكم أمام محكمة عسكرية والحكم القاسى ثمانى سنوات أشغالاً شاقة.. وتمضى فترة السجن ولا يخرج بل يعتقل ليفرج عنه فى أبريل ١٩٦٤، وتمضى أحداث عديدة قرار الحل – النكسة – ويوم النكسة يتقرر إعادة تأسيس الحزب ويخوض المعركة بكامل قواه وبكل تفاؤله الذى يطغى على كل الصعاب. وتتألق مطبوعات «أحمد عرابى المصرى» «الاسم السرى للحزب الجديد» ويكون لزكى أكثر من تقرير وأكثر من دراسة كلها تتركز على الدعوة لوحدة القوى الوطنية والثورية، وتشتعل «انتفاضة الخبز» ويقبض عليه من جديد، ويواصل.. يواصل بلا ملل، حتى يرحل فى حادث سيارة.

محمد خليل قاسم

«أنا مصرى وفى مصريتى
ينطوى أمسى وينساب غدى
أنا مصرى وفى مصريتى نبع
أحلامى ومثوى جسدى»
محمد خليل قاسم

أى خيط سحرى يربط اثنين كى يصبحا صديقين؟ أقصد صديقين صداقة حقيقية. من بين المئات والألوف يلتقيان يتقاربان يتآلفان ليصبحا أقرب وأوثق علاقة.. لو اكتشفنا هذا الخيط السحرى لأمكننا أن نكتشف لغز الحب.

أقول هذا لأن حالتى مع محمد خليل هى كذلك، منذ اللحظة الأولى للقائنا صدر فى قلب كل منا قرار سحرى بأن نصبح صديقين.

ونبدأ حكايته. الأب تاجر صغير فقير فى بلدة «قتة» النوبية. زبائنه نساء وأطفال هاجر رجالهم شمالا إلى القاهرة ليعملوا هناك بوابين وخدما. لا نقود فى القرية. وربما وجدت أسر لم تر النقود فى حياتها. هناك النخيل، بلح يصبح تمراً، يقدمون أكوام التمر للتاجر ليبيعها فى أسوان ويحصل على ثمن ما اشتروه طوال العام، وكالعادة يتعلق حلم الأسرة بأن يتعلم محمد ويصبح أفنديا. ومن المدرسة الإلزامية إلى مدرسة عنيبة الابتدائية حيث تفوق على الجميع وتفوق أكثر فيما كان ينسجه من شعر جذل.

وأمضى مع حواراتى معه: «ظللت فى النوبة لم أغادرها قط حتى تحتم أن أسافر إلى أسوان لأمتحن الشهادة الابتدائية. هناك فى أسوان عشت منبهراً، رأيت أشياء كنت فقط أرى صورها فى كتاب المطالعة». ويحصل على الابتدائية متفوقا، ولكى يواصل تعليمه يجب أن يرحل إلى القاهرة. وبالطبع إلى منزل خاله (كان طباخا لدى أسرة كابتن هون صاحب إسطبل لخيول السباق بالمطرية)

ذهب ليقدم أوراقه إلى ناظر مدرسة القبة الثانوية. أمسك الناظر بالأوراق وألقى نظرة فاحصة على الفتى الذى يقطر فقرا، ملابسه قديمة ولعلها ليست على مقاسه وحذاؤه قديم إلى درجة مخجلة. ولعل الفتى لمح بذكاء تردد حضرة الناظرة فى قبوله، فارتجل عدة أبيات من شعره. وأدرك النّاظر أنه أمام شاعر حقيقى. ويمضى سنوات الثانوية سريعا ومتفوقا وإلى كلية الحقوق. وهناك انطلق إلى العالم الرحب. التقى صديق الطفولة زكى مراد وتعرفا إلى عبده دهب وانضما إلى منظمة الحركة المصرية للتحرر الوطنى. وفى هذا الزمان التقى الفتاة التى أحبها وظل طوال حياته يحبها، ويحكى لى: «التقيت بها فى مترو مصر الجديدة، الحب غمرنا سريعا وكثيفا، عشنا أجمل أيام ولكى لا أخدعها أخذتها من يدها إلى جروبى مصر الجديدة وأقبل السفرجية يسلمون على قلت لها: هؤلاء أقاربى، نحن نوبيون أى نحن فقراء. لم تنطق وسحبتنى من يدى إلى أحد شوارع مصر الجديدة حيث محل لمسح الأحذية وأشارت لاثنين منهمكين فى مسح أحذية الزبائن وقالت هذا أبى وهذا عمى، وتعمق حبنا أكثر فأكثر».

ويقول فى أسى، وأكاد ألمح الدموع فى عينيه: «الزمن والنضال والسجن والمطاردة والهروب فرقت بيننا، لكننى لم أزل أحلم بها كل ليلة». وكان له حبه الآخر.. الشعر: «كان طموحى أن أصبح شاعرا كبيرا وقرأت وحفظت وكتبت وترددت على أندية شعرية لألقى فيها قصائدى وأتلقى إعجابا حقيقيا»، ويصمت ثم يضيف: «أن تكون شيوعيا تصبح كراهب، تترك كل قديمك. كل شىء الأسرة والدراسة والكلية وكل هواية.. وكل شىء إلا معتقدك الذى تهب له كل شىء»، ومع ذلك فقد ظل يقطر شعرا يشدو به فى لحظات المتعة. وينشر فى «أم درمان» قصائد عدة منها:

نحن نبنى لأن فينا جياعا
يعمرون الكهوف بين الجبال
نحن نبنى لأن فينا عراة
يخدمون الثراة فى أسمال
نحن نبنى لأن فينا رضيعا
قارب الموت مستبد السعال
نحن نبنى وما بنى الشعب باق
أبد الدهر ساخرا بالزوال

ويمضى نضاله اليومى الذى ينسيه كل شىء ليصبح واحدا من أهم كوادر المنظمة. وفى عام ١٩٤٨ قبض عليه وحوكم بالسجن خمس سنوات، ويفرج عنه فى ١٩٥٣ حيث تكون الأزمة قد اشتعلت بين «حدتو» وثورة يوليو، فيختفى ليواصل النضال من جديد. واختفى فى بيت واحد مع زكى مراد ومحمد شطا. ويخرج هو من المخبأ ليأتى إلى بيتى.

أبلغنى أحد الزملاء أن على أن أذهب إلى مقابلة أحد الرفاق القياديين. وذهبت فى موعد مسائى شديد البرودة وتوقفت سيارة قديمة مطفأة الأنوار، كان المطر ينهمر فوق رأسى ورأيت شبحا يهبط من السيارة شخص مربع متجهم أسمر. شفتاه نافرتان وكأنهما رسمتا بشكل خطأ، وتركونى معه. ووجدت نفسى فى قبضة القادم الجديد. المطر يغمرنا وهو يضع تحت إبطه لفافة من ورق الجرائد. أشرت إلى تاكسى فإذا به يلدغنى فى يدى هامسا: «من أيام (ح.م) تعلمنا ألا نشير إلى أول تاكسى، فقد يكون الأمن قد أرسله لنا». وانتظرت بملل والبلل يغمرنى وهو ثابت مكانه كصخرة أسوانية راسخة وعينه تتفحصنى من حين لآخر. ثم أشار لتاكسى وذهبنا إلى منزلى، فتح اللفافة وأخرج منها بيجامة بنصف كم ومهلهلة. فى صمت فتحت دولابى وأحضرت بيجامة كستور وأشعلت المدفأة، وعندما شعر بالدفء ابتسم وقال: «مش حنحتفل؟ كل سنة وأنت طيب النهارده ٧ نوفمبر عيد الثورة البلشفية». وحضر محمود العطار زميلى فى السكن وأحضر لنا طعاما وصل من المنصورة، وأخرجت كيسا من التفاح وصلنى من هناك أمسك بتفاحة، وقال تتصور انها أول مرة أمسك تفاحة، والتهمها. وفيما نتمدد أنا وهو على سريرى واللحاف الثقيل يثقل علينا بالدفء الحقيقى، تذكرت قصيدة لمحمد خليل قاسم حفظتها وأنا فتى صغير السن فى معتقل الهايكستب. لم أره هناك، هو رحل إلى الطور وترك قصائدة فى ذاكرة الرفاق. وأنشدت بيتين من قصيدة قالها فى احتفال المعتقلين بذات الذكرى.

«وإذ نحتفل اليوم به.. ها هنا بين هاتيك الصحارى

فغدا يحتفل الشعب به.. فى النوادى فى النقابات جهارا»

وسألنى عن القصيدة؟ قلت لمحمد خليل قاسم، وسأل هل تعرفه؟ قلت: لا.

قال: أنا. وتعانقنا وأمضينا ليلة احتفالية جميلة.

لنبدأ معا رحلة صداقة طويلة ممتعة..

* * *

«قل رأيك، وحارب الخطأ بقسوة، حتى ولو غضب منك الجميع، فأى مناضل هذا الذى لا يستطيع أن يواجه العالم كله برأيه؟».

محمد خليل قاسم

(فى حوار استحثنى فيه أن أنتقده بصراحة)

ومنذ اللحظة الأولى لسكناه معى هاربا من الأمن بدأ جلسات حوار ونقد شديد لأسلوبنا فى العمل عندما عملنا وحدنا زمنا نعارض «الدكتاتورية العسكرية» بعيدا عن إشراف قيادة لا نجد سبيلا للاتصال بها، كان نضالنا يتلخص آنذاك فى الكتابة على الجدران وكان الأمر يتطلب حذرا وشجاعة. لكنه دقق فى الشعارات المكتوبة ووجد أخطاء وشدد فى انتقادها، وفحص أساليب تحركنا وكيفية تأمين عملية الكتابة، وانتقدها بعنف: وبدوت وأنا الذى كنت أزهو بأننى مسئول كل هؤلاء المناضلين الشبان، كأننى تلميذ فى محراب شديد القسوة، احتملت النقد، فقد أحببت فى الرجل إخلاصه وصراحته وصرامته، واحتفظت لنفسى سرا بالحق فى نقده إن أخطأ.. وبعد أن تفرقت بنا السبل، هو غادرنا إلى منزل آخر، ثم قبض عليه ليرسل إلى السجن الحربى وأنا قبض على لأذهب إلى سجن مصر، التقينا. وكان «بيان السجن الحربى» وهو بيان أصدره رفاقنا القادة السجناء يحيون فيه تقارب عبدالناصر مع الاتحاد السوفيتى، وقام كل السجناء فى سجن مصر بهجوم كاسح على القادة الذين أصدروا البيان، وتعالت الاتهامات بالخيانة، أنا رفضت البيان ورفضت التخوين، وجلست إليه قلت لدى انتقادات شديدة وأتردد فى قولها، فهاج محرضا إياى أن أواجه العالم كله بما أعتقد أنه صائب.. وهكذا تعلمت منه درسا ثمينا، وتتفرق السبل مرة أخرى، هو إلى سجن طرة وأنا إلى سجن القناطر، لكننا وإذ نلتقى نجد صداقتنا وقد نمت أكثر وأكثر.. وإذ استقر بنا المقام فى سجن جناح تتلمذت تماما على يديه، أمرنى أن أتعلم الإنجليزية وبذلت جهدا خارقا، وأمرنى أن أخوض غمار الترجمة وأعطانى مقالا من صفحتين ووجد فى الترجمة أكثر من مائة غلطة، وأمر بإعادة الترجمة وأعدتها، ثم أعدتها، ثم بدأت الترجمة تستقيم بقليل من الأخطاء، وأمرنى أن أحفظ الشعر وحفظت، وأمرنى أن أجرب كتابة التحليل السياسى وفعلت، باختصار كان يقوم بصناعتى، وفى هذه الأثناء صدر قرار بفصل كل السجانين الذين لا يتعلمون القراءة

والكتابة، إما الحصول على شهادة محو الأمية أو الفصل، السجانون كانوا فى الأغلب متوحشين وعند الأوامر يضربون بقسوة وكأنها خصومة شخصية، وأكثرهم عذبنا فى سجن القناطر وأبو زعبل وطرة ولهذا ارتفعت نغمة وسطنا بألا نعلمهم، نتركهم للفصل فهم أعداء طبقيون، هو لقننى درسا آخر.. هم مساكين مقهورون مثلنا وما أسهل أن نكسبهم إلى صفنا، وافتتح فصلا وفصلا ثانيا، والسجانون يأتون لفترة ويرحلون، وكل من يرحل يكون قد تعلم.. وأسماه السجانون «حضرة الناظر» وظل هذا اسمه حتى أفرج عنا، والمثير للدهشة أن مصلحة السجون اعترفت بمدرسة «حضرة الناظر» وبالشهادة التى يوقعها كشهادة رسمية لمحو الأمية، ونفترق لنلتقى مرة ثانية فى سجن المحاريق، هو أصبح قائدا ناضجا تماما وأنا تعلمت كثيرا من دروسه الجادة والقاسية، كان العمر يتقدم بى وبه، وأحسسنا بأن العمر يتسرب من بين أيدينا، وبدأنا فصول تقوية مكثفة، كل منا يستحث الآخر، قرأنا دواوين شعر عديدة، حفظنا قصائد بلا حصر، قرأنا القرآن عديدا من المرات ثم سألته لماذا لا تكتب مذكراتك؟ وتناقشنا فى لماذا؟ وكيف؟ ومتى؟ واستقر الأمر على أن يسجل تاريخ النوبة فى رواية، وبدأ فى كتابة «الشمندورة» لكن المشكلة أنه لا أوراق، فالكراسات شحيحة، وبدأ الكتابة على ورق شكاير اللبن الجاف، وهى شكاير تشبه شكاير الأسمنت، وفصلا فصلا أقوم أنا بنسخها على ورق البافرة بخط دقيق جدا، وفيما هو يكتب كلفنى ترجمة كتاب «أضواء على الهند الصينية»، ثم هو يراجع الترجمة فصلا فصلا، وأنا أكتب له على البافرة فصلا فصلا، وعندما انتهيت من ترجمة «أضواء على الهند الصينية» قال مكشرا عن أنيابه: «ترجمت كتابا سياسيا لكن الترجمة الحقيقية هى ترجمة الأدب»، وأحضر لى رواية «الأرض» لإميل زولا، وانهمكت فيها وانهمك هو فى «الشمندورة» وفى مراجعة الترجمة، وانتهت كتابة «الشمندورة» وبدأت مشكلة كيف؟ وأين؟ كيف نهربها خارج السجن؟ وأين تحفظ؟ وتم تهريبها إلى ليلى الشال (ولم نكن قد تزوجنا بعد) وهو يعيش حالة قلق دائم، فماذا لو أنها ضاعت؟ وأطمئنه، وأعيد طمأنته وهو لا يطمئن، حتى أفرج عنا وسلمت لفافات البافرة له، لكن نظره الضعيف لم يلتقط الأحرف الصغيرة، فكتبتها له فى كراسات، وصدرت «الشمندورة» لتحدث ضجيجا، وتذاع مسلسلا فى «صوت العرب»، وتزهو بها كل الأندية النوبية فى ندوات لا تنتهى، أما هو فقد خرج من زنزانة السجن الضيقة إلى غرفة أصغر معلقة فوق سطح فى تجمع نوبى بالقرب من سوق

الجمال فى إمبابة، زرته هناك عندما قرر أن يتزوج، قدمت له هدية لم أجد لها مكانا توضع فيه، الغرفة لم تحتمل المروحة التى حملتها معى، أخته فرحت جدا بها، أما هو فقد اكتفى بابتسامة، فعتاد الغرفة مجرد سرير وحصيرة ووابور جاز وفقط، وحمام مشترك، وعندما صدر قرار الحل زارنى، ارتمى فى أحضانى باكيا، قائلا: «لم أبك عندما مات أبى ولا عندما سمعت بموت أمى، أما أن يموت الحزب فأنا يتيم حقا»، وفيما يقترب يوم زواجه قرر القلب الجميل أن يتوقف، أخته احتارت، جارتهم أحضرت بصلة كسرتها ووضعتها قرب أنفه لم يعد يتنفس.. فالفقراء يموتون غدرا ودون علاج.

رحل محمد خليل قاسم لأفقد أستاذى وصديقى.. وهو صديق لا يتكرر.

سيف صادق

«أصعب شىء وأجمل شىء أن تعمل وتناضل وسط الفلاحين، يبدون فى ظاهرهم غير مبالين أو حتى خائفين لكنهم فى الواقع يلتهبون ثورية».

سيف صادق

(فى حواره معى)

هناك بعيدا جدا، تماما على خط الحدود مع السودان كان بيت سيف صادق فى قرية أدندان باب البيت فى مصر، وشباكه يطل على السودان.

القرية فقيرة ليس ككل القرى النوبية، لكنها الأفقر، ولد ليلة رأس السنة فى ١٩٣١/١٢/٣١ ولكن لا أحد هناك يعرف ذلك الشىء المسمى رأس السنة. فقط طفل جديد يأتى، ليكبر ويعمل فى القاهرة خادما ويرسل مالا تعيش به الأسرة، ويكبر الطفل فينفتح أمامه طريقان تقليديان؛ أن يعمل خادما أو أن يجاور فى الأزهر، هو كسر القاعدة، فالأسرة لا تمتلك ترف أن يجاور ابنها فى الأزهر، ولم تكن المنحة الشهرية قد تقررت بعد، فقط الجراية وهى عدة أرغفة، وهو لا يقبل أن يكون خادما أو بوابا، واختار أن يكون عاملا. الفتى النحيل المبروم كنواة ثمرة بلح نوبية خلع الجلباب وارتدى بنطلونا أزرق ليعمل ميكانيكى سيارات، وسكن كالعادة فى الفوالة، لكنه يعود ليكسر القاعدة فيصبح وفديا متحمسا ويصبح سكرتيرا للشباب الوفدى فى الفوالة.

الفتى هادئ، نادر النطق، لا يبدى وجهه أى انفعال، ينساب دون أن يلحظه أحد إلى الورشة ليقضى نهاره ممددا تحت سيارات الأغنياء أو منحنيا برأسه حيث الموتور.. ويصبح أسطى يعرف كيف يكسب تقدير الجميع، وفى ١٩٤٧ تلتقطه عين عبده دهب ويضمه إلى خلية كلها طلاب وكلها نوبيون «زكى مراد، مبارك عبده فضل، محمد خليل قاسم» كانت هناك حوارات لا تنتهى هو لا ينطق، فقط يستمع، يتعلم، يقرأ ويجند عمالا

وشبانا وفديين، ويمتلئ حى عابدين بحصاد نضاله، يقول زكى مراد: «ذات يوم نطق سيف (الرفيق عز) مقدما قائمة طويلة من أشخاص جندهم، لم نهتم بهذه الثروة النضالية، فقط صحنا جميعا أخيرا نطقت وسمعنا صوتك».

وفى عام ١٩٤٨ يقبض عليه ليمضى فى السجن عامين ويفرج عنه ليقرر التوقف عن إصلاح سيارات الأغنياء ويحترف، يترك كل شيء ويذهب إلى منطقة بحرى، وهنك التقينا. كان ينساب من طنطا إلى المنصورة دون أن يشعر به أحد، وإذ نجتمع كان لا ينطق إلا نادرا، هادئا هو لكنه فى كل اجتماع كان يخجلنا، يأتى ومعه ثروة من رفاق جدد.. وقرى جديدة فتحها وأقام فيها نقطة ارتكاز، وما إن يأتى عام ١٩٥١ حتى كانت منطقة بحرى تموج بفعل ثورى صاخب وانتفاضات فلاحية ضد الإقطاع، وكوادر فلاحية ونشرة دورية سرية واسعة الانتشار «صوت الفلاحين»، وفيما نحن نزهو بمظاهراتنا فى شوارع المنصورة وغيرها من المدن تأييدا لإلغاء معاهدة ١٩٣٦، كان هو يبنى ركائز فى عشرات القرى، وأخيرا نطق وبهدوء قال إنه يودعنا فقد شكل كتيبة من الفلاحين والطلاب، ووافقت اللجنة المركزية على ضمهم إلى كتائب الأنصار التى شكلتها «حدتو» لتحارب الاستعمار فى منطقة القنال، وكلفته السفر مسئولا عن هذه الكتائب.

وتحترق القاهرة وينساب هاربا إلى قرى لا تخطر على بال أحد، ويعتقل عام ١٩٥٢ ليبقى حتى ١٩٥٦، فينساب مرة أخرى إلى عشقه الريفى المذاق، وكعادته يكمن هادئاً، ثم يفاجئ الجميع بمشروع لم يتجاسر عليه أحد، فقد أسس مشروعا للنشر فى طنطا «دار الفجر» وأصدر أول مجلة يسارية فلاحية، وكانت «الفجر» بداية لنشاط فلاحى واسع بحيث أصبحت منطقة بحرى أهم نقطة ارتكاز ثورية للحزب، وفيما ينعم الجميع فى غفلة التعاون مع النظام الناصرى تأتى حملة أول يناير ١٩٥٩ ويعتقل هو ومجموعة من رفاقه فى طنطا، وفى المعتقل كان التعذيب الوحشى، لكن قطعة الجرانيت الآتية من الجنوب تظل مستعصية على إبداء أى انفعال أو توتر، كان صمته وهدوؤه يغيظ الجلادين ويزعجهم فيمنحونه مزيدا من التعذيب لعله ينطق أو يتأثر، لكن وجهه الهادئ يظل بلا انفعال، وحتى عندما تغلق الزنازين وتنهمر الانفعالات ألما وغيظا كان هو هادئا بلا توتر وبلا انفعال وكأنه قضى طوال اليوم جالسا فى مقهى يشرب الشاى، وكان هدوؤه يخجلنا فنحاول أن نقلده دون جدوى.

ويفرج عنه مع الجميع فى ١٩٦٤، ويمنح وظيفة بسيطة فى الشركة العامة لاستصلاح الأراضى، لكن الحنين الغامر للنضال يدفعه إلى أن يكون واحدا من خمسة أعادوا تأسيس الحزب، وبهدوء وكأنه يتخذ قرارا بإعداد كوب شاى أبلغ رفاقه الأربعة أنه خلع ثياب الأسطى سيف الذى يشرف على إصلاح جرارات الشركة وارتدى ثياب الرفيق «عز» لم ينتظر قرارا من أحد ولا موافقة من أحد وأصبح من جديد محترفا.

ومن جديد أيضا إلى طنطا حيث يعيد المجد الفلاحى مرة أخرى وتتسع رقعة نشاطه فيقبض عليه عقب إضرابات عمال حلوان فى يناير ١٩٧٥، فقد كانت أصابعه هناك أيضا، وبعد الإفراج عنه يختفى نهائيا. هم يشعرون بأصابعه ويرون آثار أقدامه فى عشرات القرى ولكن لا يعرفون أين هو. وعقب أحداث يناير (١٨ - ١٩ يناير ١٩٧٧) يطلبونه هو بالذات ولا يجدونه ويظل هاربا ومطلوبا ومناضلا لمدة عامين ونصف العام.. وإذ تنتهى القضية يعود للظهور، وبعد فترة يأتيه النبأ الصاعق وفاة زميل عمره زكى مراد، وقبلها كان محمد خليل قاسم قد رحل، هنا فقط بدأ يتململ، تبدو على وجهه مشاعر ليست حزينة لكنها توحى بأنه قرر الرحيل، ويتحول الحزن إلى مرض غريب لا يملك الأطباء تفسيرا له، إلا أنه قرار بالرحيل.

وعندما حان وقت القرار النهائى استدعى على عجل صابر بسيونى الذى أتاه بسيارة وتجول معه فى حى عابدين وحوارى الفوالة يستوقفه لحظة ليقول له هنا كنت هاربا، ثم هنا جندت فلانا، هنا أخفيت المطبعة الحزبية، ويتجول.. يتجول يرى كل مكان أحبه وكل موقع شهد نضالا له، وكانت البسمة الراضية ترتسم على وجهه فقد فعل ما يجب، وربما أكثر مما يجب، وفيما كان يستنشق عبير النضال القديم كان يلفظ آخر أنفاسه.. كسر القاعدة أيضا، لم يمت فى المستشفى ولا فى بيته مع زوجته وأولاده وإنما فى السيارة وهو يقبل عتبات النضال القديم، فمات بين أنفاس أحب أصحابها ومنحهم ضوء الفكر التقدمى وأحبوه هم وظلوا يذكرونه دوما.. ورحل.

ألبير آرييه

«عندما أصبحت عضوا فى منظمة ايسكرا اصطدمت أنا وعدد من زملائى مع مسئولتنا لأنها كانت تتعامل معنا بطريقة مستبدة فقررت سحب عضويتنا وتحويلنا إلى مرشحين وعندما فقدت عضويتى بالتنظيم أحسست أنهم سلبوا منى قطعة مهمة من حياتى».
ألبير آرييه

ولد ألبير فى عام ١٩٣٠، الأب جاك إبراهيم قادم من تركيا لكن أصل الأسرة يأتى من إسبانيا حيث طرد جميع اليهود بعد انتهاء الحكم العربى فى الأندلس فتكرس الاضطهاد للمسلمين واليهود على السواء، وفى عام ١٩٢٤ حصل الأب «وكان رعية عثمانية» على الجنسية المصرية، وكذلك الأم.

أتت بداية التوجه اليسارى عبر أخته التى كانت مرتبطة بالنوادى اليسارية التى تكاثرت فى قاهرة هذه الأيام، وفيما كان فى العاشرة كان يعيش مع أخته حالة العداء للنازية والفاشية وبذور الكلمات الاشتراكية، وفى الحادية عشرة من عمره أعطته أخته رواية «الأم» لجوركى وبعدها كتبا وروايات أخرى.

وفى مدرسة الليسيه فرانسيه وجد مناخا واسعا للحرية وصداقات حميمة مع شبان مثله يكرهون النازية ويوشكون أن يعشقوا الاشتراكية، والأسماء كثيرة: محمد سيد أحمد، توفيق حداد، فؤاد حداد، إلهام سيف النصر، جمال غالى، روبير ستون وآخرون تجمعوا، نشطوا معا فى إطار تجمع طلابى يمكن وصفه بأنه ليبرالى متجه نحو الاشتراكية، وكان مدير المدرسة يحتار فى كيفية كبح جماح هؤلاء الطلاب الذين يأتى أكثرهم من عائلات أرستقراطية، ومن ثم لا يمكن المساس بهم، وفى سن الخامسة عشرة أحست أخته أن الثمرة قد نضجت فسلمته لزميل لها، كان عضوا فى منظمة أيسكرا اسمه هانز بيكسفيلد «نمساوى الجنسية، غادر مصر عام ١٩٤٨ إلى فرنسا وأصبح فيما بعد أحد قادة حزب

الخضر» وأصبح الفتى شيوعيا، لكنه ما لبث أن احتج هو وعدد من زملائه على استبداد المسئولة فسلبتهم عضويتهم واستبعدوا ليصبحوا مرشحين بعد أن اتهمتهم بأنهم فوضويون.

يقول ألبير: «عندما فقدت عضويتى أحسست أنهم سلبوا منى قطعة من حياتى»، لكنهم ما لبثوا أن أعادوه إلى الحياة بعد الوحدة «ربما ليزيدوا من عدد أعضائهم فى التنظيم الجديد».

وانطلق الرفيق أرتين «اسمه الحركى الأول وبعدها أصبح الاسم موريس» فى نضال جماهيرى بما يشبه حمام التمصير، فقد كلف الاشتراك فى حملة مكافحة الكوليرا، وانطلق مع رفاقه لتنظيف الحارات الفقيرة، ينظفونها مع السكان ويشرفون على التطعيم ضد الكوليرا.. ثم شارك بحماس فى نشاط «الجمعية اليهودية لمناهضة الصهيونية» ووزع منشوراتها فى منطقة وسط القاهرة، وفى هذه الأثناء حصل على ليسانس الحقوق الفرنسية.

كان ألبير قد تلقن كورسات ومحاضرات فى كيفية الحفاظ على أمن تحركاته وحماية أمن الأجهزة والاجتماعات وتفوق على الجميع، ومن ثم أصبح واحدا من أهم كوادر الأمن التنظيمى وأصبح الاعتماد عليه فى ذلك عمله الأساسى.. الحفاظ على الأمن الحزبى، حماية الأجهزة الفنية، ترتيب اجتماعات القادة الهاربين من الأمن، وأدار ذلك كله بكفاءة جعلت الجميع يعتمدون عليه فى ذلك، وفى عام ١٩٥٣ كان نشاط «حدتو» واسعا فى تأسيس الجبهة الوطنية الديمقراطية، والتى ضمت عديدا من الوفديين وبعض أعضاء «مصر الفتاة» وشخصيات عامة منهما أبو بكر حمدى سيف النصر، والضابط مصطفى كمال صدقى، وتحية كاريوكا، وكانت الضربات تتوالى على «حدتو» بهدف تصفيتها نهائيا، وتمثلت هذه الضربات فى حملات للقبض الجماعى، حيث كانت كل حملة تشمل أعدادا كبيرة غير معتادة، وكذلك التركيز على آلات الطباعة بهدف إسكات صوت التنظيم، وكان ألبير هو العلاج لكل ذلك، فعن طريق الوفديين أمر النحاس باشا بتسليم ماكينة رونيو للتنظيم، ثم جرى إحضار مطبعة من الإسكندرية، حيث تم تفكيكها هناك ونقل أجزائها قطعة قطعة، وتم نقلها إلى فيلا فى الهرم خلف مبنى المحافظة حيث جرى تركيبها، وتولى الطباعة اثنان.. شيوعى هو حليم طوسون ووفدى هو إبراهيم حسين، ويقوم ألبير بنقل

المطبوعات بنفسه لتسليمها إلى محمد الخياط مسئول الاتصال المركزى.

كان ألبير يدرك مدى إصرار عبدالناصر على تصفية «حدتو» ونشاطها الجبهوى، ومن ثم كان يواجه ذلك بنظام أمنى محكم ومحاولة الإفلات هو وجهازه المعاون من أى مراقبة، وكان الأمن يطور من نشاطه وأجهزته وبدأ لأول مرة فى استخدام أجهزة التتبع باللاسلكى، ورغم ذلك اكتشف ألبير هذا النمط الجديد، لكن الوقت كان قد فات فقد أمسك الأمن بكثير من الخيوط.. وكانت حملة القبض على الكثيرين، وتبدأ رحلة ألبير مع السجون، لكنها بداية ليست ككل البدايات فقد أخذوه إلى أبشع السجون وأكثرها سوءا.. السجن الحربى، وهناك استعاد ألبير كل خبرة التثقيف الذاتى الذى أعد نفسه به، فقد قرأ طويلا عن خبرة الشيوعيين فى مواجهة الاستجوابات والمحاكم ومنها كتاب ألفه محام فرنسى شيوعى بعنوان «الدفاع يتهم» تحدث فيه عن محاكمات الشيوعيين الفرنسيين وعن محاكمة النازى للرفيق ديمتروف، وهكذا دخل الفتى ابن الثالثة والعشرين أتون اللهيب دفعة واحدة، ويقول: «كانت الليلة الأولى فى السجن الحربى أسوأ أيام حياتى، زنزانة بلا شباك والكلبشات تقيد يدى» لكنه استعاد كل ما قرأه وقرر الصمود.

ويستند ألبير أيضا إلى أبيه «جاك آرييه»، وكان يمتلك أول وأشهر محل للملابس الرياضية فى مصر «نيو لندن هاوس» فى ميدان مصطفى كامل، ومن هناك تعرف الأب إلى الكثيرين من المسئولين الذين حاولوا تخفيف الوطأة على الابن، لكن للسجن الحربى قوانين تأتى فوق كل شىء، وبدأت التحقيقات، واجه المحقق بثبات من تعلم على يدى ديمتروف، والقاضى العسكرى الصارم اللواء الدجوى لم يستمع إلى أدلة أو إلى دفاع.. أحكامه جاهزة نال منها ألبير ٨ سنوات أشغالا شاقة، وتعنى أن يقيد بحزام من الحديد فى وسطه، وتمتد القيود الحديدية لتربط الساقين، وتعنى أيضا تكسير الأحجار فى الجبل، ثم يبدأ النضال لتحسين الأوضاع، ومن ثم إضراب عن الطعام، وهو أمر غير معتاد فى سجن طرة، الأمر الذى دفع النظام إلى ترحيلهم بعيدا، فى الواحات، وهناك كان ألبير أستاذ فن الأمن الحزبى، يهرب كل شىء إلى السجن ومن بين ما قام بتهريبه راديو كبير جرى تأمينه بإحكام وظل حلقة الوصل بالعالم، وكان يشرف على تهريب الرسائل إلى الخارج مغلفة بطريقة مبتكرة، حيث أقيمت ورشة تجليد، ويتم إرسال المخطوطات مكتوبة على ورق البافرة داخل الغلاف، وهناك كان أيضا مسئولا عن العجين، فجرا يستيقظ

ليسهم فى عجن الدقيق، كما بدأ فى أولى تجارب لزراعة الحوش الرملى واستطاع أن يطوع الحياة لتصبح مثمرة وتنتهى السنوات الثمانى التى مر فيها بأصعب الأوقات، فقد توفى أبوه الذى كان سندا حقيقيا. لكن السنوات الثمانى لم تكن كافية فى نظر الأمن فيصدر قرارا باعتقاله ليمتد السجن إلى ١١ عاما ويخرج فى ١٩٦٤ ليواصل كل ما كان من عمل صامتًا وهادئًا، متمسكا بالموقف والمبدأ، ولم يزل مقدما خدمات جليلة دون أن يهتم بأن يعرفها أحد.

لكننى؛ وقبل أن أنهى هذه الكتابة أريد أن أقدم لألبير كل الشكر على ما أسهم به من إسهامات كبيرة ومخلصة فى تجميع المعلومات والحوارات والوثائق الخاصة بدراستى لتاريخ الحركة الشيوعية المصرية، وهى إسهامات تمتد من ذاكرة قوية ومرتبة إلى قيامه نيابة عنى بمقابلات عديدة فى باريس أجرى فيها حوارات مع عديد من مؤسسى النشاط اليسارى المصرى منذ بداية الثلاثينيات من القرن الماضى إلى وثائق شديدة الأهمية، بحيث يمكننى أن أعترف أنه من دون إسهاماته المخلصة معى ما كان يمكن أن أستكمل هذه الدراسة.

عزيزى ألبير.. شكرا لما قدمته لنا جميعا.. ولى شخصيا.

صابر زايد

«علمتنى الحياة أن أصنع أى شيء، وأن يدى قادرتان على صناعة كل شيء أحتاجه، فأصبحت محترفا متخصصا فى صناعة آلات الطباعة والعمل عليها وإخفاء كل شيء بمهارة».
صابر زايد

إسكندرانى أصيل، من أسرة فقيرة تعمل فى تجارة الورق، لكن الرزق شحيح ولا يملك صابر ترف الاستمرار فى التعلم، فيصبح عامل نسيج فى مصنع بولفارا وفى مطلع الأربعينيات يصبح عضوا فى الحركة المصرية للتحرر الوطنى، وعبر عام أو عامين يصبح قائدا نقابيا فى المصنع، ومن ثم يصبح قياديا فى فرع الإسكندرية من «اللجنة الوطنية للطلبة والعمال»، ويلتهب حماسا مع المظاهرات الصاخبة وتلتهب به المظاهرات حماسا، وفى ٤ مارس ١٩٤٦، يوم الإسكندرية العظيم، يكون أحد القادة البارزين.. ويتواصل فى النضال حتى إعلان الأحكام العرفية فى ١٥ مايو ١٩٤٨ ليكون من أوائل المعتقلين ويتنقل من معتقل لآخر إلى أن يفرج عنه ١٩٥٠ مع إلغاء الأحكام العرفية، وفى ١٩٥١ وإذ يلتهب الكفاح المسلح فى القناة يشكل مع رفاقه كتيبة للمقاومة المسلحة وتقدم الكتيبة أول شهيد يسارى فى معارك القنال الشهيد «عباس الأعصر»، وتحترق القاهرة فى ١٩٥٢ ومرة أخرى الأحكام العرفية، ومرة أخرى إلى المعتقل، ثم تأتى ثورة يوليو فيفرج عنه ليواصل ذات الطريق، ومع أول صدام مع ضباط يوليو، يعتقل أيضا، وهذه المرة إلى سجن روض الفرج، ويقول صابر فى حواره معى: «فى ذات ليلة وأنا فى المعتقل تأملت شريط حياتى وقلت ها أنا فى كل مرة يقبض علىّ كالفرخة، وقلت ثلاث مرات تكفى ولن يقبض علىّ أبدا بعد ذلك».

كان معه فى المعتقل عديد من الرفاق منهم حمدى عبدالجواد، ضياء الدين بدر، حليم طوسون وآخرون، تأمل شبابيك ومخارج السجن وجلس هو وحليم طوسون يخططان دون

أن يعلم أحد لعملية عرفت باسم «الهروب الكبير» ويمضى صابر قائلا: «العملية نظريا سهلة صفيحة منشار تقطع المسامير التى تثبت حديد الشباك، الحديد عبارة عن برواز ضخم لو نجحنا فى خلعه ثم ينام على سور السجن ثم نثبت فيه ملايات السراير ليهبط عليها الهاربون، وتبقى مشكلتان: كيف يتم تهريب صفيحة المنشار؟ والثانية كيف يتم استبعاد جندى الحراسة القابع فوق سور المعتقل والآخر القابع أسفل السور؟»، تكفل صابر بحل المشكلة الأولى فقد كان معتقلا معهم النبيل عباس حليم وكان النبيل قد حاول منذ أمد أن يصبح قائدا للعمال، ومن هذه الزاوية اصطاد العامل الماكر النبيل الساذج ورتب معه أن ندخل صفيحة المنشار داخل رغيف فينو طويل يأتى ضمن الطعام الفاخر الذى يحصل عليه النبيل يوميا، أما مشكلة الحارس على السور فقد حلها حليم بعد أن استخدم عشرات من البيض الفاسد برائحته الكريهة لإلقائها فى كل ليلة خارج السور بحيث لا يطيق الجندى أعلى السور البقاء فى مكانه، أما أسفل السور فقد كانت هناك لمبة تتدلى من الشباك لتضىء للجنود هذا الممر، واستحضر حليم لمبة كبيرة جدا وقوية جدا بحيث لا يمكن للجندى أن يرفع بصره إليها ومن ثم يمكن الهروب دون أن يرا'هم أحد، وتمت خطة الهروب الكبير سبعة من أهم الكوادر أفلتوا من المعتقل الناصرى وثار عبدالناصر وأمر بحملات قبض جديدة.

أما صابر زايد فقد صمم على شعاره «ثلاث مرات تكفى»، وخاض رحلة هروب أسطورية لمحترف ثورى يتولى مسئولية طباعة كل مطبوعات التنظيم، يهرب، يعمل ليكسب ما يكفيه هو وأسرته وما يكفى لصناعة آلات الطباعة التى علم نفسه كيف يصنعها بيديه وما يكفى لشراء الأوراق والأحبار وكل تكاليف الاتصال، فقط هم يرسلون له المطلوب طباعته وهو يعيده إليهم مطبوعا بكميات كافية، علم نفسه الكتابة على الآلة الكاتبة واخترع آلات رونيو مبسطة وشاركه فى ذلك المهندس سمير توفيق وكان مسئول الاتصال به.

ثم صنعا معا آلة طباعة، واشترى صابر الحروف وعلم نفسه كيف يصفها وكيف يصدر مطبوعات سرية غاية فى الأناقة، ست سنوات ونصف السنة من أبريل ١٩٥٣ إلى ديسمبر ١٩٥٩ قضاها صابر متنقلا هو وأسرته من قرية لقرية ومن مدينة لمدينة، فى سمنود فتح محل سمكرى بلدى وعاش هو وزوجته وأولاده يكسب ويصرف عليهم، وعلى ابنه الأكثر أهمية، وهو جهاز الطباعة، ثم انتقل لقرية أخرى وثالثة ليعمل نجارا، ثم إلى

الزقازيق ليستأجر منزلا من طابقين ولأن إخوته تجار ورق فى الإسكندرية فقد اتخذ مهنة تجارة الورق غطاء له، وكانت سيارة النقل تحضر محملة بكميات ورق كبيرة يتم تفريغها ليتم إعادة كثير منها فى ذات السيارة بعد احتجاز جزء للطباعة وجزء للبيع.

وتحمل السيارة المغادرة المطبوعات الحزبية. وأسأله: كم مرة انتقلت بأسرتك ومطبعتك؟ فسرح طويلا.. وقال: «كثير.. سمنود – ميت غمر – شبين الكوم – المحلة – السنبلاوين – طنطا – كفر الزيات – بنى سويف – الواسطى – أسيوط – الزقازيق، أنا أقرر وأنتقل وأتصل بالرفاق ولا أحد يعرف مكانى على الإطلاق، مرة واحدة استدعيت، كان العدوان الثلاثى يحتل بورسعيد والمطلوب مطبعة وكادر يعرف كيف يعمل عليها»، تسلل وطبع الانتصار، وعندما خرج العدوان ظهر الهاربون جميعا إلا هو، فهو لم يعد يثق فى هذا الحليف المتقلب، فمن بورسعيد المحررة تسلل بمطبعته إلى مكان جديد، وفى ١٩٥٩ يقبض عليه. جرحه وكبرياؤه يؤكدان فى كل لقاء «لست المسئول عن القبض على ولكن مسئول الاتصال أخطأ». وفى السجن تتفجر مواهب جديدة، من عيدان الكبريت يصنع تماثيل جميلة ومن لباب العيش يصنع قطع شطرنج ومنازل وعرائس غاية فى الرقة والجمال.

وعندما يتأسس التجمع يأتى صابر زايد محملا بأعباء أعوام الهروب والزمان والشيخوخة والأولاد الذين كبروا بلا أصدقاء ولمعارف ولا أقارب.. ويبقى معنا حتى يرحل.

سيد سليمان رفاعى

«ظللت طوال حياتى النضالية أحارب الانقسامية، لكن أخطاء رفاقى فى عام ١٩٥٣ وإلحاح رفاق آخرين أغوتنى بالانقسام وكان خطأ حياتى، إذ أحسست بعدها أننى انتهيت».
سيد سليمان رفاعى
(فى حوار معه قبل وفاته بعدة أسابيع)

وفى أول حواراتى معه (١٩٧٦/١/١٢)، ولم يكن مرض السرطان قد أتى ليفترسه كان يحكى قصة حياته بسلاسة ومرح: «أنا من أسرة فقيرة، بل شديدة الفقر، من قرية قرب بنها، أبى فلاح ابن فلاح لكن الأرض الشحيحة دفعته إلى وظيفة عسكرى بوليس، هو فلاح بعض الوقت وعسكرى طوال الوقت، كانت مهنة العسكرى هى مفتاح تصرفاتى وتصرفات أبى، فماذا يكون حلم العسكرى لابنه؟، أن يصبح ضابطا، لكن أحلام الفقراء نادرا ما تتحقق». ويمضى سيد سليمان: «عندما حصلت على الابتدائية كنت أهوى القراءة بصورة غريبة، طوال أيام الإجازة أقرأ فى روايات الجيب التى اشتهرت بين القراء فى ذلك الزمان، ولم أزل أذكر أعدادا منها ترجمت قصصا عالمية لدستويفسكى وتولستوى وغيرهما، كنا فى عام ١٩٣٧ والأب فى حيرة من أمره فالضابط يتخرج فى المدرسة الثانوية، وهى دراسة خمس سنوات وتحتاج لمصروفات كثيرة، ثم إن القبول بكلية البوليس يحتاج إلى واسطة، وزملاؤه قالوا له: كيف رفض أبناؤهم فى كلية البوليس لأن الأب عسكرى، فكيف يكون هناك ضابط أبوه عسكرى؟ طوى الأب حلمه فى قلبه وأرسل الابن إلى المنصورة ليدرس فى مدرسة الصنائع قسم ميكانيكا، لأن الدراسة فيها ثلاث سنوات، وبدأت حكاية سيد مع صديقه وبلدياته أنور، فأنور هذا، رغم صغر سنه، وكان يعمل فى مهنة خطيرة هى إصلاح السلاح غير المرخص، وكان يتعامل مع عصابة لصوص أشد غرابة، فهى تسرق الأغنياء فقط وتخصص نصيبا من حصيلة المسروقات للتوزيع على الفقراء، «قال لى

أنور إنهم شيوعيون، وكانت أول مرة أسمع فيها هذه الكلمة، لكن دهشتى تضاعفت عندما علمت أن أبى، وكان يعمل آنذاك فى السنبلاوين، حيث مقر هذه العصابة، كان يساعد هذه العصابة بتسريب معلومات لها عن تحركات واستعدادات قوة البوليس فى السنبلاوين ويبلغهم بأسماء المرشدين المخصصين للبحث عنهم والتجسس عليهم»، وفى مدرسة الصنايع تخرج سيد عام ١٩٤٠، وهنا وقع هو والأب فى أكبر خدعة حكومية تلقاها فى حياته، كانت هناك مدرسة اسمها ميكانيكا الطيران، وكانت تقبل الحاصلين على الابتدائية ليتخرجوا برتبة ميكانيكى طيران، وفى عام ١٩٤٠ أعلنت الحكومة أنها ستقبل دفعة من الحاصلين على دبلوم صنايع قسم ميكانيكا، وأنهم سوف يعينون بعد تخرجهم برتبة ضابط طيار، وتجدد الحلم من جديد وازدهرت آمال الأسرة جميعها فحلم أن يصبح ابنها ضابطا أصبح قريب المنال، أمسك العسكرى بيد ابنه مسرعا إلى القاهرة ليبدأ رحلة الحلم، ويمضى سيد رفاعى فى حواره معى: «كنت فى ذلك الحين بعيدا عن السياسة تماما، باستثناء هذا الحديث الغامض عن شيوعية يحققها اللصوص فى السنبلاوين، كنت معجبا بفاروق كملك شاب، وأحسست أن حلمى سيتحقق على يديه فأصبح ضابطا فى جيشه، وكانت دفعتنا فى المدرسة مكونة من ١٧٥ متطوعا، وخلال الدراسة أبلغنا أننا سنتخرج مبكرا فمدة الدراسة أصبحت سنتين فقط لأنه تقرر عدم تخريج ضباط فى هذه المدرسة وأننا سنكون مجرد ميكانيكيى طيران، وبدأنا فى عمليات احتجاج تلقائية على هذه الخديعة وتحول الاحتجاج إلى تمرد واعتصامات بالخيام، رفض للخروج إلى الطوابير، امتناع عن الطيران، وفى مواجهة ذلك كانت إدارة المدرسة تحاول أن تروضنا بقسوة شديدة، سجن وجلد وحرمان من الإجازات، لكن الغضب ظل مستمرا.. طلاب من زملائنا انتحروا احتجاجا، والميسورون منا امتنعوا عن الإجابة فى الامتحانات لكى يتم فصلهم، وفى عام ١٩٤٢ وبينما كنا على وشك التخرج سمعنا بالقبض على اثنين من زملائنا هما: حسن التلمسانى وحبيب سليم، بتهمة الشيوعية، وهكذا عرفت لأول مرة أن الشيوعية شىء آخر غير أن تسرق وتوزع الحصيلة على الفقراء، ثم كانت واقعة هرب الطيار سعودى إلى قوات المحور وحادثة محاولة هرب عزيز المصرى باشا فى ذات الاتجاه، وبدأت أجد نفسى مهتما بالسياسة وكانت حواراتنا فى الميس وفى المعسكر كلها حول المسائل السياسية، لكن غضبى كله حتى ذلك الحين كان منصبا على خديعة قادة الجيش لنا وعدم تخرجنا

كضباط، وعندما انتقل السرب الذى أعمل به برتبة جاويش إلى السويس بدأت فى إظهار تمردى وانضم إلى زميل اسمه حسن جوهر وبدأنا نتناقش معا فى سرية تامة عن كيفية الانتقام من قادة الجيش الذين خدعونا، واتفقنا على تشكيل تنظيم سرى يكون هدفه اغتيال كل قادة الجيش والطيران انتقاما منهم، وفيما نحن منهمكون فى تشكيل هذا التنظيم، نزلت إلى القاهرة فى إجازة، وكنت لم أزل أتصل بزملاء الدفعة محاولا أن أختار منهم الأكثر إحساسا بالظلم لأضمه إلى تنظيمى، وقابلت واحدا من زملاء الدفعة هو محمد عزب قابيل، وفيما بدأت أفاتحه فى الانضمام إلينا فى تنظيمنا فاتحنى هو فى الانضمام إليه، فالاغتيالات لن تجدى شيئا ولكن المهم هو أن نسعى إلى قلب نظام الحكم كله. ووافقت على الفور»، وبعد عدة أيام قاده محمد عزب قابيل إلى شارع الهرم حيث حضر اجتماعا فى أحد المنازل كان هناك حوالى ١٥ شخصا.. «وحضر الزعيم وهو أنور كامل، وبدأ هو فى حديث عن موضوعات معقدة، والآخرون يحاورونه بأسلوب أكثر تعقيدا، وباختصار لم أفهم شيئا، لكننا وفى ختام الجلسة وقفنا لننشد معا:

يا جموع الشعب هيا

حطمى كل القيود

وأشعلوا النار سويا

وابدأوا زحف الخلود

يا جنود الخير والحرية».

ويبتسم سيد رفاعى قائلا: «وكانت هذه هى الكلمات الوحيدة التى فهمتها. وبعد فترة اتصل بى محمد عزب قابيل لأحضر اجتماعا آخر، وعقد الاجتماع فى منزل زميلنا فى سلاح الطيران سيد حافظ، وحضر الزعيم أنور كامل يلقى محاضرة عن المادية الجدلية وحاولت جهدى أن أفهم حرفا واحدا حتى لا يتهمنى الجالسون بالجهل لكننى وبصراحة لم أفهم شيئا، وأصبت بإحباط شديد، لكن المهم فى الأمر هو أن الزعيم اختفى ولم تعد هناك اجتماعات وسألت عزب فقال إنه لا يعرف أين ذهب أنور كامل، وألمح إلى احتمال أن يكون قد خاف من مواصلة العمل السرى.. وطويت أحلامى، وبقيت فى السويس لأعاود التفكير أنا وحسن جوهر فى مشروعنا لاغتيال قادة الجيش والطيران»، لكن محمد عزب قابيل أتاه بعد فترة باقتراح آخر.

«تعلمت أن العمل الجماهيرى هو وحده الذى يستطيع أن يحول الغضب والاختلاف مع الرفاق إلى عمل إيجابى»

سيد سليمان رفاعى

(فى حوار معه)

.. «فى بداية ١٩٤٣ عاد محمد عزب قابيل للاتصال بى. وفتح معى نقاشا صويلا مؤكدا أن العدو ليس هذا القائد العسكرى أو ذاك، والظلم ليس هذا القرار أو ذاك، وإن مشكلتنا فى أننا لم نصبح ضباطا طيارين هى جزء من مشكلة أكبر. مشكلة الظلم الاجتماعى ككل. وفى حى السيدة زينب قادنى محمد عزب إلى الفجر الحقيقى. كان المسئول الجديد متواضعا وليس زعيما. وكلامه مفهوم وقادر على أن يتسلل إلى قلبك وعقلك معا. وعرفت فيما بعد أن اسمه موسى الكاظم. وبعد عدة جلسات تثقيفية أمسك هو بالخيط الصحيح وطلب أن نشكل خلايا حزبية فى سلاح الطيران، ونشطنا نشاطا محموما. وخلال عام واحد أصبح عددنا ٨٠ عضوا منظمين فى خلايا فى كل الأسراب وكل الورش وامتد نشاطنا إلى العاملين المدنيين فى السلاح ثم إلى الأسلحة الأخرى فكانت لنا خلايا فى الكتاب العسكريين وإدارة التجنيد وإدارة الأسلحة الصغيرة وسلاح الإشارة وسلاح الصيانة وموسيقات الجيش».. وهكذا، وفى عام واحد أصبح سيد سليمان رفاعى (الرفيق بدر) زعيما حقيقياً.

وهكذا تأهل ليحضر مدرسة الكادر الأولى فى منظمة الحركة المصرية للتحرر الوطنى (ح.م) الطلاب كثيرون منهم: إبراهيم العطار (طيار) سيد حافظ وسيد رفاعى (من ميكانيكيى الطيران) مختار العطار (رسام تشكيلى) كمال شعبان (مهندس معمارى) عبده دهب (نوبى) الشيخ عبد الرحمن الثقفى (أزهرى) وآخرون. أما المدرسون فهم: زكى هاشم (وكيل نيابة) أحمد دمرداش تونى (رئيس اللجنة الأوليمبية فيما بعد) أحمد نصر (مدرس لغة فرنسية فى كلية البوليس) تحسين المصرى وهنرى كورييل.

وبعدها مباشرة أصبح الرفيق بدر عضوا فى اللجنة المركزية ويخوض هو ورفاقه فى سلاح الطيران معارك أسطورية وإضرابات واعتصامات انتهت باعتقال القيادات البارزة فى السجن الحربى ثم فى قاعدة عسكرية فى سيوة وأخيرا قررت قيادة الجيش التخلص

من كثيرين منهم بالفصل من الخدمة العسكرية ويكون بدر وفؤاد حبشى (فاروق) ويوسف مصطفى (صدقى) من بين المفصولين.. ومن الجيش إلى الاحتراف الحزبى ذهب الثلاثة ليصبحوا جميعا عبر فترات متفاوتة أعضاء فى القيادة.

ومن سيوة، وبعد قرار الفصل يرحل إلى معتقل هايكستب، فقد أصبح مدنياً ويبقى حتى عام ١٩٥٠ ليفرج عنه ليجد «حدتو» مفككة. مزقها الانقساميون وأمعنوا فى التشهير بها وبقادتها. ومزقتها ضربات بوليسية شديدة القسوة. وما إن يخرج المعتقلون حتى يتم ترحيل هنرى كورييل إلى الخارج بحجة أنه ليس مصريا وينتخب الرفيق بدر سكرتيرا عاما لـ«حدتو».. وفى حوار آخر يتحدث الرفيق بدر: «كانت المسئولية صعبة جدا، وكان علينا أن نعيد بناء حدتو، وطبعا لم نكن نبدأ من فراغ، كان هناك كثيرون متناثرون، لكن عدد الكادر كان محدوداً، وأود أن أؤكد أن هؤلاء الانقساميين والبرجوازيين الصغار الذين ملأوا الساحة ضجيجا بجمل ثورية رنانة وتحدثوا عن ضرورة أن تكون العضوية ١٠٠٪ عمال وألصقوا تهمة البوليسية بكل من عداهم، كل هؤلاء وغيرهم هربوا من ساحة المعركة. وكانت مهمتنا هى إعادة الثقة إلى الكادر. والعمل الجماهيرى وحده هو الكفيل بذلك فأصدرنا مجلة البشير وأسسنا حركة السلام، وأصدرنا مجلة الكاتب ودفعنا كل الأعضاء إلى الشارع ليجمعوا توقيعات على نداء استكهولم للسلام ومنع استخدام الأسلحة النووية. وفى عدة أشهر وجدت فروع حركة السلام فى مدن عديدة وجمعنا حوالى ٥٠٠٠٠ توقيع وعادت الكوادر المخلصة لتلتف حولنا واتسع التنظيم بصورة مذهلة وتوسع نشاطنا فى الحركة النقابية وكنا على وشك عقد المؤتمر العمالى الأول لتأسيس اتحاد عام للعمال وعلى وشك عقد مؤتمر شعوب الشرق الأوسط وشاركنا بكتيبة من الأعضاء فى الكفاح المسلح فى قناة السويس، ودعونا إلى تأسيس الجبهة الوطنية الديمقراطية التى عقدت مؤتمرا جماهيريا واسعا فى ميدان الأوبرا وأصبحت حدتو ملء السمع والبصر». ثم كان حريق القاهرة وبعده ثورة يوليو. وأسأله: كيف قابلت عبدالناصر وما انطباعك عنه؟: «كان ذلك فى عام ١٩٥١ حيث أبلغنى خالد محيى الدين بأن مسئول تنظيم الضباط الأحرار – وكان لنا فى هذا التنظيم عديد من الضباط أعضاء فى حدتو – يريد أن يقابلنى، وتم اللقاء بحضور خالد. وكان عبدالناصر يتفحصنى بإمعان ويفتح للحوار مجالات عديدة وكأنه كان يختبر مدى معرفتى بالأوضاع السياسية والاقتصادية، بل تطرق إلى الحديث فى الفلسفة».

وباختصار كان الحوار عميقا وممتعا ولم أتمالك نفسى وسألته: هل عرفت كيف علق

عبدالناصر على المقابلة، فأجاب: لا. وحكيت له ما رواه لى الأستاذ خالد محيى الدين، فعبدالناصر خرج منبهراً من المقابلة، وفيما هما يغادران مكان اللقاء سأله عبدالناصر: بيشتغل إيه الأستاذ بدر؟ وطلب منه خالد أن يخمن، فقال عبدالناصر «أستاذ جامعة» وهز خالد رأسه نفياً، قاضى؟ وطبعا لا.. وأخيرا قال خالد: ميكانيكى طيران. وانتفض عبدالناصر «إنت ازاى تقبل على نفسك أن يبقى رئيسك ميكانيكى؟!»، وظل فى كل حوار خلافى فى مجلس قيادة الثورة يذكر الأعضاء بأن خالد رئيسه ميكانيكى.

المهم مضى «بدر» ليصبح هو أيضا ملء السمع والبصر، وفى ٢٣ يوليو أتى عبدالناصر حاكما. وعندما شن بوليس عبدالناصر حملة على كوادر «حدتو». رغم تأييدهم لحركة الجيش ومشاركتهم فيها مشاركة فاعلة، وركز بالذات على مجموعة الجهاز الفنى التى كانت تطبع للضباط الأحرار منشوراتهم (ملكون ملكونيان - يحيى المازنى - كمال الشلودى - جمعة حسن جمعة) ثم جاء إعدام خميس والبقرى، اندفع الرفيق بدر إلى طلب المواجهة الحاسمة مع هذا الانقلاب العسكرى. الجميع وافقوا لكنهم اختلفوا حول مدى المواجهة، البعض يريد أن يبقى على شعرة معاوية، وبدر ومسلم (سيد خليل ترك) ومعهما مسئول رابطة الطلبة الشيوعيين الرفيق على (فتح الله ناجح أرمانيوس) وعشرات من الأعضاء صمموا على رفع شعار إسقاط النظام العسكرى. وعندما أعلنت هيئة التحرير اقترح الرفيق خليل مسئول الدعاية فى السكرتارية المركزية (كمال عبدالحليم) الانضمام إليها لتحويلها إلى جبهة. ورفض بدر ورفاقه وتمادى الخلاف وانقسم السكرتير العام فى نادرة لم تحدث. وأسس تنظيما صغيرا أسماه «حدتو - التيار الثورى» لكن عبدالناصر لم ينس هذا الميكانيكى الذى حرض الجميع ضده وقبض عليه ليحكم عليه بالسجن خمس سنوات أشغال شاقة.

ويبقى الرفيق بدر حزينا ما تبقى له من أيام، متألما ليس من السرطان الذى كان يفتك به وإنما لأنه جرى استدراجه إلى الانقسام.

وعندما يتأسس التجمع كان يزورنا ربما ليطمئن على سير الأمور فى قلعة اليسار وقبل أن يرحل بأسبوعين استدعانى ليكمل حواراتى معه. أكملها ثم رحل.

د. حمزة البسيونى

«فى الزنزانة حكيت لزميلى د. يوسف إدريس بعضا من ذكرياتى وعندما أفرج عنه كتب روايته "قصة حب" حول ما حكيته له وتحولت إلى فيلم "لا وقت للحب" وأصر يوسف إدريس على أن يكون اسم بطل الفيلم "حمزة "رغم معارضة بطل الفيلم رشدى أباظة والمخرج صلاح أبو سيف».

د. حمزة البسيونى

فى القاهرة كان يوم ٢١ فبراير ١٩٤٦ يوما مجيدا، إذ خرجت الألوف تحت قيادة اللجنة الوطنية للطلبة والعمال لتهتف ضد الاحتلال، وفى الإسكندرية كان يوم ٤ مارس ١٩٤٦ مثيلا ليوم القاهرة، وكان رفاق «حدتو» هم قادة هذا اليوم.. ويحكى أحدهم، د. حمزة البسيونى، حكايتهم فى هذا اليوم وحكايته فى خضم هذا النضال.

* * *

أعتقد أننى محظوظ لأننى أتيحت لى فرصة النضال فى صفوف اليسار ومنذ بدايات حياتى فى قريتنا كانت المنصورة الأكثر قربا، وكثيرا ما ركبت ما كنا نسميه «قطر الدلتا» لأتوجه إلى المنصورة التى كانت منارة ثقافية ونضالية وكان طلبتها يلتهبون حماسا ووطنية. وفى الإسكندرية كنت ألتهب حماسا، مثلى مثل كل طلاب كلية الطب الذين برز منهم ومن كلية أخرى هى كلية العلوم قادة يساريون لعبوا دورا بارزا وسط الحركة الطلابية الثورية وفى صفوف النضال الحزبى. وعن بعض ما كان منذ عام ١٩٤٦ الذى أعتبره الميلاد الثورى لى، ولهذا الجيل من طلاب وعمال الإسكندرية، وسوف أحاول الاختصار الشديد والبعد عن التفاصيل وسأكتفى بعناوين فقط.

* ٤ مارس ١٩٤٦ وأربعة مترليوزات موجهة إلينا.. كنا قد اقتحمنا الكشك الأسمنتى للبوليس الحربى البريطانى فى محطة الرمل بالإسكندرية ونحن لا نعلم أن به أحدا، وتمكن

أربعة جنود بريطانيين من حصد ما تمكنوا منه من الذين دخلوا إلى الكشك، ونجوت بمعجزة، فقد وجهوا المترليوزات إلى الجماهير فى محطة الرمل وحصدت المئات من القتلى والجرحى وأصرت الجماهير وأحرقت الكشك وخرج الأربعة وقتلت الجماهير اثنين منهم.

* كان ذلك تلبية لنداء اللجنة الوطنية للطلبة والعمال للتظاهر احتفالا بشهداء ٢١ فبراير الذين سقطوا شهداء فى ميدان الإسماعيلية (التحرير الآن).

* ٥ مارس فى طلبة طب الإسكندرية أقف خطيبا لأول مرة وأتحدث عن المتظاهرين العزل من السلاح الذين قتلوا اثنين من الجنود البريطانيين، فما بالك لو كانت هذه الجماهير مسلحة؟ وصغت فى بساطة شعار «النضال المسلح ضد الاستعمار» وتم اختيارى مع زميل آخر لمقابلة مدير الجامعة.

وكانت البداية

* اختطفتنى الحركة المصرية للتحرر الوطنى التى كونت مع ايسكرا الحركة الديمقراطية للتحرير الوطنى (حدتو).

* بقرار حزبى توجهنا ٣ طلبة: سعد فريد من كلية العلوم - ومجدى حبيب من كلية الحقوق - وأنا، إلى شركة الغزل الأهلية وقت دخول وخروج الوردية الصباحية وقدنا مظاهرة ضد الاستعمار وزعنا فيها منشورات تقول: «لن يسمح الطلبة والعمال للحكومة النقراشية الخائنة بأن تبيع مصر فى صورة معاهدة جديدة».

* قبض على ثلاثتنا وحكم على سعد فريد بالسجن ٦ شهور.

* مظاهرات احتجاج فى الجامعة تهتف «الشعب يريد سعد فريد»، وتم إلقاء القبض على وتقديمى للمحاكمة وحكم بـ ٦ شهور مع إيقاف التنفيذ.

* تم استئناف الحكم فى قضية شركة الغزل وحكم بالبراءة لسعد فريد.

* إضراب البوليس ومظاهرات تأييد للضباط والكونستبلات المضربين مصحوبة بهتافات.

* قمنا بتنظيم حملة لمكافحة الكوليرا، لجان لتنظيم التطعيم وتقديم مساعدات للنظافة.

* حرب فلسطين وفتح معتقلات ١٩٤٨ وكان معى فى معتقل أبى قير الزميل شحاتة عبدالحليم.

* المظاهرات ضد الملك والاستعمار.

* حصار كلية العلوم ومقتل أحد ضباط البوليس.

* إغلاق الجامعة وفصل عدد كبير من الطلبة.

* كنت ولطفى الصاوى من كلية الطب من بين المفصولين.

* بدأت الجامعة فى فتح أبوابها وبدأت بكليتى الطب والآداب.

* انتظمت كلية الآداب وأضربت كلية الطب وانضمت كلية الآداب للإضراب.

* تم إلغاء قرار الفصل وانتظمت الدراسة.

* ازدهرت حركة السلام بالإسكندرية وقد كنت مسئولا عنها وكان لنا مقر بشارع سعد زغلول.

* جمعنا توقيعات على نداء استكهولم ضد استخدام القنبلة الذرية.

* فى عيد الفطر قمنا بمظاهرة عجيبة، فقد التقينا مع العائلات فى حديقة النزهة وأحاطنا البوليس من المشاة والخيالة وسرنا معهم إلى قسم الحضرة ونحن نردد الهتافات بشعارات السلام فى وسط المئات من جماهير العيد فى حديقة النزهة، وأمام النيابة قمنا بإعطائها درسا عن حركة السلام وكانت اللجنة التحضيرية قد أذاعت بيانا، وكان سكرتيرها يوسف حلمى المحامى، وكامل البندارى باشا وحفنى محمود باشا من الموقعين على البيان، وقد أفرج عنا فى نفس اليوم.

* مظاهرات إلغاء معاهدة ١٩٣٦ ولافتات عديدة لحركة السلام.

* حريق القاهرة ومعتقلات يناير ١٩٥٢ كنا فى معتقل النزهة وقررنا التمرد واستولينا على المعتقل من الداخل وألقينا القبض على مأمور المعتقل وضابط البوليس السياسى سيد فهمى (الذى أصبح وزيرا للداخلية فيما بعد) وقد تم عزله بعد أحداث ١٧ و١٨ يناير وكان على رأس قوة التمرد الزميل شحاتة عبدالحليم.

* وبقوة بوليسية رهيبة تم نقل جميع المعتقلين إلى معتقل هايكستب ونقلت مع زميلى المرحوم سمير غبريال إلى سجن الأجانب لتأدية امتحاناتنا بكلية الطب.

* ثورة ٢٣ يوليو والإفراج عن جميع المعتقلين ما عدا ١٤ معتقلا كنت أنا واحداً منهم وتم ترحيلنا إلى معتقل الطور، وفى الطريق قابلت مجموعة من ضباط الجيش، فيما أتذكر كان فيهم ثروت عكاشة، وكانوا قد اعتقلوا مجموعات من الطلبة وأودعوهم فى معتقل عسكرى وأجريت مناقشة معهم قالوا فيها إن البوليس السياسى أخبرنا بأن القبض على

مجموعة معينة من الطلبة سيوقف المظاهرات. ورحلت إلى المعتقل العسكرى بدلا من معتقل الطور، وكان محمد نجيب يتحدث فى ذلك الوقت عن أبنائه الطلبة والذى يرعاهم فى المعتقل وأفرج عنا جميعا فى أوائل عام ١٩٥٣.

* تخرجت طبيبا فى دفعة يوليو ١٩٥٣ - اعتقلنا ١٩٥٤ فى معتقل أبو زعبل، نودى على اسمى واسم يوسف إدريس فى دفعة إفراج، ولكننا فوجئنا بترحيلنا معًا إلى سجن مصر، حلقت رؤوسنا ووضعنا فى عنبر من ٤ أدوار كله من الإخوان المسلمين أضربنا عن الطعام وألقى بنا فى زنازين التأديب حيث ضرب يوسف إدريس بعنف بعد أن قيدت قدماه فى الفلقة.

* وجدنا نفسينا معزولين تماما عن العالم وتم فك الإضراب ورجعنا إلى العنبر.

* تم الإفراج عن يوسف إدريس مع دفعة من الفنانين والأدباء منهم إبراهيم عبدالحليم وفتحى خليل وزهدى على أساس أنهم سيتوجهون إلى السودان للتفاهم مع الحزب الشيوعى السودانى، ولم يتم ذلك.

* كنت أحكى ليوسف إدريس بعضاً من ذكرياتى، وقد كتب بعد خروجه روايته «قصة حب» وكان بطلها يدعى حمزة وقد أخرجها المخرج صلاح أبو سيف فيلما بعنوان «لا وقت للحب» كان بطلاها فاتن حمامة ورشدى أباظة الذى رفض لفترة أن يكون اسم الفتى الأول «حمزة».

* * *

«وفى الواحات كان اللواء إسماعيل همت يقود حملة تعذيب وحشى لا مثيل لها، العصى والشوم تنهال على الجميع، انطلقت من بين صفوف العساكر وصرخت فى وجه اللواء المتعجرف مطالباً بإيقاف المجزرة، والغريب أنه خاف وأشار للجنود بالتوقف عن التعذيب، صرخت فى وجهه: أنا كطبيب أطالبك بإيقاف المجزرة.. وخاف».

حمزة البسيونى

وتمضى بى الأيام بعضها خارج السجن وأغلبها داخل الزنازين من سجن لسجن تنقلت وأمضيت أغلب هذه السنوات.. حتى كان عام ١٩٥٧.

* حيث كانت أول انتخابات لمجلس الأمة تجرى فى عهد الثورة، كنت أحد ٤ رفاق

خاضوا الانتخابات ورفعوا رايات حمراء على الدقهلية وكانوا جميعاً مكتسحين فى دوائرهم، وصدر قرار بحرمان من سبق اعتقالهم من الترشيح، وكان قد قيد فى قريتى «نوسا الغيط» من السيدات أكثر مما قيد فى مدينة الإسكندرية بأكملها.

* رجعت إلى الإسكندرية حيث تجرى انتخابات دائرة الرمل وكان مرشحاً بها محمد كامل البندارى باشا الذى لقب بـ«الباشا الأحمر»، وكانت عيادتى بباكوس هى مركز قيادة المعركة.

* وصدر قرار بقفل بعض الدوائر على المعينين بالمجلس وكان من بينها دائرة الرمل.

* ٥ سنوات فى معتقل الواحات.. إسماعيل همت قائد حملات التعذيب ومعه فرقته يجتاحون المعتقل.

* تحت ضربات العصى الغليظة يجرد المعتقلون من ملابسهم وتحلق رؤوسهم ثم وهم عراة وحفاة يساقون ويلبسون ملابس السجن البيضاء.

* انشغلت قليلا بعمل جبيرة للزميل فخرى لبيب على ذراعه المكسورة.

* وأفقت لأجد ضربات العصى الغليظة تنهال على الجميع حيث يساقون إلى عرض الصحراء بهدف تشغيلهم فى زراعتها.

* وحيداً توجهت إلى اللواء المتعجرف إسماعيل همت وهو منتصب القائمة يشرف على المأساة وقلت له بصوت عال جداً إن ما يحدث ليس استصلاحاً للأراضى ولكنه من أعمال السخرة البربرية، وقال: إن هذه طريقتى فى تنفيذ الأمور وأنا لما أدخل بيتى أولادى يقفون صفاً بجانب الحائط فلن أغير طريقتى. قلت وأنا كطبيب أدافع عن إنسانية الناس وأحميهم أطلب منك فوراً إيقاف هذه المجزرة الوحشية.

* والمثير للدهشة أنه تراجع وخاف، وبإشارة من يده تهدأ الأيدى والعصى وتجمع المعتقلون حوله، إسماعيل صبرى عبد الله ومحمد سيد أحمد ونبيل الهلالى وينتهى اليوم فى أمان . ثم نعمل بإرادتنا ونستصلح ونزرع ونأكل من ثمار زراعتنا. وكان هذا درساً لى وللجميع عندما تواجه الخصم بشجاعة سوف يخاف منك.

* ويحدث أنه ذات ليلة وفى منتصف الليل استدعيت أنا وصلاح حافظ إلى منزل مدير السجن فريد شنيشن، حيث كان يرقد طفلاه، ٤ سنوات و٧ سنوات، فى حالة خطيرة بعد أن بلعا أقراص الضغط التى كانت بحوزته، وأنقذنا الطفلين وتبدل الحال وتحول فريد شنيشن إلى إنسان يعرف كيف يمارس الإنسانية.

* تقدمت أنا والدكتور لطفى الصاوى بطلب للتطوع فى حرب الجزائر، وقد تمت جميع الإجراءات، وحدد لنا مكان لعيادة إسعاف طبية على الحدود ما بين الجزائر وتونس وفى آخر لحظة اعترضت المباحث العامة على سفرنا، ولم تمض أيام حتى علمنا أن الطائرات الفرنسية اجتاحت هذا الموقع وسوته بالأرض.

* فى كل هذا المشوار الطويل صادفت محاولات مباشرة للاعتداء علىّ.

* مدرج كلية الطب وأنا أتحدث فى خطبتى عن نضال الشعب الفيتنامى يخرج طالب بالكلية ذو لحية طويلة محاولاً طعنى بخنجر ويمسك مأمون البسيونى بيده وينغرس الخنجر فى البنش.

* فى عام ١٩٦٤ كانت هناك حركة فى نقابة أطباء الإسكندرية والنقابات العمالية من أجل تطبيق التأمين الصحى بالتعاون مع المحافظ حمدى عاشور، الذى كان لى والزميل شحاتة عبد الحليم معه علاقة سياسية خاصة، وبمشاركة د. مدحت القرشى و د. على عبد العال ود. سمير غبريال ود. فؤاد منير فى تقديم دراسة لتطبيق المشروع، وأصدرنا به كتيبا ولكنه صودر فى المطبعة وكون لنا المحافظ لجنة من قيادات وزارة الصحة لدراسة مشروعنا والاستفادة منه.

* وفى أكتوبر ١٩٦٤ صدر قانون التأمين الصحى على أن يبدأ التطبيق فى مدينة الإسكندرية. ثم كانت جمعية أطباء مصر بالإسكندرية التى حجمت دور الإخوان فى مجال الأطباء و نتزعت منهم نادى الأطباء الذى كان مركزاً لقيادة أعمالهم السياسية. وتضم فى قياداتها: د. حسن عبد الفتاح - د. محمد الحبشى - د. مأمون البسيونى - د. كميل صديق - د. عادل عيسى - د. عيسى جرجس - ونصدر مجلة «ابن سينا» وهى مدفعية ثقيلة فى معركة الأطباء.

* انتخبت رئيساً لجمعية الممارس العام ولم أزل رئيساً لها حتى الآن، ولم تزل هذه الجمعية تعمل فى تجميع الأطباء وتمارس دورها فى فضح ممارسات الإخوان وتقدم محاضرات علمية فى التأمين الصحى - ثم أسسنا «جماعة أطباء مصر» وأصبحت عضوا فى قيادتها، ويمضى حمزة البسيونى قائلاً: «هذا بعض مما قدمت. وقد اكتفيت ببعض من النضالات الجماهيرية لأنها الانعكاس الحقيقى للروح النضالية، أما النضالات الحزبية فهى كثيرة جداً. ولعل أهمها بالنسبة لى هو حضورى أول اجتماع تأسيسى لحزب التجمع فى الإسكندرية، ومنذ اليوم الأول فى حزب التجمع وحتى اليوم الأخير فى حياتى سأبقى مخلصاً لوطنى وشعبى وحزبى».

شكراً د. حمزة.

محمد حمدينو

فى بداية خمسينيات القرن الماضى وتحديداً بين عامى ١٩٥٣و ١٩٥٥ كانت مصر تعيش زمناً صعباً. وكانت المطاردات ضد الشيوعيين، خاصة أعضاء «حدتو» لا تتوقف. لكن الدقهلية كان لها وضع خاص ففيها تنظيم قوى ومنتشر. وفيها المستشار ناهيد أبو زهرة وكان رئيساً للنيابة العسكرية بالدقهلية وكان أيضاً عضواً فى «حدتو» وعبر رفيق آخر هو الدكتور محمود الخفيف وكان يمتلك صيدلية فى ذات مسكن أبو زهرة بشارع المدير بالمنصورة، كانت قوائم المطلوب القبض عليهم تتسرب إلى مسئولى «حدتو» فيهرب من يهرب وينظف منزله من الأوراق السرية من لا يستطيع الهروب.

* * *

ولأن القصص عديدة وجميلة فقد طلبت من الزميل محمد حمدينو أن يكتب واحدة منها، فكتب ما يلى

«فى أحد أيام يناير ١٩٥٤، وفى الرابعة ظهراً، رن جرس الهاتف فى مكتب إدارة الشئون القانونية لشركة السكك الحديدية الفرنساوية المملوكة للمليونير جوزيف كافورى، وكنت أعمل كموظف إدارى بالمكتب. وكان على التليفون الزميل شوقى عماشة وهو من أسرة ثرية من بين ممتلكاتها شادر للأخشاب فى شارع سيدى عبد القادر يشرف عليه هو شخصياً. وكان عضواً معنا فى لجنة قسم المنصورة لتنظيم حدتو. ودون مقدمات طلب أن أمر عليه الآن للأهمية. وخلال ربع ساعة كنت أمامه ووجدته، وعلى غير عادته، قلقاً ومتوتراً، وهو المشهور بالهدوء والرزانة، وبسرعة قال إننا سنواجه كارثة كبرى، حيث إن المباحث العامة تقدمت منذ وقت وجيز بمذكرة لرئيس النيابة العسكرية قالت فيها إن مصطفى البكرى العضو فى تنظيم حدتو (بالمناسبة كانْ مسئول الاتصال فى لجنة القسم) قد سافر إلى طنطا لإحضار كمية من المطبوعات الحزبية التى سيتم توزيعها على الخلايا فى مناطق الدقهلية ودمياط. وأضافت مذكرة المباحث أن أحد رجالهم يتابع مصطفى فى

سفره وعودته فى القطار الذى يصل إلى محطة المنصورة فى السابعة مساء، وطلبوا الإذن بضبطه فى كمين أعد له على محطة سكة حديد المنصورة - وبعد نقاش قصير اتفقنا أن أقوم أنا بمحاولة إنقاذ الوضع، واختمرت فى ذهنى خطة عمل وتتضمن مقابلة القطار فى منتصف المسافة بين طنطا والمنصورة وإنزال مصطفى من القطار بأى وسيلة قبل وصوله إلى الكمين وبعدها أتصرف فى المطبوعات الموجودة معه بإلقائها من نافذة العربة إلى الترعة المجاورة لشريط السكك الحديدية وبذلك يتم إفشال كمين المباحث العامة.

تركت شوقى عماشة، وبعد أن كان قلقاً على مصطفى أصبح الآن شديد القلق على أيضاً فالمهمة خطيرة ونجاحها بالغ الصعوبة. وتوجهت بسرعة لموقف السيارات واستأجرت سيارة أجرة طلبت من قائدها توصيلى بسرعة لمدينة سمنود وهى فى منتصف المسافة بين طنطا والمنصورة وأوصلنى السائق لمحطة السكة الحديد وانتظرت بعض الوقت على الرصيف فى انتظار القطار، وما إن وصل حتى صعدت للقطار وبدأت البحث من العربة الأولى حتى وصلت للعربة السابعة وفيها وجدت مصطفى جالساً وفوقه على الرف ثلاث كرتونات من الحجم المتوسط ويجلس أمامه مرشد المباحث، وللأسف كان طالباً فى مدرسة الصنائع التى كان مصطفى ملتحقاً بها.

فوجئ مصطفى بى لكننى ومن خلف ظهر المرشد أشرت إليه بيدى وفهم الإشارة. وكان لا بد من اختراع قصة لتغطية الموقف وبصوت عال قلت له إن "خالتك ومعاها أولادها موجودة فى العربة الأولى روح ساعدها لأن معها شنط كثيرة"، وبالفعل قاد مصطفى متوجهاً للعربة الأولى وأخبرته بما يحدث وهو يمر بجوارى وطلبت منه النزول من القطار فى المحطة التالية والعودة إلى المنصورة بمواصلة أخرى وبعيداً عن محطة المنصورة.

وعندما ابتعد مصطفى قليلاً تبعه المرشد عن بعد، وهنا كانت فرصتى حيث قمت وبسرعة بحمل الكراتين واحدة بعد أخرى وتوجهت بها لدورة المياه ولحسن الحظ كانت قريبة من مقعد مصطفى وألقيت بها من الشباك وتمزقت الكراتين وتناثر ما بها. وظللت فى القطار حتى وصل لمحطة المنصورة وبمجرد وقوفه شاهدت مجموعة كبيرة من رجال المباحث وقد أحاطت القطار. لكنهم لم يجدوا مصطفى ولا ما كان معه. وقد أحدثت هذه الواقعة صدمة شديدة لدى المباحث وظلوا لفترة فى حيرة وبحث وتحقيقات عن كيفية هروب الصيد بعد أن كان فى أيديهم. ومن جانبنا قمنا باستغلال ما حدث ونشرنا شائعة

رددناها فى أماكن المرشدين فحواها أن المخبر مصطفى أبو شنب، وكان مشهوراً بشراسته، هو الذى أبلغنا عن الكمين مقابل مبلغ دفعناه له، وانطلت الشائعة على القيادات الأمنية وصدر قرار باستبعاده من العمل فى المباحث. لكن المباحث لم تسكت على الهزيمة، وبعد استجواب قاس للمرشد أدلى بأوصافى وما حدث بينى وبين مصطفى.

ونظراً لكثرة تحركاتى ومحدودية المدينة. فقد استطاعت المباحث الوصول إلى، وكان لا بد لهم من الانتقام منى. وكانت الفرصة المتاحة لهم فى الانتقام هى أثناء وجودى بمنزلى فى دكرنس خلال ليلة الجمعة التى كنت أقضيها هناك، وعن طريق ضابط المباحث الجنائية. اليوزباشى عبد المجيد العدوى رئيس مباحث دكرنس وكان يحمل حقداً شديداً لى بعد أن تلقى توبيخاً قاسياً من رؤسائه أكثر من مرة نتيجة قيامى وعدد من الزملاء بالكتابة على جدران المبانى فى دكرنس خصوصاً مبنى مركز البوليس بعبارات تندد بالحكم العسكرى والدكتاتورية العسكرية.

وتكرر ذلك عدة مرات. وبعد مضى أسبوعين على واقعة القطار فوجئت أثناء وجودى بمنزلى ليلة الجمعة بحملة ضخمة يقودها العدوى اقتحمت المنزل وعاثوا فيه فساداً لكنهم لم يعثروا على أى شىء ورغم ذلك أصر على القبض على، وكنوع من الانتقام منى منعنى من ارتداء ملابسى ووضع القيود فى يدى، وأخرجنى من المنزل حافى القدمين بالبيجاما لأخوض فى الأوحال لأنها كانت ليلة ممطرة بشدة. ولحظى السيئ كان الذى أصدر الأمر بالتفتيش وكيل النيابة العسكرية الثانى سليم عبد الله (إذ كان المرحوم ناهيد أبو زهرة فى إجازة لعدة أيام). وبعد نقلى لمبنى المباحث العامة فى المنصورة فوجئت بهم يعرضون أمامى كمية من المطبوعات الشيوعية إدعوا أنها كانت فى منزلى، وعندما اعترضت واتهمتهم بالتلفيق قال لى مفتش المباحث العامة (إنت عايز تبوظ شغلنا ونسيبك)، وكان هذا دليلاً على ارتباط ما يحدث بواقعة القطار، وتبين أن هذه المطبوعات من البقايا التى عثروا عليها بجوار شريط القطار فى واقعة مصطفى. وبعد ذلك صدر قرار النيابة بحبسى حبساً مطلقاً، وتوجهت بعدها لسجن المنصورة العمومى، وفى السجن كنت أعامل معاملة قاسية عقاباً على واقعة القطار، واعتدى على بالضرب عدة مرات وكسرت ذراعى وتقدمت بطلب للنيابة بإعادة معاينة منزلى.

وبالفعل قام وكيل النيابة بمعاينة سطح المنزل وأثبت أن المكان المدعى وجود المطبوعات

به لو كان الأمر صحيحاً لغرقت فى مياه الأمطار. وأكد ذلك تقرير من هيئة الأرصاد الجوية طلبته النيابة طبعا بإيعاز من الرفيق ناهيد رئيس النيابة العسكرية، وأكد التقرير أن يوم الضبط كان يوماً شديد المطر واستمرت الأمطار لعدة أيام، وهكذا ثبت للنيابة أن التهمة ملفقة، وخلال عشرة أيام صدر القرار بالإفراج عنى فوراً. وفى مبنى المباحث العامة كانت هناك حالة من الغضب للإفراج عنى. وهددنى المفتش بأن الأمر سيتكرر معى إذ لم أبتعد عن التنظيم الشيوعى. لكن ردى عليه كان بابتسامة أثارت استفزازه. وذهبت لمنزلى وعلمت بعدها أن قراراً صدر بفصلى من العمل وحرمانى من أى حقوق لى، فقد كان المسيو كفورى، صاحب الشركة، يقشعر بدنه عندما يسمع كلمة شيوعى فما بالك وهناك شيوعى يعمل فى مؤسسته فى إدارة مهمة من إداراتها.

كنت أعتقد أن القضية قد انتهت بعد الإفراج عنى، لكنها ظلت متداولة، وقدمت للمحاكمة أمام محكمة جنايات المنصورة عام ١٩٥٥ وكان محامى هو المرحوم أحمد مجاهد والذى فند وقائع القضية وكشف التلفيق مستعيناً بمعاينة النيابة وتقرير الأرصاد الجوية، وبعد المداولة قضت المحكمة ببراءتى من التهمة بعد أن ثبت تلفيق التهمة».

محمد شطا

«هربت من القرية إلى المحلة هربا من الفقر، وهربت من المحلة هربا من الاعتقال».
محمد شطا
(من حواره معى)

ولد فى عام ١٩١٨ فى قرية كفر قرشوم (محافظة المنوفية)، الأب هارب من السخرة فى قناة السويس، وعقاب الهارب من السخرة أن يضرب حتى الموت فى غالب الأحيان. وتظل حكاية هرب أبيه سرا يغلف حياة الفتى ويمنحه طاقة نضالية لا تنتهى. أبوه كان ضمن عمال السخرة الذين اختطفوا قسرا من قراهم ليحفروا قناة السويس. الضرب والتعذيب والتجويع كانت أبسط العقوبات، واحد من زملائه المقربين انزلقت رجله خلال الحفر وحاولوا أن يمدوا له يدا لإنقاذه. ولكن أن تمد يدا تعنى أن تترك الفأس لدقيقة، وذلك ممنوع، انهال كرباج الخولى، وأمرهم أن يستمروا فى الحفر، وانهال التراب على زميله ليموت رويدا رويدا أمام زملائه. ليلتها تجمع عدد منهم، وعلى رأسهم أبوه، قرأوا معا «الفاتحة» وأكلوا معا عيشا وملحا وتعاهدوا عهد الله أن يهربوا معا وألا يفشى أحدهم سر ترتيبات الهروب. ويهرب الأب إلى كفر قرشوم حيث لا أحد يعرفه. والمثير للدهشة أنه ظل يخفى سره حتى بعد أن أصبح لا مبرر لإخفائه. لكن محمد ظل يغلى من داخله بهذا السر حتى آخر أيام حياته. الأب امتد به العمر إلى ما بعد التسعين بكثير، وفى سن التسعين أو بعدها بقليل أنجب «محمد»، وفى أيام طفولته ذهب إلى الكتاب لكن العريف (زوج أخته) كان يقسو عليه كطلب الأب. فترك الكتاب والتحق بكتاب الشيخ قرموط فى تلا. لكن المشوار اليومى أفسد عليه مشروعه لحفظ القرآن وتجويده. وفى عام ١٩٢٧ (وهو فى التاسعة) افتتحت فى القرية مدرسة إلزامية. كان يحفظ عديدا من آيات القرآن ليتفوق بها على تلاميذ المدرسة، ويصبح الأول دائما. الأب يزهو به ويحلم بابنه موظفا، فكان

يشترى له من سوق تلا كتبا قديمة، أغلبها ممزق وبلا غلاف لكنه كان يقرأها بنهم. لكن أحوال الوالد تتدهور وهو ملزم أن يتعلم وأن يساعده فى الغيط. وذات يوم سمع المنادى ينادى: «اللى عايز ياكل عيش يروح المحلة الكبيرة». هناك الأجر قرش واحد فى اليوم والعمل ١٢ ساعة. والجدد لا يقبضون فى الأشهر الثلاثة الأولى. واحتمل الأولاد مثله، ينامون كل ٢٤ فى الغرفة. وإذا لم تكفهم الغرفة يتمددون أمامها فى الشارع. الجيران يغضبون من هذا القطيع من الغرباء الذين ملأوا الشوارع وأفسدوا هدوء المدينة. فشكل السكان فيما بينهم جماعات لضرب هؤلاء الغرباء وتطفيشهم من المحلة. والعمال شكلوا جماعات للدفاع عن أنفسهم وعن رزقهم. ففى المصنع يعملون فى الظل وليس تحت شمس الغيط، والأجر ثابت، صحيح قرش فى اليوم لكنه مضمون. وبعد فترة يمكنه أن يعود للقرية يوم الجمعة ليزهو بجلباب جديد و«تلفيعة».

وإدارة الشركة تخشى هى أيضا من هذا القطيع من العمال فوضعت خطة لإلهاء العمال عن أوضاعهم البائسة، وسعى عملاؤها إلى الوقيعة بين أبناء المديريات المختلفة خاصة أبناء الثلاث مديريات المجاورة للمحلة. المنوفية والغربية والدقهلية. وبعد فترة أصبح وبلا منازع فتوة أبناء المنوفية. وينغمس العمال فى خلافاتهم وفى صراعاتهم حول أبطال المواويل القديمة. أبو زيد الهلالى وعنتر بن شداد وغيرهما. ويظل حلم أن يصبح مثل عنتر بن شداد يراوده. وعندما يتزوج وينجب ولدا وجد لزاما عليه أن يسميه شطا على اسم والده لكنه ظل يناديه «عنتر» وأصبح يزهو وحتى نهاية العمر بلقب «أبو عنتر».

لكن الوعى العمالى ينبثق مجتمعيا من التجمع فى صالات المصنع ومن الظلم الذى يعم الجميع، ومن ظروف عمل أقل ما توصف به أنها بشعة. ومثل نبت تلقائى ينهض قائد عمالى اسمه محمد الكفورى يراقب العمال ليختار أكثرهم وعيا وأكثرهم شجاعة، وكانت عينه بالطبع على محمد شطا. وبدأوا معا فى تأسيس نقابة سرية. ليست نقابة بالضبط وإنما تجمع عمالى سرى قادر على تحريك مجموعات لا بأس بها من العمال فى مختلف الصالات، وهنا يستفيد المناضلون السريون من ترتيبات إدارة الشركة، فعمال كل مديرية لهم تجمعهم ويجلسون جميعا فى مقهى خاص بهم، بل كانت لهم علامات تميزهم فالجلابية الكستور المخططة تلزمها طاقية من ذات القماش. وتفنن الخياطون من أبناء كل مديرية فى تمييز الطواقى، حتى يتميز الرجال بها. فبعض الطواقى تكون خطوطها بالطول وأخرى

بالعرض، وثالثة لها تفصيلة متميزة. وبهذا كان من السهل تجميع الكثيرين من الموثوق بهم. وكأن إدارة المصنع كانت تعمل لصالحهم. وتحت قيادة محمد الكفورى، وهو قائد تلقائى، يتحول الفتوة المنوفى محمد شطا إلى مناضل عمالى ينسى دور الفتوة وينسى الصراع بين أبناء المديريات المختلفة، المناضل العمالى يخوض الآن وبشكل تلقائى وبدائى جدا صراعا طبقيا. وتحركت المياه الراكدة، فالقيادة السرية لها فى كل صالة مندوبون سريون وذوو نفوذ، وتبدأ تحركات تتمرد ضد ظلم «مشرف» ما، على صالة ما، وضد تشدده. وفى البداية كان الانتقام بدنيا. ففى المساء تتربص مجموعة ملثمة من العمال لتضرب هذا المشرف الظالم، أو تضرب عملاء الإدارة.

ورويدا رويدا يتحول هذا الانتقام غير الواعى إلى صدامات جماعية داخل المصنع وإلى إضرابات تصحبها هتافات ضد الظلم وضد المشرفين والمديرين، وتحاول إدارة الشركة عبثا أن تتعرف على الفاعلين. لكن تكرار العمل النضالى وبدائيته كشفت عديدا من الأسماء منهم محمد الكفورى ومحمد شطا. وفى هذه الأثناء قامت الحرب العالمية الثانية وأعلنت مع قيامها من الأحكام العرفية، وبدأت حملات اعتقال للعمال «المشاغبين». وذات مساء، وفيما يخطو محمد شطا نحو البيت الذى يسكن فيه، لمح من بعيد مخبرين يحاصرون البيت، وأيقن أنهم يريدون اعتقاله. فتسلل من المدينة ليركب أول قطار وكان متجها إلى كفر الدوار وهناك ووسط عمال النسيج، وجد أن البعض يسمعون باسمه وبأنه فتوة عمال المنوفية، وبأنه يدافع عن العمال، وتكاثرت الثرثرة البدائية المغلفة بمبالغات كبيرة، وأحس بأن أعين الأمن تتابعه، فهرب مرة أخرى.

وفى شبرا الخيمة يجد لنفسه مستقراً، واستطاع أن يتحصن بهؤلاء الذين سمعوا به وبما فعل فى المحلة. ولقنهم دروسا فى حماية المناضلين من الأمن. وهنا فى شبرا الخيمة ينهض قائد عمالى جديد متسلح بخبرة النضال العمالى فى المحلة وكفر الدوار ومتخلص من النزعات الإقليمية ومن تصرفات «الفتوة»، ويقول: «أدركت أن مهمتى أن أقود الجميع من العمال ضد الجميع من الرأسماليين، لكننى لم أكن قد سمعت كلمة طبقة ولا عرفت معنى ولا مغزى الصراع الطبقى».

وفى شبرا الخيمة تلقفته منظمة الحركة المصرية للتحرر الوطنى (ح.م). ليبدأ معها حياة جديدة ونضالا جديدا.

«فى صفوف (ح-م) تعلمت، والتزمت بالقضية، وعشت من أجلها، وبها، ولم أتصور حياتى بدون النضال الثورى من أجل الطبقة العاملة».

محمد شطا

(من مذكرات خطية أودعها لدى)

الفتوة أصبح قائدا عماليا شيوعيا. تعلم أسس النظرية وتعلم أسس العمل النقابى والعمل السرى. وبدأ نضالا واسعا فى مصانع شبرا الخيمة. ورويدا رويدا أتقن فن إقامة التنظيم العمالى غير المعلن فى المصانع. لجان فى كل صالة. اللجنة تختار لها مندوبا إلى قيادة اللجنة المصنعية ويكون لها حق سحب الثقة منه، ثم لجنة عامة لعمال شبرا الخيمة. وتحت قيادة هذه اللجنة التى كان محمد شطا شريكا فاعلا فيها، قام الإضراب الكبير فى شبرا الخيمة والذى استمر أربعة وعشرين يوماً. ويدرك محمد شطا أنهم بحاجة إلى دعم، فيسافر إلى المحلة ليجمع مئات من عمالها الذين يعرفونه جيدا ويعود بهم إلى شبرا الخيمة حيث أعربوا - وبحماس - عن تأييدهم. إنها تجليات المعرفة النظرية بالصراع الطبقى أو كما لخص هو الأمر فى مذكراته «طبقة ضد طبقة» ويتحول الإضراب إلى مادة للصحف، بعضها يؤيده (صحف اليسار وحزب الوفد) وبعضها يعارضه، وكان أكثر المخربين للإضراب هم عمال جماعة الإخوان، ونشرت جريدة الإخوان مقالات عديدة تعتبر أن الإضراب هو إضرار بأرزاق البلاد والعباد، وخروج على ولاة الأمور، وولاة الأمر هنا - هم أصحاب المصانع - «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم». ومقال آخر يقول: «إن المال مال الله وما أصحاب الأموال إلا مستخلفين فيها. وإن الله هو مقسم الأرزاق». وبرغم خيانة الإخوان وعنفوان حكومة الطاغية إسماعيل صدقى ينجح الإضراب بعد أن يتوج محمد شطا كواحد من أهم قادته.

وبرغم تعميم قرار فصله هو وقيادات عمالية أخرى على كل أصحاب المصانع فى شبرا الخيمة ليمنع الجميع من قبوله فى أى مصنع، ظل يحتفظ برابطة قوية مع اللجان المصنعية فى كثير من مصانع شبرا الخيمة.

ومما هو طبقى يتلقن ما هو وطنى، ففى ١٩٤٦ كانت مصر كلها تغلى، والمظاهرات تهتف «عاش الطلبة مع العمال»، وسمع أن تلميذات مدرسة بولاق مضربات وأن البوليس

يحاصر المدرسة، فجمع عديدا من العمال لينقذوا الطالبات.

وفيما كانت «اللجنة الوطنية للطلبة والعمال» تتشكل كتنظيم لجبهة وطنية تلقى من القيادة تعليمات بسرعة تشكيل لجان عمالية لتنضم إلى هذه اللجنة. اللجان جاهزة وهو جاهز، وأصبح واحدا من قادة اللجنة الوطنية للطلبة والعمال التى قادت إضرابات صاخبة استمرت طويلا فى كل مكان من مصر، وتجلت بطولة منظميها يومى ٢١ فبراير (بالقاهرة) و٤ مارس (بالإسكندرية). ويوجه الطاغية صدقى ضربته ويقبض عليه ضمن كثيرين من قادة اليسار والعمل الوطنى فيما سمى «قضية الشيوعية الكبرى». وعندما بدأت موجة الانقسامات فى منظمة «حدتو» هو كان عضوا فى اللجنة المركزية، لكنه سئم من ثرثرات البرجوازيين الصغار الذين يمتلكون القدرة على الثرثرة لساعات وأيام لكنهم يفتقرون إلى القدرة على أى عمل جماهيرى ولو لدقيقة واحدة. ويقول فى حواره معى: «قلت لنفسى أريد تنظيما عماليا حقا، يمثل الطبقة العاملة حقا، وفيما كان المثقفون الثرثارون أبناء الذوات والأجانب يتحدثون عن ضرورة إقامة تنظيم يضم ١٠٠٪ عمال فى منظمة (م.ش.م) (المنظمة الشيوعية المصرية) تطلعت إليهم ولم يعجبونى لا شكلا ولا موضوعا، وشاركت فى تأسيس تنظيم يقول: ٧٥٪ عمال (العمالية الثورية) ولم أجد حتى الآن تفسيرا لذلك، وفى المعتقل عانيت أكثر من ثرثرات المثقفين والبرجوازيين الصغار، كانوا يملأون حناجرهم بأكثر الشعارات ثورية لكنهم لا يعرفون مطلقا كيف يعيش الناس ولا ما هى همومهم، المهم صبرت عليهم وصبروا هم على حتى انتهى المعتقل وذهبت إلى كفر قرشوم لأطمئن على عائلتى وأرتب لها بعض أمورها، عدت بعد عدة أيام لأكتشف أن أغلب هؤلاء الثرثارين قد هجروا العمل الثورى. فكثيرون من قادة (ع.ث) (العمالية الثورية) حصلوا بترتيب من وزير الداخلية آنذاك، فؤاد سراج الدين، على منح للحصول على الدكتوراه من باريس ومن لندن فسافروا. وآخرون كانت فترة الاعتقال كافية لإسكاتهم. واكتشفت الخديعة التى وقعت فيها وعدت إلى بيتى القديم؛ حدتو. ويصبح «حميدو» (وهذا اسمه الحركى) مسئولا عن الإسكندرية وعضوا فى المكتب السياسى. وبعد حريق القاهرة (يناير ١٩٥٢) يعتقل فى معتقل النزهة ليقود إضرابا شهيرا قام فيه المعتقلون بالقبض على قائد المعتقل وكل من معه من الضباط وفرضوا سيطرتهم على المعتقل حتى حققوا كل مطالبهم. ثم كانت ثورة يوليو ويفرج عن جميع المعتقلين إلا أربعة عشر هو واحد منهم. ويقرر «حميدو» أن يوجه

لطمة لمن لا يريدون الإفراج عنه، ويهرب من المعتقل. الأمر الذى أثار غضب وزير الداخلية آنذاك (جمال عبد الناصر)، وفيما هو مختف وجه اللطمة الثانية، فيدبر ويخطط لتهريب عديد من معتقلى «حدتو» فى معتقل روض الفرج. ويتقرر إحالة أمر هذا الثعلب المشاغب إلى المخابرات التى أدركت أن اصطياد رجل كهذا يحتاج إلى لقمة كبيرة، فسربوا إليه خبرا عن صفقة للحصول على منطاد كبير يسرق من الأرصاد الجوية، ويمكنه أن يلقى من الجو حمولة بها عشرات الآلاف من المنشورات. الأمر يستحق وما إن أطل برأسه حتى قبضوا عليه وإلى مكان لا هروب منه «السجن الحربى»، وقدم للمحاكمة فى قضية «الجبهة الوطنية الديمقراطية» وحكم عليه الفريق الدجوى بالأشغال الشاقة ثمانى سنوات. ومن سجن طرة إلى الواحات، لكن ثمانى سنوات لا تكفى بالنسبة لسجانيه فإذ تنتهى يبقى فى ذات السجن معتقلا فقط يتغير لون بدلة السجن من الأزرق إلى الأبيض. وعندما تصفى المعتقلات يكون هو فى آخر دفعة.

وفيما كنت أجرى حوارى معه اختتم الحوار بالحديث عن قرار حل الحزب.. وقال: «لقد خدعنا الحكام بوعود كاذبة»، ثم صمت وقال: «هل رأيت سمكا يخرج من الماء»؟. أنا هكذا».

ريمون أجيون

«أنا أرستقراطى، ابن ارستقراطى، وكتعبير عن ضمير غاب عن طبقة بأكملها تمردت وأصبحت يساريا»
ريمون أجيون

كان بالنسبة لى شيئا يشبه الشبح. تسمع عنه، تتردد حوله حكايات غير مكتملة. يهمسون أنه المؤسس الحقيقى لمنظمة الحزب الشيوعى المصرى (الراية)، وأنه الأب الروحى لقادته د. فؤاد مرسى ود. إسماعيل صبرى عبد الله، وأنه.. وأنه.. ولكن أين هو؟ وكيف؟ وأخيرا التقيته. كانت السيارة الفارهة لرجل أعمال من أصل مصرى تمضى مسرعة إلى باريس أخرى غير تلك التى نسمع عنها أو نراها ونحن زائرون، إنه حى شديد الأرستقراطية ومبنى هو الأكثر أرستقراطية فى هذا الحى. ومدخل يخيفك من فرط فخامته، أما الشقة فهى أكثر فخامة من الاثنين، هى بالدقة ليست شقة لكنها متحف لمئات اللوحات من الفن التشكيلى كل منها يوحى لك أنه شىء ثمين جداً، وكانت كذلك، فريمون أجيون هو واحد من أشهر وأغنى تجار اللوحات التشكيلية، وهذا بيته وكنزه ومتحفه.. ومعرضه.

تأملنى طويلا قبل أن يفسح الباب كى أدخل، وقال وهو يقودنى إلى الصالون: أنت إذن من يفتش عنى وعن تاريخى؟ قلت : لست وحدك. فأجاب: أعرف. وأنا معجب بنشاطك فى كتابة تاريخ حركتنا. هزتنى كلمة «حركتنا». وتشجعت، وبدأ الحوار مباشرة، وكنا فى أبريل ١٩٧٣. لكن الكلمات تخرج منه حذرة. فضحكت. قال: لماذا تضحك. قلت: حاولت أن أفتح الحنفية لكن الماء ينزل نقطة نقطة. فغير مجرى الحديث وبدأ هو فى السؤال عن مصر وهل ننوى أن نحارب؟ ومتى نستعيد سيناء؟.. قاطعته: لقد وعدتنى بساعة أريدها كاملة فإذا أردت أن تسأل عن مصر فخذ منى وعداً بيوم كامل. وأخيرا فتح ريمون أجيون صفحة كتابه من أسطرها الأولى.

«كنت شابا من أسرة يهودية أجنبية أرستقراطية جدا، ولدت عام ١٩٢١، وكنت أتردد كثيرا جدا على أوروبا وخاصة باريس، وقرأت كثيرا، فلم يكن مطلوبا منى أن أعمل، قرأت لجان جاك روسو وفيكتور هوجو (ووجدت أن بؤساء مصر مثل بؤسائه) ولعشرات غيرهما. وفى عام ١٩٣٦ وخلال زيارة باريسية بدأت علاقات خفيفة مع اليسار الفرنسى كانوا مرعوبين من هتلر، وخاصة اليهود منهم، وأنا يهودى. وأصبحت شبه يسارى. فى ذلك الحين كنت طالبا فى المدرسة اليهودية بالإسكندرية وكان مديرها اشتراكى النزعة، ومدرسة التاريخ آنا طوبى وكانت ماركسية وتدرس لنا التاريخ عبر المادية التاريخية. المناخ العام فى المدرسة اشتراكى ومعاد للفاشية لكنها كانت مدرسة لكل اليهود.. طلاب فقراء وآخرون أغنياء جدا، وباختصار أصبحت ماركسيا. ضمتنى مدام طوبى إلى اتحاد أنصار السلام (فرع الإسكندرية)، كنت متحمسا وصغيرا لكننى وجدت أننا أجانب نخاطب أجانب بلغة أجنبية وعبر قراءة كتب أجنبية. وفى السابعة عشرة حصلت على البكالوريا وسافرت إلى باريس لأدرس الطب، حلم خيالى داعبنى قرأته فى إحدى الروايات، طبيب غنى يعيش وسط الفقراء ليعالجهم مجانا، وأصبحت هناك عضوا فى الحزب الشيوعى الفرنسى. لكن نذر الحرب العالمية تصاعدت فعدت إلى مصر. وعدت إلى اتحاد أنصار السلام وأشهرت التمرد على أجنبية العمل وكنا أربعة متمردين أنا وفتاة يونانية لا أذكر اسمها وراؤول كورييل شقيق هنرى كورييل ومارسيل إسرائيل (سمى نفسه لاحقا تشيريزى بدلا من إسرائيل) اجتمعنا ومن فرط سذاجتنا قررنا أننا نحن الأربعة الحزب الشيوعى المصرى. وتأسس النادى الديمقراطى (هنرى كورييل) وانضممنا إليه، كذلك انضممنا إلى جماعة الفن والحرية. وأصدرنا مجلة «دون كيشوت» وكتبت أنا وراؤول افتتاحية العدد الأول، وكانت الصورة معقدة، ستالين عقد هدنة مع هتلر وجميع اليهود غاضبون ومرعوبون، حاولنا الدفاع عن ستالين فلم نستطع، وجاءت الكلمات مترددة وتوحى بالنقد، فاتهمنا الناس أننا تروتسكيون، وغضب مارسيل وتركنا وتوقفت المجلة. وانضممت أنا ورمسيس يونان إلى مجموعة «المجلة الجديدة» (سلامة موسى) وبدأت فى تمويل المجلة بسخاء، ثم اشتريتها. وكان رمسيس يونان تروتسكيا وكان يتلاعب بى، فهو يعرف أننى مع الاتحاد السوفيتى وعندما أسفر عن وجهه التروتسكى تركتهم. كانت المجلة باسمه رغم أننى دفعت كامل الثمن، لكننى توقفت عن التمويل فتوقفت المجلة، وتعرفت إلى شاب متحمس هو أسعد

حليم وأسست له دار نشر هى دار الفجر وكان شابا وديعا ومناضلا حقا.

وفى ذلك الحين وفد إلى مصر آلاف المهاجرين اليوغسلاف (٢٨,٠٠٠) وكانوا مكدسين فى بؤس شديد فى معسكرات تابعة للصليب الأحمر، وكان كثيرون منهم يساريين فاشتركت أنا وزوجتى وعدد من السيدات الإنجليزيات فى جمع تبرعات لهم ومساعدتهم، وكانت هناك أيضا كتيبة من الشيوعيين اليونانيين الذين حاربوا مع جيوش الحلفاء ضد النازى، وكانت القيادة البريطانية تحاول التخلص منهم فتدفع بهم دون احتراز إلى خطوط النار الأكثر خطورة بهدف إبادتهم، وتمرد اليونانيون عدة مرات، وكنا نساعدهم أيضا، وفى عام ١٩٤٥ بدأت الحركة الشيوعية المصرية فى الانطلاق وبدأت جذورها تتعمق وأحسست أننى بوضعى الأجنبى وبثقافتى الأجنبية عاجز عن تقديم المزيد. فتركت مصر إلى فرنسا». وسكت. انتظرت فإذا به يرسل بصره إلى لوحاته واحدة بعد أخرى وكأنه يطلب منى أن أرحل. قلت غاضبا: ما لهذا أتيت. قال ماذا تريد؟ قلت: أعرف أنك كنت مسئولا عن مجموعة طلاب مصريين ملحقين بالحزب الشيوعى الفرنسى. قال: «كنت ألتقى بعض الطلاب المصريين منهم: فؤاد مرسى - إسماعيل صبرى - مصطفى صفوان، وكونت منهم مجموعة تابعة للحزب الشيوعى الفرنسى. وهذا كل شيء»، وصمت. وصممت فأضاف: «هذه المجموعة عملت معى حتى سافر أغلبها إلى مصر».

وألححت فقال: «وعندما عادوا إلى مصر أسسوا مجموعة أسميت الحزب الشيوعى المصرى»، قلت: ثم؟ قال بملل: كنت أرسل لهم رأيى، لكنه كان مجرد رأى فأنا لم أصدر أى توجيهات، قلت: وماذا عن نشرة «الشرق الأوسط»؟ فقال: أنت تعرف الكثير. ومضى قائلا: «عندما أسس الطلاب العائدون الحزب الشيوعى المصرى وأصدروا عشرات البيانات والتقارير كانت ترسل لى وتترجم وتصدر بالفرنسية فى نشرة «الشرق الأوسط» فتصور البعض أننى مسئول فى الحزب المصرى ولم أكن كذلك. وقد صدرت هذه النشرة فى عام ١٩٤٩ واستمرت حتى ١٩٥١. كنت أمولها وأشرف على ترجمتها أنا ومجموعة من المصريين المقيمين فى فرنسا». ثم نظر فى ساعته وقال أمامك خمس دقائق. ودار الحوار بشكل خاطف.

قلت: بصراحة يقولون إنك كنت مسئول المجموعة المصرية فى الحزب الشيوعى الفرنسى.

قال: كنت معهم. نعم.

قلت: معهم أم مسئولهم؟

قال: لماذا تهتم بهذا التحديد الدقيق؟

قلت: قالوا إنك الأب الروحى لمجموعة «الراية».

قال: كانوا أصدقائى وزملائى.. ألا يكفيك هذا.

قلت: ثمة فارق بين الصديق والأب الروحى.

قال غاضبا وقد وقف لينهى المقابلة: كانوا أصدقائى، اتصلنا ببعضنا كثيرا، تناقشنا، تفاهمنا، أبديت آرائى، أبدوا آرائهم. ألا يكفيك هذا؟ قلت : أكتفى به مرغما. وفيما أغادر تخلى عن تحفظه وأرستقراطيته واحتضننى، وقال: صدقنى أنا معجب بجهودك فى تجميع تاريخ حركتنا. ضحكت: هل أسجل كلمة حركتنا كاعتراف منك. قال أنت صديق وأنا أثق أنك ستكتب الحقيقية. وأرجو ألا تتردد. واصل تجميع المعلومات قبل أن يرحل أصحابها. أنت تقوم بعمل جيد. ثم سكت وفيما يقبلنى قال: ليس مجرد جيد وإنما ممتاز.

د. فؤاد مرسى

«عندما عينت معاون نيابة عرفت أن أعين الأمن ستتعقبنى، فقررت أن أخدعهم، أعلنت وبكل الوسائل أننى قمت بحل الجماعة التى أسستها وأنا طالب فى السنة الثانية بكلية الحقوق وهى "حركة الجيل الجديد" لكننى أخفيت وبمهارة التنظيم الشيوعى السرى الذى أسسته وهو تنظيم الطليعة، والذى انضم فيما بعد إلى حدتو واشتهر باسم طليعة الإسكندرية».

د. فؤاد مرسى

(فى حواره معى)

ما أصعب وأجمل أن يكون أبوك حداداً. أنا شخصيا جربت هذه المعاناة والمتعة، فالحداد يظل طوال حياته قادرا وراغبا فى تطويع الحديد. يضعه فى النار حتى يلين ثم يطرقه بمهارة وقوة حتى يمنحه الشكل الذى يريد. يعانى الابن من صلابة الأب وإصراره على تطويع الابن حتى يستقيم بالطريقة التى يريدها هو. لكن الابن لا يلبث أن يستمتع بذات القدرة وذات المهارة.. تطويع الحديد.

الأب أسطى حداد فى ورش القبارى، ولهذا كان يسمونه الأسطى سيد مرسى الحداد. الأم رحلت وهو فى الثانية وقامت خالته بتربيته ولكن وفق معايير تطويع الحديد. سنوات الدراسة الابتدائية شهدت تفوقه الباهر فى مدرسة العروة الوثقى وكان ترتيبه الثالث على القطر. وكذلك سنوات الدراسة الثانوية فى المدرسة المرقسية ونال لتفوقه نصف مجانية وكان ترتيبه فى الشهادة التوجيهية الرابع على القطر. أما ترتيبه فى ليسانس الحقوق فكان الأول.

الوعى يأتى سريعا للطالب المجتهد الذى يقضى كل أوقاته إما فى المذاكرة أو فى القراءة، ووقتًا طويلاً مخصصًا لتلاوة القرآن ومحاولة حفظه، ويلمح عقله بإمعان صمود

السوفييت فى ستالينجراد وانتصارهم الأسطورى على جيوش النازية. ومع ذلك يقترب قليلا من جماعة الإخوان، والتقى حسن البنا، لكنه يقول: «منذ هذا الوقت المبكر أدركت خطورة استخدام الدين فى العمل السياسى وادعاء أى سياسى أنه يتحدث باسم السماء» (فى حواره معى).

ثم يكون حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ فينقلب على الوفد فهو تربى على يدى أبيه (الحداد) وتلقن استقامة الفعل الوطنى، وكثيرا ما كان أبوه يعرض عليه أحد رموز فخره وهو كارنيه عضويته فى الحزب الوطنى وعليه توقيع «محمد بك فريد».

الفتى إذن فى مفترق طريق. الإخوان رفضهم والوفد خذله والوطن يعانى والشعب يعيش حالة من البؤس. ولمح من بعيد طيف ستالينجراد وشموخ ستالين فقرأ سريعا فى بعض الكتب الماركسية! ونقرأ: «كان لدراسة الدساتير والقوانين والحريات والمساهمات الفذة للشريعة الإسلامية تأثير ضخم فى حياتى. كما أن دراسة الاقتصاد السياسى، فتحت ذهنى أنا وعدد من زملائى على حقيقة النظم السياسية والاقتصادية من الرأسمالية إلى الاشتراكية. وأسسنا «حركة الجيل الجديد» لم نكن ماركسيين بل كنا نمثل دعوة وطنية ذات ميول اجتماعية غير محددة. لكن القراءات الاشتراكية ساعدت على أن تتبلور لدى وجهة نظر اجتماعية خاصة بعد أن بدأت أتفهم الطبيعة الطبقية لمظاهر الاستعمار. ما هو؟ وما سبب وجوده فى مصر؟ وكيف يوجد من المصريين من يصادقونه ويعملون فى خدمته وهو يحتلنا، ومن هذا المنطلق اتجهت لقراءات الماركسية وقرأت البيان الشيوعى وترجمته إلى العربية» (من حوار معه أجرته جريدة الأهالى عدد ١١/٩/١٩٨٥).

هذا ما قاله فؤاد مرسى فماذا قالت أجهزة الأمن؟

* إدارة المباحث العامة

فرع النشاط الداخلى

قسم مكافحة الشيوعية (سرى جداً)

الدكتور فؤاد السيد مرسى وشهرته «الحداد»، أستاذ مساعد الاقتصاد بكلية الحقوق جامعة الإسكندرية.

يرجع تاريخه السياسى إلى سنة ١٩٤٣ وقت أن كان طالبا فى السنة الثانية بكلية الحقوق بجامعة الإسكندرية إذ أسس مع بعض طلبة الجامعة جماعة سياسية أطلق عليها

اسم «حركة الجيل الجديد» للمطالبة بتحسين حال العمال والفلاحين وإحداث تغييرات فى النظم التشريعية والاجتماعية والاقتصادية. وكان شعار الجماعة كالآتى: أيها الصانع اعمل لتكون لك آلتك، أيها الفلاح أرض الدولة ملك الجميع - أيها التاجر السوق المصرية لك وحدك. واتصل بعدد من عمال شركة مصر بكفر الدوار، وكان يعقد الاجتماعات بالمقاهى والمحال العامة للدعوة لهذه الجماعة، وضمت الجماعة عدداً من الأعضاء منهم: إبراهيم سعد عامر- عبد الجواد أبو زيد القرمى - محمد جلال جوجو - مصطفى عبد العظيم. وقد توقف نشاط الجمعية عام ١٩٤٥ إثر تخرجه فى الجامعة وسفره إلى فرنسا فى بعثة دراسية».

المصدر (ملف القضية ٨ عسكرية عليا لسنة ١٩٥٩- المتهم فيها فؤاد مرسى وآخرون ص ١٠٤٥).

وبعد هذا.. ماذا قال الأب الروحى فى فرنسا؟

ريمون أجيون شيوعى أقام فى مصر طويلا ثم غادرها عام ١٩٤٥ إلى فرنسا حيث انضم إلى الحزب الشيوعى الفرنسى ليعمل فى قسم الشرق الأوسط بالحزب وليكون مسئولا عن مجموعة من الطلاب المصريين الشيوعيين المقيمين فى فرنسا. يقول فى حواره معى محاذرا: «أتى إلى فرنسا طلاب مصريون كثيرون بعد الحرب العالمية الثانية. وكان هناك مصريون سابقون مقيمون فى فرنسا.. وفى هذا الوقت تواجدت أنا ضمن مجموعة حزبية، كلفها الحزب الشيوعى الفرنسى للعمل فى هذا المجال» (محضر نقاش أجريته معه).

وبعد هذا يمكن أن نبدأ.

* * *

«عندما عدت إلى مصر من فرنسا فى نهاية ١٩٤٩، خيل إلى أننى أبدأ من جديد، ولم يكن هذا صحيحا».

د. فؤاد مرسى

(فى حواره معى)

وهكذا ذهب الأستاذ فؤاد مرسى، معاون النيابة، إلى باريس عام ١٩٤٥ وعاد دكتور فؤاد مرسى لكنه عاد ليرتدى وعلى الفور ثياباً جديدة واسماً جديدا هو «الرفيق خالد».

ومن البداية اكتشف أن منظمة «حدتو» قد تبعثرت إلى فرق ومجموعات وأفراد مزقتهم النزعات الانقسامية، وخيل إليه أن الحل هو إعلان تأسيس «الحزب الشيوعى المصرى» وكان الاسم شديد الجاذبية ولعله كان بالنسبة للبعض طوق نجاة، ونسى الكثيرون أن بدايات ١٩٥٠ قد شهدت استعادة «حدتو» عافيتها، ونسوا أن هناك خبيئة أخرى هى منظمة «طليعة العمال». ومع ذلك فقد نجح الرفيق خالد فى تأسيس نواة أساسية لحزبه.. مصطفى طيبة وسعد زهران وداود عزيز. ثم جذبت هذه النواة مجموعات صغيرة لعل أهمها مجموعة «المطبعة» التى أفلتت من مجموعة العصبة الماركسية التى كان يتزعمها فوزى جرجس فذهب طوسون كيرلس ولمعى يوسف ومعهما كنز ثمين هو مطبعة جديدة وذات أمان جيد، وإتماما للمهمة قرر د. فؤاد «إذا كنا سنؤسس الحزب فيتعين آن يكون له وثائق». وعكف ليخرج على رفاقه بوثيقتين بالغتى الأهمية هما «الصراع الطبقى فى مصر» و«ثورتنا المقبلة»، وقد امتازت الوثيقتان برصانة أكاديمية يلحظها حتى الذين اختلفوا على بعض ما ورد فيها. وهكذا حقق الرفيق خالد ثلاثة نجاحات سريعا، تأسيس حزب وليس مجرد منظمة - إعداد وثائق متقنة والمحافظة على أمانه بحيث ظل بعيدا تماما عن أعين أو مسامع الأمن، ولأن مصر فى ١٩٥٠ وما بعدها كانت تلتهب ثورية فقد اتسع النشاط الشيوعى بكل فروعه، ومن ثم احتشد فى «الحزب» مئات من الأعضاء القدامى والجدد يزهون بأنهم حزب وليس مجرد منظمة وبأن لديهم وثائق باهرة ومطبوعات متقنة ومنتظمة وقائدا يغلفه غموض مهيب، وهكذا ترددت هتافاتهم فى ردهات السجون «عاش الرفيق خالد ألف عام».

وفى عام ١٩٥٧ بدأت إرهاصات توحيد الشيوعيين، «حدتو» وحدت فى صفوفها عديدا من المنظمات الصغيرة وأسمت نفسها «الحزب الشيوعى المصرى الموحد». وبدأت خطط التوحد بين جميع الشيوعين، كما بدأت خطط التقارب مع النظام الناصرى الذى كان يخطو باتجاه إجراءات ثورية سواء فى العلاقة ضد أمريكا أو فى بناء مصر وصناعتها وقطاعها العام وتقليم أظافر القوى الاجتماعية المعادية للثورة.. ولأن الوحدة ستتم، ولأنه سيكشف شخصيته لآخرين لا يعرفهم، وجد الرفيق خالد أنه لا مفر من الكشف عن شخصيته، لكنه يقول فى حواره مع جريدة الأهالى (١٩٨٥/٩/١١): «وتدعيما لثقة بيننا وبين النظام الوطنى رأينا من المناسب الكشف عن شخصيتى» ولكن.

إذا رأيت نـــــيـــوب الــلــــيث بـــارزة

فلا تـــظـــن أن الـــلـــيث يـــبـــتـــسم

أسرها عبدالناصر فى نفسه فكيف ظل هذا الأستاذ الأكاديمى مختفيا سبع سنوات عن أعين نظامه وأمنه. وفى يناير ١٩٥٩ كان فؤاد مرسى المتهم الأول فى قضية الحزب الشيوعى. خمس سنوات ونصف السنة قضاها الرفيق خالد فى السجن. سألته ذات يوم: ماذا تعلمت من السجن؟ فأجاب بلا تردد: «أن أكون أبسط مما كنت».

وتأتى أيام يقرر فيها الرفيق خالد حل الحزب الذى بناه بيديه. ووجد نفسه رئيسا لمجلس إدارة شركة، ثم وفى أعقاب ١٥ مايو ١٩٧١. رشح ليتولى وزارة التموين ويقول فى حواره مع «الأهالى»: «رفضت على الفور، وحضر لى مجموعة من الزملاء وأقنعونى بأنها سابقة يجب الاستفادة منها وتقديم نموذج يعبر عن أسلوبنا وأخلاقياتنا وكفاءاتنا. وأن المطلوب هو أن يرى الشعب نموذجا جديدا لوزراء جدد من عجينة مختلفة وبأخلاقيات مختلفة»، وخاض الرفيق - الدكتور - خالد - فؤاد مرسى، معارك شهيرة ضد جشع التجار والمستوردين وبدايات الرأسمالية الطفيلية وتجار الشواربى الذين أذهلهم أن يقف فى وجههم وزير صامد لا يتردد ولا يرتشى. وأخيرا رحل من الوزارة. وكان يجب أن يرحل فقد كان عكس ما أراده السادات وعكس ما خطط له. كان الرفيق خالد يريد مصر أخرى غير مصر التى أرادها السادات فتخلصوا منه. أما هو فقد أجاب عن سؤال: «ماذا كان شعورك بعد أن تخلصوا منك؟» فقال: «تنفست بعمق، إنه ذات الشعور الذى أحسست به عندما خرجت من السجن» (فى حواره معى).

دخل الوزارة فقيرا وخرج أكثر فقرا. وتفرغ للكتابة والدراسة حتى جاءت فكرة تأسيس منبر اليسار فكان موجوداً منذ اليوم الأول وشريكا فى إعداد وثائق المنبر التى أعلن بموجبها، والتى يمكن القول إنها أول وثيقة متكاملة لحزب يسارى علنى. ويشاركنا فؤاد مرسى عبء النضال التجمعى والذى كان شديداً وقاسياً. ويعود إلى السجن فى سبتمبر ١٩٨١. ليخرج أكثر قدرة وتألقاً.. حتى يرحل.

أما كتبه ودراساته فتبقى كمنبع لفكر اقتصادى واجتماعى يسارى منفتح وشديد العمق.. ولعلها تمنحه الحق فى هتاف «عاش الرفيق خالد ألف عام».

مصطفى طيبة

«وجاء يوم كنت فيه أنا المتهم سجينا، والمحامى الذى دافع عنى سجينا، والقاضى الذى حاكمنى سجينا هو أيضا».
مصطفى طيبة

الأب يجاهد بحثا عن خبز لسبعة أبناء وزوجتين. والفقر حاجز أمام طموح التعليم، وممكنات الأب تقف به عند حدود الشهادة الابتدائية، أما ما بعد هذا فهو رفاهية لا يقدر عليها، لكن الفتى مصطفى يلح.. ويتنازل الأب فيدخله مدرسة الصنائع. وبعد الدبلوم يعين مصطفى فى وظيفة إدارية فى وزارة الحربية. لكنه يتطلع إلى المزيد فيلتحق بدراسة مسائية بمدرسة الفنون التطبيقية.

وكعادة شباب هذه الأيام كان قلقا وراغبا فى خدمة الوطن عبر أى سبيل فتنقل من الوفد إلى مصر الفتاة إلى الإخوان. وبالمصادفة وقعت فى يده عدة كتب لسلامة موسى وأعداد من «المجلة الجديدة» والتهب ضوء باهر فى أعماق «مصطفى أفندى» واصل القراءة وواصل التجوال على الأندية الثقافية التى تكاثرت فى هذه الأيام.. تنقل بين ندوات «جماعة نشر الثقافة الحديثة» حيث استمع إلى محاضرات لمصطفى كامل منيب وسعيد خيال وإبراهيم سعد الدين. و«دار الأبحاث العلمية» حيث أنصت إلى شهدى عطية وعبد المعبود الجبيلى وعبد الرحمن الناصر ولطيفة الزيات و«نادى أم درمان» حيث يرتل محمد خليل قاسم وزكى مراد أشعارهما وحيث يخطب عبده دهب منددا بالشعار السائد «نيل واحد، شعب واحد، ملك واحد» ويرفع عاليا الشعار البديل «الكفاح المشترك ضد العدو المشترك».. وتلتقطه من هناك عيون يقظة تقوده إلى «الحركة المصرية للتحرر الوطنى»، ويتلقى توجيها من مسئوله بالعمل النشط وسط خريجى الفنون التطبيقية فهناك حركة نشطة تطالب بأن يمنحوا لقب مساعد مهندس ثم لقب مهندس بعد فترة، وبزيادة الرواتب. وعبر نشاط جارف قام به هو ومجموعة حزبية منها يوسف بدير محمد على وبمسئولية سيد سليمان رفاعى، أمكن تأسيس «رابطة خريجى الفنون التطبيقية»، ويقود مصطفى

إضرابا ناجحا واعتصامات عديدة فى مقر الرابطة، وتخضع الحكومة ويصبح مساعد مهندس. لكن هذا النجاح لا يمر بلا اهتمام من القيادة. فقد تم تصعيده إلى لجنة القاهرة، ثم دعاه هنرى كورييل ليحضر اجتماعا للجنة المركزية يقدم فيه تقريرا عن خبرات تأسيس الرابطة وتنظيم الإضراب والاعتصام، كان قلبه يدق فهو فى حضرة القادة وكان القادة ينصتون فى انبهار وبعدها أصبح مسئولا عن لجنة المعز (القاهرة) وانغمس حتى أذنيه فى النضال الثورى. وفى ١٩٤٨ كان قد أصبح كادراً أساسياً فى منظمة «حدتو». ثم بدأت المشكلات. حرب فلسطين - حملة الاعتقالات - الانقسامات، وفى هذه الأثناء تم تصعيده إلى اللجنة المركزية، وفى هذا المناخ المليء بالانقسامات والتربص بكل قول، والانفعال المرتدى ثيابا ثورية أعد الرفيق شكرى (مصطفى طيبة) تقريراً نادى فيه بضررة أن ينفتح الحزب ليس فقط على العمال والفلاحين والطلاب والفقراء، وإنما أن يفتح ذراعيه للمهنيين وكل القوى الوطنية والديمقراطية فى المجتمع. وأطلق على هذا التقرير اسم هو «خط القوات الوطنية والديمقراطية» ونستمع إلى الرفيق شكرى. «هذا التقرير نسخ منه عدد محدود ووزع بالكاد على المتبقين من عضوية اللجنة المركزية. لكن المناخ كان معصوب العينين، والعقل كان متجها نحو الخصومة، وجرى تهييج للكادر ضد التقرير. وفجأة أصبحت عدواً لغالبية من كادر تحركه نزعات برجوازية صغيرة تحركها شعارات متطرفة ومتشددة، والمثير للدهشة أن الذين أدانوا التقرير لم يقرأوه، ولكنهم فقط سمعوا عنه من خصوم للفكرة، وفى مواجهة التقرير نشأت الدعوة لنقاء الحزب البروليتارى من أى وجود غير عمالى ورفع شعار: ١٠٠٪ عمال (منظمة م.ش.م)، والبعض تواضع فرفع شعار ٧٥٪ عمال (منظمة العمالية الثورية) ومن المعتقل يتلقى رسالة من هنرى كورييل تطلب إليه أن يترك وظيفته ويحترف فى العمل الحزبى. لكن ما يراه من صخب غير عاقل وخلافات غير مبررة وانقسامات لا تعرف العقل ولا التروى كل ذلك جعله يرفض أن يضع مصيره فى أيدى هؤلاء. ويغضب رفاقه فى المعتقل ويقررون تنزيله من عضوية اللجنة المركرية، ويجد الرفيق شكرى نفسه بين فكى كسارة بندق، فالذين رفضوا تقريره اتهموه بالخيانة، والذين قبلوه اتهموه بالضعف. وانعزل شكرى مع مجموعة صغيرة تمتلك كنزا حقيقيا هو «مطبعة»، وأسميت المجموعة «مجموعة المطبعة».

ويعود إلى مصر، من فرنسا، فى هذه الأثناء، شاب حصل على الدكتوراه وأصبح مدرسا بالجامعة هو د. فؤاد مرسى. قابله شكرى وطلب د. فؤاد منه أن يضمه إلى «حدتو» لكن شكرى قال له: أنا شخصيا تركت حدتو. وجلس الدكتور مع مجموعة المطبعة: مصطفى

طيبة – سعد زهران – داود عزيز – لمعى يوسف – طوسون كيرلس. وانبهر الجميع بحماس وقدرات الوافد الجديد. وأعد فؤاد مرسى تقريرين هامين انبهر بهما كل من قرأهما «الصراع الطبقى فى مصر» و«ثورتنا المقبلة». ويمضى شكرى قائلا: «تصورت، وكذلك تصور الدكتور فؤاد، أن كل ماركسى سيقرأ هذين التقريرين سوف ينضم إلينا حتما. وكان ذلك صحيحا إلى حد ما. وفى أول يناير ١٩٥٠ أعلنا قيام الحزب الشيوعى المصرى، وأصبح فؤاد مرسى سكرتيرا عاما وأنا مسئولا للتنظيم وداود عزيز مسئولا للدعاية، وسعد زهران معنا فى القيادة الرباعية، ونجحنا فى إصدار مطبوعات أنيقة جداً ومنتظمه تماما فمجلة (راية الشعب) كانت تصدر كل خميس وبانتظام مثير للدهشة»، ويقبض على الرفيق شكرى ومعه مصطفى كمال خليل ومعهما المطبعة، فى ١٨ يوليو ١٩٥٢، وبعدها بأيام تأتى ثورة يوليو. ومن ثم محاكمة عسكرية أمام مجلس عسكرى عال يترأسه قائمقام أحمد شوقى عبد الرحمن، وترافع عنه المحامى الوفدى الشهير محمود سليمان غنام باشا الذى هاجم الحكم العسكرى هجوما عنيفا وبعد شهرين أوقفت المحاكمة فقد قبض على القاضى بتهمة تدبير انقلاب عسكرى جديد وقبض على المحامى بتهمة العداء للثورة وأتى قاض جديد، هو اللواء فؤاد الدجوى، ليحكم عليه بالسجن عشر سنوات أشغال شاقة.. ويبقى مصطفى طيبة مسجونا حتى بعد أن ينهى فترة العقوبة ولا يفرج عنه إلا فى أبريل ١٩٦٤ مع باقى المسجونين، ويعمل مصطفى طيبة بقرار من خالد محيى الدين صحفيا فى دار «أخبار اليوم» عندما كان رئيسا لمجلس إدارتها، ويكتب الرفيق شكرى ما يشبه المذكرات فى جزأين «رسائل سجين سياسى إلى حبيبته»، وفى الحوار الممتد معه لساعات وأيام (مايو – يونيو ١٩٦٨) حكى آلاما كثيرة ورجانى ألا أدونها: ظلم الرفاق له – أبوه الذى قضى أيامه الأخيرة فى ملجأ العجزة حيث أفقر الفقراء، أخته التى ظلت مصابة بانهيار عصبى منذ القبض عليه وحتى نهاية الحياة. زوجته الإيطالية التى ما إن علمت بالقبض عليه حتى أجهضت ابنه وطلقته. وتبدت دموعه وهو يقول: لو كان ابنى حيا لكان قد أصبح شابا». وقال: «كنت متماسكا رافعا هامتى أمام خصومى الطبقيين لأكون قدوة لزملائى، لكننى كنت أتمزق لإحساسى أننى عذبت أبى وأختى».

وتمضى الأيام ليرحل الرفيق شكرى حاملا أحزانه فى صدره الذى كان باتساع حلم الوطن بأسره.

إنجى أفلاطون

«كثيرا ما كنت أحضر حفلات الأميرة شويكار (الزوجة الأولى للملك فؤاد) فى قصر محمد على باشا الكبير فى شبرا، كانت حفلات أرستقراطية جدا، صاخبة جدا، تشبه حفلات القصور القيصرية فى روسيا وفرنسا، الفتيات يخطرن بفساتين باهرة وسط شبان أرستقراطيين، كنت أرى الترف والبذخ وتفاهة الشبان فأشعر بالقرف».

إنجى أفلاطون

(مذكرات مخطوطة)

الاسم الحقيقى للجد هو حسن الكاشف أحد طلبة المدرسة العسكرية فى عهد محمد على باشا، سمع محمد على أن زملاء حسن يسمونه «أفلاطون» بسبب كثرة أسئلته ورغبته فى الجدل والنقاش، فقال: «لا بأس أن يكون لدينا نحن أيضا أفلاطون»، وبعد هذا النطق السامى أصبح أفلاطون اسما إجباريا وبعدها حصل على الباشوية، فقد أصبح أحد قادة الجيش البارزين. الأسرة أرستقراطية فى أعلى درجات الأرستقراطية، فالأب سليل أفلاطون تعلم فى جامعات سويسرا وإنجلترا وتخصص فى علم الحشرات وأصبح عميدا لكلية العلوم، والأم صالحة هانم اخترقت جدار الوهم الأرستقراطى الخامل وأصبحت أشهر مصممة أزياء فى مصر، فى البيت الجميع يتكلمون الفرنسية، ومجرد كلمات عربية قليلة للتخاطب مع الخدم.

وترسل الطفلة إنجى إلى مدرسة مخصصة للبنات الأرستقراطيات «راهبات مصر الجديدة»، الدراسة بالفرنسية والتعاليم متزمتة بصورة غير معقولة، فممنوع على الفتاة أن تنظر إلى نفسها فى المرآة طويلا، بل ممنوع عليها أن تنظر إلى جسدها؛ ولهذا يتعين عليها أن تستحم وهى تلبس جلبابا مخصصا لذلك، وممنوع قراءة الروايات أو أى كتب غير الكتب المدرسية.. لا صداقة بين التلميذات.. وقائمة الممنوعات طويلة.

ومنذ البداية تتمرد إنجى وتحاول،، على الأقل، أن تقيم علاقة صداقة مع التلميذات لكن أعين الراهبات تتعقبها حتى تضبط وهى تقرأ رواية «الذئب الأبيض» لجاك لندن، وتحاكم أمام مجلس من الراهبات وتتلقى إنذارا بالفصل، لكن إنجى تواصل تمردها حتى تصل إلى سن الثانية عشرة فلا تحتملها المدرسة، وتستدعى رئيسة الراهبات «بارتلو» صالحة هانم لتقول لها فى أسى إنها مضطرة لفصل إنجى من المدرسة «لأنها يركبها شيطان»، وقالت فى أسى «أخشى أن تصبح ابنتك خطرا على المجتمع»، ولا مفر أمام الأسرة، فلكى تكمل إنجى تعليمها لا توجد مدرسة أرستقراطية أخرى سوى الليسيه، وهكذا من قمة التزمت إلى قمة التحرر، وتحكى إنجى فى مذكراتها لتصف حالها فى المدرسة الجديدة «كنت كسمكة عادت طليقة إلى بحرها».

لكن للأرستقراطية طقوسها، فلا بد للبنت أن تتعلم العزف على البيانو أو الرسم، أو هما معا، وتستأجر لها الأسرة مدرساً للرسم مقابل جنيهين فى الشهر، وتكون نقطة التحول الحاسمة فى حياة الفتاة الأرستقراطية، فالمدرس هو كامل التلمسانى، أحد رواد بيت الفن وأحد مؤسسى جماعة «الفن والحرية»، تلك الجماعة التى كانت تطلق فى نهايات ثلاثينيات القرن الماضى شعار «الفن معمل بارود». كان التلمسانى فنانا رائعا، لكنه كان فقيرا جدا، فقبل أن يعلم هذه الفتاة الأرستقراطية على مضض.

وتقول إنجى فى حوارى معها: «قال لى فيما بعد إنه أتى إلى بيتنا يائسا مفزوعا لأنه مضطر لأن يبيع فنه لأرستقراطية فاشلة تريد فقط أن تضيع وقتها فى التباهى بأنها تتعلم الرسم»، لكن التلمسانى لا يلبث أن يكتشف بذرة التمرد فى هذا العمق الأرستقراطى، فمضى يعلمها ما فوق الرسم، فتح لها نافذة واسعة وممتعة عن تاريخ الفنون والحضارات والعلم ودور الفن فى الحياة، وفتح لها نافذة على مصر الحقيقية، مصر التى لم تكن تعرفها، وتضحك إنجى فى حوارها معى: «باختصار.. بجنيهين فى الشهر استطعت أن أصبح إنسانة وفنانة وتقدمية، طلب منى التلمسانى أن أنسى كل القواعد المدرسية للرسم، وأن أرسم كما أريد.. ورسمت وكانت لوحاتى الأولى صاخبة: فتاة تحاول الهرب من لهيب النار والثعابين، ولوحة أخرى لفتاة تجرى هاربة فوق الصخور المحاطة بأمواج عاصفة بينما يطاردها طائر متوحش.. لقد أزاح التلمسانى عنى حجرا ثقيلا، وأزاح من أمامى سدودا عديدة كانت تخنق تفكيرى». وهكذا يتفجر الفن متمردا، ويتحول التمرد فى الفن

إلى تمرد على المجتمع.. ألم يكن شعار «الفن والحرية» هو «الفن معمل بارود؟»، وتقول إنجي: «اصطحبني التلمساني إلى القاهرة القديمة لأرى عبق البسطاء ورائحة الفقراء، وهناك التقيت فى «بيت الفن» عشرات من الشعراء والرسامين. ومن التمرد إلى الاشتراكية ومنها إلى الانتماء التنظيمي، فالفتاة كانت أكثر ذكاء من أساتذتها، فقد اكتشفت أن التمرد الفردى لا يكفى، وأن الرسم مهما تمرد لا يكفى، وإنما العمل المنظم هو الأساس»

وتقول فى مذكراتها: «لقد زاد حماسى واقتناعى بالاشتراكية العلمية لتركيزها على ارتباط التحرر الوطنى بالتحرر الاجتماعى وبتحرير المرأة وبالعدل والمساواة»، وتقول فى حوارها معي: «لقد سئمت ثرثرة المثقفين المعزولين وقررت - وبوعى - الانتقال طوعا من معسكر الأغنياء إلى معسكر الفقراء»، وبعد أن حصلت وهى فى الثامنة عشرة على الثانوية العامة عرضت عليها الأسرة أن تسافر إلى فرنسا لتكمل تعليمها، فرفضت، وتقول: «كنت مشتاقة إلى أن أتمصر؛ أن أتكلم العربية أن أعيش بعيدا عن الغش الأرستقراطى، وعملت مدرسة رسم فى مدرسة الليسيه، وانضممت فى عام ١٩٤٤ لمنظمة ايسكرا». كانت لم تزل تتلعثم فى الحديث بالعربية فكلفت المنظمة الشاعر فؤاد حداد أن يعلمها العربية، وانفجرت ضاحكة وهى تحكى لى كيف أنها كانت تقرأ أمامه فقرأت كلمة «الهوى» وفسرتها على أنها الهواء فغضب فؤاد حداد وقال لها: «هو انتى محبتيش أبدا بالعربى؟»، لكن ثمة حواجز أخرى هى الملابس الأرستقراطية التى تفزع البسطاء وقتها، ورويدا رويدا قادها النضال نحو التمصير.. فعاشت بامتنان فى أحضان البسطاء، وتنشط إنجى فى «دار الأبحاث العلمية» و«لجنة نشر الثقافة الحديثة» وتنضم لجمعية الشابات المسيحيات و«رابطة فتيات الجامعة والمعاهد» و«اللجنة الوطنية للطلبة والعمال»، ثم حادثة أخرى مثيرة للضحك، كانت صالحة هانم وإنجى مسافرتين إلى باريس (يوليو ١٩٤٦) وفى الإسكندرية كان فى وداعهما إسماعيل باشا صدقى رئيس الوزراء، وبعدها بأسبوعين صدر أمر بالقبض على إنجى وكان «صدقى» هو صاحب القرار. البوليس ذهب ولم يجد أحدا بالمنزل فأغلق دون حصافة الأبواب بالشمع الأحمر، واهتزت هامات كبيرة لغضب صالحة هانم واضطر صدقى للاعتذار.

ومن باريس تسافر إنجى إلى براغ لتشارك جمال غالى فى تمثيل مصر فى مؤتمر اتحاد الطلاب العالمى، وفى عام ١٩٥٠ تعمل صحفية فى «المصرى» لتحرر بابا بعنوان

«المرأة نصف المجتمع»، وفى ١٩٥١ تشارك فى اللجنة النسائية لدعم الكفاح المسلح وفى تأسيس حركة «أنصار السلام» وفى ١٩٥٧ تنجح فى تأسيس وإشهار اتحاد نسائى مصرى باسم «الجمعية النسائية القومية»، لكن الأمن يأمر بحل الجمعية.

وتمضى إنجى فى رحلة النضال وتصبح عضوا فى اللجنة المركزية للحزب، ويأتى عام ١٩٥٩ ليحمل فى أول أيامه أكبر حملة قبض على الشيوعيين، وتهرب إنجى، تستعين بالفن فتتخفى فى زى فلاحة شرقاوية وتعيش بشجاعة وامتنان فى أحضان رفاق فقراء فى إحدى حوارى شبرا، ويقبض عليها ليحكم عليها بالسجن عامين، وبعد السجن تخرج لتعاود النضال فى صفوف المجلس المصرى للسلام ولتصبح واحدة من أشهر فنانات الرسم التشكيلى، ولتعيد طباعة كتبها ذات المذاق الخاص «ثمانون مليون امرأة معنا» والمقدمة لطه حسين، و«نحن النساء المصريات» والمقدمة لعبد الرحمن الرافعى، و«السلام والجلاء» والمقدمة لعزيز فهمى، وهل هى مصادفة أن تحظى كتبها بمقدمات لألمع المثقفين؟.

وتبقى الشعلة القادمة من عالم الأرستقراطية لتضىء عالم الفقراء.. حتى ترحل.

ثـريـا أدهـم

«ذات يوم طلابى صاخب اقتحم طلاب الطليعة الوفدية والطلاب الشيوعيون قاعة الاحتفالات الكبرى بالجامعة، وكنت معهم، هتفنا ضد الملك، انتزعنا صورة الملك المعلقة فى صدر القاعة، ألقيناها أرضا ودسناها بالأقدام، الأمن لم يتحرك لكن طلاب جماعة الإخوان خاضوا ضدنا معركة بالشوم والكرابيج».

ثريا أدهم

وتحكى لى ثريا أدهم فى حوار مطول ذكريات عن طفولتها. ولدت فى ١٩٢٦/٣/٦ لأسرة متعددة الأبناء، وتقول: «كنا ثمانية، ولد وسبع بنات، وأنا كنت رقم ٧ فى الترتيب، أبى كان ناظر مدرسة، وكان متحرر الموقف والنظرة والتربية، كثيرا ما سمعته يقول فى جلساته مع أصدقائه وجيراننا: إذا كان دخلك لا يسمح لك بأن تعلم كل أبنائك فالبنات أولى من الصبيان»، وكان حضرة الناظر مثقفا أو قارئا وبيته مليئا بالكتب، «بيتنا كان منزلا شديد الغرابة بسكانه متعددى الاتجاهات ففى منزلنا شقة يسكنها موسيقار موهوب هو الشيخ حمودة والد المطرب إبراهيم حمودة، وكان فنانا مرحا يقيم فى شقته حفلات غناء وطرب تعج بالموسيقى والغناء والرقص، وفى شقة أخرى أسرة إخوانية شهيرة وهى أسرة القيادى الإخوانى جبر التميمى، وهى ذات الأسرة التى حاول أحد أبنائها إقامة محطة إذاعة إخوانية سرية، وكم كنت أشعر بالدهشة عندما أدخل شقتهم لأجد الإخوة جميعا يتعاملون مع أسلاك متشابكة وأدوات غامضة، فقد كانوا جميعا من هواة اللاسلكى، وكثيرا ما كنت أقف عندهم لأخاطب ماما فتسمعنى عبر الراديو وهى فى شقتنا، وفى شقة ثالثة كان يسكن الصاغ محمود لبيب الأب الروحى للضباط الإخوان فى الجيش المصرى، وفى شقة رابعة أسرة يهودية عائلة كوهين كان أبناؤها ماركسيين أما البنت فكانت عضواً بنادى المكابى الصهيونى بالظاهر.

وفى شقة خامسة شاب سودانى (توفيق أحمد البكرى) وهو واحد من قادة الحركة الوطنية من السودان ضد الاحتلال البريطانى.. اضطهد وسجن ثم هرب إلى مصر، وكثيرا ما تجمعنا حوله ليحكى لنا عن الوطنية والاستعمار والحرية. وبعد فترة تزوج واحدة من أخواتى، وأمام البيت كانت مدرسة مصر الثانوية، وهى مدرسة خاصة كانت فى الأغلب مملوكة لجماعة الإخوان، ففى كل أسبوع كان حوش المدرسة يمتلئ عصرا بحشود إخوانية ليخطب فيهم الشيخ حسن البنا، وأقف وأخواتى فى البلكونة لنستمع إليه. والحقيقة أنه كان متحدثا لبقا وقادرا على أن يمتلك مشاعر مستمعيه، لكننا لم نتأثر به، فقد تربينا على كراهية التعصب الدينى».

وهكذا عاشت ثريا فى بيت قاهرى أصيل، فهكذا كانت القاهرة، تعرف كيف تتعايش فى سهولة ويسر بغض النظر عن الدين أو الانتماء الفكرى أو السياسى، إنه منزل نموذجى لو كان نجيب محفوظ قد تعرف عليه لأعطى لنا رواية جميلة عنه وعن سكانه، ربما كانت أكثر روعة وخصوبة من ثلاثيته، وتبدأ رحلة اليسار بالأخت فايزة التى التحقت بكلية العلوم جامعة فؤاد الأول (القاهرة)، وفيها عاشت حلم النضال اليسارى مع فتيات ثوريات ويساريات: لطيفة الزيات خطيبة اليسار المفوهة وسعدية عثمان وآسيا النمر. ومن دردشات الجامعة إلى لقاءات «دار الأبحاث العلمية»، وذات يوم ذهبت ثريا مع فايزة إلى شارع نوبار ودخلت إلى دار الأبحاث العلمية، إنها الخطوة الأولى نحو عالم النضال اليسارى الباهر ذلك العالم الذى تفانت ثريا فى الدفاع عنه حتى آخر لحظات الحياة.

وعبر دار الأبحاث العلمية انضمت ابنتا حضرة الناظر محمد سعيد أدهم إلى منظمة «ايسكرا»، وكانت المسئولة عن الخلية التى ضمت فايزة وثريا وسعدية عثمان هى الفنانة إنجى أفلاطون، وفى عام ١٩٤٥ تدخل ثريا كلية الآداب قسم إنجليزى وهناك كان د. لويس عوض وجماعة «الجرامفون» وندوات صاخبة، وهى مع هذا كله، وفى عام ١٩٤٦ تغلى الجامعة وتتكون اللجنة الوطنية للطلبة والعمال، لتحاول أن تغرس بذورا جديدة فى ساحة العمل الوطنى، وفى مواجهة شعارات يرددها طلاب تقليديون مثل «عاشت وحدة وادى النيل» و«نيل واحد - شعب واحد - ملك واحد هو الفاروق»، كانت ثريا تهتف بنغمات وطنية أخرى «الكفاح المسلح طريق الخلاص» «عاش الكفاح المشترك مع الشعب السودانى» وتتوالى مظاهرات صاخبة، وفى ٩ فبراير تحمل الفتيات «ثريا» على الأعناق

لتهتف ضد الاحتلال وضد السراى وضد الملك.. وتكون مذبحة كوبرى عباس. وجلست ثريا مع عشرات من الفتيات على ضفة النيل ليصنعن أعلاما مصرية، وما إن تطفو جثة شهيد حتى يقوم الطلاب بلفها فى أحد الأعلام ليحملوها إلى كلية الطب حيث ينتظر المتظاهرون ليشيعوها فى مظاهرات حاشدة.. وتقول ثريا: «كنت أغلى غضبا، وكانت دموعى ترفض أن تتوقف وأنا أصنع أعلاما لتكون أكفانا لأجمل وأغلى شباب مصر».

وفى اليوم التالى كانت إدارة الجامعة قد خططت لأن تخرج شعلة من الجامعة يحملها رياضيون من طلاب الجامعة، ليجرى بها بعضهم إلى قصر عابدين، احتفالا بعيد جلوس الملك، لكن جراح الأمس صرخت فى دم ثريا ورفاقها فهتفت «يسقط فاروق»، ورددوا خلفها وانتزعوا الشعلة وألقوا بها أرضا.

وكما تلتفت أنظار الطلاب انبهارا بهذه الفتاة.. التفتت أنظار الأمن أيضا.

* * *

«فى أكتوبر ١٩٤٩ كنت محترفة فى منطقة القاهرة وقبض على وقدمت للمحاكمة وكان القاضى مشهورا بالعداء للشيوعيين هو المستشار حسين طنطاوى، وفيما كان القاضى يحاول إرهابى هاجمته بشدة واتهمته بالعمالة للاستعمار وللقصر الملكى وأدنت الجميع: القاضى والملك والحكومة.. فحكم على بسنة سجنا وثلاثة أشهر إضافية بتهمة إهانة المحكمة».

ثريا أدهم

ونعود إلى الطالبة ثريا أدهم لنجدها تسهم بحماس فى تأسيس «رابطة فتيات الجامعة والمعاهد العليا» وكانت أول تنظيم نسائى يسارى وتقدمى فى مصر، ومن بين المؤسسات: لطيفة الزيات، عائشة راتب، إنجى أفلاطون، آسيا النمر، سعدية عثمان، فاطمة زكى. واحتشدت مئات الفتيات فى حوش مدرسة الليسيه بميدان التحرير، حاول البوليس منعهن ولم يستطع، وأعلن تأسيس الرابطة، وشكل التنظيم ثلاثة أقسام نسائية: «الطالبات - العاملات - ربات البيوت» وأصبحت عضو لجنة قسم العاملات، وتركز نشاطها الحزبى فى منطقة شبرا الخيمة، وهناك عملت مع قائدات عماليات بارزات: حكمت الغزالى - زينب العسكرى - خيرية أحمد، وتعود ذكرى ٢١ فبراير فى عام ١٩٤٨ ويصدر التنظيم قرارا

بتنظيم مظاهرة نسائية، فقد كانت الضربات البوليسية تتوالى، وإسماعيل صدقى أغلق كل الأندية والمجلات والروابط التقدمية فتقرر اللجوء إلى الفتيات، تجمعن فى ميدان التحرير وسرن باتجاه سليمان باشا وقبض عليهن، وكانت أولى خطى ثريا نحو السجن، قضت ليلة فى قسم عابدين، أحد الضباط قال لها: إنها مجرد حفلة تدشين. وبالفعل قبض عليها مرة أخرى، وتسرع الأم إلى صديق قديم للأب وهو النقراشى باشا، رئيس الوزراء، ويفرج عنها بعد إلحاح شديد، ويتوالى القبض مرة ثالثة ورابعة. فقرر التنظيم أن تترك عملها كمدرسة لغة إنجليزية فى مدرسة القبة الفداوية الثانوية.. وقرر أن تحترف. وقبلت على الفور، إنها أول فتاة تحترف العمل الثورى وتترك منزلها بالطبع. وتختفى وتصبح عضوا بلجنة منطقة القاهرة، وفى أكتوبر ١٩٤٩ يقبض عليها وتقدم للمحاكمة أمام المستشار حسين طنطاوى، ويكون ما روته فى مقدمة هذه الكتابة، ويفرج عنها أواخر ١٩٥٠ ويصدر قرار التنظيم أن تغادر القاهرة إلى الإسكندرية، وهناك عليها أن تبحث عن عمل لتعيش منه هى ومحترفة أخرى (فاطمة زكى) وأن تواصل عملها السرى.

واتخذت ثريا اسم «ليلى فهمى» وتجد عملا كسكرتيرة لصاحب فندق سيسل. وتكتشف ليلى فهمى أنها فى عش الدبابير فبعد فترة من تعيينها (بسبب إجادتها للغة الإنجليزية) بدأت تشعر أن صاحب سيسل أحد قادة جهاز المخابرات الإنجليزية فى مصر. كانت تحضر اجتماعات مثيرة للدهشة يحضرها ممثلون لكل الجمعيات والمؤسسات البريطانية فى الإسكندرية وكان سيل المعلومات يتدفق عن كل شىء وحول كل شىء وكل معلومة تسجل. ولكن اجتماعا واحدا لم يكن مسموحا لها بحضوره.. مرة كل أسبوع أو كل عشرة أيام يجتمع صاحب الفندق ومدير بنك باركليز وهو إنجليزى، وقنصل بريطانيا فى الإسكندرية فى غرفة معزولة ولا يحضر الاجتماع أحد سواهم وتدرك أنه اجتماع قيادة المخابرات البريطانية فى الإسكندرية.

ويتواصل عمل «ليلى فهمى» فى «عش الدبابير»، تعرف معلومات هائلة لكنها لا تعرف إلى من تبلغها، فنشاطها السرى محدود فى إطار مجموعة محدودة من الرفاق، فالمسئولون الكبار فى الإسكندرية قبض عليهم، لكن قرارا تنظيميا مباغتا يصلها بالعودة إلى القاهرة، وتعود مسرعة فتبلغ بقرار غريب أن تنتقل للإقامة مع الرفيقة «أوديت»، وكانت السكرتير العام للتنظيم (م.ش.م) والهدف هو حماية أمن أوديت، فثريا عليها أن تنتقل وتنقل

التعليمات وتتلقى المعلومات وأوديت تتخذ القرارات وهى فى مخبئها. وأحست أن كل شىء ممكن وكل قرار واجب النفاذ إلا أن تقيم مع هذه السيدة الشرسة، اعتذرت عن هذه المهمة وصدر قرار بفصلها، رغم الفصل سلمت للمنظمة كل ما تمتلك من مدخرات وميراث وعادت إلى الإسكندرية لتعمل فى شركة «فورد» لكن المدير «المصرى» كان يضطهد كل العاملين المصريين منحازا للأجانب، صرخت فى وجهه قائلة: «لا يمكن أن تكون مصريا»، وألقت باستقالتها فى وجهه. بعدها اكتشفوا أنه جاسوس وأعدم. وعملت فى شركة كفر الدوار للحرير الصناعى مسئولة عن الترجمة والمكتبة، وكان مكتبها فى غرفة مدير الشئون القانونية، ضابط المباحث المختص كان يلتقى العمال الذين يتجسسون لحسابه فى هذا المكتب، وعرفتهم جميعا وسربت أسماءهم للقيادات العمالية الشريفة. فى ١٩٥٦ عادت للعمل التنظيمى فى إطار تنظيمى جديد (الحزب الشيوعى - المصرى - الراية) وهناك نشطت فى لجان المقاومة الشعبية، ثم تصاعد نشاطها وسط العاملات.. وتدريجيا أصبحت جزءا من نشاط حزبى متصاعد فى الشركة. ويكتشف الأمن حقيقتها ويأتى ملفها من القاهرة. وفى إحدى زياراتها إلى القاهرة لحضور اجتماع حزبى تلتقى حلمى يسن ويتزوجان وينسجان معا رحلة نضالية متواصلة.. وفى ١٩٥٩ يقبض عليه فى يناير وهى يقبض عليها فى مارس. خطاباتها إلى حلمى فى فترة الخطوبة كانت الدليل الوحيد فى القضية. وتقرأ النيابة أمام القضاة العسكريين واحدا من الخطابات: «يا حبى الكبير إن العلاقة التى ربطت بيننا ستكون حافزا لنا لمزيد من النضال من أجل القضية التى آمنا بها وهى تحرير البشرية».. حاكموها من أجل هذه العبارة بالسجن ثلاث سنوات، تعقبها فترة اعتقال، ويفرج عنها فى يوليو ١٩٦٣.. وعندما يأتى منبر اليسار تأتى ثريا وحلمى ليكونا من أوائل المؤسسين. وليواصلا فى صفوفه رحلة نضال أبدى.

انتصار خطاب

«كنا فى رمضان، وفى وقت السحور أتى البوليس، قلبوا البيت، سألهم صلاح هل أحضر شنطتى؟ همس ضابط فى أذنه: انتوا الاثنين. تشعلق الأولاد فى رقبتى لكن عمر قال فى كبرياء: متخافيش يا ماما علينا، فيه فى الثلاجة قلقاس ولحمة وبيض، وأنا باعرف أسلق البيض. وسالت دموعى ولمحت دموعا فى عينى صلاح وحتى فى عينى بعض الجنود».
انتصار خطاب
(فى حوارى معها)

.. «كنت بنتا عادية جدا، تعلمت تعليما متوسطا وتوظفت فى وزارة المعارف، لكننى فجأة أصبحت ملء السمع والبصر، ونشرت صورتى فى عشرات الصحف، فقد قبض على فى ١٩٤٦ مع ثلاثة من الشبان الذين اشتهروا فى ساحة الاغتيالات السياسية (كمال يعقوب - كمال منسى - محمود فهمى) والتهمة هى تهديد الشاهد الأول فى قضية اغتيال أمين باشا عثمان بأن يتم اغتياله هو أيضا إذا لم يغير أقواله ويشهد لصالح المتهمين بالاغتيال». ولعلها المرة الأولى والأخيرة التى تقف فتاة مصرية أمام المحقق بتهمة كهذه.

انتصار تزوجت ابن عمها صلاح، الموظف بوزارة العدل، منذ اللحظة الأولى أحست بشىء ما. أوراق يخبئها صلاح واجتماعات تعقد فى غرفة الجلوس، وعندما تدخل بالشاى يصمتون، الشىء الوحيد المتاح هو الكتب المرصوصة فى كل مكان، وبدأت تقرأ، وبدأت تقتنع، وبدأت تلح على صلاح أن تشاركه. رفض بشدة، واحد منا يكفى والآخر يبقى ليهتم بالأولاد. لكنها، وعبر الكتب، دخلت إلى عالم الماركسية الرحب. وعرفت هى الطريق، فخلال معركة العدوان الثلاثى شاركت بحماس فى «اللجنة النسائية للمقاومة الشعبية» ونظمت حملة واسعة للتبرع بالدم، والتقطها الرفاق فى خضم هذا النضال الجماهيرى الواسع. وانضمت إلى التنظيم ليس عن طريق صلاح وإنما عن طريق الجماهير. لكن العلاقة مع

النظام الناصرى تتكهرب وتبدأ فى يناير ١٩٥٩ أوسع حملة اعتقالات شهدتها الحركة الشيوعية، أفلت الزوجان لكن القلق بدأ يفترسهما، وطمأن كل منهما الآخر. سيأخذون واحداً ويتركون الآخر، لكنهم أخذوا الاثنين.

وفى عنبر الشيوعيات بسجن القناطر كانت انتصار الأكبر سنا (ولدت عام ١٩١٧) والأكثر خبرة، ولكن الصدام جاء مبكرا، فعبد الناصر تحت حصار من الإعلام العالمى بسبب اعتقال سيدات نفى فى تصريح لمراسل أجنبى أن يكون فى مصر معتقلات! الصحف نشرت الخبر بارزا وإحدى السجانات همست بالخبر فى أذن انتصار. وتحركت الرفيقات جمعن متاعهن كل فى حقيبتها وببساطة خرجن من العنبر. على فين؟ والإجابة: الرئيس قال مفيش معتقلات واحنا حنخرج. واحتار المأمور المدرب فى كيفية التعامل معهن. وأخيرا لجأ إلى خبرته فى السجون؛ استحضر عديداً من سجينات المخدرات والدعارة وأطلقهن على الشيوعيات، وطبعا انتصر المأمور.

وتروى انتصار مأساتها فى السجن: «كل شىء يمكن احتماله، التجويع، الضرب، السجن، التفتيش الفاضح الذى يقوم به ضابط رقيع عندما يفتش ببذاءه حقيبة ملابس واحدة منا، حتى البعد عن صلاح والأولاد ممكن، لكن الذى لا يحتمل هو دموع ابنى وهو يشكو مما لا أستطيع أن أمنعه»، كانت الزيارات ممنوعة، لكن العلاقة الحسنة مع السجانات سمحت بأن يأتى عمر وهشام لزيارة مسجونة عادية وتراهما انتصار. بكى عمر غاضبا، الجدة تشتم صلاح وانتصار اللذين ذهبا للشيوعية تاركين ابنيهما. و«الأولاد فى الشارع بيشتموهم: أبوكم وأمكم فى السجن» ثلاث سنوات مضت. وفى عام ١٩٦٢ وصلت رسالة مهربة من عمر قال فيها: «إنت وزوجك (لم يقل بابا) تتركان أولادكما فى حين أن الأمر لا يحتاج أكثر من أن توقعا على ورقة فتخرجان فوراً. جدتى قالت إن فلانا فعلها وخرج» (كان الخروج سهلا بالفعل ولكن بعد أن يوقع المعتقل ورقة تمتدح الرئيس عبد الناصر وتستنكر الشيوعية) وتمضى رسالة عمر: «هذا الخطاب إنذار. أنا تعبان جدا، جدتى تشتمكما كل يوم. إذا استمر موقفكما هذا فهذا آخر خطاب منى لأنى سأنتحر. سوف أحرق نفسى». وتتوقف انتصار وهى تحكى لى، تبتلع ريقها وتمسح أطراف عينيها من دموع أتت بغير إرادتها وتقول: «كنت سأموت من الحزن، وكنت أخشى على رفيقاتى من الانغماس فى الحزن، كنت أخفى وجهى تحت البطانية وأبكى، لكن كل بحار العالم لو

تحولت إلى دموع لا تكفى لشفاء قلب أم، وبعدها علمت أن الأمن السياسى أرسل مندوبا إلى جدة الأولاد وطلب منها أن تضغط على لكى أوقع وأفتح باب الاستنكار أمام المعتقلات، ومال رجل الأمن على عمر وقال له: «اكتب لماما هددها علشان توقع على ورقة وتخرج لكم»، وتمضى انتصار فى حوارها معى: «ساعتها ازددت احتقارا لنظام كهذا وقررت البدء بهجوم مضاد وبدأت أمطر ابناى برسائل مهربة أحكى لهما فيها قصتى وقصة صلاح، ولماذا نحن فى السجن، وما معنى أن تدافع عن الفقراء وعن الديمقراطية وأن تضحى فى سبيل المبدأ، والمثير للدهشة أن هذه الرسائل أثمرت وبدأ عمر وهشام يحتملان الانتظار».

وفى عام ١٩٦٤ يفرج عن انتصار ثم يفرج عن صلاح. ويتواصل نضالهما معاً.

سألتها وهى تمسح دموعها بعد أن حكت قصة رسالة عمر التى هدد فيها بالانتحار قلت لها: «كيف احتملت؟»، قالت: «بكيت كثيراً لكننى أقنعت نفسى أننى إذا أردت أن أكون جديرة بمصريتى وبالمبدأ وبصلاح فإن علىّ أن أحتمل. واحتملت».

عظيمة الحسينى

«تراكمت الأحزان مع تراكم سنوات سجن إخوتى، وذات يوم عدت مكتئبة بعد زيارة لسجن المحاريق. أرادوا أن يروحوا عنى، أخذونى إلى فرح إحدى قريباتى. هناك ألحوا فى أن أطلق زغرودة اشتهرت بها، تمنعت فالحزن يخيم على صدرى، ألحوا.. أطلقت زغرودة استمرت واستمرت واستمرت ولم أستطع أن أسكتها إلا فى المستشفى»
عظيمة الحسينى
(فى حوار معها)

الأب مهندس من أسرة ميسورة الحال ودرس الأدب فى الجامعة الأمريكية ثم درس فى كلية الهندسة، والأم تعلمت لسنوات عدة فى مدرسة الراهبات. ثم إلى البيت فالزواج. الأب ثائر يتفجر ثورية، فعلها فى ثورة ١٩١٩، لكنه لم يتوقف، ظل ثائرا حتى آخر أيام حياته، وأدت ثورته إلى مطاردة له فى وظيفته يطاح به إلى بلد جديد مع كل انطلاقة فى تمرده. ينتقل ومعه أسرته إلى القاهرة – دمنهور – بنى سويف – أسيوط– الأقصر – نجع حمادى – قوص – رفح.. وأماكن أخرى عديدة.

هى تعلمت حتى «الثقافة» وأصدر الجد أمراً بأن ذلك يكفى. الأب كان يتابع الثورة الفلسطينية (١٩٣٦) ويتحدث عنها مع كل من يعرفه وعن البطل عبد القادر الحسينى حتى تصوروا أنه قريبه، ولما استشهد البطل أتوا ليقدموا له واجب العزاء، فأقام سرادقا وتقبل العزاء فعلا. وتبقى فلسطين راسخة فى وجدان الفتاة الصغيرة «عظيمة». ومنذ ذلك الحين وهى تشعر بأنها بالفعل تنتسب إلى فلسطين. وعندما أصبحت شابة انضمت إلى منظمة فتح، وربما كانت المصرية الوحيدة التى انضمت إلى صفوف فتح. قلبها كان دوما مع الفقراء. إلى جوارهم كانت أسرة فقيرة بناتها يرتدين ملابس فقيرة أيضا، فى غفلة من الأم جمعت كل ملابسها وذهبت لتهديها لهذه الأسرة. وعندما أصبحت شابة أسست جمعية لمساعدة الطالبات الفقيرات، تجمع من الجيران والأصدقاء والأقارب ملابس «نصف عمر» تغسلها وتكويها ثم توزعها على الطالبات. أنها أيضا صاحبة هذا الاختراع الذى

يقدمه اتحاد النساء التقدمى فى إقامة معارض للملابس المستعملة.

الإخوة خمسة: بهى - عادل - مصطفى - هانى - مهدى، جميعا مسهم شغف النضال اليسارى تماما كما فعل الوطن مع أبيهم. فى البداية كان بهى ثم مصطفى ثم عادل.. ثم الجميع. وهكذا وجدت عظيمة نفسها مسئولة عن ملاحقة خمسة يلاحقهم الأمن. وفى الزمن الناصرى كانت ملاحقة الأمن صعبة؛ السجون شرسة والمنافى أكثر شراسة بما جعلها فى دوامة نضال دفاعا عن السجناء، الفتاة التى رضعت عشق الوطن وحب الفقراء عاشت محنة ملاحقة سجناء الناصرية حيثما وجدوا تدافع عنهم - تحشد العائلات فى مظاهرات غاضبة - تنقل الرسائل من سجن لسجن - ومن السجن للخارج. فرضت نفسها على الجميع كقائدة للدفاع عن سجناء الناصرية.

وتكونت كتيبة الأمهات والأخوات والزوجات لتخوض نضالا بطوليا يحمى ظهر الرفاق، وينقل صرختهم إلى الشارع وإلى خارج البلاد. أم محمد عثمان، أم محمود العطار، سميحة البرلسى زوجة سعد زهران، أم حمدى مرسى، نجية المانسترلى، خالدة المانسترلى.. ومع هؤلاء جميعا فتاة تتقد حماسا هى عظيمة الحسينى، وتحكى لى فى حوارها كيف كانت البداية «فى ١٩٥٤، أتى البوليس ليقبض على مصطفى، بكيت وانهمرت دموعى لكن أمى صاحت: هو انتى مش وطنية، لازم تعرفى إن فيه سيدات بطلات فأخت البطل عبد الفتاح عنايت كانت مثله تخوض معركة الوطن وتدافع عنه وهو فى السجن».

وفجأة أصبحت عظيمة زعيمة لجيش من عائلات السجناء الشيوعيين، حكايات السجن والمعتقل لم تزل عالقة بذهنها، فقد تعلمت كيف تحفظها أثناء الزيارة لتنقلها إلى الرفاق خارج السجن ومنها إلى الرأى العام خارج الوطن. ولم تزل تتذكر قصص الإرهاب الدموى فى سجن الواحات حيث سجن مهدى، وفى سجن العزب (الفيوم) حيث سجن مصطفى، ذات يوم زارت شقيقها فى سجن المحاريق، حملت معها صناديق عديدة من أسر السجناء الشيوعيين كانت المناسبة مغرية، فالزيارة ستتم يوم العيد. بعد رحلة مضنية فوجئوا بالسجناء مضروبين والسجن كله فى «تكديرة». والزيارة ممنوعة والأكل الخارجى ممنوع، صرخت، احتجت، شتمت، أخيرا سمح لها المأمور بالزيارة، أما الأكل فلا وألف لا. لكن العنيدة لا تكف عن العناد، ربطت الصناديق فى حبل وظلت تجره هى وأحد الزائرين أربعة كيلو مترات وهما يدوران بالصناديق فى حر الصحراء بحثا عن منفذ فى السور تلقى منه بالطعام للسجناء، لكنها فوجئت بنقطة لحرس الحدود، ضابط شاب وبضعة جنود فى قلب الصحراء أجلسوها حكت لهم، رق قلبها لهم فتحت صندوقا وأخرجت بطة محمرة

وصينية رقاق. أكلوا. هى لم تأكل، فكيف تأكل والرفاق لم يأكلوا، الضابط الشاب أوفى بوعده لها، وقام بنفسه بتهريب الصناديق إلى السجناء.

والقصص بلا نهاية، فالوحشية فى الزمن الناصرى كانت بلا نهاية. «مصطفى» كان فى معتقل العزب بالفيوم، لا زيارات، فقط رسائل عن طريق المباحث، أرسل عديدا من الخطابات إلى أمه يطلب صورة لولديه بسمة وهانى، ألح فى طلب الصورتين، ذات يوم استدعاه المأمور وسأله: انت عايز صور ولادك؟ وأجاب أيوه، فأخرج الصورتين ومزقهما أمام عينيه، مصطفى ثار وحاول أن يضرب المأمور فساقوه إلى التأديب حيث ضرب ضربا مبرحا. عبر أحد السجانة سمعت عظيمة بالخبر، ذهبت إلى باب السجن تطلب زيارة أخيها، رفضوا، هتفت بأعلى صوت «يسقط عبد الناصر المجرم» وظلت تهتف حتى قبضوا عليها. سألها وكيل النيابة الهمام سؤالا واحدا «من أبلغك بواقعة ضرب أخيك؟».

وفى ظل هذا الحشد من المأسى ومن القصص. عاشت عظيمة نضالا عظيما. بعد النكسة عملت مع فتح بحماس، فى جناح فلسطين بالمعرض الصناعى ١٩٦٩، بدأت تجمع التبرعات للشعب الفلسطينى ومن المعرض إلى الشارع.. سيدة من بولاق أتت إليها بعربة كارو وتحمل عليها كل ما فى البيت من نحاس تبرعا لفلسطين. من حصيلة التبرعات افتتحت «فتح» عيادة طبية صغيرة فى شارع جواد حسنى كانت النواة لمستشفى فلسطينى، وعندما يأتى السادات يسجن هانى وتواصل عظيمة معركتها فى خدمة الرفاق السجناء. لكن الزمان المتقلب أطاح بقيادات الناصريين إلى السجون وتجمعوا فى مستشفى قصر العينى حيث ينعمون برعاية لا بأس بها. لكن زملاءهم بالخارج لم يهتموا بهم، نسوهم تماما، وكان علينا أن نسمو فوق جراح الماضى ونقدم لهم العون. دفاعاً، وحملات عالمية تطالب بالإفراج عنهم، وتواصلا معهم، ومن غير عظيمة تقوم بهذا التواصل وتقوم بزيارة خصوم الأمس محملة بالطعام والهدايا من التجمع. وتوالت زيارتها لهم تحمل لهم الطعام والأخبار وتنقل منهم الأخبار وتتابع معهم الحملات العالمية التى ينظمها «التجمع» للإفراج عنهم، كل ذلك فعلته وهى تتذمر لكنها امتثلت للقرار الحزبى.

لكن لعظيمة الوجه النضالى الآخر، فهى واحدة من مؤسسات اتحاد النساء التقدمى. وهى برسائلها التى لا تنقطع تمثل ضميرا يقظا ولا يهدأ.

إنها عظيمة فعلا.

ليلى الشال

«عندما بدأ العدوان الثلاثى كنا قد تدربنا على حمل السلاح وأرسلنا الحزب بتنسيق مع العسكريين إلى منطقة أبو صوير. هناك شاهدت فى ريف مصر فتيات يتقدن حماسا ووطنية واستعداداً للتضحية، قمنا بحملات توعية وعمل تنظيمى يسعى لمشاركة المواطنين ضد المحتلين فى حالة تقدمهم إلى المنطقة. هناك عشت أجمل أيام النضال، حيث الجماهير تعشق الوطن بحق، وتتمنى التضحية من أجله بحق. وبين هؤلاء فتيات يمتلكن حماساً دافقا. ووعيا فطريا يستحق الاحترام».

ليلى الشال

(فى حوار معى)

الأب كان مديراً لمصنع السكر ثم مفتشا لعديد من التفاتيش الملكية، والنداء الذى تسمعه كان «البيه المدير» أو «البيه المفتش». عندما ولدت كان الأب مديرا لمصنع السكر فى الشيخ فضل، العمال يحيون حياة بائسة، أجور هزيلة، وظروف عمل غاية فى الصعوبة، فمنحهم «البيه المدير» قليلا من راحة وقليلا جدا من زيادة فى الأجر. عبود باشا صاحب المصنع غضب، فلا مجال عنده لأى مشاعر، الأب غادر العمل مرغما وأصبح مفتشا لتفاتيش ولى العهد (الأمير محمد على) وفى كل صباح كانت كارتة «البيه المفتش» تنقل البنات ومنهن ليلى إلى مدرسة الراهبات فى الزقازيق.

لكن الأب يموت سريعا. وترحل الأم بالأبناء إلى القاهرة. هناك كان اليوزباشى محمود المانسترلى شقيق أختها وابن خالتها. محمود كان شيوعيا وعمل طويلا مع تنظيم الضباط الأحرار. كانت سنة أولى ثانوى بمدرسة الجيزة الثانوية، عندما أعطاها محمود رواية «الأم». سحرتها هذه الرواية، الفتى المناضل «بافل» وأمه وصراعهما ضد الاستغلال عاشا دوما فى وجدانها، وتأتى أحداث مارس ١٩٥٤ لتخرج فى المظاهرات ومحمود يوجهها

ويلقنها الشعارات التى تهتف بها دفاعا عن الديمقراطية، لكن الضوء لم يزل خافتا. ثم أتى الضوء باهرا عندما تتلمذت فى ١٩٥٥ على يدى شهدى عطية. كان شهدى قد أنهى مدة سجن استطالت ثمانى سنوات «أشغال شاقة» وتبقت خمس سنوات أخرى «مراقبة» أو ما يسمى قانونا بالعقوبة التبعية. حيث يتحتم أن يبقى حبيس بيته من لحظة الغروب حتى لحظة الشروق. أمعن شهدى فى الاستفادة من فترة الاحتجاز القسرى فى منزله كل يوم، يكتب، يترجم لكن عشقه الأكبر كان مدرسة الكادر التى نظمها لتدريس النظرية والتاريخ والفلسفة والأداء التنظيمى. ليلى كانت تعبر الكوبرى لتصل قادمة من المنيل إلى شارع قصر العينى. تسير مسحورة بانتظار معرفة متدفقة وتعود مسحورة بما تلقنت. ورويدا رويدا يستضىء القلب والعقل معا، ويترسخ لهيب الضوء فى وجدان تعلم كيف يحتضنه. فى هذه الأثناء كانت عدة منظمات صغيرة قد انضمت إلى «حدتو» بفضل جهود مشتركة لشهدى عطية ومحمود أمين العالم وقيادات المنظمات فى سجن القناطر. ويتأسس الحزب الموحد.

وإذ تنتهى الدراسة الثانوية تلتحق بكلية التجارة قسم علوم سياسية. كان الحكم الناصرى قد أصبح حليفا وكان الشيوعيون قد أسهموا وبحماس فى حماية الجبهة الداخلية بعد تأميم قناة السويس والمقاتلون والكوادر من قيادات الحزب، ومنهم ليلى، اخترقوا حصار بورسعيد أو تمركزوا فى تخوم هذه المدينة استعدادا لمواجهة أى تقدم يجازف به العدو. وبدأت فترة من الازدهار الحزبى فى الجامعة. وتشكلت قيادة منها ومن عادل حسين ومحمد عمارة وفؤاد التهامى وعلى الشريف، ونهضت براعم نضالية بغير حصر، والقائد لكل ذلك كان الرفيق جمال غالى (أحد قادة الجامعة فى الأربعينيات). ليلى أصبحت قائدة طلابية حقيقية، وتمرست فى النضال فى أخطر مناطق التماس مع بورسعيد حيث الاحتلال الثلاثى، وعرفت كيف تكسب قلوب البسطاء وكيف تعرض أفكارها على البسطاء، وتدربت على السلاح واستخدام القنبلة والتمريض والإسعاف عبر اللجنة النسائية للمقاومة الشعبية، وخاصة فى فرعها بالجيزة، حيث عملت هى وثريا إبراهيم فى تنسيق جاء مع ممثل النظام آنذاك أبو الفضل الجيزاوى، وفى أبو صوير تجلت كل مهاراتها. وإذ يهزم العدوان تسلم سلاحها وتعود إلى الجامعة، ويبدأ مجال آخر للتنسيق مع الحليف الناصرى هو «لجان باندونج» وهى تشكيلات شبابية يقودها الضابط وحيد

رمضان من مقر مهيب فى قصر عابدين للعمل فى ظلال كتلة عدم الانحياز، ويكون جوهر تحركات هذه اللجان هو التعبئة الشعبية ضد الاستعمار الأمريكى والصهيونية. وتمثل ليلى الشال ومحمد عمارة شباب الحزب الشيوعى الموحد فى التنسيق مع وحيد رمضان.

وفى غمار هذا العمل المشترك مع الحليف الناصرى يحدث ما يكشف النقاب عن حقيقة الحليف وحقيقة التحالف. ففى الأردن يتحرك القصر الملكى ليدبر انقلابا ضد حكومة الزعيم الوطنى سليمان النابلسى. وتلتهب الصحف الحكومية والإذاعات المصرية و«صوت العرب» بهجوم شديد القسوة على النظام الأردنى ودفاعا عن الزعيم الوطنى النابلسى.

وربما لأن الرفاق فى الجامعة صدقوا دفاع الحليف عن النابلسى، أو ربما وجدوا فرصة للتنفس الجماهيرى بعد فترة قهر لأى تحرك طلابى. المهم قام الرفاق بعقد مؤتمر جماهيرى فى الجامعة، خطبوا ما شاءت لهم قدراتهم الخطابية، هتفوا بأعلى صوت وتنفست الجامعة، ولكن من قال إن الحليف الناصرى يرغب أو يسمح بأن تتنفس الجامعة حتى ولو كانت تهتف بما يقول به النظام، خاصة إذا كان هذا التنفس تحت قيادة الشيوعيين. تحرك النمر، برزت أنياب لا تعترف بصداقة ولا بحليف ولا تحالف. أحيل كثير من الرفاق إلى مجلس تأديب. هى ومحمد عمارة نالا العقاب الأشد: الفصل عاما من الجامعة. ذهبت هى ومحمد عمارة إلى وكيل الحليف فى لجان باندونج وحيد رمضان. وجدا لقاء بارداً ومتجهما وتبدى النمر الشرس على حقيقته.

ومن يومها أدركت ليلى حقيقة هذا الحليف.

* * *

«وأقمنا فى تحد عشنا
لهب أنت ونيران أنا
فتنة أنت ولولا ثورة
جمعتنا ما عشقنا بعضنا».
كمال عبد الحليم
(ديوان إصرار)

الحليف الناصرى فعلها، هى وعدد من رفاقها فصلوا من الجامعة لمدة عام لأنهم

صدقوه وأيدوا رئيس الوزراء الأردنى النابلسى، كما أيده هو. هو أيده على صفحات الجرائد وفى الإذاعة وهم أيدوه وسط الجماهير الطلابية، وهذا هو الفارق. وهذه هى المشكلة.

وفى أول أيام ١٩٥٩ ينقض الحليف الناصرى على حلفائه من الشيوعيين فى أكبر حملة قبض شهدتها مصر منذ عهد الطاغية إسماعيل صدقى (١٩٤٧). ارتبك العمل التنظيمى، مئات الكوارد استضافهم الحليف فى بيوت ضيافة بدأت على الفور بترحيب نازى المذاق، ودارت ماكينة تعذيب شرسة. تم استدعاء ليلى إلى اجتماع عاجل. تم الاجتماع سيرا على الاقدام فى ظلام مساحات من الكورنيش حضره معها مارى بابادبلو وقدرى شعراوى وآخر لا يعرفه أحد منهم سمى نفسه «مدحت». تهامسوا بأنه خارج لتوه من السجن، وهارب لتوه من حكم الرقابة المسائية، الاجتماع كان لتشكيل لجنة حزبية لرعاية أسر الرفاق المقبوض عليهم ولتقصى أخبار المسجونين وأسلوب معاملتهم، تفرق الاجتماع على موعد بينها وبين مدحت لمواصلة فحص حالة العائلات واحدة واحدة وكيفية أيصال المساعدة المالية لها. وكيفية تدبير هذه المساعدات فى ظل حالة الارتباك التى سادت الجميع من أعضاء وأصدقاء للحزب. عدة لقاءات سارا فيها جنبا إلى جنب، كان وجهه خاليا من المشاعر فقد تعلم أن يحترم «الرفيقات»، والعمل الحزبى لا يسمح حتى بترف النظر إلى عينى الرفيقة، لكن كل منهما أخذ فى اختراع مبررات للقاءات عديدة ومتكررة ربما ليس مسموحا بها فى ظل المناخ الإرهابى القاتم. ورويدا رويدا لانت الملامح مع تحفظ متشدد من كل منهما. ثم. إذا به لم يحضر. أبدا لم يتأخر عن موعد. كان قد أعطاها اسم «كريمة» زوجة الرفيق محمد الزعفرانى كبديل إذا قبض عليه. ومن كريمة عرفت اسمه الحقيقى وأنه قبض عليه، قلبها انقبض أكثر مما يجب، وسالت دموع لا تحدث فى حالات القبض الأخرى. ورتبت مع كريمة زيارة له فى السجن. ومرة أخرى بحثت عن مبرر.. لا مبرر سوى رغبتها فى رؤيته. وزارته.. وساعتها شعرت وشعر هو أن الحاجز الحديدى الذى يفصل بينهما جمعهما بأكثر مما توقع كل منهما، ووعدته بزيارته مرة أخرى، ولم تحضر وعرف من «كريمة» أنها قبض عليها وأنها فى سجن القناطر (نساء). وبعد فترة نقل هو إلى سجن القناطر (رجال)، المسافة بين السجنين قصيرة جداً.. مجرد جدار، لكنها بعيدة جدا. هو استخدم خبرته فى اجتياز الحواجز الأمنية وتراسلا عن طريق

أحد المسجونين العاديين المسموح لهم بالتنقل بين السجنين.. وعبر ورق البافرة تراسلا. فى البداية كانت الرسائل حزبية جافة تحمل أخبارا تتسرب من الخارج، وقليلا قليلا بدأت كلمات مغلفة بحذر شديد بالعواطف، ثم انهارت سدود الحذر وصار هناك نوعان من الرسائل إحداهما حزبية والأخرى عاطفية. الدكتورة «أيدا» والدكتور صادق تعاطفا مع هذه العلاقة وأسهما فى تبادل الهدايا والرسائل. وذات يوم رتب د. صادق مجالا للرؤية استدعاه للعيادة واستدعاها للكشف عليها ومن بعيد لمحها.. كانت قد لبست أجمل ثيابها وأبهى زينتها، هو كان كالجميع حافيا ويلبس جوالا من قماش السجن الأبيض، ليس مسموحا بالاقتراب ولا بالتحية، فقط تبادلا النظرات، أرسلت له مع د. صادق منديلا من حرير أبيض طرزته بيديها وبه الحرف الأول من اسمها واسمه. حافظ عليه واستمد منه طاقة لا تنفد عبر سنوات وسجون عدة ولم يزل يحتفظ به إلى الآن.

هو إلى المحاكمة العسكرية فخمس سنوات أخرى وهى تبقى فى السجن أربع سنوات. تتواصل المراسلات ويتواصل معها الانتظار، هى خرجت بعد السنوات الأربع. عاندت عائلتها وصممت على انتظاره. وفور الإفراج عنها عادت إلى صفوف الحزب. كان كل شىء حذرا.

ومحمود توفيق دربها على كتابة رسائله إلى الرفاق بالسجون بالحبر السرى، وبعدها بفترة صدر لها قرار بالانضمام إلى التنظيم الطليعى وتبقى فيه شاهدة على أحداث وأخطاء وخطايا. لكنها تبقى، فالحزب صدر قرار بحله، ولم يبق مجال آخر. وفى ١٥ مايو يلهث إليها قرار سرى من قيادة التنظيم الطليعى بأن أعضاء التنظيم سيحتشدون أمام جامع شركس بعد صلاة الجمعة لتنظيم مظاهرة احتجاج على قرارات السادات بالقبض على قيادات التنظيم، ذهبت مملوءة حماسا. خرج المصلون.. هتفت ولم يرد أحد هتفت وهتفت وانصرف الناس فيما عداها وعضو آخر. مرة أخرى يخذلها النمر الناصرى. المرة الأولى لأنه مفترس والمرة الثانية لأنه قط.

وعندما يتأسس منبر اليسار تكون من أوائل من انضموا إليه. ثم تكون مع أول تشكيل للمكتب النسائى ومع أول من أسسوا اتحاد النساء التقدمى. ولم تزل.

ثريا إبراهيم

«سألنى مختار فى أول لقاء: ماذا تقرأين؟ قلت: روايات. أعطانى رواية «الأم» لمكسيم جوركى. قرأت وبكيت وأحسست أن طاقة ضوء فتحت فى قلبى وعقلى. واقتربت أكثر بمختار، واقتربت معه بالنضال».

ثريا إبراهيم

(فى حوار معها)

كثيرا ما كانت الأم تحكى للأولاد حكايتها أيام ثورة ١٩١٩، كان من بين جيرانهم شابان يتفجران ثورية، عصام الدين ومجد الدين حفنى ناصف، وذات ليلة دق الباب وكان عصام ومعه لفافتان وطلب إليها أن تخفيهما لأن البوليس يبحث عن بيتهما ليفتشه، منشورات تدعو للثورة ومسدس. الأم بحاسة غريبة خبأت المنشورات فى جوال الأرز والمسدس فى صفيحة الجاز. ومع حكايات كهذه كانت ثريا تتفجر انبهارا ووطنية. بيتهم كان فى مواجهة كوبرى عباس، ويوم الحادثة الشهيرة تساقط عشرات الجرحى والقتلى، أما الجرحى فكان بيتهم مكانا ومخبأ لمن يختفى من البوليس.

الأب بك محترم مدير عام مدارس الصنايع بوزارة المعارف، وكان من تلامذته فنان شهير هو زكريا الحجاوى. وقف زكريا معها ذات يوم فى البلكونة، لفت نظرها إلى شاب أحمر الشعر أبيض البشرة وقال لها: «الولد كويس ونفسه يتعرف بيكى». تعارفا وتزوجا، وفى بيتها كان كثيرون يأتون، يجتمعون معا فى حوار ممتد، يرتفع صوتهم أحيانا فى حوار حميم، سألت، وأجاب، وطلبت أن تشاركه فرفض خوفا عليها، صممت.. فوافق. وبدأت.. «خذى هذه اللفافة سلميها لفلان، هاتى لفافة من المنزل الفلانى»، وذات يوم أعطاها مظروفا وقال لها: «اذهبى إلى محل استرا فى التحرير. سيحضر شاب أسمر له شارب هو خارج لتوه من السجن، سيكون مراقبا فى الأغلب ولهذا من يقابله يجب ألا

يكون معروفا». سيدة شيك تجلس فى استرا تبتسم لكل أسمر له شارب وكلهم يبتسمون ويغازلونها، الرفيق أتى.. لم يبتسم.. توجه إليها مباشرة وكأنه يعرفها، أخذ المظروف ومضى. (كان الرفيق فتحى خليل الصحفى فى روزاليوسف). بعد هذه الواقعة تمردت، تريد أن تناضل كما يناضلون. وقابلها مختار مع مسئولة هى ليلى الشال. عملتا معا لفترة طويلة، وعندما التهبت مصر مع تأميم القناة التهبتا معها هما وكل الرفاق.

وفى اللجنة النسائية للمقاومة الشعبية ذاقت ثريا طعما آخر للعمل النسائى. فقد عملت من قبل فى الهلال الأحمر وجمعية نهضة المرأة، وجمعية رعاية الأسرة. النساء فى هذه الجمعيات مختلفات يحببن المظاهر ويهوين الإعلان عن نشاطهن. لكن هذه اللجنة شيء آخر. ذات يوم حضر اجتماع اللجنة صحفى حاول أن يصورهن رفضت هى وليلى «نحن لا نحتاج دعاية لأنفسنا»، ومع اشتعال الحرب اشتعل الحماس هى وليلى وغيرهما تدربن على السلاح ولبسن الأوفرول الكاكى وسافرن إلى الجبهة.

وعندما تمتلك المرأة حق الانتخاب كجزء من الانتصار المصرى على التخلف تخوض معركة جماهيرية لقيد آلاف السيدات فى جداول الناخبين، لكن عملها الجماهيرى لم يتعارض مع نضالها السرى الذى أتقنت فنونه، ففى ١٩٥٤ قبض على مختار وكلفها التنظيم إيصال أوراق ورسائل إليه فى المعتقل. تأملت، تذكرت عبقرية أمها.. جوال الأرز وصفيحة الجاز.. وفعلت مثلها وإنما بأدوات حديثة، الرسائل تسربت إلى السجن عبر أنابيب معجون الأسنان والصابون. واعتمد التنظيم طويلا على كفاءة «الرفيقة إلهام» فى العمل السرى، وتقول فى حوارها معى: «كنت حذرة جدا، البوليس لم يستطع أبداً أن يراقبنى.. تذكرت دوما الأم فى رواية جوركى وفعلت مثلها». وفى يناير ١٩٥٩ هاجم البوليس البيت كان مختار فى المنصورة، قالت لا تعرف أين هو، كلمته تليفونيا من السنترال: «العيلة كلها سافرت خليك عندك». وهرب مختار واستمرت إلهام فى نضالها السرى. وفى ٢٩ مارس أتوا مرة أخرى، ابتسم الضابط: «المرة دى مش علشان الدكتور مختار، ولكن علشانك انتى». انقسم قلبها، نصفه طار نحو مختار الهارب فى الدقهلية ونصفه ارتمى تحت أقدام ابنتهما «مير». كانت قد أعدت خطة للهروب إذا أتى البوليس تطلب أن تغير ملابسها، تقفز من الشباك إلى الحديقة الخلفية ومنها إلى حديقة الجيران ثم إلى شارع بعيد. لكن كيف تهرب ومير وحدها، أرسلت مير إلى بيت أمها، لكن أختها كانت

هناك ولم تكن تحب مختار، هذا الطبيب المشاغب الذى أخذ بنت الأكابر ليمرمطها فى هذا الذى يسميه نضالاً. ظلت صورة «مير» تراودها، فقط تريد أن تراها ولو مرة واحدة، لكن أختها تأبى بحجة أن «البنت صغيرة وميصحش تعرف إن أمها فى السجن». الدكتورة «أيدا» طبيبة السجن انفطر قلبها حزنا على حزن ثريا وقررت إرسالها إلى القصر العينى لإجراء عملية غير ضرورية، وترفض الأخت إرسال «مير» إليها. رغبتها الجامحة فى رؤية «مير»، لقنتها فنونا غريبة من المغامرة، كانت فى مستشفى الحميات أتفقت مع عسكرى الحراسة أن تخرج معه لساعة واحدة فى عربة الموتى، ترى «مير» وتعود، وفى المساء خرجت كلمات ثريا: «أنا جاية اشوف مير»، صرخت الأم: «مأمور قسم الجيزة ساكن فى بيتنا ولو شافك حيودى الناس اللى معاكى فى داهية». وعادت بعربة الموتى دون أن ترى «مير» كانت شديدة المراس وكثيرا ما علا صوتها فى وجه المأمور الذى لم يتعود إلا على الخضوع التام من السجناء، يعلو صوتها بشدة وهو ينهار فى أزمة قلبية. الباشسجانة عرفت طريق الخلاص من المأمور لعدة أيام تصرخ فيه ثريا ينهار يغيب أياما ويعود.

وذات يوم عرفت أن مختار قبض عليه، تمزقت شوقا لرؤيته، كان فى سجن القناطر (رجال)، وهى فى سجن القناطر (نساء)، حائط واحد يفصلهما.. الدكتور صادق حكيمباشى السجنين قبل أن يستقبلها فى سجن الرجال بحجة الحاجة إلى فحصها بجهاز موجود هناك، أحضر د. مختار، هى ذهبت آخر شياكة وبمكياج يليق بلقاء الزوج الحبيب. هو أتى حافيا يلبس ثياب السجن، حليق الشعر.. إنه المكياج الناصرى للسجناء.

حكم عليها بالسجن سنتين. انتهت السنتان أخذوها إلى مباحث أمن الدولة، طلبوا إليها أن تكتب استنكاراً للشيوعية وولاءً لعبد الناصر. رفضت. الضابط قال لها: «اكتبى كده وكده علشان تخرجى وتشوفى مير» رفضت. وعادت إلى السجن. وتخرج من السجن فى ١٩٦٣ ويخرج مختار فى ١٩٦٤. واحتاجت إلى جهد فائق كى تقترب من «مير» وكى تتقبل «مير» (خمس سنوات فى هذا الوقت) أن هذه السيدة أمها.

وفى اليوم الأول لتأسيس منبر اليسار أتت ثريا ومختار وأصبحا عضوين نشيطين فى صفوفه. ثم فى صفوف حزب التجمع. ثم يرحل مختار فى حادث سيارة وتهب ثريا كل حياتها للتجمع حتى ترحل هى أيضا.

فتحية العسال

«تحديت الأمية والتخلف الاجتماعى وعلمت نفسى القراءة والكتابة. ثم تحديت الجميع وأصبحت كاتبة ومؤلفة دراما. ثم تحديت السائد والمألوف وتلقنت الماركسية».

فتحية العسال

(فى حوارها معى)

الأب رجل ميسور الحال، لكن المال عنده سبيل لإمتاع نفسه. والمتعة عنده أن ينفق ما يكسب على زواج جديد. ويتنقل مع كل زوجة جديدة من بيت إلى بيت، لكنه يتنقل ومعه كل الأسرة الزوجة الأولى والأولاد إلى حيث الزوجة الجديدة ووفقا لمستواها الاجتماعى. فالزوجة الأرستقراطية ينتقل بها إلى كوبرى القبة ثم زوجة متوسطة الحال يعود بها إلى السيدة زينب، دخلت فتحية التى كانت مفعمة بالحيوية والنضوج المبكر إلى المدرسة الألمانية ثم خلعت المريلة السوداء التى تفرضها مدرسة شديدة الوقار لترتدى مريلة عادية فى مدرسة عادية تليق بحى السيدة زينب. سريعا بل سريعا جداً نضجت البنت التى لم تزل فى الأولى الابتدائية أمها قالت: «خراط البنات خرطها بسرعة»، فجأة وهى لم تزل طفلة فى الأولى الابتدائية تقدم لها عريس، انتبه الأب المنشغل دوما بالبحث عن زوجة جديدة أن البنت كبرت، فأمر بأن تخرج من المدرسة وتحبس فى البيت، فى البداية فرحت؛ فلا مدرسة ولا واجبات منزلية، ثم بدأ الملل. كانت تمسك الجريدة فلا تفهم شيئا، الملل كاد أن يقتلها وبدأت رحلة التحدى. تنطق الأحرف، تكتبها، تركب منها كلمات وأمها تساعدها.. وفجأة انتبه الأب أنها تقرأ وتكتب فبدأ يحضر لها جرائد ومجلات. وإذا كان الخروج ممنوعا فإن التلصص من الشباك يبقى المتعة الوحيدة «لترى أناسا يعبرون الطريق أو بائعا يصرخ على بضاعته»، لكن «عائشة» الأخت الصغرى فتحت الشباك عدة سنتيمترات أزيد، فرآها عسكرى إنجليزى فصعد بغير تستر ليسأل عن البنت الجميلة، الأم

صرخت وتجمع الجيران وضربوه علقة ساخنة، وينتبه الأب فيصدر أمرا ممنوع فتح الشبابيك، لكن باب السجن يمكن أن ينفتح. تفجرت مظاهرات طلابية، سمعت الأم من الجيران أن البوليس يضرب طلبة مدرسة الخديوى إسماعيل (كان ذلك فى عام ١٩٤٦) فزعت الأم على ابنها (حسنى) صرخت ثم صاحت فى فتحية: «إنزلى يا بت شوفى أخوكى»، وانطلقت البنت ذات الثلاثة عشر عاما لتقفز بجنون فى الشوارع ولترى ما لم تره منذ سنوات، اطمأنت على حسنى، لكن مظاهرة لبنات مدرسة السنية صادفتها فانطلقت معها وهتفت معهن: «عاشت مصر حرة» و«الجلاء بالدماء». تدفقت فيها حيوية سنين من العزلة القاتلة وعادت إلى البيت، وقد أصبحت فتاة أخرى، ومرة ثانية يفتح باب السجن، أختها فى حالة وضع وأرسلت تستدعى الأم، أرسلتها الأم لتبقى مع الأخت حتى تستعد هى بشراء ما هو ضرورى وتلحق بها. على رصيف ترامواى ١٧، كانت هناك ابتسامة هادئة واثقة من نفسها، أرسل إليها قصائد عديدة من نظرات قالت كل شىء. ركبت الترامواى. ركب معها بابتسامته. نزلت نزل معها تابعها حتى دخلت بيت الأخت انشغلت عديدا من الساعات مع الأخت والمولود والأسرة ثم ألقت نظرة خاطفة من الشباك لتجده جالسا ومعه ابتسامته على رصيف المقهى المقابل للبيت. من العاشرة صباحا ظلت هذه الابتسامة محلقة على رصيف المقهى حتى السادسة مساء. عادوا إلى بيتهم وعاد خلفهم، وفى الصباح التالى تسللت نظرتها من شباك غرفتها لتجد ذات الابتسامة جالسة مع صاحبها أمام محل عم أحمد المكوجى. نسجت العلاقة نفسها بنفسها عبر إصرار لا ينقطع. وعبر وسيلة الاتصال المعتادة، خادمتهم بسيمة تلتقى مع خادمه سعيد، ليتبادلا الرسائل. هو كتب خطابا ملتهبا، هى خافت. بل هى لا تعرف ماذا تكتب فى خطاب غرامى، فكتبت قصة قصيرة وأرسلتها مع بسيمة وهكذا اندفعت بالحب عبر عالم الإبداع. والشاب الذى لم يزل فى سنة أولى حقوق يستجمع شجاعته ليذهب للأب ويطلبها للزواج الأب يسأل: «فين أهلك؟» ويرد: «أجيبهم حالا من المنصورة»، ويتململ الأب ويبدأ فى فرض شروط قاسية لعل الولد المفعوص يتراجع فيقول المهر ١٠٠ جنيه والإجابة بلا تردد: موافق. والمتأخر ١٠٠ جنيه والإجابة لأ.. ألف جنيه وحتى مليون جنيه، تزوجا وهو طالب. تخرج معه كل صباح إلى الجامعة، وقاعة المحاضرات تتابع وتذاكر معه وتواصل تحديها للجميع. الحياة صعبة جداً. الشقة ضيقة فى حارة ضيقة اسمها درب البلهوان. والطعام شحيح،

وأمه ترسل له نقودا محدودة، كلما جاعا وشعرا بالحاجة إلى تغذية يدخران بعض المال وإلى المنصورة ومنها إلى قرية ميت خميس الملاصقة حيث الأم والفراخ والبط والرقاق. ذات يوم حملا ابنهما إيهاب (٦ أشهر) وذهبا إلى المنصورة بحثا عن مذاق البط. فى ميدان المحطة وجدت أن كل ما معهما ١٢ قرشا ركبوا «حنطورا» وقالت للعربجى: عايزين نركب بـ ١٢ قرش. وأنزلهم فى نصف الطريق ليكملوا الرحلة على الأقدام.

وفى ظل ذلك كله كان بيت درب البهلوان محطا لاجتماعات لا تنتهى. سألت. قال «عبدالله»: «إننا بنشتغل ضد الإنجليز». طبعا عرفتموه هو عبد الله الطوخى. وتمضى الحياة لتصبح قصة فتحية وعبد الله واحدة من أجمل قصص الحب اليسارى. ونمضى مع رحلتهما.

* * *

«حاول عبد الله أن يبعدنى عن النضال الشيوعى خوفاً علىّ. وذات يوم حاول أن يخيفنى وقال لى: قد أسجن. فقلت: وأنا معك».

فتحية العسال

(فى حوارها معى)

مضت الحياة، الفقر هو سيد الموقف، لكن السيد الأكبر كان هذا المسلسل الدائم من الاجتماعات والأوراق والتحركات السرية. وذات يوم دخل عبد الله ومعه رجل وقال عندنا ضيف (إنه رجل مثير للدهشة دوما. سجين دائم اسمه فتحى أبو طالب قبض عليه فى قضية كانت الأولى من نوعها.. سرقة البنك الأهلى، كان ضمن المجموعة التى جندها شهدى عطية فى سجن طرة. وأصبحوا وهم سجناء أعضاء فى منظمة «حدتو». وفتحى أبو طالب سجين أسطورى هرب عديدا من المرات من أكثر السجون قسوة وأشدها حراسة. هرب هذه المرة لينضم لنضال «حدتو». لكن الأمن تصور أن «حدتو» قامت بتهريبه لكى يغتال محمد نجيب انتقاما لقتل العاملين خميس والبقرى.. ولهذا قاموا بحملة مطاردة شديدة العنف). فى منتصف الليل دق الباب بعنف. ارتبك الجميع.. هى صرخت بسرعة بديهة: «استنوا شوية لما ألبس هدومى».. دقيقة واحدة وتلفتت لتجد أن الضيف طار عبر مواسير الدور الرابع ليكون فى الشارع الخلفى. قبضوا على عبد الله وحبس شهرين.

وعاد لتعتصر منه الحكاية الحقيقية، حكاية نضاله مع «حدتو». والشيوعية، والفقراء والظلم.. فقالت له: أنا معك.

- أنا شيوعى.

- وأنا معك.

- قد أسجن.

- وأنا معك.

- سأترك المحاماة وأحترف وسيكون راتبى ٦ جنيهات وسنجوع.

- وأنا معك.

ومضت معه فتحية فى «حدتو» كجزء مهم فى شبكة الاتصال السرية. تحمل رسائل ونشرات، تزور السجناء وتنقل لهم ما يجرى. ذات يوم وفى سجن طنطا كانت تزور فؤاد حبشى، أمسكها المأمور: أنت مسلمة وهو مسيحى، لكنها أفلتت بأعجوبة عبر ابتسامة صافية وعينين هادئتين، المهم أتمت الزيارة. سجن عبد الله فى سجن مصر، أصبح موطنها أمام سجن مصر، وأصبحت زعيمة عائلات الشيوعيين بلا منازع وشريكة فى المظاهرات ومسئولة عن شبكة الاهتمام بالعائلات. تذهب وتجىء، تسافر وتعود. تنقل أوراقاً وتأتى بالرد. لكنها لا تعرف ما هى الشيوعية ولا لماذا يسجن هؤلاء؟ ولا ماذا يريدون؟ وذات يوم قابلت زكى مراد. كان هاربا. وفيما كان يعطيها تعليمات إثر تعليمات صرخت فى وجهه: «إنتوا إيه حكايتكم، مش أعرف الأول انتو عايزين إيه؟» وفتح زكى مراد طاقات ضوء لا ينتهى تألقه. شرح وشرح وقرأت وقرأت واكتسبت الحياة مذاقا آخر، وأصبح الحماس أضعافاً مضاعفة. وانضمت إلى واحدة من خلايا «حدتو» فى «روزاليوسف» حيث كان عبد الله يعمل ومعها فى الخلية صلاح حافظ - سعد التائه - جمال كامل - كانت حسنة الحظ فعلا وانطلقت بحماس غير محدود، خاضت مع العلائلات مظاهرات عديدة «أفرجوا عن أزواجنا».. «أفرجوا عن أبنائنا» ويقبض عليها مرة ومرات ولا تهدأ. واعتصمت النساء ذات يوم فى «روزاليوسف» ثم فى «أخبار اليوم» ودخلت على مصطفى أمين تطلب تبرعاً لعائلات السجناء الشيوعيين. ذهل الرجل المعادى للشيوعية، لكنها ألحت، وتبرع بمائة جنيه. وتمضى زهور النضال اليسارى لتتفتح ويفوح عطرها. لكن عبد الله يخرج من السجن غاضبا من كل الرفاق بسبب الانقسامية والانقسامات.. أما هى فلم تغضب

وواصلت نضالها، فهى عضو فى مكتب رعاية العائلات وعضو فى مكتب الكتاب والفنانين، ومع هذا كله يتفتح الإبداع الفنى، تكتب مسلسلات للإذاعة واشتهرت حتى أصبحت تحصل على أعلى أجر، ومن الإذاعة إلى التليفزيون ثم إلى المسرح لتصبح فتحية واحدة من أشهر الكاتبات فى العالم العربى. وكأمر طبيعى تماما أتت إلى «التجمع»، دخلت وكأنها تدخل إلى بيتها.. «أنا جيت» وقلنا بافتخار «أهلا وسهلا». وتشارك معنا فى مظاهرات أكثر تحديا، وخاصة بعد كامب ديفيد، ويقبض عليها ذات ليلة وإلى السجن. لكنها تخرج من السجن أكثر صلابة. ويصدر قرار بمنع التليفزيون والمسرح والإذاعة من التعامل معها. ولأنها اعتادت العمل السرى كتبت باسم سرى هو «نجيبة العسال». وتتفتح ورود جديدة أكثر.. مسلسلات ومسرحيات اكتسبت شهرة فائقة، وأصبحت رئيسة لاتحاد الكاتبات وأمينة لاتحاد النساء التقدمى.

وتتواصل رحلة عشق يسارى لا ينتهى.

أحمد الرفاعى

«فى السجن الحربى تعلمت أن أتزود بصبر لا ينفد، وبسخرية من الحكام لا تهدأ. كان الضابط المسئول يفتح باب الزنزانة كل صباح ممسكا بورقة فى يده ويصيح: المسجون أحمد الرفاعى السيد عبد الله. وأجيب وفق الأوامر: أفندم. فيصيح: حكم عليك بالإعدام. وأجيب: علم يا أفندم»كنت أعلم أنه يكذب لكنه الإرهاب النفسى اليومى الذى تحول مادة للسخرية».

أحمد الرفاعى

(من حوارى معه)

الأب عمدة طناح، وهى قرية قرب المنصورة، والعمودية تنتقل لكنها لا تغادر الأسرة، الأب وفدى متعصب. والابن بدأ وفديا أيضا وعندما كان أحمد فى الثامنة طاف مع فلاحى القرية وهم يهتفون «يسقط صدقى - يحيا الدستور - النحاس خليفة سعد - هل هلالك يا نحاس» وأطاح صدقى بأبيه من العمودية لكنها ذهبت إلى عمه الذى كان الوحيد المؤيد لصدقى فى القرية، وكان عنيفاً مع الوفديين خاصة. ومع الفلاحين يسير وسط الخفراء ومعه كرباج اشتهر باسم «الأزعر» لكن لا الخفراء ولا الأزعر أمكنهما إسكات «هل هلالك يا نحاس» فأتى الهجانة الذين فرضوا حظراً للتجول من الغروب حتى الفجر. لكن دهاء الفلاحين يهزم الجميع، نار تشتعل فى كومة قش أو حطب فى إحدى حوارى القرية فيستجير العمدة بالأهالى ليخرجوا من بيوتهم لإطفاء الحريق. والعمدة يحظر دخول أى صحف وفدية إلى القرية وتأتيه كل يوم لفافة ضخمة من جريدة «الشعب» التى كان صدقى يصدرها، كانت توزع مجانا لكن لا أحد يمد يده إليها. لكن نسخة من جريدة «الجهاد» الوفدية كانت تهرب من المنصورة كل يوم ليلتف الفلاحون حول مأذون القرية «الشيخ محمد شمس الدين» ليبدأ القراءة كل يوم بتلاوة شعار الجريدة.

قف دون رأيك فى الحـــيـــاة مـــجـــادهـــاً

إن الحـــيـــاة عـــقـــيـــدة وجـــهـــاد

والفتى ابن الثامنة يندس وسط المجتمعين ليستمع ويجاهد كى يفهم. ويجرى صدقى باشا انتخابات أرادها مزورة لكن الأب وأعيان الناحية جميعا يخطفون الصناديق المزورة ليلقوا بها فى الترعة. وقبلها قرر صدقى أن يقلد النحاس فى زيارات للريف، وصدرت الأوامر بحشد الفلاحين على جانبى الطريق إلى قرية إخطاب المجاورة، وتآمر الأعيان. الفلاحون اختفوا ويمر موكب صدقى باشا بين صفين من الجواميس والأبقار التى ربطها أصحابها لاستقبال صدقى، ويضيق النظام ذرعاً بالأب فيصدر أمراً بالقبض عليه ضمن مجموعة من الأعيان الوفديين. ومن المنصورة الابتدائية الأميرية إلى المنصورة الثانوية حيث ترأس أحمد جمعية الخطابة وأتقن فنون الزعامة والخطابة. وإلى كلية الحقوق جامعة فؤاد الأول يأتى فى زمن كان أبناء جيله فى حيرة وخاصة الوفديين منهم. كان جرح ٤ فبراير ١٩٤٢ يدمى قلوب الجميع ويمنحهم قدراً كبيرا من التردد إزاء الزعامة الوفدية. وفى ذات الوقت كانت مدافع لينتجراد وستالينجراد تدوى لتهزم النازيين الغزاة ولتحقق انتصاراً باهراً للدولة الاشتراكية «الاتحاد السوفيتى» وتتفتح أذهان هذا الجيل على رؤى جديدة وعالم جديد.

وفى ساحات الجامعة يلتقى بمصطفى هيكل الذى كان قد أسس تنظيما صغيرا أسماه «القلعة» وينضم إليه، لكنه يبقى على تماس مع مجموعة الطلاب الوفديين الذين تأثروا مثله بالموج اليسارى وأسس معهم «الطليعة الوفدية». وتأتى الإجازة الصيفية ليعود الفتى محملا بفكره الجديد إلى فلاحى طناح التى استقبلت ابن حضرة العمدة هو وفكره الجديد بترحاب وانتماء.. بما منح طناح اسم «القرية الحمراء».

* * *

«وعندما قبض على فى طفولتى فى قضية الشيوعية الكبرى كان فلاحو طناح الأكثر وعيا وشجاعة ودهاءً وقدرة على مراوغة المحقق المسكين، كان منهم عم سيد، فلاح عجوز صامت لكنه يفهم كل شيء ويوجه الجميع بنظرة من طرف عينه. وولد شقى اسمه الشحات، وسيد آخر مغنى مواويل فى الأفراح، أذكر أن وكيل النيابة سأله: تعرف ماهر قنديل (وكان مدرس ثانوى ومسئول الدقهلية وأيضا مسئول طناح)، فأجاب سيد الشاب:

أعرفه يا بيه، لكن لمحة من عين سيد العجوز أفهمته بأن هذا خطأ. فتهلل وجه المحقق فأخيرا وجد طرف خيط فى التحقيق الممل، وسأل سيد بحنان: تعرفه منين يا شاطر؟ فرد سيد بكفاءة من اعتاد أن يرتجل المواويل: بيمر فى بلدنا يا باشا. وسأله المحقق: بيمر يعمل إيه يا شاطر؟ وأجاب: بيسقى الغيطان يا باشا. ودهش المحقق: مين اللى بيسقى الغيطان يا ابن...؟ فرد الفلاح الفصيح :نهر النيل يا باشا. مش حضرتك برضه سألت على نهر النيل؟ وجن جنون المحقق. وكان السؤال دوما عن أحمد الرفاعى والإجابة دوماً: «ده ابن حضرة العمدة، هو فين واحنا فين». هرب أحمد الرفاعى لفترة، ثم قبض عليه وساقوه إلى سجن الأجانب وعندما علم المأمور أنه من طناح قال له: شوف ما دام الشيوعية وصلت للفلاح أبو رجلين مشققة يبقى مفيش فايدة».

ومع وصول حكومة الوفد إلى الحكم فى ١٩٥٠ يفرج عنه. ولا تمضى سوى أيام قليلة حتى يأتيه نبأ استشهاد زميله فى الزنزانة صلاح بشرى (طالب سودانى بكلية الهندسة) وارتبكت حكومة الوفد التى تحلم بعلاقات حميمة مع الشعب السودانى، وارتبك القصر الملكى الذى كان يتمسك بلقب «ملك مصر والسودان»، وسارت فى شوارع القاهرة جنازة مهيبة اندفعت نحو المطار حيث كان القصر الملكى قد خصص طائرة خاصة لنقل الجثمان إلى عطبرة، ومع تدافع الجموع قبل ممثل القصر الملكى المصاحب للجثمان أن يركب معه ممثل للمتظاهرين، وكان أحمد الرفاعى. وفى الطائرة سأله ممثل السراى بتعرف تخطب فاستعان أحمد بدهائه الريفى، وقال لا. فأملاه ممثل السراى اكتب يا ابنى «إن جلالة الفاروق أعز الله ملكه وحمى عرشه يعزى شعبه فى السودان فى وفاة ابنه صلاح»، ويمضى أحمد فى دهائه ويتبدى فى أنه يحاول تدريب نفسه على إلقاء هذه الكلمات.

وتهبط الطائرة فى مطار عطبرة، ويدفعه ممثل السراى إلى المقدمة وأوقفه على سلم الطائرة طالبا منه أن يلقى الكلمة.. ويتقدم أحمد الرفاعى ليهتف فى الجموع السودانية المحتشدة «يسقط فاروق قاتل صلاح.. يسقط فاروق عدو الشعب»، وتردد الجماهير الهتاف. وفى طريق العودة كان ممثل السراى محتقن الوجه وصاح فى ضابط اللاسلكى طالبا منه إبلاغ المطار بضرورة استدعاء أحد ضباط البوليس السياسى ليقبض على الولد الذى سب الذات الملكية. لكن ضابط اللاسلكى كان معجبا بهذا الفتى فقال: آسف يا أفندم اللاسلكى عطلان.

وفى الطريق إلى البيت عرف أن البوليس فى انتظاره هناك. فهرب من جديد.

وتأتى ثورة يوليو ويأتى معها تأييد «حدتو» لها. ألم يكن رفاقها هناك على ر'س تنظيم الضباط الأحرار. ويزداد حماس الرفاعى بعد قانون الإصلاح الزراعى، فهو يعرف قيمة الأرض بالنسبة للفلاح. لكن إعدام خميس والبقرى بعد إضراب كفر الدوار باعد بين «حدتو» والضباط. وتنشب معركة النضال من أجل الديمقراطية والتعددية الحزبية والانتخابات ويهرب أحمد الرفاعى ويكون فى هذه الأثناء عضواً فى اللجنة المركزية «لحدتو» ويكلف تأسيس الجبهة الوطنية الديمقراطية هو وعدد آخر من الرفاق. وسريعا يستعيد أحمد علاقاته بالطليعة الوفدية وبوفدى تقدمى آخر هو أبو بكر حمدى سيف النصر وبأعضاء من الحزب الاشتراكى (إبراهيم يونس وغيره) وبعض ضباط الجيش (مصطفى كمال صدقى ومجموعته) وأعدوا بيانا ببرنامج الجبهة. ثم توالت الضربات وقبض عليه واعتقل فى سجن بنى سويف، وذات يوم جرى ترحيله إلى القاهرة، وفى القطار حضر ضابط ليجلس إلى جوار ضابط الحراسة، إنه مأمور مركز بوش همس فى أذنه: «يا رفيق عاكف انت رايح السجن الحربى والوضع هناك سيئ جدا» قال: أحمد: «عاكف مين؟» فرد عليه أنا: «زميلك فى حدتو. وبعدها عرف أنه الرفيق عز الدين صبرى. ووصل أحمد فعلا إلى السجن الحربى وما أدراك ما هو السجن الحربى، وهناك واجهوه بكثير من نشاطاته ومنها أنه كمسئول عن منطقة القاهرة أشرف على تهريب ثمانية من الرفاق من معتقل روض الفرج وأعد برنامج الجبهة الوطنية الديمقراطية، وحتى نضاله ضد الاستعمار فى منطقة القنال (١٩٥١) كان واحدة من التهم. ثم لا يلبث أن يستبعد من القضية ويرسل إلى المعتقل حتى ١٩٥٦.

ويشهد عام ١٩٥٦ قمة النضال لهذا الرجل الذى لا يهدأ. كان العدوان الثلاثى. وصدر له قرار من الحزب بالسفر إلى بورسعيد لينضم للمقاومة الشعبية هناك. وعبر بحيرة المنزلة نظم أحمد الرفاعى خط اتصال دائم وتوالى وصول الرفاق والأصدقاء: إبراهيم هاجوج ابن بورسعيد وكان عينهم المبصرة لكل شىء، أو من خارج بورسعيد الشيخ عبد السلام الخشان - سعد رحمى - عبد المنعم شتلة - فتحى مجاهد - عبد المنعم القصاص - أمينة شفيق - محسن لطفى السيد - إبراهيم المانسترلى. وهناك التحم الجميع مع نضال لا يهدأ قاد شعب بورسعيد فى مواجهات مسلحة مع الاحتلال وفى مظاهرات صاخبة ضده.

وسريعا ينتظم النضال. ثمة ثغرة ينفذ منها القادمون ومعهم رجال جدد وسلاح.. إنه منزل قديم تقيم به سيدة ضخمة تجلس طوال النهار على شاطئ بحيرة المنزلة تبيع وتشترى لكنها فى الواقع نقطة مراقبة وحلقة اتصال، إنها خالتى «أم السعيد الضو»، وثمة مطبعة صاحبها جاهز، وعبد المنعم القصاص الفنان يعمل معه ليصدر جريدة «الانتصار» وفى خضم ارتباكات عديدة تأسست الجبهة المتحدة للمقاومة الشعبية التى نظمت كل شىء فى المدينة من التموين وحتى ضبط الأسعار إلى الكفاح المسلح إلى المظاهرات الشعبية. وعندما قامت قوات الاحتلال باعتقال بعض المواطنين دعت الجبهة المتحدة إلى مظاهرة. لكن الغريب أن محافظ القنال أصدر قرارا بمنع المظاهرة «حفاظاً على الأرواح» لكن أحمد الرفاعى يقف خطيبا مصمما على إنجاح المظاهرة وعلى مواصلة النضال ضد الاحتلال. وتنجح المظاهرة رغم الطائرات التى حلقت فوقها والمدرعات التى أحاطت بها، ويواصل أحمد الرفاعى ورفاقه معركتهم ضد الاحتلال بالسلاح تارة وبالمظاهرات الشعبية تارة أخرى.. حتى الانتصار.

وذات يوم استدعى لمقابلة ممثل المخابرات داخل بورسعيد المحتلة. الرجل الذى كان أنشط مسئول داخل بورسعيد أبلغه تحيات الرئيس عبد الناصر، «وشدوا حيلكم.. وده مبلغ بسيط يساعدكم فى مواصلة عملكم»، المبلغ البسيط كان يملأ حقيبة سفر كبيرة، لكن إجابة أحمد الرفاعى كانت موجعة، «إحنا فعلا بنحتاج فلوس لكن بتيجى لنا من المواطنين العاديين. ولسنا بحاجة إلى أى أموال». الغريب أن هذا الموقف أثار حفيظة الكثيرين من المسئولين ضده فيما بعد. وفى بورسعيد تألق القائد المناضل بالسلاح وبالجماهير معا، وأصبح خطيب المظاهرات وقائد العمل المسلح، وتألقت كتيبة الرفاق فى عمل نضالى متصل، سلمهم ممثلو المخابرات رشاشات، وبعد تحرير بورسعيد أصدر أحمد الرفاعى قراراً بإعادة السلاح لأصحابه، مؤكدا «نحن لا نخون حليفنا». لكن الحليف ما لبث أن انقض عليهم بعد عامين فقط وعذبهم فى السجون عذابا لا يحتمل.

ومن بورسعيد يعود أحمد الرفاعى إلى النضال الحزبى مسلحاً بخبرات وفيرة، وتتواصل معركة توحيد الشيوعيين ويصبح واحداً من قادة الحزب الذى توحد فيه الجميع ثم ما لبث أن انفرط عقده.. ومن جديد يعود إلى السجن إثر حملة شرسة ليلة رأس السنة ١٩٥٩، وأمام المجلس العسكرى العالى يقدم أحمد الرفاعى دفاعا هز وجدان الجميع.

وحضر معه شهود ممن شاركوا معه فى معارك بورسعيد، لكن القضاة أصدروا حكمهم بالسجن ثمانى سنوات أشغال شاقة.

وفى سجن المحاريق استعاد الرفاعى كفاءته كفلاح أصيل وأصبح مسئولا عن المزرعة التى جرى استصلاحها بسواعد الرفاق «ثلاثون فدانا» وأمدت السجناء والسجانين بحاجاتهم من الخضراوات.

وفى ١٩٦٤ يفرج عنه.. ليقفز سريعا إلى موقع رئيس النقابة العامة لعمال الزراعة وإلى نائب رئيس الاتحاد العام لعمال مصر. ويضطر النظام إلى إدخال تعديل على قانون النقابات لحرمانه من حق الترشح وقد أسماه النقابيون «تعديل أحمد الرفاعى».

وإلى اليمن الجنوبى يسافر خبيرا للأمم المتحدة، وهناك يصبح واحداً من أهم الشخصيات التى تشارك فى الحكم. وينجح فى إقامة إذاعة مصرية يديرها الحزب الشيوعى المصرى ويوجهها إلى شعب مصر.

وإذ يحين تقاعد المناضل يعود مرة أخرى فلاحا ليستصلح عديداً من الأفدنة فى النوبارية.

ويرحل أحمد الرفاعى كما بدأ فى طفولته مخلصا للوطن، وأيضا مخلصا للحزب الذى ظل يعمل فيه حتى آخر نسمات الحياة.

أحمد الرفاعى
(مذكرات)

«سنلاحظ أن هذه المذكرات هى مجموعة من الخاطرات سجلها صاحبها دون ترتيب زمنى، لكنها تتضمن فى مجملها خطوطا بالغة الأهمية لاستكمال الصورة العامة. كما أنها تتميز بتقديم صورة مجسدة لأسلوب معاملة الشيوعيين فى بعض فترات الاعتقال ومواقفهم إزاءها، وقد أعدت هذه الخواطر بناء على طلب المؤلف».

لا أدرى لماذا تلح على هذه الذكريات، وكلما حاولت أن أطردها تعود إلىّ من جديد، وقد أنساها لمدة طويلة، وأستريح من عنائها، ولكن لا تلبث بعض الأحداث اليومية أن تعيدها إلىّ ثانية. تعيدها فى بعض الأحيان باهتة متقطعة لا رابط بينها، ولكن هذا الشريط لا يلبث أن يترابط من جديد. وكأنه فيلم سينمائى يعرض على دقات نواقيس حزينة رتيبة. تودع موكباً صغيراً فى بحر الظلام، عليه أن يبحر فى ظلمته بين أمواج عاتية قد تبتلعه ولكنه يظل متمكساً بالسطح كعلبة صغيرة تعلو وتنخفض ولكنه رغم ذلك مصر على إكمال رحلته.

ما أكثر ما سمعت مثل هذه الذكريات، يرددها أصحابها فى شرود وبلهجة المريض الذى يحب باستمرار أن يتحدث عن علته، عساه قد يشرك الغير معه فى تخفيف حدتها.. وما أكثر من يطلبون سماع هذه القصص ويستزيدون منها ولكنهم لا يلبثون أن ينصرفوا عنك إما مللاً من كثرة سماعها، وإما اشمئزازا من تفاصيلها.

وما كنت أريد أن أسجل شيئا من هذه الوقائع ببطولتها ومآسيها. رغما عن أنها ليست أحداثا شخصية، فهى ترتبط بالإنسان وكرامته، الإنسان أى إنسان وأيا كان اسمه وتفكيره، مرتبطة بحاضره ومستقبله. وبالذات الإنسان العربى الذى حكم عليه دائما أن يعيش فى خوف محروماً من حقه فى الكلام والتعبير.. ودائما يعيش منسيا فى مجتمعه،

يفكر له غيره. ويصوت له فى الانتخابات غيره، ودائما هو محسوب فى الـ٩٩٪ من الموافقين. «نعم» هى الكلمة المطلوبة، بينما «لا». هى الكلمة المرفوضة. والويل لصاحبها.

لم أكن أتصور أننى سأجلس يوماً من الأيام لأتناول الكتابة، فلم تكن الكتابة مهنتى، ولم أسع لأن أكون كاتبا يعرف كيف يبرز الصور، ويحبك الصياغة، ويجسد الأحداث، ويستبد بالقارئ فيجعله يعيش معه، أو يستبد به القارئ فيحوله إلى راوية له.

ذكريات كثيرة وطويلة بعضها ما زلت أعيشه وأذكره. وبعضها ضاع مع الزمن وسجله آخرون فى كتاباتهم. ولكنها أيا كان الرأى فيها فإنها جزء من كفاح شعبنا الباسل المناضل، الذى لا بد أن تعرفه الأجيال الجديدة.

سجون فى عصر فاروق

وإذا كانت الذكريات كما يقولون تترابط مع بعضها فى عقل الإنسان، وكل ذكرى تثير ذكرى أخرى وتخرجها إلى حيز الوجود، فما زلت أذكر هذه الأيام فى سجن مصر فى ظل الأحكام العرفية فى عام ٤٨ أو ٤٩ ولكنها على كل حال كانت فى ظل حكم إبراهيم عبد الهادى باشا، حيث أعلنت الأحكام العرفية باسم الأمن المطلوب لحماية قواتنا التى تحارب فى فلسطين، والحقيقة أنهم لم يكونوا يريدون بهذه الأحكام العرفية الحفاظ على أمن الوطن كما هو وارد فى المادة ٤١ من دستور ١٩٢٣ التى تتيح للحاكم إعلان حالة الطوارئ إذا كان هناك ما يستدعى ذلك مثل انتشار مرض معد أو فيضان أو حرب، ولكنهم كانوا يريدون بها تصفية الحركة الوطنية التى وصلت إلى أقصى مداها فى عام ١٩٤٦، وتصفية حسابات سابقة مع جماعة الإخوان المسلمين الإرهابية، حينما اغتالت محمود فهمى النقراشى رئيس الوزراء.

لقد جن جنون الطبقة الحاكمة فى ذلك الوقت، وقسموا القاهرة إلى مربعات ويقومون حينما يأتى الليل بتفتيش منازل كل مربع للقبض على العناصر الوطنية أو عناصر الإخوان المسلمين الهاربة.

وكنت فى هذه الفترة هاربا من طلب نيابة المنصورة بالقبض على، حيث قبض على العديد من العناصر فى محافظة الدقهلية من الفلاحين، بحجة أنهم ينتمون إلى منظمة شيوعية (حدتو) وتمكنت من الهرب فى هذه الفترة بعد أن أعطى زميل لى فى الدراسة للأمن كل المعلومات الكافية للقبض علىّ من اسم ووصف للطول والعرض والشكل، واتهامه

لى بأننى المسئول عن تجنيد بعض الخلايا الشيوعية فى قرية طناح والقرى المجاورة لها.

كانت أول مرة فى مصر يقبض على الفلاحين بتهمة الانتماء إلى منظمة شيوعية، بعد أن كان المتهمون عادة من الطلبة أو العمال أو المثقفين، ظهر عنصر جديد هو الفلاح المصرى، والعامل الزراعى.

ولن أنسى كلمة لمأمور سجن الأجانب فى هذه الفترة، حينما فوجئ بالمتهمين فى هذه القضية، ووجدهم كلهم يلبسون الجلباب الأزرق، وبعضهم حفاة، وهو يضرب كفا بكف ويقول بلغة المستجير المتشائم: «والله ما دامت الحكاية وصلت إلى أبو رجلين مشققة، ماعدش فيها فايدة. عليه العوض فى البلد».

المهم أننى هربت من أمر نيابة المنصورة بالقبض على، واستمر هربى لمدة طويلة، حتى قبض على فى القاهرة مع بعض الأصدقاء والرفاق. «أحمد فؤاد بلبع» طالب الهندسة «روبير ستون» الأول على التوجيهية والأول على دفعته فى كلية الهندسة. وآخرون.

كنا فى هذه الفترة فى سجن مصر، حيث يوجد عدد كبير من الرفاق الآخرين. وكانت المعاملة فى منتهى السوء مما دفعنا للإضراب عن الطعام من أجل...

الحق فى قراءة الصحف..

الحق فى وجود نور فى المساء..

الحق فى العلاج الخارجى..

الحق فى الاستمتاع بغذاء خاص..

وربما كانت النقطة الأخيرة مثيرة للضحك، حيث كان معظمنا لا يستطيع أن يستمتع بالغذاء الخاص، وما يقتضيه من تكاليف ومصاريف، ومن المفارقات الغريبة أن البعض من منظمة «م.ش.م»، والذين كانوا يرفعون شعار ١٠٠٪ عمال وكلهم من أبناء الطبقات البرجوازية الكبيرة القادرة والذين ودعوا فيما بعد الكفاح إلى لا رجعة... كانوا يستقبلون غذاءهم اليومى من بيوتهم فى هدوء ودون ضجة.

ما زلت أذكر فى هذه الفترة قيادات الإضراب.

أسعد حليم. شريف حتاتة. كمال عبد الحليم.

مناضلون حقا. ولكن أغلبهم فقراء حقا. من أين يأتيهم الغذاء الخاص، كنا إذا حل المساء نضحك حتى ننسى آلام الجوع.

واستمر الإضراب حوالى خمسة عشر يوما. كان إضرابا قاسيا لم نحقق فيه أى مكسب، إلا مكسباً واحداً حيث أقنعنا الإدارة بتركيب أخشاب للنوافذ لتحول دون برد الشتاء القارس. وانتهى الإضراب بتحقق ذلك المكسب الوحيد.

ومن المصادفات الغريبة أنه بعد انتهاء الإضراب ألغيت الأحكام العرفية التى فرضها إبراهيم عبد الهادى وذلك بعد نجاح حزب الوفد وحصوله على الأغلبية المطلقة وتشكيل النحاس باشا للوزارة الجديدة من الوفديين. وما إن ألغيت الأحكام العرفية، وعاد للقضاء العادى اختصاصه الأصلى، حتى بدأ عرض جميع قضايا المتهمين على القضاء من جديد.

ونتيجة للعلاقات العميقة التى كانت تربطنى بكثير من الوفديين قاموا بإرسال أكثر من محام ليدافعوا عنى، ومنهم الأستاذ «حافظ شيحا» والأستاذ «عدلى المولد».. ونشرت مرافعتهما إلى جانب مرافعتى فى جريدة «صوت الأمة»، لسان حال الوفد المصرى فى هذه الفترة.

كان ذلك موقفا فيه وفاء من الوفديين، حيث كنا نشترك معهم فى جبهة واحدة ضد السراى وضد إبراهيم عبد الهادى رئيس الوزراء. وتقريبا كنت أنا القاسم المشترك كخطيب فى سرادقات الانتخابات الوفدية، حيث كان برنامج الجبهة فى ذلك الوقت يدور حول مطالب بسيطة ومحددة.

إلغاء الأحكام العرفية.

إطلاق سراح المسجونين والمعتقلين.

إقامة حكم ديمقراطى.

وفعلا حصل الوفد على الأغلبية المطلقة، بعد أن تجلت فى هذه الفترة عظمة الشعب المصرى وأصالته، إذ كانت ضمن المعتقلين عناصر يهودية فطالب الشعب المصرى بإطلاق سراحهم، ولا عجب من ذلك فإن هذه العناصر اليهودية كانت معتقلة لأنها ضد الصهيونية، بينما الصهاينة الأصليون كانوا يمرحون فى شوارع القاهرة، نعم كانت هناك عناصر يهودية تناضل ضد العنصرية وضد الصهيونية أمثال: «زكى فورتى» و«هنرى كورييل» و«هليل شوارتز» وآخرون لا أذكر أسماءهم.

والحقيقة أن الشعب المصرى لم يعرف العنصرية يوما من الأيام، ولم يعرف التحيز الدينى.

لقد سقطت الأحكام العرفية، وقدمنا جميعا، نحن المسجونين السياسيين الذين كانوا على ذمة القضايا التى أعدتها المباحث العامة، والقسم المخصوص (كان تابعا مباشرة للسفارة البريطانية) فى خلال سنتين إلى المحكمة، وفى هذه الفترة كان عددنا حوالى المائة أو يزيد، وكانت المباحث تشعر بالحزن والأسى لأن مجهودها فى فترة سنتين قد ينتهى إلى لا شىء ما دامت الأوضاع القانونية أصبحت سليمة، وألغيت حال الطوارئ، فأجهزة التجسس لا تجد نفسها إلا فى ظل الكبت والإرهاب وغياب القانون.

وكان القاضى الذى ينظر هذه المعارضات، شخصية غير مرغوب فيها من جهة المباحث لميوله الديمقراطية والقانونية، وإصراره على أن يأخذ القضاء مجراه، كان اسمه «وجدان طاهر» قاض أمين وعظيم ومؤمن برسالة القانون والقضاء.

وما كادت القضايا تعرض عليه، حتى رفض أى طلب للتأجيل تقدمت به النيابة، وكان وكيل النيابة فى هذه القضايا جميعها اسمه «على نور الدين» عين فيما بعد نائبا عاما، شخص يرتدى نظارة سميكة، ذو كرش يصل إلى ركبتيه، بحيث تشعر أن سترته تصل إلى ركبتيه، أو أنه دون أقدام، دائما مرعوب من قوة خفية، له فى كل يد من يديه ستة أصابع، يتكلم بصوت خفيض فيه معانى الذلة والمهانة، يرتعد أمام أى ضابط من ضباط المباحث حتى ولو كان فى رتبة ملازم.

كان كل همه فى هذه القضايا أن يطلب التأجيل لإطالة مدة حبس المعتقلين، ولكن القاضى كان يرفض باستمرار طلباته.

وما إن عرضت القضية التى كنت متهماً فيها، حتى وقف وكيل النيابة هذا يترافع بصوت مرتعش متهما إياى بالخطورة، وأن المضبوطات التى معى كفيلة بأن تسوقنى إلى المشنقة. ولكن القاضى كان يلاحقه باستمرار.. نريد أن نعرف ما هى المضبوطات.. وبعد كثير من مناورات النيابة، اتضح أن المضبوطات لا تعدو أن تكون رواية مترجمة تدور وقائعها حول سجن الباستيل.

واستجار وكيل النيابة فى هذه الحالة برئيس القسم المخصوص البكباشى «أحمد حلمى» (الذى اتهمته الثورة بعد ذلك أنه على علاقة بالأمريكان) فمال على وكيل النيابة ليوجهه بالاصرار على التأجيل، ولما قمت بتنبيه المحكمة إلى هذا الوضع المشين.. حيث إن ضابط بوليس يوجه النيابة.. استفز القاضى الجليل، وزجر ضابط القسم المخصوص،

وسأله بامتهان عن صناعته وعن اسمه. وأمر بوضعه فى قفص الاتهام.

وهنا تدخل بعض المحامين. وأفرج عنه، ولم ينس قبل مغادرته القاعة أن يسر إلى فى أذنى: «لن أنسى لك هذا الموقف، وسوف أكون فى المستقبل شاهدا ضدك وأنت تساق إلى المشنقة».. وبالطبع لم أذهب إلى المشنقة، بل ذهب هو إلى لا رجعة.

خرجت من السجن، وخرج باقى المسجونين، ولم تنس النيابة أن تضغط عن طريق السراى لإبعاد هذا القاضى عن القاهرة، وفعلا أبعد عن طريق السراى إلى السويس.

ولن أنسى ذلك القاضى العظيم، ورئيس المباحث العامة «حسن المصيلحى» وهو يميل عليه، ليبلغه أنه قد تعب حيث بلغت الساعة الخامسة، وأن عليه أن يؤجل هذه القضايا لصبيحة اليوم التالى، وهو يرفض، بل.. يأمر بالقبض عليه.. لتدخله فى أمور ليست من شأنه. ومحاولته التأثير على القضاء.

خرجت بعد عناء طويل، وبعد مؤامرات من محافظ القاهرة «كامل القاويش» الذى أخر الإفراج عنى لمدة عشرة أيام متنقلا بين سجون أقاليم وجه بحرى (كعب داير)، لعل النيابة تكون لها مواقف ضدى فى هذه الأقاليم..

خرجت بعد هذه الرحلة الطويلة منهكا متعبا، فى أمس الحاجة إلى الراحة بعد أن عرضونى على كل نيابات وجه بحرى.

وبعد الإفراج عنى ببضعة أيام فوجئت بأحد الرفاق يطرق الباب، ويستفسر منى.. هل تعلم أن «صلاح بشرى» قد مات؟ وأن اليوم تشيع جنازته؟ أحسست بالمأساة، صلاح كان زميلى فى مدة السجن.. صلاح بشرى ابن السودان، طالب الهندسة.. المريض بالسل.. الممنوع عنه الدواء حتى يركع.. صلاح المرح الذى يعيش فى مصر كما لو كان فى السودان. كل من رفاقه يناديه «يا زول». يضحك يرقص. يغنى الألحان السودانية فى بساطة ومرح.. صلاح ابن عطبرة.

أصابنى الصمت والذهول. لم أجد جوابا. لم أتكلم.. صمت بارد طويل فى شقة فى أول دور فى المنيرة ١٩ شارع بستان الفاضل.. لم أستطع أن أتكلم. صمت الرفيق أيضا..

وبعد الصمت الطويل، سألته.. وما هو المطلوب؟

وأتى الرد من الرفيق.. لقد أعددنا لمظاهرة ضخمة تطوف شوارع القاهرة لتشهد الشعب على المآسى التى ارتكبتها الرجعية والاستعمار فى فترة الأحكام العرفية، التى

أعلنت باسم تأمين دخول الجيش لتحرير فلسطين.. وفى الواقع استخدمت أبشع استخدام فى تعذيب الوطنيين بل واغتيالهم، لا فرق بين شيوعى ونقابى أو إخوان مسلمين. الكل كان يجلد. يعذب. وبعضهم يعتدى على عرضه. أو حتى يدفن فى الظلام، إنها مأساة غياب الديمقراطية.

وبعد صمت قليل أبلغنى أن الرفاق فى اللجنة المركزية رشحونى لقيادة هذه المظاهرة. وأفهمنى أن كل شىء معد، وأبلغنى بأسماء بعض الرفاق الذين يتولون تنظيم هذه المظاهرة وحمايتها من أى محاولة تخريبية تقوم بها العناصر العميلة لأجهزة المباحث أو السفارات الأجنبية.

من القاهرة إلى الخرطوم

خرجت مع الرفيق للمشاركة فى المظاهرة، وتنفيذ التكليف الموكول إلىّ، حتى وصلنا إلى قرب الجامعة حيث ودعنى الرفيق ومضى فى طريقه. وما كدت أرى المظاهرة وهى تخرج من حرم الجامعة، حتى تبين لى دقة التنظيم رغم ما يسيطر على المشاركين من غضب واشمئزاز لهول الجريمة.

مضت المظاهرة، وهى تجد الروافد التى تمدها بالجماهير، طلبة وعمال من الجيزة، وما إن وصلت المظاهرة إلى ميدان التحرير حتى التقت بعديد من العمال القادمين من شبرا وحلوان والوايلى والعباسية، وتوجهت المظاهرة إلى ميدان الأوبرا حيث صلى على جثمان الشهيد. وكان الغضب قد استبد بالجماهير وهى تهتف بسقوط الاستعمار، وسقوط الرجعية والسراى والمطالبة بمحاكمة الخونة ورجال المباحث.

وما إن خرج الجثمان من المسجد، حتى كنت آخر الخطباء الذين بكوا صلاح بشرى.. لم يكن الموقف يحتمل الرثاء والبكاء أو الكلمات الحماسية، وإنما دخلت مباشرة فى كيفية اغتيال صلاح، والمطالبة بتحديد المسئولية، وإلغاء جميع القوانين المقيدة لحرية المواطن، وأن تبدأ حكومة الوفد بتنفيذ البرنامج الذى سبق وأن أعلنته وهى فى المعارضة.

واستبد الغضب بالجماهير التى أصرت على إرسال مندوب عنها إلى الخرطوم ليقول كلمة الشعب إلى جانب ممثلى الحكومة والسراى الذين سيسافرون إلى السودان. وأصر المشاركون فى المظاهرة على أن أكون أنا مندوبهم فى تشييع جثمان صلاح بشرى إلى السودان.

وما إن أبدى بعض ضباط المباحث الرفض حتى هجمت عليهم الجماهير، وبسرعة وافقوا على أن أصحب جثمانه مع ممثلى الحكومة والسراى.

مضت السيارة بالجثمان إلى المطار وأنا معها وما كادت تصل إلى المطار حتى فوجئت بأن الجماهير قد سبقتنا إلى هناك وهى تردد نفس الهتافات.

واضطرت أجهزة الأمن إلى الإسراع فى اتخاذ خطوات السفر، فأقلعت الطائرة الخاصة بالجثمان والمشيعين، دونما النظر إلى إجراءات السفر العادية، وحتى دون أن يكون معى جواز سفر، وما إن ارتفعت الطائرة فى السماء، حتى بدأت أنظر إلى جثمان صلاح فى صندوقه الخشبى وعليه بعض الزهور وبطاقات النقابات والمدارس والكليات موضوعة على الصندوق.

يا للفظاعة!! لقد كان صلاح معى فى السجن منذ مدة قصيرة. رأيته.. وهو ينزف دما من صدره.. سمعته.. وهو يكح حتى يوشك صدره أن يتمزق. تذكرت.. معاركنا فى السجن من أجل الوصول إلى مجرد تركيب زجاج لمنع البرد فى شهر يناير. اعتصامنا فى السجن من أجل السماح له بكوب من الحليب. وتذكرت.. إدارة السجن وهى ترفض بحجة أن ذلك ليس مدرجا فى اللائحة، وكلمة اللائحة فى السجن تعنى أنها فوق الدستور، ودونها كل القوانين. اللائحة كرباج على ظهر المسجون، مرض لا بد أن ينهى حياته أو يخرجه من السجن عليلا. تلك هى اللائحة التى وضعها «كوكس» أول مدير للسجون المصرية. ومضمون اللائحة أن السجين ممنوع عليه تناول أى مادة بها مواد سكرية ولا حق له فى التدخين.. لا حق فى تناول أى طعام غير طعام السجن المكون من.. نصف رغيف أسود فى الصباح مع بعض حبات الملح.. والغداء فول أو عدس عدد حبات الرمل به أكثر من الفول ورغيف. وفى المساء نصف رغيف وسائل لا لون له ولا طعم يسمونه «اليمك».

كان هذا هو عالم السجن الذى عاشه صلاح بشرى، وانتهى بإصابته بالسل.

ومع مرور الزمن أصبح جميع العاملين فى المصلحة من المدير إلى السجان من عبدة هذه اللائحة. لدرجة أنه بعد الإضراب عن الطعام الذى خضناه فى سجن مصر فى عام ١٩٥٠ وانتهى بأن حصلنا على حقنا فى التدخين وتناول بعض المواد السكرية. أن أحد موظفى السجن حينما رأى واحدا منا يتناول قطعة من العجوة صاح بأعلى صوته (دى خربت) ثم سقط مغشيا عليه.

كان ذلك هو السجن الذى مرض فيه صلاح بشرى، والذى أرافق جثمانه لتشييعه حتى عطبرة.

فى الطريق إلى عطبرة

أقلعت الطائرة من مطار القاهرة وهى لا تضم سوى بضعة أفراد، لا يتعدى عددهم خمسة أو ستة أفراد، مندوبين عن جهات مختلفة، ويترأس الوفد مندوب من السراى، وكان أالباشوات العاملين فى القصر. رجل أحمر الوجه، ذو كرش كبير، وجلد رقيق تكاد الشعيرات الدموية تنفر منه إلى الخارج، يتحرك فى تؤدة وضجر، ولا يفتح فمه بكلمة، وإنما هى مجرد إشارات من يده القابضة على سيجار طويل، ومن حين إلى آخر يحرك رأسه يمينا ويسارا وكأنه على وشك الاختناق من الضيق لهذه الرحلة التى فرضت عليه، ولمرافقته لأناس هم دون المستوى.

كنت أجلس فى الكرسى خلفه مباشرة، وفى مواجهتى الصندوق الذى به صلاح بشرى. ولا أدرى إلا وأنا أتصور أن الدماء التى تجرى فى عروق هذا الباشا مسروقة من دم صلاح، وأن هذا الباشا على علم بدقائق الأسرار فى سجن مصر حيث انتهت حياة صلاح..

كنت أشعر برعشة فى جسمى من هذه المقارنة.

وما إن مر بعض الوقت حتى أشار إلىّ الباشا، إشارة فيها كبرياء واستعلاء.. ثم سألنى.. هل تجيد الخطابة؟ ولكن الرد كان مفاجأة له، حيث أجبته أننى لا أعرف الخطابة، وثنى على هذا السؤال بسؤال آخر.. هل معك ورقة وقلم؟ فكانت إجابتى أيضا بالنفى.

وهنا نظر إلى الباشا باحتقار واشمئزاز.. وردد أكثر من مرة بينه وبين نفسه ولكن بصوت مسموع.. وليه بعتوك.. ليه بعتوك؟!

ثم أشار إلى حقيبة صغيرة، موضوعة بجواره، وما إن أحضرتها له، حتى أخرج منها ورقة وقلماً، وأملى علىّ خطبة صغيرة، وأشار علىّ بحفظها عن ظهر قلب، لألقيها على الجماهير بمجرد وصولنا إلى أرض المطار، وهى تدور حول أن «الفاروق أعز الله ملكه، وحمى عرشه، يعزى شعبه فى السودان فى وفاة ابنه صلاح».

ولما اطمأن إلى أننى حفظتها عن ظهر قلب، تركنى وشأنى، حيث أخذت أتحدث مع الطيارين وموظف اللاسلكى. وقد اكتشفت فيهم أشخاصا فيهم الكثير من روح المجاملة

والوطنية، والتجاوب مع مشاكل الآخرين. وما إن شرحت لهم قضية صلاح بشرى، حتى أحسست بمدى الاشمئزاز على وجوههم من هذا الإجرام.

وما إن اقتربت الطائرة من مطار عطبرة. حتى نادى عليّ الباشا، وأشار إلى أن أتقدم صف المشيعين، وأن ألقى الكلمة التى أعدها لى، بعد أن أهتف بحياة الملك.

وما إن توقفت الطائرة ورأيت جموع أبناء عطبرة بملابسهم الفضفاضة وعمائهم البيضاء، ووجوههم السمراء، وهم يقتحمون كردون العساكر الإنجليز، ويتقدمون نحو الطائرة، والباشا من خلفى يبتسم مشجعا ودافعا بي إلى مقدمة الطابور لألقى كلمته التى سبق أن أملاها عليّ، وجدتنى أهتف بكل ما أوتيت من قوة.. «يسقط فاروق عدو الشعب».. «يسقط فاروق قاتل صلاح».

ومن فوق سلم الطائرة ألقيت كلمتى عن كيفية اغتيال صلاح، وأن مصر فى ظل الاستعمار وفاروق عبارة عن سجن كبير، وأن هذا الباشا المرافق لجثة صلاح، هو واحد من عصابة تعتمد فى بقائها على السجون، وعلى الآلاف من الجلادين.

وأسقط فى يد الباشا.

ومضت جنازة صلاح بشرى ضخمة، مزدحمة بالآلاف من أبناء السودان، وهى تهتف بكفاح الشعبين فى مصر والسودان. و«يسقط الاستعمار والرجعية». ومضت المظاهرة كبحر لا شطآن له حتى وصلنا إلى المقابر، حيث استبد الحماس بطاقم الطائرة ءواشتركوا فى المظاهرة، مرددين نفس الهتافات ضد الاستعمار وضد فاروق.

وبالطبع حالت الجماهير بين الباشا ممثل السراى وبين الاشتراك فى المظاهرة.

كنت أعرف معظم قيادة الحزب الشيوعى السودانى، ولكن كانت هذه المرة الأولى التى أرى فيها «الشفيع أحمد الشيخ»، والعملاق «قاسم أمين»، من رواد الحركة النقابية، ومن قيادات الحزب الشيوعى السودانى البارزة.

والتقاليد السودانية فى التعازى، لا تختلف كثيرا عن تقاليدنا فى مصر، حيث يدور الحديث، فى فترة استراحة المقرئ، عن الفقيد وصفاته. وكانت فرصة طيبة لشرح الظروف فى مصر، وسجونها التى اغتيل فيها صلاح بشرى، مع التركيز على تبرئة حزب الوفد الذى تسلم السلطة قريبا، حيث بدأت انفراجة ديمقراطية، من دم صلاح، مؤكدا أن المسئولية هى فترة الحكم العرفى التى أعلنها النقراشى وعبد الهادى وغياب الديمقراطية،

الأمر الذى سمح لبعض رجال البوليس، أن يتحولوا إلى عصابات متخصصة فى التعذيب وهتك الأعراض والعمل بشكل مفضوح لخدمة السراى والسفارتين البريطانية والأمريكية. «الجزار» و«إمام إبراهيم» و«حسن المصلحى» و«أحمد حلمى» و«توفيق السعيد» و«سمير رياض»، وكان يرمز لهم جميعا فى هذه الفترة بالعسكرى الأسود.

وما إن انتهى القراء من قراءتهم بعد منتصف الليل، حتى عدت إلى الفندق الوحيد فى المدنية مع قاسم أمين، فوجدت الباشا جالسا يدخن فى الفراش، وما إن حاول الحديث، حتى كانت نظرة واحدة من العملاق قاسم أمين، ألزمته الصمت، بل ودفعته إلى أن يسحب الغطاء على وجهه ورأسه وينام.

ما أغرب هؤلاء القوم، يبدون شجعانا وفرسانا مع المسجونين المضطهدين، المقيدين، يصولون ويجولون... ولكن عند أول احتكاك مع الجمهور يتحولون إلى جرذان.

وقضيت الليلة مع الباشا فى نفس الحجرة، وما إن أصبح الصباح، حتى وجدت قاسم يوقظنى وهو يبتسم وصحبنى إلى الخارج. حيث كان قد أعد مؤتمرا صحفيا، وبالطبع قلت فيه كل ما فى نفسى ضد فاروق والرجعية المصرية والإنجليز.

ولا أدرى ما الذى دفعنى لأن أفكر فى قضاء بضعة أيام فى السودان استجابة لدعوة الرفاق السودانيين. ولكننى فوجئت بالطيارين وقد فكروا أيضا فى عدم العودة، وخاصة بعد أن اشتركوا فى المظاهرة وهتفوا ضد فاروق. ولكن الشىء الذى كان يقلقهم.. ما هو مصير الطائرة.. وهل سيتركونها.. وبعد نقاش قصير استقر رأينا على العودة وليكن ما يكون.

وما كادت الطائرة فى طريق عودتها تدخل الأجواء المصرية، حتى تحول الباشا الذليل إلى أسد مفترس يهدد ويتوعد، ويطلب من ضابط اللاسلكى أن يتصل بالقاهرة، ليخطر القسم المخصوص بإرسال ضابط إلى المطار، ولكن ضابط اللاسلكى بعد محاولات صورية مع الجهاز أخبره أن الجهاز معطل.

ومن الغريب، أنه عند وصولى للمطار لم يتعرض لى أحد، وبالاتصال بالمنزل عرفت أن البوليس هناك فى الانتظار. لم أذهب إلى المنزل، وبدأت فترة هرب جديدة حتى قبض علىّ بعد رحلة إلى القناطرالخيرية.. ولكن لم يطل الأمر حتى أفرج عنى، حيث كان الوفد فى السلطة بما يحمله معه من تراث فى الحريات والديمقراطية. ما أجمل كلمة سعد زغلول..

«الحق فوق القوة، والأمة فوق الحكومة».

إن الديمقراطية هى أروع إنجازات البشر، وإذا كان العمل هو الذى يميز الإنسان عن الحيوان، فإن الديمقراطية هى صانعة الإنسان. فكره. كبرياءه. أمنه. طمأنينته. قدرته على الابتكار، وتركيز قدرة الإنسان على هزيمة الطبيعية وإخضاعها لصالحه.. أما غياب الديمقراطية فيعنى.. استئثار بعض الأفراد بامتيازات يعطونها لأنفسهم، ليستعبدوا الآخرين، وليحولوهم إلى عبيد، لأنفسهم فيفقدون هم أنفسهم صفاتهم الآدمية، بعد أن يكونوا قد قتلوا فى الناس القدرة على الرفض.

«إن الذى لا يملك أن يقول لا.. لا معنى لرأيه حينما يقول نعم».

الاعتقال

وما إن أصدر محمد نجيب قراره بحل الأحزاب السياسية، حتى بدأت حملة اعتقالات واسعة، مستهدفة أساسا الشيوعيين والقوى الديمقراطية، ونجح معظم الرفاق القياديين فى الإفلات من الاعتقال. كانت الوظيفة الأولى الملقاة على عاتقنا كيف نؤمن وجودنا خارج السجن. فى الوقت الذى تنطلق فيه قوى المخابرات والمباحث العامة. لتقوم بالتفتيش فى كل مكان. الجماهير تبدأ نظرة جديدة إلى الثورة فيها تساؤل وفيها استفسار، إذ إنه لم تمر سوى فترة قصيرة على زمن الإرهاب والأحكام العرفية التى أعلنها على ماهر فى أعقاب حريق القاهرة، فقد قضينا الفترة من ٢٦ يناير ١٩٥٢ حتى يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى العمل السرى تحت الأرض، ولم نتوقف عن الاتصال بزملائنا فى السجون والمعتقلات. وها نحن نعود من جديد إلى ممارسة نفس حياة الهرب والتخفى.

بدأنا نلتقى من جديد، نجمع شمل فلولنا، ونؤمن بعض الذين لم يجدوا مأوى مستقراً وانتقل بعضنا إلى الارياف. لقد كان معظم أعضاء المكتب السياسى، خارج السجن، وتم أول اجتماع لنا لمناقشة الوقف السياسى.. وكان قرارنا هو الاستمرار فى موقفنا ودعم الثورة فى خطواتها التقدمية ضد الإقطاع والرجعية، وفى نفس الوقت المطالبة بالحرية والديمقراطية لكل القوى المعادية للاستعمار. مع التركيز على مهاجمة التعذيب والاعتقال.

وكان أول منشور أصدرناه يدور حول الطلبة المعتقلين فى الثانوية العسكرية، حيث قتل الطالب عصام سرى الطالب بكلية الطب. كانت تلك فرصة لا بد أن نقتنصها لفضح الإرهاب وقطع الطريق على مسيرة التعذيب التى كانت فى بدايتها.

حضر فى هذه الفترة الرفيق عبد الخالق محجوب، سكرتير الحزب الشيوعى السودانى، وتمت اجتماعات طويلة بيننا انتهت إلى مفهوم موحد، ولكنه أصر فى هذه الفترة على عودة «الجنيد على عمر» السودانى الذى كان عضوا فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى المصرى، ورغم عدم اقتناع الجنيد بالقرار، فقد نفذه وأقمنا حفلا صغيرا رغم ظروف هربنا، وأخذنا بعض الصور. وكان هذا هو اللقاء الأخير مع جنيد زميل الدراسة والنضال. وما إن وصل السودان، ومضت عليه فترة قصيرة حتى أصيب بحالة عقلية، أعطيت لها تشخيصات كثيرة، كان معظمها يدور حول تعاطيه الكحول، ولكنى أعتقد أنه سافر وهو غير مقتنع بالعودة، فلقد كنت حياته قد استقرت فى مصر، ارتبط بمسيرة نضالها، وأخيرا سمعنا عن وفاته، كان شريفا ومخلصا ومناضلا.

كنت فى هذه الفترة أنتقل من منزل إلى منزل، ولا أشعر بالاستقرار، وأخيرا نجح بعض الرفاق فى أن يوفروا لى مسكنا هادئا تتوافر فيه كل الشروط المناسبة لإنسان لا يريد الأختلاط بالآخرين.

كنت فى هذه الفترة مسئولا عن منطقة القاهرة. وعن الأجهزة الفنية، وكانت المسئولية، تقتضى الكثير من الحركة، التى تتنافى مع وضع إنسان هارب. ولكن حساسية المسئولية فرضت الاستمرار، وكان يشاركنى فى هذا النشاط المرحوم محمد عباس فهمى.

كان شريف حتاتة أحد المسئولين عن النشاط فى الريف، وكان يأتى من حين لآخر لتسلم بعض المطبوعات أو لطبع بعض المنشورات. كان صامتا هادئا كعادته، ولكن الشيء الذى كان يشغل بالى، هو عدم ملاءمة شريف لهذه المسئولية، فهو قادر على العطاء فى أعمال أخرى. طبيب متقدم فى دراسته متفوق دائما أليس جديرا بأن يعمل فى مجاله. أما مجال الريف فقد يصلح له آخرون، قد يكونون أقل كفاءة منه ولكنهم قادرون على التأقلم مع حياة القرية، أما هو فربما كان قادرا على العطاء فى مكان آخر.

كانت الصورة التى ترد عن القرية عن طريق الرفاق الذين يعملون فى الريف أن جماهير الفلاحين وعمال الزراعة سعداء بصدور قانون الإصلاح الزراعى. الذى أحدث فرزا يكاد يكون كاملا فى القرية، فالعلاقات الإقطاعية المغلفة بغلاف الجيرة والقرابة بدأت تتبخر أمام شهية الفلاح ليمتلك قطعة من الأرض. لقد بدأ كثير من الإقطاعيين يتملقون الفلاحين، بل إن بعضهم ممن يمتلك علاقات قوية فى القرية بدأ يملك جزءاً من أراضيه

لبعض الذين يثق فيهم، ليساعدوه على عمليات تهريب الأرض ولكن.. حتى هذه الثقة التى استجار بها الإقطاعى لم تلبث أن تبددت أمام المصالح المادية للفلاح.

لم تكن عملية الفرز على هذا المستوى فقط بل امتدت إلى عزل الإخوان المسلمين حينما أحست الجماهير أن قولهم عن الرحمة والعدل والتضامن قد سقط فى أول جولة مع حكومة الثورة حينما رفض مرشد الإخوان قانون الإصلاح الزراعى. ثم عاد وطالب برفع الحد الأقصى إلى ٥٠٠ فدان.

أما باقى التنظيمات التى كانت تسمى قانون الإصلاح الزراعى- قانون الإفساد الزراعى - فلم يكن لها تأثير.

بدأ الفلاح يشعر أن كلمة سياسة تعنى مصلحة، والمصلحة التى يتطلع إليها الفلاح فى حدود مفاهيمه هى الملكية والحياة القريبة من الإنسانية.

ولكن الرفاق الذين كانوا يعملون فى القرية، ويخالطون العناصر الواعية من الفلاحين، كانوا ينقلون إلينا صورة أخرى. نعم هناك ترحيب ولكن هذا القانون لم يضع فى اعتباره، المزيد من تفتيت الملكية الزراعية، والمزيد من الجسور الفاصلة بين الملكيات القزمية. والتى تستهلك جزءا كبيرا من المساحة بالإضافة إلى الإسراف الذى سيتم فى مياه الرى.

والنقطة الرئيسية أن الفلاحين لم تنشأ لهم التنظيمات الديمقراطية القادرة على استيعابهم وتعينهم على التعامل مع القانون الجديد.. وما يلزم للفلاح من كيماويات وآلات حرث..إلخ.

ولكن كل ذلك لم يكن واردا فى قانون الإصلاح الزراعى. حيث كان الهدف الأساسى منه عدالة التوزيع والقضاء على النفوذ السياسى للإقطاعيين فى القرية. وكانت الصورة التى يقدمها رجال الثورة عن سيطرة الإقطا ع على الانتخابات البرلمانية فى القرية صحيحة ومعقولة، حيث كانوا يصورون العمد وهم يشحنون الفلاحين وعمال الزراعة فى عربات الكارو ليدلوا بأصواتهم إلى البك أو الباشا. هذه الصورة حقيقة واقعة فى تاريخ بلادنا، وشاهدتها طفلا فى القرية، حينما كانت الانتخابات فى القرية تعنى المفاضلة بين أسرتين من كبار الإقطاعيين، أسرة نور أو أسرة الشناوى.

ولكن هذه الصورة كانت ينقصها الإطار الذى يوضح هذه المأساة، مسألة شحن الفلاحين وعمال الزراعة ليدلوا بأصواتهم للبك أو الباشا.. هذا الإطار هو غياب الديمقراطية على امتداد عهود طويلة فى تاريخ مصر.

وحينما كان محمد نجيب أو عبد الناصر يقدم هذه الصورة الكاريكاتورية لإدانة الديمقراطية، كانت تقفز إلى ذهنى صور من تاريخ قريتنا. حيث تعلمت أول درس فى الديمقراطية. وعرفت منه أنه لا يوجد ثمن يعادل الديمقراطية.. فقد يتوافر الخبز للإنسان توافره للسجين ولكنه يظل فاقدا حريته فاقدا إنسانيته. قد تتوافر المدرسة للإنسان ولكنه دون الحرية يتحول إلى صفر فى المجتمع، ويتحول إلى كرباج يعد لجلد المجتمع.

وما زلت أذكر أول مظاهرة رأيتها فى طفولتى المبكرة، حيث سار الفلاحون فى مظاهرة كبيرة وهم يهتفون:

يحيا الدستور» ..«يسقط صدقى

لم أكن أعلم من هو صدقى هذا الذى يهتفون بسقوطه وما هو الدستور الذى يهتفون بحياته.

القرية صغيرة. شوارعها ضيقة. مليئة بالحجارة والتراب. والفلاحون يرددون الهتافات ووجوهم غاضبة، وبأيديهم النبابيت، وتستمر مسيرتهم حتى نقطة البوليس وهم يرددون هتافاتهم ويحاصرون مبنى البوليس حيث اجتمع العساكر وحضرة الضابط خلف الأبواب المغلقة، ثم ينصرفون بعد ذلك إلى مكتب التلغراف، حيث يرسلون برقية إلى النحاس باشا، كنت أول مرة أسمع فيها اسمه، وهم يهتفون:

«النحاس خليفة سعد، النحاس خليفة سعد، هل هلالك يا نحاس» ويعود الجميع إلى بيوتهم، وهم يتجمعون حلقات صغيرة، يناقشون.. وأسمع بعضهم وهو يقول:

«إن صدقى باشا حلف يمين بالطلاق لازم كل اتنين يلبسوا جلابية واحدة»!!

فى هذه الفترة عين عمدة جديد للقرية، وهو واحد من أقربائى، كان هو الوحيد الذى يدافع عن صدقى هذا فى القرية، وبمجرد تعيينه استن تقاليد جديدة، لم نكن نعرفها من قبل، هى الضرب بالكرباج وكان يسميه «الأذعر» والويل لمن يبتلى بمقابلته، فالأذعر هذا كان يتناول جسده دون تفرقة بين وجهه وظهره وقدميه.

وأمام منزله وضع جذع شجرة، به حلقات من الحديد يربط بها الفلاحين الذين يخالفون أوامره أو يتأخرون فى دفع ضريبة كانت تسمى «ضريبة العتبة»، وهى لا تتجاوز فى أغلب الأحيان خمسة قروش ولكن الفلاح لم يكن بقادر على دفعها، فيظل يجلد ويجلد حتى يتطوع من يفك أسره بأن يسدد ما عليه.

وكان قريبى هذا أو عمى شخصا قاسى القلب، فظا فى سلوكه، شاذاً فى تصرفاته. كان رجلا طويل القامة ذا عنق طويل مجعد، أصلع الرأس إلى حد أن كان الفلاحون يسمونه (الأذعر) إلا يمل الحديث بصوت عال عن إنجازات حكومة صدقى.

وكانت تأتيه مجموعة نسخ من صحيفة «الشعب» التى كان يصدرها حزب صدقى باشا «حزب الشعب» ولم يكن أحد يقرأها أو يتداولها، وإنما تظل مكومة فى منزله لا يعرف أحد من الشعب شيئا عنها.

ومن جهة أخرى كان هناك جريدة اسمها «الجهاد» تأتى لبعض أفراد فى القرية معظمهم من الحرفيين منهم الحاج مصطفى السقا، والشيخ محمد شمس الدين (المأذون) وغيرهما وكان الناس يتجمعون لقراءتها فى حلقات صغيرة، وما زلت أذكر هذه الصحيفة وقد كتب فى أول صفحة منها:

قف دون رأيك فى الحياة مجاهداً

إن الحياة عقيدة وجهاد

وكثيرا ما كان العمدة، هذا يهاجم التجمعات، ولما عجزت قوة الخفر التابعة له عن ملاحقتهم، قام بتعيين عدد آخر من الخفراء يماثلهم فى العدد، ولم تكن هذه المجموعة تتسلح بالبندقية الطويلة التى يحملها باقى الخفراء، ولكن كان كل منهم يحمل نبوتا، وعرفت فيما بعد أن القرية هى التى تقوم بدفع رواتبهم الشهرية.

ولكن هذه القوة التى أضافها حضرة العمدة الجديد. لم تساعد على استقرار الأمن حيث ازدادت الحلقات التى تقرأ «الجهاد» وحيث زاد عدد جرائم تقليع القطن والحرائق.

وفى ليلة من الليالى هبط على القرية عدد من الجمال، يمتطيها عساكر سود وبأيديهم الكرابيج، ومعهم حضرة العمدة، وهو يعلن: ممنوع الخروج بعد المغرب «يا بلد هلس».

ولكن الفلاحين وجدوا وسيلتهم للخروج، إذ كانوا يشعلون الحرائق فى أى مكان دون قصد محدد إلا الخروج إلى الشارع وتحطيم قرار حظر التجول، حيث كان العمدة، والهجانة أنفسهم، يطوفون بالبيوت ليدفعوا الناس إلى الخارج لإطفاء الحرائق، وتوجت تلك المأساة بأن قبض على أبى ولم أشاهد عملية القبض هذه ولكنى رأيته بعد الإفراج والناس يهنئونه فى المنزل، وعرفت أنه قبض عليه هو وكثير من الأعيان فى القرى المجاورة لإلقائهم بصناديق الانتخابات فى الترعة.

وهكذا كرهت القهر والاستبداد، فكلاهما ليس كلمة تقال فى صحيفة، أو قراراً يصدره حاكم، وإنما موقف ينعكس على المواطنين، ولو كانوا فى أقاصى الريف، فالحاكم المستبد الذى يسلب حرية مواطنيه، يتحول شيئا فشيئا إلى نصف آدمى. فلقد وصل الأمر بعمدتنا هذا وهو الأمى أن كان يفتى فى الدين ويصادر آراء العلماء، بمن فيهم أخوه المدرس فى الأزهر، ويقيم الليالى والندوات السياسية، وبالطبع عثر على بعض أعوان له فى القرية من أصحاب الوشايات والعواطلية والمرتزقة.

تذكرت القرية فى هذه الفترة، وأنا أستمع إلى بعض أعضاء مجلس الثورة وهم يهاجمون الحياة الدستورية والحرية والنحاس باشا، وأحسست بعدم الراحة، وهم يسخرون من الديمقراطية على أساس أنها شحن فى عربات الكارو وهم ذاهبون لإعطاء أصواتهم للباشا أو البيه.. ولكن لم يقدموا صورهم ومسيرتهم وهم يهدمون عدوان صدقى على الحياة الديمقراطية والدستور. ولم يقدموا موقف الفلاح وهو يصوت رغم الكرباج والعمدة لحزب الوفد ليأتى بالأغلبية، حقيقة أغلبية لم تصل إلى ٩٩,٩٪ ولكنها كانت أغلبية حجبت السراى وأحزاب الأقليات وأبعدتهم عن السلطة.. أحسست فى هذا الوقت أن الثورة قد فرضت نفسها وصيا على الشعب، عليها أن تعطيهم فقط ولكن ليس لهم الحق فى أن يطالبوا. عليهم أن يأكلوا وفى نفس الوقت عليهم أن يصمتوا عن أى كلام فيه إساءة لهؤلاء الثوار.

كان هذا هو أول درس تعلمته فى قريتنا عن الحرية، ولذلك توقعت بعد هذه الأحاديث التى يدلى بها رجال الثورة أن يقوموا باعتقال كل من يفكر أن يتحرك حتى ولو كان شريكا لهم بالأمس. أحسست باتجاه الريح فتركت منزلى حيث بدأت الاختفاء... وفى المساء كان الهجوم على منازلنا ولكن من حسن الحظ أنهم لم ينجحوا فى اعتقال أى رفيق من أعضاء المكتب السياسى.

محمود أمين العالم
(دراسة)

لست أعرف تحديدا ذلك السبب الذى يدفع الفلاسفة - ربما كل الفلاسفة - إلى التباعد عن الانغماس فى غابات الفعل السياسى. ربما لأنهم يهتمون بما هو عام جدا ويرفضون التلامس مع ما هو تفصيلى.. وربما لأن أدوات التعبير عندهم هى إعمال وتحريك أدوات التفكير عند الصفوة، بينما السياسيون يلجأون إلى العامة. وربما لأن ما هو حق فى الحقيقة هو حق دائما عندهم، وفى السياسة يختلف الأمر، فقد يتلاعب السياسيون مستمتعين بهذا التلاعب بالحق والحقيقة معاً.

وقد عرفت مصر عديدا من الفلاسفة المرموقين.. وعرفت سياسيين أكثر من أن يخضعوا للإحصاء، لكن أحدا غير محمود أمين العالم لم يفعلها، فظل مغرقا فى فك طلاسم الفلسفة، مستمتعا بمحاولة المزاوجة بينها وبين ما هو سياسى ويومى وجماهيرى.

ومحمود أمين العالم قطعة من النسيج المصرى التى تشابكت خيوطه وتشبعت بالعطر المصرى العتيق. (والعطر كالنبيذ يزداد حلاوة كلما ازداد قدما).. فأقدامه الصغيرة منذ تعرف على قدرة المشى داست كل أزقة الكحكيين والباطنية والقربية وحيضان الموصلى ودرب المحروق.. مرورا بكل الأسماء الأخرى التى تمجدت بانتمائها إلى كل ما هو أصيل فى المصرية، والترانيم التى التقطتها الأذن وهى بعد طفلة هى تراتيل الأذان من مآذن الحسين والأزهر والمؤيد.. تواشيح المرتلين فى وجد فى الأمسيات المباركة بمناسبات دينية.

إنها المصرية الخالصة التى تفسح للتدين المساحة الأكبر فيفسح بدوره كل المساحات للعقل والتأمل المتعقل.

والتعليم، كعادة أهل هذه الحارات، يبدأ حتميا فى الكتاب، وتحت لسعات عصى الشيخ السعدنى شيخ الكتاب القابع فى مدخل حارة السكرية حفظ كثيرا من القرآن. ثم إلى المدرسة الرضوانية الأولية بالقربية، ومنها إلى النحاسين الابتدائية بالقرب من بيت

القاضى (ويكفى أن نتأمل الأسماء والأماكن لنعرف أى فتى كان، وفى أى مناخ نشأ).

لكن التعليم ترف لا يستحقه إلا أبناء الأغنياء. وهكذا أطاح به الفقر الفقير بعيدا عن المدرسة. فالأب عجز عن سداد المصروفات، وأخذته أمه إلى زوج أختها الحاج منير الدمشقى صاحب المطبعة والمكتبة المنيرية ليتعلم حرفة الطباعة، ونقرأ له: «وفى بضعة أسابيع استطعت أن أتعلم جزءا كبيرا من صندوق الحروف، وتركيب الجمل والعبارات، وربطها بالخيط مع الجمل الأخرى، وأبنى صفحة كاملة من الرصاص، على أنى فى أغلب الوقت كنت أعمل مساعدا للعدد البسيط من العمال الذين كانوا يعملون فى المطبعة.. كإحضار الشاى وشراء السجائر». (١)

ولكن، ثمة شىء غريب يلعب دورا فى تكوين هذا الكون وأناسه، هو "المصادفة".

ونواصل معه: «ولم تطل غيبتى عن المدرسة، إذ سرعان ما جاء خطاب رسمى منها يدعونى إلى العودة معفى من أداء المصروفات، وكان السر وراء ذلك أن الملك فؤاد كان مريضا آنذاك وشفى. فتقرر منح المجانية للمتفوقين فى سنوات الدراسة الابتدائية». (٢)

إنها المصادفة التى منحت مصر والفكر العربى المفكر والمناضل محمود العالم بدلا من الأسطى محمود المطبعجى.

ولعل هذه المصادفة التى صادفته فتحولت حياته كلها نحو الأرحب والأجمل هى التى دعته فيما بعد كى يتفرغ للبحث حول "فلسفة المصادفة".

وما إن أمسك الفتى بخيط التعلم حتى تشبث به.. تفوق، حصل على جائزة وزارة المعارف، ثم حصل له أخوه شوقى على مجانية فى المدرسة الثانوية، وعندما تأرجح به الزمان يحاول أن يحرمه مواصلة دراسته الجامعية باعت أخته عائشة قطعا من الحلى هى كل ما تمتلك كى يتواصل مع الحلم، ثم توظف وواصل دراسته متحديا كل ما غرسه الفقر من معوقات.

ويمضى محمود العالم: «وكان أبى من رجال الدين. وكان من أتباع الشيخ محمود خطاب مؤسس الجمعية الشرعية».. والأخ الشيخ أحمد أزهرى كفيف، كان ينقل كل كتبه الدراسية إلى طريقة "بريل" وكان على الفتى محمود أن يمليه، «ولقد ظللت أملى عليه وأقرأ له منذ أن استطعت القراءة حتى سن المراهقة، خائضا فى مختلف كتب التفسير، والحديث، وأصول الدين، وعلم الكلام واللغة إلى غير ذلك، أفهم بعض المعانى ويغيب عنى

بعضها، ولكنى أعيش عطر ثقافة عريقة لا يزال رحيقها الغامض يغمر نفسى»(٣)

الأخ الآخر شوقى كان أزهريا متمردا، فصل من الأزهر بعد أن ألف كتابا هاجم فيه الأزهر والأزهريين أسماه "الأزهر فوق المشرحة"، وكان شوقى صديقا لكامل كيلانى رائد أدب الأطفال. واتخذ الكيلانى من محمود معيارا يقيس به مدى تفهم الأطفال والناشئة لما يكتب من قصص فظل يقرأ له ومعه ويحضر مجالسه مع كبار الأدباء.. يستمع ويتعلم.

ويستجمع الفتى ذلك كله ليضيف إليه: الشعر، الشطرنج، الموسيقى (أسس وهو طالب بالجامعة جمعية الجرامفون مع د. لويس عوض، هناك التقى مع طالبة فى قسم إنجليزى هى سميرة الكيلانى، وفى عام ١٩٥٢ تزوجا).

وفى الجامعة.. وفى بداية دراسته للفلسفة اصطدم بقطار د.عبد الرحمن بدوى، ثم بتهويمات د. لويس عوض فى اشتراكية غامضة، وتراوح لزمن بينهما: "فى المرحلة الجامعية كنت أتراوح فكريا بين نيتشوية ووجودية عبد الرحمن بدوى، واشتراكية لويس عوض»، لكن الفتى لم يكن منقادا مغمض العينين، بل كان متمردا معملا عقله، "والغريب أننى كنت أرى فى وجودية عبد الرحمن بدوى.. وخاصة بعد أن طبع رسالته عن الزمان – أنها وجودية مغدورة، ذلك أنه صبها فى قوالب ومقولات تجمد – فى رأيى آنذاك – طبيعتها الوجودية.. وكان موقفى متشابها من اشتراكية لويس عوض. كنت أراها اشتراكية ملتبسة وغير علمية".(٤)

وينقذه لبعض الوقت أستاذه د. يوسف مراد بمنهجه التكاملى، فينغمس فى جمعية "علم النفس التكاملى" تلك الجمعية التى جعلت من نفسها جسرا بين مثاليتى وماركسيتى."(٥)

وفى الجامعة عاش الحياة الفكرية بطولها وعرضها.. ناقش، اختلف، شاكس.. حتى طه حسين لم ينج من مشاكساته فى مقالات حادة ومتفجرة كتبها هو وعبد العظيم أنيس (طبعت فيما بعد فى كتاب: فى الثقافة المصرية).. حصل على جائزة الشيخ مصطفى عبد الرازق فى الفلسفة. نال درجة الماجستير حول "فلسفة المصادفة"، عين مدرسا مساعدا لمادة المنطق، بدأ يعد لرسالة الدكتوراه عن "الضرورة" باعتبارها الوجه الآخر للمصادفة.

لكنه كان قد أصبح برصيده الفكرى، ومشاغباته الحوارية، ونشاطه المتفجر الذى مزج فيه بين الفلسفة والحرية والموقف الوطنى والديمقراطى.. واحدا من نجوم الجامعة.

ويقول: «وفى عصر يوم من أيام صيف ١٩٥٤ استدعيت لمقابلة د. يحيى الخشاب عميد

الكلية. وجدت معه د. لويس عوض، أبلغنا بحزن عميق وتأثر صادق قرار فصلنا من الجامعة. وأتذكر الآن الطريق الذى أخذنا نقطعه بتمهل، لويس عوض وأنا من كلية الآداب حتى ميدان الجيزة، ما تكلمنا كثيرا، لا شك أن حزنا ذاتيا كان يملأ قلبينا. كنت أحس شخصيا بأن حلمى بالمشروع الفلسفى أخذ يتلاشى، وأشعر بتهديد غامض لمستقبل ابنتى الوليدة، ولكنى أتذكر أننا ونحن نفترق قلنا معا شيئا واحدا، واتفقنا عليه بوضوح وحسم: سوف نغيب عن ساحة المعركة. ولكن لا ينبغى أن نغيب أبدا عن هذه الساحة التى نمضى نحوها، ساحة شعبنا، وبلادنا، ساحة مصر كلها، سنواصل فيها الرسالة التى يؤمن بها كل منا».(٦)

* * *

«أنا لا أدرى.. ماذا أفعل

لا أدرى عما أبحث

بل أتحدث، أتحدث

أتسول تأويلا

أنسج بالشعر بديلا». (٧)

ويظل الشعر دوما ملجأه من الحيرة أو عدم القدرة على البوح الصريح.

لكنه لم يكن أبدا عصيا إزاء الحقيقة. تغلفه الحيرة، تلك الحيرة المشروعة دوما فى عالم الفكر. ثم يستقر، فيندفع حتى ولو كان قد استقر باتجاه النقيض.

هكذا كانت مصادفته الغريبة مع موضوعه الأثير، "لم تكن المصادفة موضوعا لبحث منذ البداية بل كان الموضوع شيئا غامضا يقف أمام قواى العارفة كأنه حائط كثيف معتم أستشعر جلاله وإن لم أتبين له فى نفسى دلالة محدد".. "والحق أننى لم أكن كانطيا بل كنت دون كيشوتيا متطرفا، وإن لم أملك درعا من رياضة، أو معرفة علمية. على أنى انطلقت عبر الظلمة وطواحينها العلمية الدائرة بضمير لا أدعى أنه كان يستهدف المعرفة وحدها، فقد كنت مأزوما، أزمة تختلط فيها المفهومات الفكرية والقيم الاجتماعية والخلقية. وكنت أعتقد أن انطلاقت عبر الحائط الكثيف المعتم هى سبيلى للخلاص.. ولكنى كنت منتسبا انتسابا كاملا إلى تيارات فكرية غير علمية، وكان هذا الانتساب الفكرى عقبة منهجية تردنى عن الاستبصار السليم بالبحث الذى أستهدفه. كنت أتحرك بإرادة نيتشه

وأتعرف بحدس برجسون وفطرته الحية، ولا أبصر في الواقع غير لا معقول مايرسون وهكذا جعلت من البحث، ومن الدلالة رحلة استبطانية، وجعلت من العقل إطارا محدودا قاصرا، ومن الحياة حبلا منصوبا فوق هاوية.. "وأحسست في سذاجة وغرور لا حد لهما أن هذه مهمتي التاريخية. ومن ثم رحت أعد نفسي للرحلة الطويلة".(٨)

لكن مصادفات ما تقطع "المصادفة" وبحثه عنها وفيها. اكتشافه المنبهر للفكر الماركسي، الأمر الذي دفعه دفعا إلى الانغماس في غابة السياسة، ثم طرده المتعسف من الجامعة الأمر الذي أبعده ولو قليلا عن كهنوت التفرغ لعلم الفلسفة.

وكان الأمر بسيطا للغاية.

"ولقد بدأت هذا البحث (في فلسفة المسافة) غارقا حتى أذني في الفكر المثالي، هادفا لاتخاذ (المصادفة) معولا لتقويض الموضوعية العلمية، وهذا ما اعترفت به في بداية البحث، أما ما لم أعترف به فهو أني خلال البحث، بل في مرحلة متقدمة منه التقيت بكتاب (المادية والنقد التجريبي) لمؤلفه لينين، الذي قادني بدوره إلى كتاب (جدل الطبيعة) لإنجلز، وكان هذا حدثا فكريا في حياتي، قلب تصوراتي الفلسفية رأسا على عقب، فأمسكت بالمعول نفسه، ورحت أقوض به الفكر المثالي الذي كان يستغرقني تماما، واقتضاني هذا سنوات أخرى أنسج فيها البحث منذ البداية على نول موضوعي جديد.. بل رحت أجدد كذلك حياتي الفكرية. وأبدأ مرحلة جديدة من الحياة".(٩)

وأصبح محمود العالم ماركسيا.. من باب بحثه في "المصادفة".

انتقل من النقيض إلى النقيض عبر إعمال العقل ومواصلة البحث.

على أنه لم يتخلص أبدا من عشقه لموضوع "المصادفة".

بل قدمها ومن جديد وبفهم جديد، يليق بماركسيته.

"المصادفة واقعة موضوعية، تتميز بأنها قابلة للتغير والتمايز والتشابك، وأنها محصلة لعوامل متداخلة متفاعلة. وموضوعيتها لا تتنافى مع الضرورة الموضوعية. فالضرورة الموضوعية ليست تحديدا ميكانيكيا، أو قابلية للرياضة الإقليدية، وإنما هي بدورها ما يتميز به الواقع المادي من علية عواملية مجالية".(١٠)

بل إنه يتشبث بقيمة المصادفة حتى عندما يخوض مؤخرا - وبعد أن أصبح ماركسيا عريقا - عوالم النقد الأدبي لروايات نجيب محفوظ. «ولأول مرة فيما أعتقد يعترف نجيب

محفوظ بالمصادفة اعترافا جهريا باعتبارها عاملا أساسيا فى بناء مصائر أبطاله، وذلك على لسان كمال عندما يقول فى "قصر الشوق": "المصادفة هى وحدها التى عرفتك بحقيقة ذلك الرجل. والمصادفة هى التى لعبت فى حياتك أخطر الأدوار"، ومن الواضح أن المصادفة التى يقصدها نجيب محفوظ هنا على لسان كمال هى الوقائع الموضوعية التى لا يدخل الفرد فى تدبيرها وتخطيطها ولكنها تدخل فى تشكيل حياته وعلاقاته بالآخرين و.. "المصادفة بهذا المعنى لا تعد خلخلة فى البناء الفنى لرواياته، وإنما هى عنصر من عناصر البناء نفسه سواء من الناحية المعمارية الشكلية أو من الناحية الفكرية».(١١)

هكذا نكشف عالم محمود العالم.

فهو إذ يعمل العقل والفكر ويقرر الانتقال من موقف لآخر، ينتقل محملا بالقديم محاولا إلباسه ثيابا جديدة تتلاءم مع الموقف الجديد. هكذا فعل بفلسفة المصادفة. وهكذا فعل بالتراث إذ تعلق بالجديد.. وهكذا فعل عندما التقى بماركسيته الحازمة مع الفكر الناصرى فى إطار التنظيم الطليعى، أو حتى قبل ذلك.

ولعله يفصح عن ذلك صريحا: "لتكن حياتنا احتفالا دائما بالجديد ونبضا متصلا بالجديد، ولن يعنى هذا أبدا انفصالا عن تراث، أو انقطاعا عن تاريخ، ذلك لأن الجديد هو بحق روح كل تراث، وروح كل تاريخ، بل الجديد هو روح الحياة نفسها، وسر شجرتها الدائمة الاخضرار والنضارة"(١٢)

وهو إذ يقترب من "السياسة" يأتى مغلفا بالتفلسف، بل ومتخذا لنفسه مبررات فلسفية ربما ليبرر لها ما فعل بها.

ونقرأ له: «قديما قال الفليسوف الرومانى: الفضيلة هى فن إسعاد الذات بالعمل على إسعاد الغير. وحديثا تقول الحكمة النابعة من حياة الثوار جميعا: إنك لن تستطيع أن تغير ذاتك، وأن تجددها إلا بالعمل على تغيير الحياة وتجديدها فى مجتمعك وفى عصرك».(١٣) وأيضا.. "الغربة الحقيقية عن النفس هى الالتصاق بالنفس عن الناس. والوجود الحقيقى للنفس هو الرحلة إلى الناس بهم ولهم«.. ثم » لم يعد العصر الذهبى للإنسان ماضيا قديما بل أصبح حلما نسعى به إلى التحقيق، أصبح رسالة ومعركة معا».

ولكن كيف يمكن لهذا المتمرد.. الفيلسوف.. الذى فرض على نفسه أن يخضع كل شىء للعقل، المثقف المتعدد المجالات، الناقد الأدبى الذى اعتاد على النقد والانتقاد، أن ينقاد إلى

مواقف وآراء وقرارات صادرة من تنظيم ماركسى صغير - صغير حتى بالنسبة للمنظمات الأخرى التى كانت هى أيضا صغيرة - اسمه "نواة الحزب الشيوعى المصرى"؟

لقد حاول وببساطة - وكما اعتاد دائما - أن يغلف جديده بقديمه، أو قديم بجديده، وأن يصوغ القديم والجديد معا فى جدلية متفاعلة دوما.

فالدعوة التى يدعو إليها "ليست ببساطة إلا دعوة إلى تنمية الثقافة الثورية العربية باعتبارها امتدادا وتطويرا لأشرف ما فى تراثنا القومى العريق، وإلى التعجيل بثورة ثقافية جذرية، تعمق قدرة التحرير والاشتراكية والوحدة القومية، وتعيد بناء الإنسان العربى بناء حضاريا جديدا غير منقطع عن أشرف ما فى تراثه القديم، غير معزول عن حقائق مجتمعه المصرى".

ولعله كان يحاول أن يقمع نفسه إذ يخضعها بكل طموحاتها للالتزام الحزبى والفكرى والمذهبى، إذ يواصل قائلا: "إن القول بالدلالة الموضوعية والاجتماعية للأدب أو للثقافة عامة لا ينفى ذاتيته، ولا يحد من إبداعه، ولا يخنق جمالياته، وإن القول بالالتزام ليس أمراً بالإلزام، أو حجراً على الحرية، وإنما هو استبصار - بإنسانية الثقافة ووعى بأصالتها الثورية".

بل هو يصد نفسه صدا عن أى محاولة للتمرد ويحذرها وبقسوة قائلا: "على أن أدرك أن الصراع حول هذه المفاهيم لن يتوقف أبدا، ذلك أنه يعبر عن صراع أعمق هو الصراع الطبقى الذى تدور أخطر معاركه فى مجال الفكر، فى مجال الأدب، فى مجال الفن، فى مجال الثقافة العامة".(١٥)

أرأيتم كيف حاول أن يروض نفسه، بل وكيف روضها فعلا. فالصراع طبقى.. ومن يقف ضد فكرة الطبقة العاملة يكون (..) بل لعله كان يبرر لنفسه أو يعزيها أو هما معا إذ يقول: "أين مأساة الفنان إذن فى المجتمع الرأسمالى؟ فى الفردية وفى الحرية نفسها. حقا إن المجتمع الرأسمالى يدعو إلى الحرية، ولكنه يمزق الشخصية الإنسانية ويحطم الفردية، بما يفرضه من أنظمة تقوم على التخصيص الضيق، وبما يسود علاقاته من تنافس حاد ولا رحمة فيه، ولا مراعاة لإنسانية الإنسان.. ولم ينج الفنان من هذا المصير نفسه بل أصبح الفنان منتجا لسلعته، وأصبح بدوره يخضع لقوانين المنافسة الرأسمالية، وراح يعانى الإحساس بالغربة.(١٦).

وفى إطار هذا التنظيم الضيق الحدود ومن خلاله بدأ يتطلع إلى الماركسيين الآخرين متحدثا مع نفسه ومع غيره عن ضرورة التوحد معهم. ولعله كرر لنفسه ولرفاقه وأكثر من مرة المثل العربى القائل: «يتصارع الأخوان وهما مثل ركبتى تقفان معا وتقعان معا".

وربما وجد لنفسه هنا أيضا تبريرا ذا طابع فلسفى برغم أن المصلحة السياسية كانت واضحة ولا تحتاج إلى تبرير.. ويقول: "نحن لن نعرف حقيقة الأشياء بطول التصاقنا بها. ولن نعرف حقيقة أنفسنا بطول إغراقنا فيها واستغلاقنا عليها، وسبيلنا الوحيد للرحلة داخل الأشياء وداخل أنفسنا هى الرحلة إلى الخارج.. خارج الأشياء، وخارج أنفسنا، بالنظرة الشاملة والتأمل المقارن، والخبرة المتحركة ثم.. ينفتح وجودك على الآخرين فحسب، بل هى سبيلك الوحيد لمعرفة نفسك".(١٧)

وفى ١٩٥٤ كان أغلب الشيوعيين - قيادة وقواعد - فى السجون والمعتقلات، وكانوا يعانون من وطأة انقسامات وتشرذم، ويشتاقون إلى ما يوحدهم، ومن يوحدهم، وأقاموا فى سجن مصر ثم فى سجن القناطر (بعد انتقالهم إليه) لجنة للوحدة. ناقشت. حاورت، اتفقت. اختلفت. ثم توصلت إلى تفاهم عام، لكن ما قيمة أن يتفق السجناء، بينما الطلقاء على حالهم؟

لكن الحظ الحسن (وربما المصادفة بمنطق محمود العالم) جعل فى الخارج على رأس تنظيم «حدتو» شهدى عطية الشافعى، وعلى رأس تنظيم النواة محمود العالم، والتقى الشابان لعلهما تناقشا فى الفلسفة والثقافة بأكثر مما تناقشا فى الخلافات الصغيرة، وحملا على عاتقهما عبء التوحيد الفعلى.. وتنفيذ هذه الثقافات الحالمة التى تمت فى زنازين سجن القناطر.

وإذا كان شهدى قد فعلها متجاوبا مع إجماع تنظيمه (حدتو) فقد فعلها محمود العالم متحديا رأى قائد ومؤسس تنظيمه (النواة).. لكنه فعلها مسطرا لنفسه عملا إيجابيا، ودورا حاسما فيما بعد.

وتأسس الحزب الشيوعى المصرى الموحد. وتواصل توحيد الشيوعيين ولعب محمود العالم دورا مهما فى ذلك، واكتسى فى ذلك بمرونة عالية، وقدرة على إيجاد المشترك الذى يستحث الجميع على التوحد، وحقق فى ذلك ما أراد.

وأصبح واحدا من أبرز قادة الحزب الشيوعى المصرى، الذى لم يعد بحاجة إلى أن

يضيف إلى اسمه صفة الموحد أو المتحد، فقد أصبح الوحيد دونما حاجة إلى الوصف بذلك.

وفى هذه الأيام تغلب السياسى على كل ما عداه وانزوت الفلسفة لتفسح مجالا للسياسى المتقد حماسا وإن بقيت كل الكتابات والأفكار مغموسة بالعطر الفلسفى.

وكان المطلوب فى هذا الوقت (١٩٥٥ - ١٩٥٨ البحث عن صيغة يمكن أن توفق بين تأييد عبد الناصر الزعيم والقائد لمعركة العداء للاستعمار والصهيونية والرجعية، وبين التمسك بالمواقف المخالفة لرأى زعيم لا يعرف ولا يقبل الاختلاف، ونجح محمود العالم أكثر من غيره فى إيجاد صياغات متوازية لتوازنات كانت - على الأقل من الناحية النظرية - صعبة التحقق.

وفى هذه الأيام كانت "الناصرية" تندفع بكامل قواها باتجاه "القومية العربية" كفكرة وكسياسة وكمصير. وتوقف الماركسيون حائرين. فالماركسية تمتلك مفهوما محددا للقومية يقول بأن السوق الاقتصادية المشتركة هي الأساس فى دعوة القومية. ولا سوق عربية مشتركة. إذن لا قومية عربية.

ويتحتم البحث عن نقطة توازن.

فالشيوعيون يرون أمامهم جماهير عربية هائلة تندفع تحت رايات القومية. بينما أفكارهم تقف حاجزا بينهم وبينها. ويكلف المكتب السياسى للحزب الرفيق فريد (محمود العالم) بإعداد تقرير عن الموقف من القومية العربية. وكما اعتاد أيام الشباب تزامل مع عبد العظيم أنيس - (الرفيق سيد) فى إعداد تقرير حاولا أن يجدا فيه مخرجا.

١ - إن القومية العربية هى حصيلة تاريخ مشترك لجماعة من الناس عاشوا وتآلفوا وناضلوا معا مئات السنين.

٢ - القومية العربية لها لغتها الواحدة التى تحمل تراثها، وخلاصة خبراتها التاريخية.

٣ - القومية العربية تشترك فى رقعة واحدة من الأرض مهما اختلف وتعددت مظاهرها الجغرافية.

٤ - القومية العربية لا تشترك فى حياة اقتصادية واحدة (هنا يكون الجرح الماركسى موجعا) لكن هذه المشكلة ليست عائقا أمام وجود القومية العربية لأنه من الواضح أن هذه الحقيقة مرتبطة تماما بأن دولا استعمارية سيطرت على مقدرات وإمكانات وثروات أجزاء

من الوطن العربى. ولقد كانت السوق العربية المشتركة موجودة فى الماضى قبل الاحتلال الغربى بشكل أو بآخر، وعمل الاستعمار على تحطيم هذه السوق بوعى، والقضاء على تكامل الإنتاج فى الوطن العربى، ومع ذلك فأسس التكامل فى الإنتاج لا تزال قائمة، وإن متناثرة تقوم بينها الحدود المفتعلة. وفى محاولة للتغلب على رفض الفكرة القومية يواصل التقرير: "ومهما كانت الفوارق السطحية التى تبدو لنا هنا فى مصر مقنعة للبعض منا بأننا فى نهاية الأمر مختلفون نفسيا عن بقية العرب، إلا أن هذه النظرة ليست إلا بقايا الانعزالية فى مصر إزاء القومية العربية"، ثم محاولة أخرى للإغراء: "إن القومية العربية فى جوهرها حركة شعبية، وهى بالضرورة حركة تقدمية من الناحية الاجتماعية". (١٨)

وبرغم هذا الجهد من جانب الشيوعيين فى التوافق مع عبد الناصر.. إلا أن مبدأ الأختلاف لم يكن مقبولا خاصة أنه لمس الجرح الناصرى الحساس "الديمقراطية"، وبدأت نذر الصدام من جديد فى نهايات عام ١٩٥٨.

ولأن محمود العالم كان واحدا من أبرز القادة فقد جرت المحاولة الأخيرة للتطويع معه.

ودعى لمقابلة أنور السادات (نائب الرئيس والأمين العام للاتحاد القومى). ويتحدث العالم عن هذه المقابلة التى كانت فاصلة وحاسمة فى تاريخ العلاقة مع عبد الناصر. وتمت المقابلة من خلال د. يوسف إدريس، بينى ممثلا للمكتب السياسى للحزب، وبين أنور السادات فى منزله بالهرم فى أكتوبر ١٩٥٨، استمرت المقابلة من العاشرة مساء حتى الرابعة صباحا، وكانت جادة وجافة، دعا فيها أنور السادات إلى حل الحزب ودخول الاتحاد القومى كأفراد، وقلت له إننا على استعداد للتعاون بشكل تنظيمى داخل الاتحاد القومى محتفظين بمنبرنا المستقل.. وبعدها بيومين تم اعتقال عدد محدود من الرفاق فطلبت مقابلة السادات ولكنه لم يقابلنى». (١٩)

وفى أول إشراقات عام ١٩٥٩ يطرق الحديد الحديد، ويعتقل مئات ثم آلاف من الشيوعيين ويكون محمود أمين العالم معهم هذه المرة، وتكون محنة لا مجال للحديث عنها هنا تقبلها الشيوعيون صامدين.

لن نتحدث عن السجن والتعذيب والمحاكمات العسكرية فقط سنورد أبياتا من شعر قالها محمود العالم.

«ما أكثر ما سقط رفيق

ما ارتد رفيق

ما انسد طريق

ما اتقد حريق

وانطفأ بريق

والأغنية ما زالت تمضى، تصعد، تمتد

تبرق ترعد

فى قلب الليل الممتد."(٢٠)

ويمتد الليل حتى أبريل ١٩٦٤.

* * *

ولعله من الضرورى الآن.. أن نتوقف لنتحدث عن أمرين أساسيين يشكلان جزءا مهما من ملامح صورة السياسى.. فى محمود العالم:

- الموقف من التجربة السوفيتية.
- الموقف من التجربة الناصرية حال تحالفه معها.

وفيما يتعلق بالتجربة السوفيتية كان محمود العالم متمسكا بما كان الجميع يعتقد أنه الثوابت الثابتة التى لا تكون الماركسية دونها.

فيقول: إن الماركسية تؤكد منذ البداية أن الديمقراطية ليست مفهوما متعاليا. فليس ثمة ما يسمى بالديمقراطية المطلقة، أو بمجرد الديمقراطية. فكل ديمقراطية هى ديمقراطية طبقة من الطبقات أو مجموعة من الطبقات المتحالفة. وكل ديمقراطية هى بالضرورة ذات طابع مزدوج، إنها ديمقراطية لهذه الطبقة أو تلك الطبقات، وهى فى الوقت نفسه دكتاتورية ضد طبقة أو طبقات أخرى.(٢١)

هذا عن الديمقراطية، فماذا عن مسألة الحزب الواحد؟: «الحقيقة أن الحزب الواحد المسيطر فى الاتحاد السوفيتى لم يكن جوهر التطبيق الاشتراكى، ولم يكن اختيارا متعسفا من جانب البعض، بل كان ضرورة أملتها المواقف المعادية للأحزاب البرجوازية الصغيرة فى مواجهة الثورة السوفيتية. إن الثورة الاشتراكية تحتم الحزب الطليعى الذى يمثل الطبقة العاملة فكرا ومصلحة، والذى يقودها لتحقيق أهدافها».(٢٢)

ولعلنا نحن الماركسيين كنا نعجب أيما إعجاب به وهو يؤكد "إن إنسانا جديدا ينشأ فى

البلاد الاشتراكية لا على أخلاق الصدق والحب والأمانة والعمل والحرية وغيرها من القيم التقليدية فحسب، بل ينشأ كذلك على كراهية العدوان والاستغلال العنصرى والجنسى والطبقى، وينشأ على محبة السلام والمساواة والإخاء البشرى، إن مجال القيم الأخلاقية يتسع ويتعمق فى التجربة الاشتراكية." (٢٣).

ولعلنا أعجبنا بتبريره الأدبى الصنعة والصياغة لسور برلين إذ يقول : «أحسست به جدارا زجاجيا يحمى باقة من الزهور، يحمى الرابطة الإنسانية التى لفحنى شذاها"(٢٤).

وحتى عندما يلتقى بفتاة موسكوفية تقدم نفسها له قائلة: أنا مسافرة بلا حقائب أيديولوجية، أعيش فى هذا المجتمع دون أن أنخرط فى عقيدته.. وعندما تتهكم على هذا التعلق الصوفى الصارخ بلينين، يعلق هو قائلا: "لا أعرف، قد تكون هناك بعض مغالاة مظهرية فى الاحتفاء والاحتفال بلينين، على أن لينين ليس مجرد شخص، وإنما هو فكر."(٢٥)

ومحمود أمين العالم لم يستمتع فقط بمواقف كهذه، لكنه استمتع أيضا برفضه الحاد للمجتمع الرأسمالى، فعندما يزور أوروبا الغربية يقول: «وقد يغلب على هذه الرحلة إرادة الحكم والتقييم، بل والمحاكمة أحيانا، أكثر مما يغلب عليها الوصف المحايد والتلقى السلبى، بل أعترف صراحة أنها رحلة تتحرك من موقف ومن رؤية أعترف أنها تتميز بعدم الحياد، تتميز بالانحياز، وأنا أؤمن بأنه لا شىء محايدا. (٢٦)

لكنه لم ينظر أبدا للماركسية باعتبارها شيئا وافدا، "والماركسية ليست فكرا دخيلا علينا، أو مجرد زى عصرى مستورد للتباهى الفكرى أو المزايدة الثورية، إنها فى الحقيقة امتداد خلاق لأشرف ما فى تراثنا العربى الإسلامى من قيم علمية تجد إرهاصاتها الفكرية الأولى عند ابن خلدون وابن القيم وجابر بن حيان وابن رشد وعشرات غيرهم. كما تجد إرهاصاتها النضالية الأولى فى كثير من الحركاتِ التقدمية الجماهيرية فى تاريخ أمتنا العربية، والماركسية كذلك هى خلاصة فكرية لنضال البشرية كلها من أجل الحرية والرخاء والسعادة". (٢٧)

ومن هنا كان تمسكه بالدفاع عنها تمسكا بالدفاع عن تراث عربى أصيل، وعن البشرية ككل.

وهو أيضا ينظر إليها – ومنذ الزمان القديم – نظرة عقلانية علمية "الماركسية ليست

وصفة جاهزة نهائية، بل هى منهج جدلى خلاق متجدد ملتحم بحركة الجماهير البشرية فى واقعها العام والخاص، فى واقعها الاجتماعى والطبيعى."(٢٨)

وهو أبدا لم يخدع نفسه أو يخدعنا إزاء واقع الماركسيين العرب.. فيقرر "لست أنكر أن الماركسية فى التطبيق العربى خلال سنوات طويلة قد تورطت فى كثير من الأخطاء، ولعل المصدر الرئيسى لهذه الأخطاء هو استخدامها كقوالب جامدة، جاهزة، ونقل بعض خبراتها التطبيقية نقلا آليا، خروجا عن حقيقتها كمنهج للدراسة العينية المحددة، للواقع العينى المحدد، واستلهام هذه الدراسة واختبارها وتنميتها بالنضال الجماهيرى ثم.. والغريب أنه برغم الرحلة الطويلة التى قطعتها الماركسية فى حياة تاريخنا العربى الحديث لا نكاد نجد دراسة ماركسية شاملة معمقة لواقعنا الاقتصادى أو الاجتماعى أو السياسى أو الثقافى. ما أكثر التحليلات المرحلية التى تتخذ طابع الاستراتيجية البعيدة دون سند من تحليل علمى تفصيلى دقيق شامل، وما أكثر ما يطغى على كثير من التحليلات الماركسية طابع التأمل التجريدى، لا طابع الدراسة العينية الدقيقة. بل ما أكثر من استلهموا بعض نصوص أو فصول من الماركسية ليجعلوا منها تكئة لسلوك مغامر أو فوضوى، ولعلى أشير بهذا بوجه خاص إلى بعض قادة فصائل المقاومة الفلسطينية وبعض مفكريها وكتابها.(٢٩)

فقط نتذكر أن هذه الكلمات كتبت عام ١٩٧٢.

لكن محمود العالم لم يكن راضيا عما يجرى، بل لعله كان يستشعر الزلزال قبل أن يقع بزمن طويل.

ولنقرأ معا بعض أسطر من هذا التنبؤ الحزين الذى سبقنا إليه جميعا.. فى عام ١٩٦٥ «لا شىء أصلى من أجله مثلما أتطلع وأصلى لروح الثورة روح الثورة فى الإنسان، روح الثورة فى العصر، روح الثورة فى العالم أجمع.

إن رايات الحق والفضيلة والتقدم تكاد تتمزق حزينة بين الأيدى الصديقة، قبل أن تتمزق بين الأيدى الباغضة الكارهة.

إن روح الثورة فى الأدب، فى الفن، فى الفكر، فى الحياة كلها تتلوى تحت رماد متراكم. لا أقول إن روح الثورة فى العالم تحتضر، ولكن أحس أن روح الثورة فى العالم مشتتة، مفتتة، ضائعة، حزينة».

ثم يمضى ليعزف على ذات الوتر الحزين "أغلب ما تقرأ من كتب. أكثر من تقابل من أصدقاء،

من هذا الركن القصى فى العالم، أو هذا الركن القريب، تطل منهم روح الانتظار، والترقب، والغربة، إن لم تطل منهم روح اليأس من الثورة، روح العكوف على العابر الجزئى من اهتمامات الحياة اليومية". وقد تحققت الأحلام ولكنها عندما تحققت اصطبغت بلون التراب الداكن، ولم يعد أصحابها يتحدثون بلغة الحلم والبطولة، وإنما بلغة الأرقام والتجارة، بل اختلف الحالمون الثوار وشهروا الأسلحة فى وجه بعضهم البعض.. واحسرتاه".(٣٠)

ثم نأتى إلى تجربته مع النظام الناصرى.

الإفراج، حل الحزب، الانضمام الجماعى أو شبه الجماعى للاتحاد الاشتراكى والتنظيم الطليعى. كانت هذه جميعا سمات مشتركة بين الجميع تقريبا. لكن محمود العالم وصل إلى قمة التنظيم الطليعى الذى كان واحدا من أهم أدوات الحكم.. فيما تسرب الآخرون مللا، أو أبعدوا استثقالا لظلهم، أو استخفافا بشأنهم.

ومن هنا تكون تجربة محمود العالم فى التحالف مع الناصريين تجربة فردية أو انفرادية. ولقد جر عليه ذلك كثيرا من الملاحظات وربما التقولات، لكن ما كان يحميه أنه كان متسقا بل ومنفذا للخط العام الذى اختطته الحركة الشيوعية لنفسها فى ذلك الحين، وأن صعوده يعتبر تميزا.. وليس تحيزا للناصرية.

لكن محمود العالم الخارج لتوه من سجن طويل، كان ككل الشيوعيين منبهرا بما يجرى حوله. فعبد الناصر فى قمة الصعود السياسى والجماهيرى، والميثاق الوطنى اعتبر من جانب الكثيرين وثيقة تقدمية تنحاز إلى الاشتراكية العلمية.

ويجسد محمود العالم انبهاره متحدثا عن الميثاق "بهذا المعنى يصبح الميثاق ظاهرة تاريخية جديدة، هى حصيلة الواقع الثورى العربى، وخلاصة خبراته الناضجة ثم.."إننا نجد فيه تحليلا علميا رصينا للثورة العربية، والعوامل المتصارعة داخلها، واستخلاصا للدروس الموضوعية من نكساتها وانتصاراتها، ثم نجد ارتفاعا بمفهومها للديمقراطية إلى مستوى جديد من الواقعية والموضوعية يخلصها من الضباب الليبرالى الشكلى، ويجعلها تعبيرا صادقا عن الواقع الاجتماعى، وأداة فى يد الجماهير الشعبية من أجل السيطرة على هذا الواقع وتوجيهه لمصلحتها" ثم.." وأكاد أقول إن الميثاق تاريخ جديد للحياة، وتاريخ جديد للفكرة فى بلادنا، بل فى الوطن العربى كله".(٣١)

بل هو يقول إن "الديمقراطية فى الميثاق ليست واجهات دستورية فارغة وإنما هى حركة

موضوعية تاريخية للجماهير تؤكد سيادتها، وتضع السلطة كلها فى يدها، وتكرسها لتحقيق أهدافها، إنها ديمقراطية اجتماعية سياسية، وديمقراطية فكرية كذلك».(٣٢).

إن ما رفض عام ١٩٥٨ وكان سببا للسجن الطويل يقبل الآن، وتقبل معه حتى فكرة الحزب الواحد.. فالتعددية الحزبية التى يأخذ بها المجتمع الرأسمالى عند العالم فى فكره الجديد "قد لا تصلح تعبيرا عن الحرية فى مجتمع اشتراكى، ذابت فيه الطبقات إلى شعب عامل موحد الإرادة والمصلحة أو فى طريقه إلى هذا. بل قد تكون هذه الدعوة دعوة الثورة المضادة، دعوة مناقضة للحرية". (٣٣)

ولعل من حق محمود العالم علينا أن نقرر أن هذه القناعات كانت قناعات المناخ العام للماركسيين المصريين لكنه مثل عدد قليل من القادة كتب فاكتسب القدرة على أن يضع أفكاره على محك الانتقاد عندما آن أوانه.

لكن حماس محمود العالم للتجربة الناصرية دفعه للتصادم مع بعض أصدقاء الأمس. فكانت واقعة "الفتى مهران" وعبد الرحمن الشرقاوى. فإذ كانت المسرحية تتألق على خشبة المسرح، وجه محمود العالم نقدا لاذعا للإيحاءات والرمز. فالمسرحية تنتقد وبشدة إرسال قوات مصرية لليمن.. وتنتقد أيضا من قرروا حل الحزب والانضمام للاتحاد الاشتراكى رغم أن الشرقاوى نفسه كان قد انسحب من أى عمل ماركسى أثناء وجود رفاقه فى السجون.. وانضم هو نفسه للاتحاد الاشتراكى.

ويتوقف تحديدا أمام الانتقاد لحل مجموعات الفتوة (أى الحزب). والانضمام إلى الحاكم. فيشعر وكأن الكلمات موجهة ضده وضد رفاقه فيكتب: "إن المسرحية تغمز وتلمز بهؤلاء الذين يصفون جماعات الفتوة ليندمجوا مع جيش الأمير، والمسرحية بهذا توحى بعض الإحاءات التى تبذر بذور التشكك والريبة فى اللقاء الثورى الذى يتم فى بلادنا بين مختلف القوى الاجتماعية المؤمنة بالتقدم والاشتراكية. وهو لقاء ثورى جاد تحت راية المبادئ لا يفضى إلى تصفية للثوار، بل إلى توحيد لحركة الثورة كلها".(٣٤)

وعندما يحتج عليه الكثير من رفاق الأمس، ليس لأن فهمه للرمز كان خاطئا، وإنما لأن الرمز يأتى فى ظل بطش بأى خصوم، ولأن جهاز الحكم لا يغفر ولا يتقبل الغفران، الأمر الذى أفزع الشرقاوى فزعا منحه تعاطف الكثيرين، فإنه يرد عليهم بمقال حاسم عنوانه "الصدق فوق الصداقات" ويسأل ويجيب:

"هل ندمت على ما كتبت.. لا

هل أدركت خطأ فيما قلت.. لا." (٣٥)

لكنه هو نفسه يشعر بالمأزق. فهو فى قمة التنظيم الطليعى. وهو يتولى مسئوليات مهمة، ومع ذلك لا يستطيع أن يقول ما يريد، أو حتى بعض ما يريد فهو إذ يكتب مقالا ينتقد فيه وبشدة الاتحاد الاشتراكى تصادره «أخبار اليوم» رغم موقعه المهم.. فيلجأ إلى الشعر.. ليقول رمزا بعضا مما يؤرق ضميره الثورى:

"أشعر أن جدار الصمت بقلبى ينهار

لكن لا أعرف كيف أقول

يا قلبى البائس لا تحفل

يا قلبى العانس لا تجفل

لا تأبه بهموم الشمس

همك أكبر

خض وتفجر

وتجبر

لا تأبه بالنجم اللماح خذلتك نجومك يا ملاح

سر وارفع رايتك السوداء

وارفع مجدافك للأنواء

قد أصبح ملاحك قرصان

افتقد النجمة والشطآن". (٣٦)

ترى من هو القرصان هنا؟

وهو يعزى نفسه أو يعذبها. إذ يصب الغضب الغاضب على الشعارات الرنانة المتعالية فى الزمن الناصرى..

«يا ويلى من تعبير يتعالى

لكن لا يحسن أن يتجسد أفعالا

لا يمكن أن يمسح فى الليل دموعا

لا يملك أن يطعم طفلا يتضور جوعا

لا يملك ان يرفع رأسا يتمرغ فى الأوحال
لا يملك أن ينسج رغبة
فردوس محبة
للمشتاقين، المحرومين، المقهورين
لا يملك أن يملك
لا يملك أن يتحرك ويحرك".(٣٧)

وهو يستشعر الغربة وسط هؤلاء الغرباء، ويحن حنينا موجعا لحزبه القديم ورفاقه القدامى:

"لكن يا ملكوت الصمت
لا أملك أن أركب للشمس
لا أملك أن أركب
أنا أمشى فى ملكوتك وحدى
أتمنى.. أتأمل
أحلم.. أتكلم
لكنى لا أملك
ذلك أنى وحدى".

* * *

ويأتى ١٥ مايو بما حمله من تداعيات ويكتب: "إن الأنظمة التقدمية العربية لم تعد تلهم الوجدان العربى – كما كانت تلهم من قبل – نموذجا جيدا جديدا لمجتمع عربى، لقد خفت بريق التطبيقات الاشتراكية سواء من الناحية الاقتصادية أو السياسية، أو الناحية الديمقراطية، فلم تستطع حتى اليوم أن تقود معركة التحرير الوطنى للأرض العربية المحتلة قيادة متصاعدة مظفرة، وأن تواجه الاحتلال الإسرائيلى بحماس واقتدار، لم تستطع أن تحقق تنمية اقتصادية حقيقية تقيم بها أساسا للتغيير الاقتصادى الجذرى، وتقضى بها على التخلف الاجتماعى، ولم تستطع أن تحقق تنمية ديمقراطية تتيح للجماهير مشاركة إيجابية فعالة فى التغيير والتنوير الاجتماعى" (٣٨). لكن نصيبه من ١٥ مايو يكون شديد القسوة، يسجن، يحاكم بتهمة الخيانة لعظمى، يفصل من عمله، لكنه يواصل.. ينطلق

إلى باريس لتتواصل معارك الدفاع عن الديمقراطية، وعروبة مصر.

ومع انحدار التجربة الساداتية يتجدد شباب الفيلسوف، وتعود أزهار الثورى للتفتح.

وينطلق محمود أمين العالم من جديد.. وكأنه لم يزل بعد شابا ليخوض تجربة الثورة المتجددة.. والفعل الثورى المتجدد. ويصبح رئيساً للجنة الفلسفة فى المجلس الأعلى للثقافة، لكنه لم يخضع لأقاليم الفلسفة وحدها ويواصل معاركه السياسية.. حتى يرحل.

الهوامش

١ – محمود أمين العالم – مقال – التكوين.
٢ – المرجع السابق.
٣ – المرجع السابق.
٤ – محمود أمين العالم – مقال – الهلال – مايو ١٩٩٣.
٥ – محمود أمين العالم – حوار– أدب ونقد – أكتوبر ١٩٩٢.
٦ – الهلال– مايو ١٩٩٣ – المرجع السابق.
٧ – محمود أمين العالم – أغنية الإنسان – ديوان شعر – كتاب الجمهورية – أبريل ١٩٧٠.
٨ – محمود أمين العالم – فلسفة المصادفة – دار المعارف – (د.ت). يلاحظ أن التمهيد الذى يسبق المتن مؤرخ ١٩٦٩.
٩ – المرجع السابق.
١٠– المرجع السابق – ص ٢١٨.
١١ – محمود أمين العالم – تأملات فى عالم نجيب محفوظ – الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر – ص٦٦.
١٢ – محمود أمين العالم – الرحلة إلى الآخرين– كتاب – روزاليوسف (١٩٧٤).
١٣ – المرجع السابق ص٧.
١٤ – المرجع السابق ص١٣.
١٥ – محمود أمين العالم – الثقافة والثورة – دار الآداب– بيروت – ١٩٧٠ ص٧.
١٦ – المرجع السابق– ص٣١٦.
١٧ – محمود أمين العالم – الرحلة إلى الآخرين – المرجع السابق ص ٦.
١٨ – مفهوم القومية العربية بقلم الرفيقين فريد وسيد مطبوع بالرونيو مكتوب على الآلة الكاتبة مذيل باسم الحزب الشيوعى المصرى (نسخة أصلية).
١٩ – أحمد حمروش – شهود يوليو – المؤسسة العربية للنشر – بيروت – ١٩٧٧ – محضر نقاش مع محمود أمين العالم ص ٤٥٥.
٢٠– محمود أمين العالم – أغنية الإنسان – المرجع السابق ص١٣٨.
٢١– محمود أمين العالم – الديمقراطية والماركسية – مقال – الهلال – يونيو ١٩٦٥.
٢٢ – محمود أمين العالم – ماركيوز أو فلسفة الطريق المسدود – دار الآداب – بيروت – ١٩٧٢– ص١٠٣٠.
٢٣– المرجع السابق – ص١١٩.
٢٤ – محمود أمين العالم – البحث عن أوروبا – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت – ص١٩٧٥ – ص١١٥.
٢٥ – المرجع السابق – ص١٤٧.

٢٦ - المرجع السابق- ص٥.
٢٧- محمود أمين العالم - ماركيوز - المرجع السابق- ص ١٦.
٢٨ - المرجع السابق.
٢٩- المرجع السابق ص ١٥.
٣٠ - محمود أمين العالم - مقال - المصور ٣١ ديسمبر ١٩٦٥.
٣١ - محمود أمين العالم - معارك فكرية - دار الهلال ص١٦٣.
٣٢- المرجع السابق ص ١٦٩.
٣٣ - المرجع السابق ص ٢٠٩.
٣٤- محمود أمين العالم - مقال - المصور - ٢١/ ١/ ١٩٦٦.
٣٥ - محمود أمين العالم - الوجه والقناع - دار الآداب - بيروت - ١٩٧٣ - ص ٢٨.
٣٦ - محمود أمين العالم - أغنية الإنسان- المرجع السابق ص٢٥.
٣٧- المرجع السابق ص ٣٣.
٣٨ - محمود أمين العالم - ماركيوز - المرجع السابق ص١٨٠.

ليس بعد

فكل ما مضى من صفحات هو مجرد بعض من أوراق حكت عن بعض من مناضلين. أعرف أن «البعض» لغة عددهم من ثلاثة إلى خمسة. لكننى أعرف أن الورقة التى تتحدث عن سيرة مناضل هى بألف ورقة. وأن المناضل الوطنى أو اليسارى هو بألف مما تعدون عدداً.

ليس بعد.. لأن مسيرة البحث فى مسيرة مئات بل وآلاف من المناضلين تتبدى لى وربما للقارئ وكأنها بلا نهاية. وما كان أمامى إلا أن أختصر، وإلا أن أختار، لم أفاضل بين مناضل وآخر وإنما أتى من أتى لأننى نجحت فى اقتناص معلومات عنه. اقتنصت البعض وأفلت الكثير من بين أصابعى. حاولت. اجتهدت. رحلت عبر مدن لم أعرفها من قبل، وإلى بلدان ما كان لى أن أذهب إليها لولا أننى تعقبت هناك معلومات قد لا تعطى سوى سطر أو سطرين، ولكن ما حيلة العاشق فى عشقه. ساقنى الشوق لهؤلاء المناضلين رغم أن أغلبهم قد رحل.. فذهبت لأفعل كما فعل قيس.

أمر على الديار ديار ليلى
أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبى
ولكن حب من سكن الديارا

فحتى رفاعة الطهطاوى إذ بدأت به وجمعت كل ما أحتاج من أوراق، وكتبت عنه وعن مسيرته مرات عديدة، فإننى أنتهز فرصة زيارات باريسية وإلى جوار مبنى البانثيون حيث لم تزل تقيم مدرسة البوليتكنيك التى حافظ عليها الباريسيون وحافظوا حتى على السور الحديدى المنخفض الذى كان الأساتذة والتلاميذ يربطون فيه خيولهم. هناك أستمتع عديداً من المرات بإفطار من الكرواسون والاكسبرسو فى مقهى قديم جداً، كل شىء فيه يوحى إليك أنه أقدم كثيرا من البانثيون والبوليتكنيك ورفاعة وزملائه. أجلس لأنصت إلى وقع حوافر حصان رفاعة وأكاد أراه وهو يربط حصانه ثم يسوى عمامته وينطلق عبر البوابة

الحديدية العملاقة. تماما كما أفعل كل يوم وأنا أصعد إلى مقر حزب التجمع. فهنا كان النادى الشرقى منذ نصف قرن، وهنا كانت مملكة نقولا حداد حيث ألقى مئات من المحاضرات وحيث انزوى فى صباحات جميلة ليكتب. وحيث ألقى محاضرته الأخيرة رغم إصابته ببرد شديد وتحذير الطبيب المعالج بعدم مغادرة الفراش، لكن محاضرة عن علم الجمال كانت واجبا. وخرج ليمضى ليلة أو ليلتين محتضراً ثم يرحل. كل صباح وأنا أصعد السلم أتخيل إنه سيأتى هابطاً السلم أو صاعداً ممشوق القوام عالى الهامة وكوفيته ملتفة حول عنقه وتحت إبطه كتاب يتحتم أن يوجد.

إنهم يتلبسوننى وكأنهم يطاردوننى فكم من بلد زرته بحثاً عن آثار شخص رحل، لكننى أسعى نحو وقع أقدامه ورفاق طريقه وابن أو حفيد وهكذا إhتحلت إلى حيث تناثروا، أو حيث وجدت أسرهم وما تبقى من أخبارهم.. باريس – روما – قبرص – أثينا– صوفيا – مالطة – بيروت – زحلة – وادى حلفا – الخرطوم – بورسودان – ومراسلات إلى بلاد أخرى ترامت حتى أمريكا وكندا وأستراليا.

ولم يكن الأمر سهلا، لكنه لم يكن متعبا بل كان شيقا وجميلا.

وإذ تبدأ معاناة الكتابة فإنك إذ تخط بالقلم تستشعر وكأن وقع أقدام زوار الفجر يطن فى أذنيك، ووقع العصى ودوس الأحذية ووطء الأقدام الغليظة والقبضات العاتية.. ويسرقك البوح نحو خيالات لا تخبو فترى محمود دويدار مربوط اليدين بحبل يمكسه جندى تركى فوق صهوة حصان بينما السجين يمشى طوال رحلة استغرقت أشهراً سيراً على الأقدام من إستنبول وحتى الحدود السورية. أو ترى عبد الرحمن فضل ملقي بين السماء والبحر فى رحلات لا تنتهى بين بيريه والإسكندرية. فى بلده يرفضون نزوله لأنه قد سحبت منه الجنسية، وفى بيريه يرفض النزول متمسكا بمصريته. ويصمد وينجح كما صمد دويدار ونجح. هذه البطولات لا تأتى إلى الورق عفواً وإنما عبر حالات من معاناة أسطورية.

والأسماء أكثر من أن تحصى. لكنها يجب أن تحصى. ويجب أن تطارد حقائقها حتى نرصدها ونسجلها فى السجل الأبدى لنضالات اليسار المصرى.

وحتى الشهداء لم يأتوا جميعا. بانتظار معلومات أوفر. رشدى خليل طالب الهندسة الباسل تركوه ملقى على الأسفلت مصاباً بالحمى يوما بعد يوم، تركوه خوفاً من أن يأمر طبيب بنقله إلى مستشفى بالخارج فيجد الفرصة ليفضح ما فى سجن أبو زعبل من جرائم

وتعذيب وحشى. تركوه حتى تسحبت أنفاسه الأخيرة. فريد حداد الطبيب الوديع الذى كان يزهو دوما بأن نقولا حداد عمه. ضربوه، ضربوه كى يستعطفهم ويقول ما يريدون، واصفا نفسه بأوصاف تأباها كرامته. يقولون قل، فيرد «أنا طبيب مصرى شيوعى»، فيضربوه كى يصف نفسه بما يريدون أو يستعطفهم كما يريدون فيردد ذات العبارة. يأمره الضابط المتوحش «بلاش تقول شيوعى وانا اسيبك»، فيقول فى إصرار يموج بدوامات الاقتراب من الرحيل.. «أنا.. طبيب.. مصرى.. شيوعى..»، ولا يتركوه حتى يترك لهم الحياة.

وشهدى الذى أبى أن يقول حتى اسمه. ناداه الضابط شهدى عطية الشافعى. فإذ أتاه سأله اسمك إيه؟ فقال أنت تعرف اسمى وناديتنى به. فضربوه. ضربوه. لكى يقول اسمه منتهيا بكلمة «يا أفندم». وبعدها يقولون له قول أنا (...) فاختصر الطريق وصمم على «إنت تعرف اسمى». ضربوه حتى رحل شامخاً.

وهكذا سيبقى الواجب الحتمى باستكمال متحف كلمات الصمود اليسارى. ليس لمجرد أن تحفظ ذكراهم وأن نخلد صمودهم، وأن نقدمهم كدرس وقدوة للمناضلين الجدد.. وإنما لنكشف جرائم السجون الناصرية. ليس فقط لنقول الحقيقة.. وإنما لتكون الإدانة معلقة على رؤوس من فعلوها، وتحذير من يحاولون استعادة ما كان من إهدار لآدمية الخصوم السياسيين.

ولعل من حقنا أن نسأل: إذا كان هذا التعذيب الجماعى والنازى المذاق. فى كل السجون المتشحة بالإجرام، يعذب السجين كى يبوح. كى يعترف على رفاقه. يفشى أسراراً مطلوبة.. لكن السجون الناصرية كانت ترفع شعار التعذيب من أجل التعذيب. كان التعذيب فيها مجرد هواية تستهدف كسر إرادة المناضل. لأن هناك فى أحد الأدراج ورقة توقع عليها تستنكر فيها المبدأ وتؤيد فيها الزعيم. وساعتها ستخرج وقد انكسرت رجولتك وتخليت عن شرفك وأصبحت مجرد: «خرقة» وساعتها ستصبح مقبولاً منهم.

وأتذكر ولى الدين يكن الذى عانى من النفى على يدى السلطان عبد الحميد.. ثم إذا بعبد الحميد يتعرض للنفى فيكتب له ولى الدين:

سلاما أيها النافى الرعايا

ولا تجزع فخالقهم نفاكا

وما أنا شامت بك حين تبكى

كمن شمتوا ولكن ذا بذاكا

ليست شماتة، ولا استعادة لجراح قديمة، ولا حتى تسجيلا لتاريخ كان، وإنما إنقاذ للوطن من التكرار. فالجريمة قد تعود. وعلينا أن نمنع عودتها بأن نعلق تيجان العار على من ارتكبوها مؤكدا.. ومتأكدا من صحة ما رثى به شاعر العربية العظيم محمد المهدى الجواهرى الزعيم عبد الناصر فقال:

اكبرت يومك أن يكون رثاءً

فالخالدون عهدتهم أحياء

لا يعصم المجد الرجال وإنما

كان العظيم المجد والأخطاء

ولعل البعض يتلفت حوله متسائلاً : فيماكان ذلك كله؟ وأى حصاد حصدتم؟

وسمعت واحداً من الرفاق يرد.

لا تلم كفى إذا السيف نبا

صح منى العزم والدهر أبى

لكننى أرفض هذا المنطق. فتضحيات اليسار لم تذهب هباء. بل إنها حفرت نفسها وشما على جسد الوطن فكرست رفضا لإنكار الآخر وإدانة لانتهاك حقوق الإنسان وترويعا لكل من يحاول أن يبرر ما كان أو أن يستعيد ما كان. بل إن أفكار اليسار فرضت نفسها على الخصم المتجبر فما لبث أن ردد – وإن على استحياء – بعضا مما يقولون..

ويمضى طابور المعذبين أمام ناظرى لأراهم وهم تحت وطأة التعذيب يخفون آلامهم ويقهرون صرخاتهم، بل وأحيانا يدارون ابتسامات تسخر من هذا الجبروت الغبى الذى لا يعرف أن المعتقد يحمى صاحبه من الخذلان. وأن التعذيب يمتلك مذاقاً خاصاً إذ تصمد وكأنك مع كل ضربه تناجى مصر وتبلغها حبك.. ألم يقل الشاعر وهو مطعون برمح ومضروب بسيف مناجيا معشوقته:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل منى

وبيض الهند تقطر من دمى

فوددت تقبيل السيوف لأنها

لمعت كباسم ثغرك المتبسم

ناضلوا، صمدوا، احتملوا، حملوا عشقهم لمصر وللشعب فوق هاماتهم.. ولم يطلبوا شيئا ولم يتباهوا حتى بصمودهم. لقد فعلوا ما وجب أن يفعلوا واكتفوا بذلك دون زهو أو حقد أو طلب لمغنم.

يحكيك من شهد الوقيعة أننى
أغشى الوغى وأعف عند المغنم

ولهذا كانت الكتابة درساً للمناضلين.. وأعف عند المغنم. وقدوة لهم.. وأعف عند المغنم. ونموذجا للنضال اليسارى.. وأعف عند المغنم.

ولهذا كان من المحتم أن نحاول استكمال الكتابة عن هؤلاء الرجال والنساء الذين فعلوا ما هو أكثر من المستحيل لخدمة الوطن والمعتقد والشعب وهؤلاء الذين بذلوا أجمل سنوات حياتهم فى زنازين نازية وتحملوا فوق ما يحتمل البشر، منحوا وطنهم طاقات ضوء يسارى توزعت أشعته فى قلوب تعلمت كيف تعشق العدل والحق والحقيقة وكيف تناضل من أجلها.. وتمسكت بما تعلمت ففرضت على الجميع حكاما ومحكومين نماذج من التعامل تفسح هامشاً من الفعل الديمقراطى. ليس كافيا لكنه لم يكن ممكناً فى الزمان القديم. فمن أين أتى هذا الفيض؟ إنه ثمرة الصمود اليسارى الذى لقن الحكام أن تجاهل الديمقراطية سوف يسوقهم إلى حمى النازية وأن الجماهير قد تلقنت فنون الاحتمال. والكبرياء. والعناد.

أرى العنقاء تبكر أن تصادا
فعاند ما استطعت له عنادا

* * *

ثمة مئات آخرون من أبطال يساريين الكتابة عنهم والتعلم على أيديهم طقس وطنى واجب الأداء ودرس يستحق الاستيعاب، ولهذا كان كل ما سبق هو مجرد الجزء الأول من مسيرة اليساريين.

ولهذا كان من الضرورى أن أحاول استكمال الجزء الثانى الذى اكتمل منه جزء كبير، ولهذا فإننى أستصرخ الكتاب والباحثين والمناضلين اليساريين أن يسهموا هم أيضاً فى استكمال الكتابة عن هؤلاء المناضلين.

فهم يستحقون..

ومصر تستحق أن يدون هذا الجزء العزيز من تراثها..

والجيل الحاضر والأجيال القادمة تستحق أن تتعلم كيف كان النضال وكيف يكون.

* * *

على أننا نخالف الحقيقة مخالفة جسيمة إذا قدمنا اليساريين المصريين على أنهم مجرد

أشخاص احتملوا العذاب والتعذيب فى سبيل المبدأ، وتحملوا سنوات طوال من السجن فى جلد وصبر. ذلك أن اليسار المصرى كان، وعلى مدى القرن الماضى وقبله وبعده، قادراً على الإسهام فى تشكيل ملامح الفكر والفن والعلم ومختلف مجالات الإبداع بأسلوب تقدمى وعلمى وعقلانى طوال مراحل تكونه الحديث وفى مختلف معالمه وفروعه.

لم يكن اليسار المصرى مجرد مكياج مختلف على الوجه المصرى. أو حتى محاولة سطحية لتجميله. بل كان عنصراً فاعلا فى تكوينه وتغيير معطياته باتجاه ليبرالى وتقدمى وعقلانى. وظل الوجود اليسارى وسيظل جزءاً أصيلا من الوجدان المصرى ومن عقله المتفتح والمنفتح.

إن وقفة تأمل تمنحنا كماً مثيراً للدهشة من التفاعل اليسارى مع العقل المصرى ومن التأثير فيه والتأثر به فى وجود جدلى دائم ومستمر، إن محاولة استعادة الأسماء التى كتبت على جدران الوطن وزينت حوائطه فى مختلف المجالات تعطى صورة غير قابلة للنسيان عن الوجود اليسارى المتفاعل تأثيرا وتأثرا فى تاريخ العلم والعقل والفكر والسينما والمسرح والشعر والصحافة والرسم والكتابة التاريخية وغيرها من مجـ لات العلم الفكرى والسياسى والعقلانى.

وإذا كان جان جاك روسو قد أعلن أن بناء النهضة الحقيقية لأى أمة يقوم عى أساس الموسوعات والموسوعيين، فإن التأمل فى طابور المفكرين اليساريين الموسوعيين سيعطينا إحساسا بأن الفكر الموسوعى كان منتسبا وبشكل شبه حصرى لليسار. فشبلى شميل ويليه فرح أنطون ونقولا حداد ورفيق جبور ثم إسماعيل مظهر وسلامة موسى وعبد الله عنان كانت كتاباتهم الموسوعية جزءاً أساسيا من بناء العقل المصرى ولم تزل كذلك، وستظل. ويتواصل العطاء اليسارى فى سجل الموسوعات ليصل بنا إلى مفكر صامت وفاعل وربما لم يسمع به الكثيرون هو سعد الفيشاوى الذى اختبأ عن أنظارنا سنين طوالا لينتج موسوعته الرائعة «موسوعة العقائد الدينية» وينجزها فى عام ٢٠٠٧، وما إن تصدر حتى يلتقط آخر ما تبقى من أنفاس ويرحل.

فإذا ما جئنا إلى مختلف مجالات العلوم والإبداع وحتى الفقه نجد أسماء بغير حصر قدمت لمصر إبداعات فى مجالات تجديد الفكر الدينى والاقتصاد والفلسفة والأدب والقصة والمسرح والسينما وعلوم الهندسة والرياضيات.

ولو أردنا السرد لاستغرقنا عديداً من الصفحات ولنسينا عديداً، من المئات فقط نتذكر بعضاً من الرموز نوردها عفو الخاطر ودون ترتيب: الشيخ د. سعاد جلال عضو هيئة كبار العلماء، الشيخ صفوان أبو الفتح، الشيخ أبو الحسن الغنيمى، عبد الرحمن الشرقاوى،

عبد الرحمن الخميسى، محمود رمزى نظيم، فؤاد حداد، كمال عبد الحليم، أحمد فؤاد نجم، سمير عبد الباقى، د. فؤاد مرسى، د. إسماعيل صبرى عبد الله، د. رمزى زكى، أحمد كامل مرسى، أحمد بدرخان، صلاح أبو سيف، يوسف شاهين، خالد يوسف، أحمد عقل، محمود أمين العالم، د. عبد العظيم أنيس، د. ميلاد حنا، د. فايق فريد. صاروخان، زهدى، جاهين، حجازى عبد السميع، عبد المنعم القصاص، عبد الغنى أبو العينين، جمال كامل، حسن فؤاد، فؤاد كامل، التلمسانى، صلاح السقا، رؤوف، رمسيس يونان، أحمد رشدى صالح، صلاح حافظ، لطفى الخولى، فتحى الرملى، محمد عودة، محمد مندور، لويس عوض، مجدى وهبة، مراد وهبة، وأدرك يقينا أن قامات بالغة الأهمية وربما أكثر أهمية قد غابت فى غابة تزاحم أسماء لا تنتهى.

وعلى أى حال استطالت الكتابة، ومهما تنوعت، فإنها لن تستطيع أن تستوعب بعضا من منارات يسارية فى مختلف المجالات أسهمت فى بناء الدولة المدنية المصرية فكرا وعقلا وعلما وفنا، وكانت كل قامة من هذه القامات نواة تجمع حولها تلاميذ وحواريون أسهموا فى خلق الصورة التقدمية للوطن المصرى عبر إبداعات لا تنتهى.

ولعل أهم إبداعات الفكر السياسى اليسارى فى مصر هو الخروج من شرنقة الحزب علنيا كان أو سريا نحو آفاق من العمل الجماهيرى من المنظمات النقابية والتجمعات الجماهيرية والأندية الثقافية والأدبية بحيث يصبح الفعل التنظيمى ملتصقاً بفعل جماهيرى ونقابى وثقافى يستوعب مساحات جماهيرية أوسع. أما الإبداع الثانى والأهم فهو ما تجاسرت فأسميته «التناقض المتداخل» والذى كان المحور الأساسى لرسالة دكتوراه العلوم التى أعددتها تحت عنوان «اليسار المصرى كيف أثر فى مصر وكيف تأثر بها»، وتقوم الفكرة على أساس قدرة اليسار المصرى على امتلاك آليات للتداخل العضوى والفكرى مع طرف آخر قد يكون مختلفاً أو حتى قد يكون خصما، ومن خلال هذا التداخل وعبر مسار فكرى جدلى وفلسفى استطاع اليسار (منظمة طليعة العمال) أن يتداخل مع مسيرة حزب الوفد فى أربعينيات القرن الماضى ليؤثر فيه تأثيراً عضوياً؛ إذ تتشكل عبره «الطليعة الوفدية» التى أصبحت جناحاً يسارياً فى الحزب، ومن ثم فتحت أبواباً للتحالف، أو بالدقة شبه التحالف مع اليسار فى عمل وطنى جماهيرى واسع المدى وواسع التأثير وهو «اللجنة الوطنية للطلبة والعمال» التى قادت مظاهرات من مئات الألوف من المتظاهرين فى القاهرة (٢١ فبراير) والإسكندرية (٤ مارس) وفى مظاهرات وطنية صاخبة فى الجامعات والمدارس طوال عامى ١٩٤٦ – ١٩٤٧.

وتمتد فكرة التناقض المتداخل لتتضح أكثر فى العلاقة بين اليسار وعبد الناصر. ففيما كان عبد الناصر يعذب السجناء الشيوعيين تعذيبا وحشياً كان يلتقط من أدبياتهم وكتاباتهم واجتهاداتهم الفكرية عديداً من الأفكار التى دفع بها إلى التطبيق بعد تحويرها لتتلاءم مع عقلية البرجوازية الصغيرة. ولعل مطالعة متأنية للميثاق سوف نكتشف حديثا عن إذابة أو تقريب «الفوارق بين الطبقات» بدلا من «إلغاء» هذه الفوارق، وتعبيرات تقترب من «الصراع الطبقى» ومن «الاشتراكية العلمية» ومن التفكير الجدلى.

ومن الطبيعى أن يكون هذا التأثير متبادلا. ولعل هذا التأثر بالناصرية من جانب اليسار قد تجاوز حدوده ليتمثل فى قرارات حل الحزب.

لكن هذه الفكرة الفلسفية والعملية لم تزل تتجلى كأحد مميزات اليسار المصرى، فما كان لعبد الناصر أن يتقارب من فكرة ويرسخها فى كتابات وإنجازات لولا أن أصحابها قد تألقوا بها قولا وفعلا. دون أن ننكر أثر العلاقة بين عبد الناصر والمعسكر الاشتراكى.

وباختصار كان اليسار المصرى، وأعتقد أنه لم يزل وسيظل، جزءاً أصيلا من مكونات العقل المصرى والفكر المضىء فيه بالتقدمية والليبرالية واحترام العقلانية وثمارها المبدعة.

فالفكر اليسارى وكذلك الفعل لم يكن مجرد مكياج جرى تزيين وجه مصر به فى زمن كان ثم انقضى. بحيث يمكن الاغتسال منه. إنه وشم لا يمحى لأنه جزء من مكونات العقل المصرى وهو مكون مبدع وخلاق ومتداخل فى نسيج الوجدان المصرى بحيث يظل قادراً على البقاء والتأثير حتى لو تبدى وكأنه يتوارى أو ينكمش.

وإلى لقاء فى مجلد ثان عن مناضلين يساريين لم يزالوا ينتظرون أن نكتب عنهم فى طابور لا ينتهى بل متجدد.

المحتوى

- إهـــداء 7
- اعـتـذار........ 9
* **البدايات الأولى** 15
- رفاعة الطهطاوى 17
- عبد الله النديم 25
- شبلى شميل 33
- ولى الدين يكن 39
* **المؤسسون** 45
- فرح أنطون 47
- نقولا حداد 53
- رفيق جبور 59
- سلامة موسى 65
- مصطفى حسنين المنصورى 71
- جوزيف روزنتال 77
- السعيد الصبرى 85
- حافظ سند 89
- محمود حسنى العرابى 93
- عبد الرحمن فضل 97
- محمد دويدار 103
- الشيخ صفوان أبوالفتح 107
- شعبان حافظ 111
- عصام الدين حفنى ناصف 115
* **ملاحق** 161
- محضر نقاش رقم (١)
مع عصام الدين حفنى ناصف 163

- محضر نقاش رقم (٢)
مع الأستاذ عصام الدين حفنى ناصف 167
- جورج حنين 169
- أنور كامل 173
- رمسيس يونان 177
- فؤاد كامل 183
- كامل التلمسانى 187
- لطف الله سليمان 191
- فتحى الرملى 195
*** إعادة التأسيس** 201
- بول جاكو 203
- صادق سعد 209
- يوسف درويش 215
- محمد يوسف المدرك 221
- محمود العسكرى 227
- أبو سيف يوسف 231
- حلمى يسن 235
- د. عبد الكريم السكرى 241
- مارسيل تشيريزى (إسرائيل سابقا) 245
- جورج بوانتيه 259
- هنرى كورييل 263
- وثيقة قضائية (كمعلومات تكميلية) 269
- ديدار فوزى 277
- شحاتة هارون سلفيرة 281
- د. مصطفى هيكل 287
- هليل شوارتز (وثيقة تكميلية) 293
- هليل شوارتز محضر تحقيق النيابة 295
- دار الأبحاث العلمية (وثيقة تكميلية) 303
- مبارك عبده فضل 309

- فوزى جرجس 315
- عبده دهب حسانين 319
- زكى مراد 323
- محمد خليل قاسم 329
- سيف صادق 335
- ألبير آرييه 339
- صابر زايد 343
- سيد سليمان رفاعى 347
- د. حمزة البسيونى 353
- محمد حمدينو 359
- محمد شطا 363
- ريمون أجيون 369
- د. فؤاد مرسى 373
- مصطفى طيبة 379
- إنجى أفلاطون 383
- ثريا أدهم 387
- انتصار خطاب 393
- عظيمة الحسينى 397
- ليلى الشال 401
- ثريا إبراهيم 407
- فتحية العسال 411
- أحمد الرفاعى 417
- أحمد الرفاعى (مذكرات) 423
- محمود أمين العالم (دراسة) 441
- ليس بعد 461